

الآلئ الأخلاقفة لنفل المربة الإلهفة

(الجزء الأول)

البرنامج الوطني لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر (بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشؤون الفنية)

محمد، وردة يحيى عبد الغني.
الآلئ الأخلاقية لنيل المحبة الإلهية / تأليف: وردة يحيى عبد الغني محمد
القاهرة: دار زحمة كتاب للثقافة والنشر، ٢٠٢١ .

٤٢٢ ص؛ ١٧* ٢٤ سم -

تدمك 2-254-835-977-978

١ - الأخلاق الإسلامية

أ- العنوان

رقم الإيداع / 14199 التاريخ: 2021/6/9

اسم الكتاب: اللآلئ الأخلاقية لنيل المحبة الإلهية

التأليف: وردة يحيى عبد الغني محمد

إخراج فني: سالم عبد المعز (عمرو سواح)

رقم الإيداع: 2021 / 14199

الترقيم الدولي: 978-977-835-254-2

الناشر: دار زحمة كُتَاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق - مول الهريلا ند - مصر الجديدة - مصر

دار زحمة كُتَاب للنشر Facebook 

Email  za7ma-kotab@hotmail.com

Tel  002 01205100596

002 01100662595



جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار زحمة كُتَاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

الآلئ الأخلاقفة لنفل

المحبة الإلهفة

الجزء الأول

تألف

وردة فففى عبء الفنى محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

سُورَةُ طه

الإهداء

أهدي عملي هذا إلى معلم الأمة النور المبين.. الصادق الأمين
خاتم الأنبياء والمرسلين الحبيب (محمد رسول الله ﷺ).
وإهداء إلى والدي ووالدتي.. أسأل الله ﷻ أن يمن عليهما بطاعته
ورضاه وأن يدخلهما جنات الفردوس.
وإهداء إلى زوجي وإخوتي وأخواتي.. أسأل الله ﷻ أن يرشدهم إلى
الطريق المستقيم.
وإهداء إلى أبنائي وبناتي أسأل الله أن ينير طريقهم ويعينهم على
طاعته، وأن يجعل حياتهم آمنة مطمئنة.
وإهداء إلى أساتذة جامعة الأزهر كلية البنات الأزهرية بالمنيا
الجديدة، ومدير كلية البنات وإلى كل من ساعد على نشر هذا الكتاب.
وإهداء إلى كل شاب وشابة كبير وصغير من أهل الأديان السماوية
أسأل الله أن ينفعهم بهذه اللآلئ الأخلاقية لعلها تكون سببًا في
سعادتهم في الدنيا والآخرة.

للعلم خلقنا وخلقنا سأل أزال أجتهد وأجتهد
حتى أصل إلى رضا المحبوب تعالى
سيراً وراء سيد المرسلين لنيل الشفاعة
العلم نور يتلأل في الآفاق
يصل بالعالم ويرفعه إلى أعلى الدرجات
اسألوا من سلك طريقه بما نال من الكرامات
قرآننا خير علم يخرج الناس من الظلمات إلى النور
ظلمة الجهل ونور العلم يا علماء

أشكر الله العلي الكبير أن ألهمني هذه الكلمات لتكون دعوة ورسالة للعلم والتعلم
والوصول إلى رضا الحبيب تعالى فكتاب الله خير علم نزل، فمن أراد علم الأولين
والآخرين فليتدبر القرآن.

وردة يحيى عبد الغني محمد

تقديم

الحمد لله تعالى كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على خير خلقه وأنبيائه سيدنا محمد ﷺ الذي كان خلقه القرآن، القائل: "أدبني ربي فأحسن تأديبي" ورضي الله تبارك وتعالى عن آل بيته الطيبين الطاهرين وعن صحابته أجمعين الذين كانوا للدين دعاة وللقرآن حفظاً وحماة.

وبعد،

فليس هناك أجهل ولا أفيد ولا أجدى ولا أنفع من التحلي بمكارم الأخلاق، والتمسك بجميل الصفات، والعمل بما تضمنته الآيات الكريئات، فديننا الحنيف يدعونا للفضائل، ويحثنا على المكارم، ويحفزنا للخيرات، ويحذرنا أيضاً من الرذائل، وينفرنا من الآثام، ويحرم علينا اتباع الهوى الشهوات، وكل ذلك لتنجو من الردى، وتبتعد عن الزلل، وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣)

[سورة فصلت]، والواقع أن هذا الكتاب الجليل "الآلئ الأخلاقية لنيل المحبة الإلهية" لمؤلفته المتميزة الداعية الإسلامية الأستاذة "وردة يحيى عبدالغني محمد" يتضمن فضائل عدة ومسائل منتقاة، وقضايا أخلاقية دينية لا غنى عن التحلي بها، دعا إليها ديننا الحنيف، وطبقها المصطفى ﷺ وسار على نهجها الصحابة رضوان الله عليهم، ومن جاء بعدهم وسار على نهجهم، ففازوا برضوان الله تعالى ونالوا الرضى والثواب والجزاء الأوفى.

ما أحرانا أن نتمسك بهذه القيم وأن نسير على الدرب وأن نستلهم الهمم والقيم والمبادئ المثلث لدينا القويم، خاصة وحولنا أمواج متلاطمة وتيارات متباينة، نسأل الله العفو والعافية. وهذا المؤلف في (طبعته الثانية) بذلت فيه المؤلفة جزاها الله خيراً جهداً مشكوراً، وحرصت على تضمينه العديد من القضايا المعاصرة التي تمس واقعنا وحياتنا، فالله أسأل أن ينفع به قراءه وأن يجعله في ميزان حسناتها.

ولمكانة هذا المؤلف وعظيم قدره وأثره فقد نفذت طبعته الأولى نظراً للإقبال الشديد على اقتنائه والاستفادة بما تضمنه، لذا جاءت الطبعة الثانية من الكتاب لتكون امتداداً لهذا المؤلف العظيم حتى يعم النفع وتكثر الفائدة.

وآمل أن يجد فيه القراء بغيتهم، وأن يعثروا فيه على ما يحبون ويرغبون انطلاقاً من المنهج الرباني في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأنعام].

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ﷺ الذي بذكره تتم الصالحات وتحقق الآيات والمعجزات.

بقلم

أ.د / عمر عبدالمعبود عبدالرحمن

عميد كلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة

فرع جامعة الأزهر الشريف

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذى بنعمته تتم الصالحات وبمحبتة تنال الدرجات وبمعرفته تستريح النفوس، وبذكره وأنسه تطمئن القلوب، وبعلمه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولى الصالحين وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ... ثم أما بعد،،،

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات].

هذا تصريح منه سبحانه بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له بالإقبال على الطاعات وأفعال الخير والإعراض عن حظوظ الدنيا لأنها دار نفاق لا محل لإخلاص. ولقد أحسن القائل:

إن لله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال سفنا

فحق على العباد أن يذهبوا بأنفسهم مذهب الأخيار ويسلكوا مسلك أولى النهى والإبصار. وأرشد ما يسلكه من المسالك التأدب بما صح عن نبينا سيد الأولين والآخرين ﷺ الذى وصفه الخالق جل وعلا بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٤) [القلم].

والهدف الأسمى للبعثة المحمدية إنما كان إحياء مكارم الأخلاق .

قال ﷺ: {إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق} (١) .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول فى دعائه: {اللهم اهدنى لمكارم الأخلاق لا يهدينى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت} (٢) .

^١ - أخرجه البخارى فى الأدب المفرد - ص: ٢٧٣ .

^٢ - أخرجه مسلم - ج: ١ - ص: ٥٣٤ .

فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين وثمره مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين .

قال ﷺ: {أفضل المؤمنين أحسنهم خلقاً} ^(١).

فنحن محتاجون لتربية أنفسنا وأولادنا وسائر المسلمين على مكارم الأخلاق .
فكانت هذه فاتحة خير؛ حيث قد وفقني العليم القدير إلى عمل هذا الكتاب وعنوانه {الآلئ الأخلاقية لنيل المحبة الإلهية} .

قال ﷺ: {أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً} ^(٢).

وقال ﷺ: {إن من أحبكم إلى وأقربهم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن من أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون} ^(٣) والمتشدقون ^(٤) والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله ما المتفيهقون ؟ قال: المتكبرون ^(٥) .

فعلمت أنه بالأخلاق الحسنة تنال محبة المولى جل وعلا ومحبة رسوله ﷺ، والخلق كما عرفه الجاحظ قال: {إن الخلق هو حال النفس بما يفعل الإنسان أفعالا بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد أى تطبعاً} ^(٦) .

^١ - صحيح رواه أبو داود - كتاب السنة - ح م : ٦٨٢ ، والترمذي من حديث أبي هريرة

^٢ - رواه الحاكم في المستدرک - ج : ٢ - ص : ٤٤٣ ، والطبرانی في الكبير

^٣ - الثرثارون : الذين يكثر الكلام تكلفاً .

^٤ - المتشدقون : المتكلمون بملء الفم إظهاراً للفصاحة .

^٥ - رواه الترمذي - كتاب البر والصلة من حديث جابر

^٦ - تهذيب الأخلاق للجاحظ - ص : ١٣ .

قال أبو ذؤيب الهزلي:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى القليل تقنع

فالعبد الذى يجاهد نفسه ويرؤضها على حسن الخلق فلا شك أنه يؤجر على ذلك من جهة مجاهدة نفسه، وإن الاعتدال فى الأخلاق صحة للنفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض، كما أن الاعتدال فى مزاج البدن هو صحة له والميل عن الاعتدال مرض فيه. ومن أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليتفقد كل من صفاته وأخلاقه بالاجتهاد فى القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها، فقد روى أن بعضهم رأى رسول الله ﷺ فى المنام فقال: { قد قلت يا رسول الله: شيبتنى هود فلم قلت ذلك؟ قال ﷺ لقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ... ﴾ (١١٢) [هود]، فالاستقامة على سواء السبيل فى غاية الغموض .

إن عملى كأخصائية نفسية وداعية إسلامية كان فاتحة خير بالنسبة لى؛ فإننى من خلال ذلك علمت أن علم النفس الحديث ومكتشفاته وإمكاناته وعياداته النفسية وكشفه عن دخائل الأنفس المريضة لا يستطيع أن يقوم وحده بدور المعالج بل إن الإيمان يلعب دورا هاما فى العلاج وذلك من خلال المشاكل والحالات المتعمقة ... فكانت هذه تحتاج إلى العلاج بالكتاب والسنة، فعلى الأخصائى النفسى والطبيب النفسى أن يكون على قدر كبير من الإيمان والاستمسك بالدين لأن ذلك يكون سببا فى شفاء المريض وليس الاعتماد على العقاقير وحدها يؤدى إلى الشفاء، بل التذكر والرضا والصبر والالتجاء إلى الله بالدعاء والتذكر وغيرها من اللآلئ الأخلاقية تكون سببا فى شفاء المريض من مرضه. أليس هو القائل سبحانه وتعالى:

﴿ وَنَزَّلْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ (٨٢) [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا... ﴾ (١١٢) [طه].

فالله عز وجل هو الشافي وهو المسبب لهذه الأسباب، وعلم النفس وغيره من العلوم مجال للاحترام والتشجيع ولكن الاعتماد عليه وحده لكى يكشف كل غامض هو اعتماد من غير سند أى لا بد من الإيمان لأن علم النفس لا يغنى عن الإيمان .

فالحمد لله الذى وفقنى وهدانى إلى سواء الصراط لعمل هذا الكتاب {اللائى الأخلاقية لنيل المحبة الإلهية} وذلك ليكون نوراً يتلأل على المجتمع بأسره ليخرجهم من كبت الحياة الدنيا إلى سعادة الآخرة، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم بمحبة الخالق جل وعلا. فأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبله منى ويجعله خالصاً لوجهه الكريم فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وأن ينفع به الأخوة والأخوات فى الوصول إلى رضا المحبوب بالاقتراس من هذه اللائى فى مجاهدة النفس لتكون خلقاً لنا والتى هى نقطة فى بحر من أخلاق سيد المرسلين صلوات الله عليه .
أسألكم الدعاء بالتوفيق وقبول العمل وأن أنال المحبة الإلهية .

قال ﷺ: { من لم يشكر الناس لا يشكر الله } فأشكر والدى ووالدتى على تشجيعهم لى وأسأل الله أن يغفر لهما ويرحمهما .

والشكر لمن وفر لى الكتب وخاصة المكتبة الذهبية للشيخ / أحمد محمد أبو الذهب (مفتش بأوقاف المنيا) والشكر لكل من وقف بجوارى وشجعنى على هذا العمل، والشكر لمن ساعدنى فى كتابته من كلمة أو حرف، وأشكر أولادى وأخواتى وكل من وقف بجوارى، والشكر الخاص لابتى / إسراء الغالية التى بذلت جهداً معى لإتمام هذا العمل، أسأل الله أن يجعله فى ميزان حسناتها ... فأسألك اللهم يا ربنا الأمن والأمان وحياة آمنة مطمئنة تكون مليئة بمحبتك وعفوك ورضاك .

أسأل الله العلى العظيم أن يجعل هذا العمل نوراً فى قبرى ونوراً لإخوانى المؤمنين وأن يثقل به موازينى وأن يرفع به درجاتى وأن يكون قربى لى عند الله عز وجل يوم ألقاه .

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل

المؤلفة

الباب الأول

- الفصل الأول: محبة الله تعالى عز وجل.
- الفصل الثاني: الاقتداء بالحبیب ﷺ.
- الفصل الثالث: بر الوالدين.
- الفصل الرابع: صلة الرحم.

الفصل الأول

محبة العبد لله عز وجل

الحمد لله الواحد القهار العزيز الغفار مقدر الأقدار مصرف الأمور مكور الليل على النهار تبصرة لأولى العقول والأبصار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله وصفيه وحيبيه... اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن سار على سنته إلى يوم الدين...

أما بعد،،،

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾

[المائدة: ٥٤]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأجل اللذات وأعلاها} ^(١) .

معنى المحبة:

اسم للحب، والحب هو ودادة القلب وكان زيد بن حارثة رضى الله عنه يُدعى حبَّ رسول الله ﷺ وقيل وهم يتحابون أى يحب بعضهم بعضا ^(٢) .

وهناك لون من الحب يتحكم فيه العقل ولون آخر من الحب لا يتحكم فيه العقل ولكن تتحكم فيه العاطفة:

١- صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب وجوب محبة رسول الله ﷺ - ح م ٤٤ - ص ١٦ . سنن النسائي - كتاب الإيمان وشرائعه - ح م ٥١٣ .
٢- لسان العرب - ص ٢٨٤ .

مثال: عندما نذهب إلى طبيب ويصف لنا دواء مرا غير مستساغ الطعم فيذهب الإنسان الموصوف له الدواء إلى الصيدلية للسؤال عن الدواء فإن لم يجده فهو يلف ويدور ويسأل في كل صيدليات البلد فإن لم يجده فإنه يوصي المسافر إلى الخارج لعله يأتي له بالدواء غير المستساغ الطعم بعاطفته أم بعقله... إنه يقبل على الدواء غير المستساغ الطعم ويحبه بعقله، فالحب العقلي إذن هو إثارة النافع أى كل ما ينفع الإنسان ويجد فيه الخير ويجعله مرتاح النفس والبال .

وعندما يقول الحق: ﴿... فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ [المائدة] أى أنهم يحبون الله بعقولهم وقد يتسامى الحب إلى أن يصير بعاطفتهم، والله عز وجل قد يجرى على أناس أشياء هي شر في ظاهرها ولكنهم يظلون على محبة الله .

ومعنى ذلك أن حبهم لله انتقل من عقولهم إلى عاطفتهم، وسيدنا عمر جرى معه حل هذا الإشكال.. كيف ؟

لقد قال ﷺ: { لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه } . وقال رجل لرسول الله ﷺ أنت أحب إليّ من مالى وولدى ونفسى ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له: أنت أحب إلى من مالى وولدى أما نفسى فلا، وعاد رسول الله ﷺ فقال: { لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه } .

وهنا علم عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ يقصد الحب العقلي لأن عمر رضى الله عنه علم أيضا أن الحب العاطفى لا يكلف به ولذلك قال عمر: الآن أحبك عن نفسى . فرد رسول الله ﷺ: الآن يا عمر . أى كأنه فى هذه اللحظة قد اكتمل إيمان عمر .

وفى الحقيقة أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ولذلك لا يحب الإنسان إلا بعد معرفة وإدراك ولم يتصف بالحب الجهاد بل هو من خاصية الكائن الحى لذلك علينا أن نعرف أسباب المحبة .

أسباب المحبة:

أولاً: حب الإنسان لنفسه:

نجد أن المحبوب الأول عند كل كائن حي هو نفسه وذاته وحبه لنفسه لأن في طبعه ميلاً إلى دوام وجوده. فالإنسان يحب دوام وجوده ويكره الموت والقتل لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا خوفاً من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به ومهما كان مبتلى ببلاء ومحبوه زوال البلاء فإن أحب الموت فإنه لم يحبه لأنه موت بل لأنه فيه زوال البلاء، فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب إذن المحبوب الأول للإنسان ذاته ثم سلامته ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة والمال محبوب لأنه أيضاً آلة في دوام الوجود وحبه لولده بسبب حبه لنفسه فلغرض حبه في بقاء نفسه يجب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه وحبه لأهله وعشيرته وأقربائه يرجع إلى حبه لكمال نفسه^(١).

ثانياً: الإحسان:

إن النفس تميل إلى من يحسن إليها فإن الإنسان عبد الإحسان وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وكره من أساء إليها.

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {اللهم لا تجعل لفاجر علىّ يداً فيحبه قلبي} (٢).

أشار إلى أن حب القلب للمحسن اضطراراً لا يستطع دفعه وهو فطرة لا سبيل إلى تغييرها فحب من ينقذك عند تعرضك لحادث وغيرها من الأعمال الحسنة وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه.

والمحسن هو من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة للوجود فهو يحب المحسن لإحسانه لا لذاته.

١- إحياء علوم الدين - ج ٤ - ص ٢٧٣.

٢- تخريج أحاديث الكشاف - باب سورة المجادلة - ج ٣ - ص ٤٣٢ - ح م ١٣١٤. ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وأسانيده كلها ضعيفة.

مثال:

الطبيب: يكون سببا في دوام صحة الأعضاء ففرق بين حب الصحة وكذلك حب الطبيب الذى هو سبب الصحة، إذن الصحة مطلوبة لذاتها، والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب الصحة، وكذلك العلم محبوب لذاته ولكن المعلم محبوب لكونه سبب العلم. والطعام محبوب لذاته والمال محبوب لأنه وسيلة إلى الطعام.

ثالثا: حب الشيء لذاته:

أى أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقى البالغ الذى يوصف بدوامه، كحب الجمال والحسن، وقد كان النبى ﷺ يعجبه الخضرة والماء الجارى لأن كل لذيذ محبوب.

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {إن الله جميل يحب الجمال} (١).

وكذلك الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وعلى حب الصحابة رضى الله عنهم بل حب أبواب المذاهب مثل الشافعى وحب أصحاب العلم لصورتهم الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة وكذلك من يحب أبا بكر ويحب عليا رضى الله عنهما فلا يحبهم إلا لاستحسان صورتهم الباطنية من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وسائر الصفات الحسنة.

رابعا: تناسب الأرواح:

قال ﷺ: {الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف} (٢).

وهى المناسبة الخفية فى الباطن فلو اجتمعت أسباب الحب هذه فى شخص واحد تضاعف الحب لا محالة كما لو كان لواحد منا ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الوالدين

١- صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب تحريم الكبر - ج ١ - ص ٩٣ - ح م ١٤٧ .

٢- صحيح البخارى - باب كتاب أحاديث الأنبياء - باب الأرواح جنود مجندة - ج ٤ - ص ١٣٣ - ح م ٣٣٣٦ .

كان محبوبا غاية الحب، فإذا كانت هذه الصفات من أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات.

الحب الحقيقي لله عز وجل:

أسعد الخلق حالا في الآخرة أقواهم حبا لله تعالى فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه إلا أن النعيم على قدر قوة الحب فكلما زادت المحبة ازدادت اللذة على قدر قوة الحب .

وقد علمنا أسباب المحبة وتبين أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق الحب الحقيقي إلا الله سبحانه وتعالى فالحب الحقيقي هو لله وحده عز وجل . فالذى عاش في هذه الحياة الدنيا ببصيرة وعلم فطن وعلم أن حب الله عز وجل هو الحب الحقيقي . ولأدرك أن كلمة الحب التى تتردد على اللسان كحب الصديق أو الأخ أو الزوج أو الزوجة أدرك أنها كلمة يتلفظ بها اللسان وأنها كلمة زائلة فانية بمجرد حدوث شجار أو خلاف أو تعدى الأخ على أخيه أو خيانة الصديق لصديقه فتصبح هذه الكلمة وكأنها هباء منثور ويكون مكانها الغل والحقد من كلا الطرفين.

وكذلك الأب والأم وأولادهما فنجد أنهما بمجرد عدم السماع والطاعة من الأولاد وكثرة المشاكل وسوء الأخلاق تجد أن الوالد والوالدة يتمنون بقاء هذا الشخص بعيدا عنهم كما يحدث في هذه الأيام وكذلك الأولاد عندما يكبر الوالد والوالدة فتجدهما يحبون عدم بقائهما في الوجود بل ويذهبون بهما إلى دار المسنين ... فأين هذا الحب ؟ !

فهذا لا يسمى حبا ولكن الحب الحقيقي لله عز وجل الذى إن أمرضك ترضى بهذا البلاء لأنك تعلم أنه ابتلاك لأنه يحبك فيزداد حبك له وترضى بهذا البلاء . فالحب الحقيقي للذى خلقك ولا يريد منك جزاء ولا شكورا.

قال أبو سلمان الدارنى: إن لله عبادا ليس يشغلهم عن حب الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله^(١).

وقال الثورى لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا فى جنته فأكن كالأمير السوء. بل عبدته حبا له وشوقا إليه^(٢).

وإن من لا يحب الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله تعالى لأننا عرفنا أن أسباب الحب وهى حب الإنسان لبقائه وكماله ودوام وجوده وهذا يقتضى غاية المحبة لله سبحانه وتعالى فإنه من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكماله وجوده من الله وإلى الله، فهو سبحانه المخترع الموجد له وهو المبقى له.

وقال على بن الموفق: رأيت فى النوم كأنى دخلت الجنة فوجدت رجلا قاعدا على مائدة وملكين عن يمينه وشماله يلقيانه من جميع الطيبات وهو يأكل، ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضها ويرد بعضها. قال: ثم جاوزتهما إلى حديقة القدس فرأيت فى سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطوف فقلت لرضوان: من هذا. قال: معروف الكرخى عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة^(٣).

ولذلك قال الحسن البصرى: من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها ومن خلا عن حب ربه فلائنه اشتغل بنفسه وشهواته ومحسوساته، فهو تشبه بالبهائم فى التنعم بالشهوات أمام من زهد فى الدنيا وأحب ربه فهو تشبه بالملائكة^(٤).

١- مختصر منهاج القاصدين - باب فصل فى بيان إن أجل اللذات - ج: ١ - ص: ٣٤٣.

٢- كتاب الترغيب والترهيب من الحديث الشريف - ج: ٤ - ص: ٣١.

٣- قوت القلوب فى معاملة المحبوب - باب ذكر أحكام المحبة ووصف أهلها - ج: ١ - ص: ٢٣١.

٤- ندرة النعيم فى مكارم الأخلاق - باب من الآثار وأقوال العلماء - ج: ٨ - ص: ٣٦.

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار} (١).

وأجلُّ اللذات وأعلاها معرفة الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم وهذه غريزة تسمى النور الإلهي لقوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ...﴾ [الزمر]. وقد تُسمى نور الإيمان واليقين. وغريزة العقل هذه صفة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وإن طال فكره في معرفة الله تعالى قد ينكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير.

ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي: قال له: يا أبا محفوظ أخبرنا عن أى شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق. فسكت. قال: ذكر الموت. فقال: وأى شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ. فقال: وأى شيء هذا. إن هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة فكافك جميع هذا (٢).

فيجب استمتاع القلب. فلذته في لقاء الله تعالى وفي معرفة الله تعالى. أما لذة الأكل والشرب والجماع فإن الجنة معدن تتمتع الحواس فقط وقيل في الخبر المشهور إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلا يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت الآن فاقبض.

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاث نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم ما الذى بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار. فقال: حقا على الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاث آخرين. فإذا هم أشد نحولا وتغيرا. فقال: ما الذى بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشوق إلى الجنة. قال: حق

١- صحيح البخارى ومسلم - كتاب الإيمان - باب حلاوة الإيمان - ح م ١٦ .

٢- قوت القلوب في معاملة المحبوب - باب ذكر أحكام المحبة ووصف أهلها - ج: ٣ - ص: ٩٣ .

على الله أن يعطيكم ما تريدون. ثم جاوزهم إلى ثلاث آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن وجوههم المرائى من النور فقال: ما الذى بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: نحب الله عز وجل فقال: أنتم المقربون أنتم المقربون (١).

الأسباب المؤدية لحب الله تعالى:

أولا: قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب:

قال تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ... ﴿٤﴾ [الأحزاب]. وقال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف].

وهو معنى قول لا إله إلا الله أى لا معبود ولا محبوب سواه. وقال ﷺ: { من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة } (٢).

ومعنى الإخلاص: أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه ومن كان هذا فالدنيا تعتبر سجنا له لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه، وموته خلاصه من السجن وقدمه على المحبوب فإن أحد أسباب ضعف حب الله تعالى فى القلوب قوة حب الدنيا ومنها حب المال والأهل والولد والأقارب والعقار والبساتين.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْتَفِضُوهُ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة].

وروى فى أخبار داود عليه السلام أن الله أوحى إليه: تزعم أنك تحبني فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك، فإن حبي وحبها لا يجتمعان (٣).

١- كتاب مفاتيح الغيب - باب التفسير الكبير - ج: ٤ - ص: ٣٧٦.

٢- صحيح الجامع الصغير وزيادته - ج: ٣ - ص: ٢٠٩٨ انظر الصحيحة ح م: ٢٣٥٥.

٣- كتاب الترغيب والترهيب - ج: ٣ - ص: ٣٤٥.

وقال أبو سلمان: من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه ^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ^(٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا [الذاريات: ٥٧].

فأنت أيها الإنسان مخلوق للعبادة والطاعة وهذا كله يكون عائداً على نفسك فالله عز وجل غني عن العالمين.

ولو أن إنساناً قدم لك خدمة مساعدة في أشد الأوقات وأنت كنت محتاجاً إليها فجاء شخص فأنقذك من الموقف فإنك تحبه وتريد أن تقدم له أى مساعدة فما بالك بالله العزيز الحميد الذى يعطيك نعماً لا تحصى ولا تعد وأنت جنين فى بطن أمك إلى وفاتك فإنه خلقك وشق سمعك وبصرك بحوله وقوته.

فعليك أخى المؤمن وأختى المؤمنة بمحبة الله تعالى بالقرب منه عز وجل لأنه تعالى قريب منك أيها المؤمن فكل حركة منك بقدرته، وبنوره تعالى تبصر وبلطفه تسمع فالخى القيوم معك فى كل وقت وكل حين، فإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله فلن ينفعك إلا الله عندما توضع فى قبرك وتنام على شقك الأيمن ويوضع الخد الشريف على التراب وتنام نومة لا تقلب بعدها إلى يوم القيامة وتلبس ثوبا واحدا لا تغيره صيفا ولا شتاء وهو الكفن وعندما تدفن فى التراب وليس معك جليس ولا أنيس ولا صديق ولا رفيق ينادى عليك القبر كل يوم ويقول لك: أنا بيت الوحدة أنا بيت الدود أنا بيت الظلمة أنا بيت الوحشة أنا بيت التراب يا ابن آدم لا تتكبر على ظهري لأنى سأضمك غداً فى بطنى.

فأخى المؤمن أختى المؤمنة الدنيا ساعة اجعلها طاعة والنفس طماعة عودها القناعة فعليك بمداومة محبة الذى خلقك فسواك فعدلك محبة الذى خلق السموات والأرض الذى يكشف سوء عمن ناداه ولا تجعل الدنيا تترعب على قلبك فتثقله وتقتله بشهواتها ولذاتها.

١- قوت القلوب فى معاملة المحبوب - ج: ٣ - ص: ٩٤.

حكى أن رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه وقال له: يا أمير المؤمنين لقد اشتريت داراً وأريد أن تكتب لى عقد الشراء بيدك. فوجد سيدنا على أن الدنيا قد تربعت على قلب الرجل حتى أنسته ذكر ربه فأراد أن يعلمه الوفاء بالعهد الذى أخذه الله علينا ونحن فى عالم الذر:

﴿.....أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

فماذا يفعل أمير المؤمنين؟ يريد أن يلحق الرجل درساً فى ذكر مولاه وعدم نسيانه، فإن حب الدنيا زاد عنده حتى أصبح فى قلبه ودمه. أمسك الإمام بقلمه وقرطاسه وكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم:

فقد اشترى ميت من ميت داراً تقع فى بلد المذنبين وسكة الغافلين لها أربع حدود:

الحد الأول: الموت، الحد الثانى: القبر، الحد الثالث: الحساب، الحد الرابع: إما جنة وإما نار.

كما يريد الواحد القهار.

ونظر الرجل إلى عقد الشراء فحزن، فقال: يا أمير المؤمنين جئت إليك لتكتب لى عقد شراء دار فكتبت لى عقد شراء مقبرة. فقال له الإمام كلمات أصبحت مثلاً:

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التى كانت قبل الموت بينها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التى كانت مسطنة حتى سقاها بكاس الموت ساقها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها
كم من مدائن فى الآفاق قد بنيت أمست خراباً وأفنى الموت أهلها

ثانيا: قوة معرفة الله تعالى واستيلاؤه على القلب وذلك بعد تطهير القلب من شوائب الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَأَعْمَلُ الصَّالِحِ يُرَفِّعُهُ...﴾ [فاطر].

ثم إدامة طهارته وتحصين المعرفة بالفكر الصادق والذكر الدائم والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت السموات والأرض وسائر المخلوقات.

مثال:

فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوضة، على قدر صغرها ننظر كيف خلقها الله تعالى على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات إذ خلق لها خرطومًا مثل خرطومه وخلق لها على شكلها الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين وشق سمعه ثم انظر كيف أنبت لها آلة الطيران وكيف هداها إلى مسام بشرة الإنسان حتى تضع خرطومها ثم كيف قواها حتى تغرز فيه الخرطوم وخلق لها السمع الذى تسمع به حفيف حركة اليد.

وأوحى الله تعالى إلى داود: لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم ورفقى بهم وشوقى إليهم ترك معاصيهم لامتوا شوقا إليّ وتقطعت أوصالهم من محبتي^(١).

فعلينا بمحبة الله عز وجل، فكان رسول الله ﷺ يكثر من دعائه ويقول: "اللهم إنى أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذى يبلغنى حبك، اللهم اجعل حبك أحب إليّ من نفسى، وأهلى، ومن الماء البارد".

علامة محبة العبد لله عز وجل:

أولا: حب لقاء الله وترك الدنيا:

اعلم أن المحبة يدعيها كل واحد منا وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى فلا يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة،

١- كتاب فتاوى الشبكة الإسلامية - ج: ٣ - ص: ٢١٢٩ والحديث ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين ولم يذكر له سنداً ولم يعلق عليه الحافظ العراقي.

والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح، فالمحبة أعظم محركات القلوب فهي الباعث الأول للأفعال والترك فإذا امتلأ القلب بمحبة الله بسبب العلوم النافعة والأعمال الصالحة كمل أنسه وطاب نعيمه وسلم من التعلق بسائر الشهوات وهان عليه فعل سائر الكربات.

قال ابن القيم عن محبة الله عز وجل: {وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه فإن المحب لمن يحب مطيع وكلما قوى سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخافة أقوى} (١).
وحب لقاء الله تعالى من أنفع الأدوية للقلوب.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: {من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه} (٢).
وقال ابن القيم رحمه الله: {صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه إلى الله وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته واستحدثت همه أخرى وعلوم أخرى} (٣).

فعلى المؤمن أن يستعد للقاء الله تعالى بمحبته الخالصة وذلك بفعل الطاعات والبعد عن الشهوات وترك حب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال لأنه إن تعلق بذلك فهذا ينافي كمال حب الله تعالى لأن الحب هو الذي يستغرق كل القلب والناس متفاوتون في الحب، ولذلك روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى؟ فقال: والله لقد أنكحته إياها وإنى لأعلم أنه خير منها. قالوا: كيف وهي أختك

١- طريق الهجرتين لابن القيم - ص ٢٩٧.

٢- صحيح البخارى - كتاب الرقاق- باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه - ج ١ - ص ٣٦٥ - ح م: ٦١٤٢.

٣- خطوات إلى السعادة - ج: ١ - ص: ٣٠.

وهو مولى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله من كل قلبه فليُنظر إلى سالم^(١).

ثانياً: حب ما يحبه الله:

من علامات محبة الله تعالى أن يكون العبد في ابتداء المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على ضعف الحب لأن من علامة حب الله حب ما يحبه الله وحب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله ﷺ وحب كل ما ينسب إليه.

وحكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلاً ونهاراً ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة فسمعت قائلاً يقول في المنام: إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعدت إلى حالي^(٢).

وقال ابن مسعود: لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فهو لا يحب الله^(٣).

وقال سهل رحمه الله تعالى: علامة حب الله تعالى حب القرآن وعلامة حب القرآن وحب الله تعالى حب النبي ﷺ وعلامة حب النبي حب السنة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزاد والبالغة^(٤).

محبة الله للعبد:

المراد بحب الله: هو دوام فيوضاته على من يحب. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالحق يلقاه في أحضان نعمه ويتجلى عليه برويته.

١- إحياء علوم الدين - ج: ٥ - ص: ٢٣٦١ .

٢- إحياء علوم الدين - ج: ٤ - ص: ٣٣٢ .

٣- منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب - ج: ٣ - ص: ٥٩٥ .

٤- فيض القدير في شرح الجامع الصغير - ج: ٣ - ص: ٦٦ .

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ...﴾ [يونس: ٦١] والحسنى هي الجنة، أما الزيادة فقد قال المفسرون إنها رؤية المحسن، فصفة المحبة لله ثابتة بالكتاب والسنة وجميع السلف، فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿... يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ [المائدة: ٥٤] ومن السنة قول النبي: {إن الله إذا أحب عبدا نادى يا جبريل إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادى جبريل في السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض} (١).

وأجمع السلف على ثبوت المحبة لله عز وجل وأنه تعالى يحب ويحب (٢). وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقال ﷺ: {إن العبد لا يزال يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به} (٣). والقرب من الله في البعد عن صفات البهائم والشياطين والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية والتي بعث بها رسول الله ﷺ. قال ﷺ: {إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق} (٤). ومحبة الله للعبد هي تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه من كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه (٥).

قال ﷺ: {إذا أحب الله عبده ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه} (٦). فالله عز وجل إذا أحب عبده نور طريقه بكتابه المبين الذي جعله هدى للمتقين فيكون هداية له ودلالة على الطريق الذي يوصله للفوز بالدارين دار الدنيا والدار الآخرة.

١- الفردوس المأثور الخطاب - باب الألف - ج: ١ - ص: ٢٥٠.

٢- تفسير الشعراوي - المجلد الخامس - ص ٣١٢.

٣- صحيح البخارى - كتاب الرقاق - باب التواضع - ح م: ٦٥٠٢.

٤- صحيح البخارى - كتاب المناقب - باب صفة النبي ٨ - ج ١ - ص ١٦ - ح م: ٣٣٩٨.

٥- إحياء علوم الدين - ج ٤.

٦- كتاب المغنى، حمل الانتقال في الأسفار - باب الصبر والشكر - ج: ١ - ح م: ١٦١٤.

الفصل الثانى

الافتداء بالحبيب ﷺ

الحمد لله رب العالمين، الذى منَّ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين، وأشهد أن لا إله إلا الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، وأشهد أن سيدنا وحبيبا ومعلمنا وقدوتنا محمد ﷺ اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الذين عزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ومن ساروا على سنته ومنهاجه إلى يوم الدين.

أما بعد

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ (١١) [الأحزاب].

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: {إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق} (١).

الافتداء بالحبيب ﷺ:

محمد ﷺ شخصية جديرة بالافتداء بها وبأن تكون ذكراها حية نابضة في كل قلب وجديرة بأن يقتبس الناس من شمائلها وفضائلها ما يصلح دنياهم وأخراهم لأنه خير خلق الله وأفضل خلق الله. فالذى يقتبس من نوره ويهتدى بهديه يكون من الفائزين في الدنيا والآخرة، حيث جعل الله سبحانه وتعالى الفلاح والسعادة في الإيمان بسيدنا محمد ﷺ ونصرته واتباعه فينبغى علينا أن نحيا سنته ﷺ ونهتدى بهديه وأن يكون الأسوة الحسنة التى يجب علينا الاقتداء بها .

قال تعالى: ﴿... فَأَلْذِيتْ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧) [الأعراف].

وجعل الذل والصغار على من خالف أمره وتوعد من عاداه بالعذاب الأليم.

^١ - أخرجه البخارى في الأدب المفرد - باب حسن الخلق - ج ١ - ص ١٠٤ - ح ٢٧٣

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٤) [النساء].

فسارع أيها المؤمن إذا كنت حقا من المؤمنين إلى الاستجابة لما يأمر به الله سبحانه وتعالى وما ينهى عنه.

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) [الأنفال].

فهذا رسول الله ﷺ جاء ليحيى القلوب الميتة بنور الإيمان والعلم والأخلاق السمحة التى تعلو بالإنسان إلى أعلى عليين. فعلى المؤمن أن يسير على سنته ومنهاجه واتباعه ونصرته صلوات الله وسلامه عليه حتى يكون من المفلحين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥٢) [النور].

وعن جابر بن عبد الله قال: { جاءت ملائكة إلى رسول الله ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مائدة وبعث داعياً فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المائدة ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة. فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فالدار الجنة والداعى محمد ﷺ فمن أطاع الداعى محمداً ﷺ فقد أطاع الله ومن عصا محمداً ﷺ فقد عصى الله } (١).

فما أحوجنا أيها الأخوة في هذه الأيام إلى العودة إلى تعاليم الإسلام نجعلها دستور حياتنا في التعاملات والمعاملات في الأسرة وفي المجتمع فتتخلق ونقتدى بأخلاق رسول الله ﷺ الذى كان خلقه القرآن ونتأدب بآدابه. فعلينا بالعودة إلى القيم النبيلة التى جاء بها نبي الإسلام محمد ﷺ فهو خير قدوة وخير أسوة لنا.

١- رواه البخارى - كتاب الاعتصام.

يا حبيبي يا رسول الله

أنت الحبيب الذى ختم الرسالات وجاء يهديننا نور النبوات
أنت الشفيع الذى سعد الأنام به من سار فى هديه نال الكرامات
فهو الرسول الخاتم الذى كان يوم مولده نقطة تحول هائلة فى تاريخ الإنسانية وفاتحة خير على الدنيا
بأسرها من شرقها إلى غربها فأشرقت الأرض بنور ربها وتهاوت وسقطت قلائع الشرك والوثنية
وارتفعت راية التوحيد وانتصر الحق وزهق الباطل. فالكون كله فرح بمولده ﷺ لأنه جاء بمنهج يعيد
انسجام الإنسان مع الكون حيث كان قبل مولده يسود العالم ظلمات الجهل، فأرسل سبحانه الرسول
بألهدى ودين الحق فسبحانه عز وجل نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد
فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته فهو الرسول الذى يجب الاقتداء به وإحياء سنته لأن الله عز وجل هو
الذى اختاره واصطفاه.

شخصية رسول الله ﷺ:

محمد ﷺ شخصية لا مثيل لها ولا شبيه لها فى كل شيء فهو الذى اختاره الله واصطفاه وأدبه وعلمه
صلوات الله وسلامه عليه وبعثه ليطمئن مكارم الأخلاق. ومن كانت هذه مهمته فلا بد أن يكون كاملاً
لا يعتريه شائبة من شوائب البشر الناقصة؛ ولهذا يمكن وصفه صلوات الله عليه وسلامه بأنه بشر من
حيث الجنس وفوق البشر من حيث المكارم والمحامد.

الشخصية عند الفلاسفة:

تتكون من ثلاثة جوانب: الجانب الخلقى والجانب العقلى والجانب الخلقى.

أولاً: الجانب الخلقى:

أما عن خلقته عليه الصلاة والسلام فقال عنه الصحابى الجليل أبو هريرة رضى الله عنه: {ما رأيت
أحسن من رسول الله ﷺ لكأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحداً أسرع فى مشيته من رسول الله
ﷺ لقد كنا نمشى معه والأرض تطوى عنه طياً فنجتهد وهو غير مكترث} (١).

^١ - أخرجه الرادوانى - فى جمع الفوائد من صفاته - ج ٢ - ص ٤١٩ - ح ٨٣٩١ والترمذى قال حديث غريب

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ [الأحزاب].

والسراج المنير: هو نور الحبيب الذى يهذى الضال إلى سبيل الرشاد إذا استمسك به واقتبس من نوره واهتدى بهديه دله إلى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه.
مثال:

رجل ضل فى الصحراء فلما طلع عليه القمر بنوره الفضى اهتدى بنوره فنظر الرجل إلى القمر فى علياء السماء وقال له: أيها القمر أنا لا أدرى ماذا أقول لك، أقول لك نورك الله.. لقد نورك، وأنت يا رسول الله أقول لك نورك الله.. لقد نورك، وأقول لك: جملك الله.. لقد جملك (١).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ [الأحزاب].

حبيبي يا رسول الله

أنت الذى من نورك البدر اكتسى والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما بك قد سما وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا ودعاك لقربه وحباك
وخفضت دين الشرك يا علم الهدى ورفعت دينك فاستقام هناك
وأقول لك: رفعك الله.. لقد رفعك، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿٤٦﴾ [الشرح].

يا رسول الله، يا من هبط عليك جبريل ذات يوم فقال لك: يا سيدى أتدرى لم رفع الله ذكرك؟
فقال الحبيب للأمين: الله أعلم. قال الأمين للحبيب: السلام يقرئك السلام ويقول لك: لقد رفعت
ذكرك بأن اسمى لا يذكر إلا ومعه اسمك.

فالله عز وجل رفع له ذكره فقرن اسمه ﷺ باسمه عز وجل في كثير من الأمور، فلا يقبل إسلام امرئ حتى يشهد له بالرسالة بعد أن يشهد لربه بالوحدانية، وشق له من اسمه ليجليه فذو العرش محمود وهذا محمد وقرن اسمه باسمه في الطاعة والاستجابة.

قال تعالى: ﴿... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ (٥٩) [النساء].

كما قرن اسمه باسمه في الوعد والوعيد.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ

عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٤) [النساء].

وفي العزة قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) [المنافقون].

ثانيا: الجانب العقلي:

فماذا عن عقله؟ أما عن عقله ﷺ فكان أرجح الناس عقلا وهو أذكى الأذكياء وأبلغ البلغاء وأعقل العقلاء وأفصح الفصحاء، كيف والله قد علمه وأدبه فهو سبحانه الذي زكى عقله فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ (٢) [النجم]. وزكى لسانه فقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ (٢) [النجم]. وزكى شرعه فقال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (٤) [النجم]. وزكى جليسه فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥) [النجم]. وزكى فؤاده فقال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١) [النجم]. وزكى بصره فقال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (١٧) [النجم]. شهادة نطق بها الحق المتعال ذو الجلال والإكرام لصاحب العقل الرزين صلوات الله وسلامه عليه.

فكلما رماه قومه بالأباطيل وافتروا عليه بالكاذب تولى الله عز وجل الدفاع عنه حيث اتهمه قومه بأنه شاعر وكاهن فدافع ربه عنه فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ...﴾ (٦٩) [يس].

واتهموه بالضلال والانحراف فدافع عنه ربه قائلا: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ (٢) [النجم]. ورموه بالجنون فقال تعالى: ﴿تَوَّابٌ وَأَلْقَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) [النجم]. ما أنت بنعمة ربك بمجنون [القلم].

ويكفيه شرفا وفخرا بأن الله وصفه بالنور، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ...﴾ [المائدة: ١٥] ومن أعظم ما أكرم الله به رسوله ﷺ أنه النبي الأمي الذي أدبه وعلمه ربه قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

يا سيدي يا رسول الله

يا سيد العقلاء يا خير الورى يا من أتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن فينا هاديا وطلعت في الأكوان بدرا نيرا
وقد اعتبر وصف النبي بالأمية إلى كمال علمه مع أميته هو إحدى المعجزات المصاحبة لإعجاز
القرآن الكريم في ذاته إذ أنه لم يأت في التاريخ كله من قبل محمد ﷺ ولا من بعده بمثل ما أتى به من
القرآن المعجز المتحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة من مثله
والله عز وجل قبل أن ينزل الوحي على رسول الله ﷺ أبعد عنه كل شبهة بشرية بأن ما سيتلقاه محمد
ﷺ من وحي السماء ممكن أن يكون من العلم البشري سواء كان ذلك من حضارات الأمم السابقة أو مما
يمكن أن يقرأ من الكتب ولذلك اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه الأمية.

معنى الأمي:

كما ولدته أمه لم يتلقى علما من بشر لأن الله سبحانه وتعالى الذي اختاره خاتم المرسلين أراد أن
يعلمه بنفسه ولذلك اختاره أميا وذلك من حسن إعداد الحق تبارك وتعالى لرسله نبيه ﷺ فلو كان رسول
الله ﷺ يقرأ أو يكتب لقالوا أخذ العلم ممن قرأ أو أخذ العلم من كتب الأولين أو من حضارات الأمم
المعاصرة. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَآتَاكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ولذلك رغم هذا الاختيار وهذه الحكمة فقد غفلت عقول الكفار عنها وادعوا أن رسول الله
ﷺ يعلمه بشر وادعوا أنه جاء بهذا العلم من أساطير الأولين، ويرد الله تبارك وتعالى عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا زُنَابَ الْمُبِطُلُونَ

﴾ [العنكبوت] ٤٨ .

إذن فالحق تبارك وتعالى يلفت للبشرية كلها إلى أنه اختار أن يكون رسول الله ﷺ أمياً حتى يرد على ما يدعيه أنصار الباطل أعداء الايمان بأن الرسول ﷺ أتى بالقرآن من عنده (١).

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا

مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس] ١٦ .

وهكذا يطلب الحق تبارك وتعالى من رسول الله ﷺ أن يرد عليهم بأنه عاش معهم أربعين سنة أى عمراً كبيراً ولم يقل لهم إنه أوحى إليه ولم يأت بشيء من عنده ولو أنهم فكروا بعقولهم فى هذا العمر الذى قضاه الرسول قبل أن يوحى إليه وأنه لم يدع شيئاً لكان ذلك كافياً لكى يصدقوه. وهكذا فالأمية شرف لرسول الله ﷺ وضرورة للرد على دعاوى الباطل ويقين للمؤمنين أن كل ما أتى به الرسول ﷺ هو من وحي السماء، ومن أين له تلك القدرة العقلية - وهو أمي - التى تجعله يقول إنه كتاب مهيمن على جميع الكتب الدينية السابقة وكيف يجروا وهو الأمي أن يفتح كتابه بالأمر بالقراءة فيقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ لَكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق] ١ .

وكيف قبلت أمة ثقافية وحضارية أن تدخل فى دين هذا الأمي بدون إكراه إذ يقرر القرآن الكريم بأنه لا إكراه فى الدين ومن أين له المعرفة عن الغيبات ومن أين له الجراءة وهو الرجل المتواضع الصادق المذهب الأمين لو كان القرآن من عقله أن يقول كلاماً ينسبه إلى الخالق ويتحدث عنه بضمير المتكلم.

فيقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه] ١٤ .

إن فى هذا كله لأقوى دليل وأعظم برهان على أن هذا هو محمد ﷺ النبى الأمي قد جاء بما عجز عنه عظماء العلماء وكبار الحكماء وأن أميته كانت من أقوى معجزاته حيث لم يطالع على كتب السابقين من الأنبياء والمرسلين قبله فيأخذ منها وينقل عنها كما يدعى بعض المستشرقين الحاقدين فقد أغناه ربه عن

١ - تفسير وخواطر الشعراوي .

كل هذا وجعل أميته تشريفا له وصدا للحاقدين ولقد أتاه الله من العلم والحكمة ما لم يعط أفذاذ المتعلمين والحكماء.

وصدق الله العظيم: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء].

فجدير بنا أن نفتدى بمن علمه ربه خير الورى والذي بعث بالقرآن فينا هاديا وهو ﷺ قد اختصه الله بالتشريع أيضا أليست هذه ميزة بأنه أحكم الحكماء وأعقل العقلاء فإن المراد من المنهج السماوى هو وضع القوانين التى تحكم شركة الحياة فى الخلافة فى الأرض وتلك القوانين نوعان: نوع جاء من الله وفى هذا نجد أن كل الرسل فيه سواء، ولكن هناك نوع ثانٍ من القوانين فوض فيه رسول الله ﷺ أن يضع من التشريع ليلائهم ما يرى قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا﴾ [الحشر].

ثالثا: الجانب الخلقى:

أخلاقه ﷺ خارقة للعادة:

لقد قال بعض الكتاب معددا للخوارق التى صاحبت الدعوة المحمدية قال: إن من أعظم الخوارق التى كانت لمحمد ﷺ أخلاقه فكانت فى ذاتها أمرا خارقا للعادة بين بنى الإنسان فهى أعلى من أخلاق الملائكة لأن الملائكة حسنت أخلاقهم بمقتضى كونهم: ﴿...لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم]. فهو ذو الخلق الكامل. وكمال الخلق لفظ قليل يتناول فى معناه كثيرا فلقد هيا الله سبحانه وتعالى محمدا ليكون الهادى إلى الحق، فهو ﷺ فى عباداته وعاداته يتزين بحسن الخلق فما من عبادة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى إلا وهى مزينة بحسن الخلق وما من عادة من العادات التى أقرها الإسلام وجاء بها إلا وهى مصحوبة بحسن الخلق هكذا كان صلوات الله وسلامه عليه كل حياته مرتبطة بالله عز وجل وعمله كله كان لله عز وجل، عاش دائما فى نور الله فاكتسب من نور الله عز وجل فكان أحسن الناس أخلاقا.

قال أنس رضى الله عنه: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقا. وأنه لا يعلم قدر أخلاق النبي ﷺ إلا الله عز وجل حيث قال رب العزة سبحانه وتعالى لحبيبه محمد ﷺ:

﴿وَلَنَّاكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [٤] [القلم].

فهى شهادة من الله عز وجل لمحمد ﷺ الذى لا يعلم قدره إلا هو ولذلك رفعه عز وجل وزينه الله عز وجل وجمله الله عز وجل هذا كله لأنه ﷺ عاش عباداته وعاداته وهى مزينة بحسن الخلق بل هى كانت الخلق نفسه ولهذا أحبه الله تعالى وأعطاه الكثير فأخلاقه ﷺ لا تعد ولا تحصى وإنما إن تكلمنا ومهما تكلمنا فلا نستطيع أن نحصى أو نعد أخلاقه فرسول الله ﷺ اجتمعت فيه خصال الخير من حياء وكرم وشجاعة ورحمة وصبر وسائر خصال الخير فقد كان النبي ﷺ دائم السؤال من الله سبحانه وتعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق فكان يقول فى دعائه: {اللهم حسن خلقي وخلقى}.

صدقه ﷺ:

اتصف ﷺ قبل البعثة بالصدق والأمانة فكانت هذه صفة تزينه وكان صادقا ومشهورا فى قومه بالصدق والأمانة.

فهذا أبو جهل على شدة عداوته لرسول الله ﷺ يسأله أحد القرشيين قال: أتنظن أن محمدا يكذب؟ فكان جوابه: كيف يكذب ونحن نسميه الصادق الأمين. فعجب الرجل من إجابة أبى جهل على شدة عداوته لرسول الله ﷺ. وإذا كان هذا ما تنطوى عليه نفسه لرسول الله ﷺ فلم يحاربه إذن؟! يجب أبو جهل فى صراحة: إن الدافع فى ذلك لم يكن شكا فى صدق رسول الله ﷺ إنما كان ذلك حسدا وتنافسا بين رهط بنى هاشم وبين رهط أبى جهل يعبر عن ذلك قوله: لقد أطعمت بنو هاشم فأطعمنا وسقت فسقينا، ثم قالوا منا نبي يأتيه الوحى من السماء فأنى لنا ذلك، وهكذا أفصح أبو جهل عن دخيلة نفسه. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [٣٣] [الأنعام].

وهذا هرقل قيصر الروم يحاور أبا سفيان ويسأله عن رسول الله ﷺ محاولا التعرف على شخصيته ومكانته وأخلاقه وما يدعو إليه ويحيب أبو سفيان وكان آنذاك على رأس المعسكر الذى يحارب رسول

الله ﷺ ولكن ذلك لم يمنعه من صدق الإجابة وكان هرقل قد احتاط للأمر وطلب من أبي سفيان أن يرد عليه إن لم يقل بالصدق وكان مما سأله ما نسبته فيكم فيجيب أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، فقال هرقل: هل كان من آبائه من ملك؟ فيجيب أبو سفيان بالنفى: لا، ويسأل أبا سفيان: هل قال بهذه المقالة أحد قبله؟ فيقول أبو سفيان: لا. ويسأله: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ يجيب: بل ضعفاؤهم. ويسأله: يزيدون أم ينقصون؟ فيجيب: يزيدون. ويسأله: هل يرتد أحدهم عن دينه سخطا له بعد أن يدخل فيه؟ فيجيب أبو سفيان بالنفى. ويسأله: هل يكذب؟ فيقول لا. ويسأله هل يغدر؟ فينفى أبو سفيان عنه الغدر. ويسأله عما يدعو إليه فيجيب أبو سفيان: إنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة الأوثان ويدعو إلى الصلاة والصدق والعفاف وصلة الأرحام ومكارم الأخلاق.

فيدرك هرقل جوانب من العظمة المحمدية من خلال إجابات أبي سفيان الذي عاش معه وواكب حياته منذ الصغر إلى أن قام بدعوته وبعد ذلك يشرح لأبي سفيان ومن معه أسرار أسئلته حيث يعقب قائلا: لقد سألتك عن نسبته فقلت فينا ذو نسب وهكذا الرسل يبعثون في أنساب قومهم، وسألتك هل من آبائه من ملك فقلت لا، لو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يسترد ملك آبائه، وسألتك هل قال بهذه المقالة أحد من قبله فقلت لا، ولو قال بهذه المقالة أحد قبله لقلت رجل يتأسى بمن سبقه، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت بل ضعفاؤهم فهم أتباع الرسل، وسألتك هل يكذب قلت لا وهكذا الرسل لا يكذبون، وسألتك هل يغدر فقلت لا وهكذا الرسل لا يغدرون. ثم عقب قائلا: إن كان كما قلت فليملكن موضع قدمي هاتين ولوددت أني تجشمت لقاءه إذن لغسلت عن قدميه.

فما أحوجننا في هذه الأيام إلى الاقتداء بالنبي المختار المثل والقذوة الحسنة وإحياء سنته ﷺ والتخلق بهذا الخلق وهو الصدق مع خالقنا والصدق مع أنفسنا والصدق في العبادات والصدق في الأقوال والأفعال، فالصدق منجاة فإن رأيت فيه الهلكة فإن فيه نجاة.

رحمته ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء].

فهو ﷺ رسول الرحمة أرسله الله رحمة للعالمين فهي رحمة الله التي نالته وجعلته رحيمًا لينا معهم ولو كان فظا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب ولا تجمعت حوله المشاعر فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء وتحمل هموم. وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ، وعندما دخل عليه الأقرع بن حابس فوجده يقبل الحسن فيقول له: {يارسول الله إن لي عشرة من الأبناء ما قبلت منهم أحدا قط، قال له رسول الله ﷺ: ماذا تريد مني أن أفعل لك إذا كان قد نزع من قلبك الرحمة، من لا يرحم لا يرحم} (١).

فما أحوجنا أيها الأخوة في هذه الأيام لأن نسير على نهج معلمنا وقودتنا محمد ﷺ ونتخلق بخلق الرحمة، الرحمة بالإنسان، الرحمة بالحيوان، الرحمة بكل مخلوق على وجه الأرض حتى يرحمنا الرحمن الرحيم.

يقول رسول الله ﷺ: {ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء}.

حلمه وعفوه ﷺ:

وكان قلب رسول الله ﷺ وحياته مع الناس مليئة بالحلم والعفو لم يغضب لنفسه قط ولا ضاق صدره بضعفهم ولا احتجز لنفسه شيئا من أغراض هذه الحياة بل أعطاهم كل ما ملكت يده في سباحة ندية، وزيد بن سعدة رضى الله عنه كان يهوديا قرأ في كتب قومه أن نبي آخر الزمان يسبق حلمه غضبه ولا يزداد على كثرة الاعتداء عليه إلا حلما فأراد زيد أن يتعرف على هذه الصفات في النبي ﷺ فعقد

١- أخرجه مسلم - باب رحمته - ٤ - ج ١ - ص ١٨٨ - ح ٢٣١٨ عن أبي هريرة .

صفقة بينه وبين النبي ﷺ تسلم فيها براً وتؤخر إلى أجل معلوم ثمنها لزيد، ووجد الفرصة سانحة للاختبار فجاء النبي ﷺ في اليوم التالي وهو يجلس بين أصحابه ونادى بأعلى صوته: أدِّ إلىَّ حقِّي عنك يا محمد إنكم يا بنى عبد المطلب قوم مطل. وهال الصحابة ما سمعوا وعجبوا التهلل في وجه رسول الله ﷺ وانبساط أساريه بعد أن سمع ما سمع وأخرج عمر رضى الله عنه سيفه من غمده واستأذن الرسول ﷺ في أن يضرب عنق اليهودى وعندها بدا وجه رسول الله ﷺ يظهر فيه الغضب من صنع عمر وقال: لا يا عمر كنت أنا وأولى منك بغير هذا تأمرنى بحسن القضاء وتأمره بحسن الاقتضاء ولكن قم فأدِّ إليه بره وزده عشرين صاعاً لقاء ما روعته. وهنا شهد زيد شهادة توحيد وأسلم خير إسلام وطالع الرسول وصحبه.

فأخلاقه ﷺ لا تعد ولا تحصى فالواجب علينا الاقتداء به فهو ﷺ رسول السماحة وكان صلوات الله وسلامه عليه عنده كرامة الإنسان بغض النظر عن عقيدته تمر عليه جنازة يهودية فيقف إجلالاً لها فيقول أصحابه: إنها جنازة يهودية. فيقول ﷺ: أليست إنساناً؟

وبنى شريعته ﷺ على أساس المساواة والعدل بين الناس كما جاء في الصحيحين أن أسامة بن زيد لما شفع في شأن المخزومية التى سرقته وكان قد أهم قريشاً أمرها فقالوا له، فقال له عليه الصلاة والسلام: { يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله، إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها } (١).

وكان ﷺ كريماً مضيفاً وكان في كرمه كالريح المرسلة وكان يحض على إكرام الضيف واعتبر إكرام الضيف من علامات الإيمان فقال ﷺ: { من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه } (٢).

١- أخرجه البخارى - باب حديث الغار - ج ٤ - ص ١٧٥ - ح م : ٣٤٧٥ عن عائشة .

٢- أخرجه البخارى - ج ٨ - ص ١١ - ح م : ٦٠١٨ عن أبى هريرة .

ولا يقف كرمه عند حد إكرام الضيف ولكن كان يدعو ﷺ إلى العطاء ومحاربة الشح.

وكان ﷺ يحب أُمته ويدعو لها فكان شديد الحرص عليها وكان يحب لها الهداية.

قال ﷺ: {لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإنى خبأت دعوتى شفاعة لأمتى}. وقال

ﷺ: {مثلى ومثلكم كمثلى رجل أوقد نارا فجعل الجنادل والجراد يقعن فيه وهو يذهبن عنه وأنا آخذ

بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي} ^(١).

فما أحوجنا أيها الأخوة في هذه الأيام لأن نفتدى بالأسوة الحسنة محمد ﷺ ونكون من خيرة هذه

الأمة بالمحبة للأعمال الصالحة والدعوة إليها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فندعو إلى الأخلاق

الحميدة ومنها خلق إكرام الضيف والرفق والحلم والتعاون والمعاملة الحسنة مع الأهل والأقارب

وإعطاء كل ذي حق حقه ومحبة الأهل والوطن ومحبة الخير والأمة الإسلامية والسباحة والعدل وإلى

الأخلاق الحميدة التى لا تحصى ولا تعد، وهكذا كان رسول الله ﷺ فى سلوكه وأفعاله ونومه واستيقاظه

وصلاته وحركاته سواء قبل البعثة أو بعدها كلها مليئة بالنور الذى يهدى إلى الصراط المستقيم فالنبي

ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم. قال سبحانه وتعالى:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [الأحزاب].

أى أحق وأقرب إليهم من أنفسهم أو أشد ولاية ونصرة لهم منها فإنه عليه الصلاة والسلام لا

يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس لأنها أمارة بالسوء وحالها ظاهر

فقد تجهل بعض المصالح والمنافع فعلينا بالسير والاقتداء برسولنا النبي المختار صلوات الله وسلامه

عليه.

١- أخرجه مسلم - باب شفقتة ٨ - ج ٤ - ص ١٧٩ - ح ٢٢٨٥.

الفصل الثالث

بر الوالدين

الحمد لله رب العالمين.. وبه نستعين يا مفرج الكرب فرج كربنا واشف مرضانا وارحم موتانا
واغفر لنا ولوالدينا مغفرة من عندك يا واسع المغفرة. وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وأشهد أن
سيدنا محمدًا عبده ورسوله اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على سنته
ومنهاجه إلى يوم الدين .

أما بعد ...

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ٥٥﴾ [الأحقاف].

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: { أى العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال:

الصلاة على وقتها، قلت: ثم أى؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أى؟ قال: الجهاد فى سبيل الله }^(١).

معنى البر:

البر بكسر الباء هو التوسع فى فعل الخير والبر بفتحها المتوسع فى الخيرات وهو من صفات الله

تعالى^(٢).

فالبر إذاً يكون فى الخير الواسع الكثير ويشمل الإيمان ويشمل التقوى ويشمل الصدق ويشمل

الإحسان ويشمل كل خلق حسن فهو الخير الواسع الذى يشمل كل وجوه الجمال فى الكون، فمعنى بر

الوالدين أى الإحسان إليهما بطاعتها وخدمتهما وعدم الإساءة إليهما^(٣).

١- رواه البخارى - كتاب صحيح البخارى - باب فضل الصلاة لوقتها - جزء ١ - ص ١١٢ - رقم الحديث ٥٢٧ .

٢ - كتاب الفقه الإسلامى الميسر - عبد الحليم محمود - ص ٢٩١

٣ - كتاب رياض الصالحين - ص ٦٣١ .

بر الوالدين طاعة لله عز وجل:

إن بر الوالدين طاعة لله عز وجل والمؤمن ينقاد لتنفيذ أمر الله والانتهاه عما نهى عنه سبحانه وتعالى فإذا أمر الله عز وجل ببر الوالدين فإنك تجد أن أهل الإيمان يتسابقون إلى بر الوالدين من أجل طاعة الله جل وعلا فهو نوع من أجل أنواع العبادة ولذا فقد أمر الله بالإحسان إلى الوالدين وإن كانا مشركين فما ظنك إن كانا مسلمين، فعلى المؤمن أن يكون حريصاً على فعل الطاعات والفوز برضوان الله جل وعلا ولا شك أن بر الوالدين من أفضل القربات عند رب الأرض والسموات ولذلك نزلت ثلاث آيات مقرونة بثلاث لا تقبل واحدة بغير قرينتها.

قال ابن عباس رضى الله عنه: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لا تقبل واحدة بغير قرينتها:

إحداهن - قوله تعالى: ﴿... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ (٣٣) [محمد].

ومن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه .

ثانيتهن - قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾ (٤٣) [البقرة].

فمن صلى ولم يزكَّ لم يقبل منه .

ثالثتهن - قوله تعالى: ﴿... أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ...﴾ (١٤) [لقمان].

فمن شكر الله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه.

فعليك أخى المؤمن أن تسابق الريح لطاعة الله عز وجل وأن تجعل لسان حالك:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ

[الأنعام]. (١٦٢)

وأن تعلم أخى المؤمن أن بر الوالدين صورة حية من صور العبودية لله عز وجل فما عليك أيها الأخ الكريم إلا أن تستعين بالله فى أن يعينك على تلك العبادة ألا وهى بر الوالدين لأنك بذلك تكون من الطائعين الذين يحبهم الله ورسوله وتكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء،

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٩٦﴾ [النساء].

وبطاعتك لله فيما أمرك به ستكون مع الحبيب في جنات الفردوس. وهذا ثوبان خادم الحبيب ﷺ يدخل صلوات الله وسلامه عليه ذات يوم فيجده يبكي ويجد الدموع تسيل مغزراً ومكثاراً فسأله ماذا يبكيك يا ثوبان أتدرون مما يبكي إنه لا يبكي لأن به وجعاً ولا على مال ولا يريد منصباً قال يا رسول الله أبكى لأنك إذا غبت عني اشتقت إليك وإذا تذكرت الآخرة وأنت ستكون في أعلى درجات الجنة ولن أراك فيها ازداد بكائي شوقاً إليك فماذا أجاب الحبيب ﷺ على ثوبان؟ قبل أن يجيب الحبيب ﷺ كان الأمين جبريل عليه السلام ينزل على المصطفى بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٩٦﴾ [النساء].

فإنك أيها المؤمن ستنال هذه الدرجة إذا كنت طائعاً لله فيما أمرك به من بر الوالدين وما نهاك عنه من عقوقها وبذلك تكون من: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...﴾ ﴿١٨﴾ [الزمر]. فبر الوالدين طاعة لله عز وجل.

الإحسان إلى الوالدين:

الإحسان كمال الحضور مع الله عز وجل ومراقبته الجامعة لخشيته ومحبته ومعرفته والإنابة إليه والإخلاص له. فالإحسان مراقبة الله سرّاً وعلانية قولاً وفعلاً واعتقاداً كما في الحديث. الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وأحق الخلق بالإحسان إليهما هما الوالدان فمن عظم حق الوالدين قارن الله عز وجل بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين.

قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ ﴿٣٦﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...﴾ ﴿٨﴾ [العنكبوت].

فإن الله عز وجل هو سبحانه الذى خلقك وهو الذى أوجدك وهو مربيك وصاحب رعايتك وأنت فى بطن أمك وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين فرغم ما للوالدين من فضل عظيم وجميل عليك فلا تنس أن فضل الله عليك أعظم. لأن والديك قد يلدانك ويسلمانك إلى الغير أما ربك فلن يسلمك إلى أحد.

فأمر الله لك بالإحسان إلى الوالدين دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ومن عبادة الله طاعته فيما أمر به من الإحسان إلى الوالدين لأن حق الآباء والأمهات على الأبناء لا يستطيع إنسان أن يحصيه أو يقدره ولو استطاع الأبناء أن يحصوا ما لاقاه الآباء والأمهات فى سبيلهم لاستطاعوا إحصاء ما يستحقونه من البر والتكريم ولكنه أمر فوق الوصف خصوصاً ما تحمته الأم من حمل ورضاعة وسهر الليالى ونصب النهار فى سبيل الرعاية المطلوبة وهم مع ذلك لا يطلبون ثواباً، والدين الإسلامى يحث المؤمن على الإحسان إلى الوالدين حتى فى حال كفرهما بالله عز وجل بل وحتى وهما يدعوان ولدتهما إلى الكفر بالله، تجد أن الله يأمر بالإحسان إليهما وطاعتهما فى كل شيء إلا فى الشرك ومعصية الله عز وجل. فيها لها من رحمة، وقيل فى سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنِيبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت].

قيل نزلت فى الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص، فعن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنه أنه: {نزلت فيه آيات من القرآن، قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه أو لا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أن الله أوصاك بوالديك فأنا أمك وأنا أمرك بهذا، قال فمكثت ثلاثاً حتى غشى عليها من الجهد وقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل هذه الآيات} (١).

١- صحيح مسلم - باب فى فضل سعد بن أبى وقاص - ج: ٤ - ح م: ١٨٧٧.

وهذه السيدة أسماء رضى الله عنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله في أمها التي أوتتها وأظهرت حاجة مع أنها كافرة فقال لها صلى أمك ^(١).

فعليك يا ابن آدم بطاعة الوالدين والإحسان إليهما حتى تنال رضا رب العباد .

عن عبد الله بن عمر قال: قال ﷺ: {رضا الرب في رضا الوالد وسخط الرب في سخط الوالد} ^(٢).
فإن كان الله قد غفر لامرأة من البغايا لأنها سقت كلبا فكيف بمن يكون برا بوالديه يقدم لهما الطعام والشراب ويحسن معاملتهما ويرحمهما. عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: {الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء}.

الإحسان إلى الوالدين في حالة الكبر:

قال تعالى:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ﴾ ^(٣٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَّنِي صَغِيرًا ^(٣٤) ﴿[الإسراء].
الآية هنا أوصت بالوالدين في حالة الكبر قيل لأن الوالدين حال شبابها وقوتها ليسا مظنة الإهانة والإهمال ولا مجال للتأفف والتضجر منهما فهما في حالة القوة والقدرة على مواجهة الحياة ونرى الأولاد في هذه الحالة يتقربون إليهما ويتمنون رضاهاما لينالوا من خيرهما ولكنهما في حالة الكبر بعد أن كان الأب معطيا أصبح آخذا وبعد أن كان عائلا أصبح معالا فخص الحق سبحانه وتعالى حال الكبر لأنه حال الحاجة وحال الضعف لذلك قال أحد الفلاسفة خير الزواج مبكرا فلما سئل قال: لأنه الطريق الوحيد لإنجاب ولد يعولك في طفولة شيخوختك. وشبه الشيخوخة بالطفولة لأن كليهما في حالة ضعف وحاجة للرعاية والاهتمام وصدق الحق سبحانه وتعالى إذ قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ...﴾ ^(٣٥) [الروم].

١ - رواه البخارى - باب الهداية للمشركين - جزء ٣ - ص ١٦٤ - رقم الحديث ٢٦٢٠ .

٢ - المستدرک فی الصحیحین للحاکم - کتاب البر والصلة - ج: ٤ - ص " ١٦٨ ، وقال الحاکم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

فمن الإحسان إلى الوالدين قوله تعالى: ﴿... فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا ...﴾ [الإسراء: ٢٣] .
 فهذا توجيه وأدب إلهي يراعى الحالة النفسية للوالدين حال كبرهما وينصح الأبناء أن يكونوا على قدر
 من الذكاء والفتنة والأدب والرفق في التعامل مع الوالدين. وكلمة أف اسم فعل مضارع بمعنى
 الضجر، وهذه الكلمة تدل على انفعال طبيعي ولكن الحق سبحانه وتعالى يحذرك منه وينهاك ويأمرك
 بأن تتمالك مشاعرك وتتحكم في مشاعرك ولا تلفظ بهذه اللفظة. وقوله تعالى ﴿... وَلَا نَهْرَهُمَا ...﴾
 [الإسراء: ٢٣] والنهر هو الزجر بقسوة وهو انفعال تالٍ للتضجر وأشد منه قسوة.

ومن الإحسان قوله تعالى:

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].
 يدعونا الحق جل وعلا أن نعامل الوالدين بالحسنى فنحنو عليهما ونخفض لهما الجناح كالطائر
 الذى يحتضن صغاره تحت جناحه ويحتضنهم ويغذيهم، فالله تعالى يريد منك أن تكون حانيا عليهما طائعا
 لهما، والذلة هنا: ذلة تواضع ورحمة بالوالدين ولكن رحمتك أنت لا تكفى فعليك أن تطلب لهما الرحمة
 الكبرى من الله تعالى: ﴿..... وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]. لأن رحمتك بهما لا تفى
 بما قدماه لك ولا ترد لهما الجميل وليس البادئ كالمكافئ فهما أحسنا إليك بذلك وأنت أحسنت إليهما
 ردًا، لذلك ادع الله أن يرحمهما وأن يتكفل عنك برد الجميل، أن يرحمهما رحمة مثل رحمتها بك حين ربياك
 صغيرا أو ارحمهما لأنهما ربيانى صغيرا^(١).

نصيحتي لأخى المؤمن وأختي المؤمنة أن يكونا على حذر فى التعامل مع الوالدين فعليك أختي
 المؤمنة أخى المؤمن أن تكونا على حذر من الأفعال الآتية:
 أولا: كن على حذر من أن يعلو صوتك أمامهم:

قال تعالى: ﴿... وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. هذا كلام رب العالمين يأمرك بالمعاملة
 الحسنة والقول الكريم الذى هو نوع من التصرف واللباقة فى معاملة الوالدين خاصة فى حال الشيخوخة

١- تفسير وخواطر الإمام محمد متولى الشعراوى - ص ٩٨ ، ٩٩ باختصار .

التي قد تقعد صاحبها أو المرض الذي يحتاج مساعدة الغير والأولاد أولى الناس بمساعدة الوالدين حين هذه الظروف وأن يكون محبا لوالديه رفيقا بهم حانيا عليهم لا يتبرم ولا يضجر بل يقول لهم قولا كريما وفي هذا المقام تروى قصة الشاب الذي أوقع أبوه إثناء الطعام على ثيابه فأخذ الولد يلحق الطعام الذي وقع على ثوبه وهو يقول لوالده أطعمك الله كما أطعمتني فحول الإساءة إلى جميل يحمد عليه.

ثانيا: كن على حذر أيها المؤمن من أن تتناول يدك عليهم بالضرب:

كما يحدث في هذه الأيام فكثير من الشباب في هذه الأيام تتناول بالأيدى، حكى عن ولد قام يسب أمه لدرجة أنه تناول عليها بالضرب لدرجة أنه تكشف جسمها والولد لا يبالي فأعاذنا الله وإياكم من هذا.

ثالثا: كن على حذر أخى المؤمن من استغفال والديك بالكذب الكثير عليهم:

لأنك تريد متعة زائلة تكون سببا في نكسة والديك وغضبهم الشديد مثل مصاحبة الفاسقين والذئاب الشرسة من وراء الوالدين وخاصة ميعاد المدرسة أو الكلية حتى تعلم والديك بأن هذا الوقت كنت فيه في المدرسة أو الجامعة والكلام الكثير مع الشباب على الموبايل والجلوس أمام الإنترنت ساعات طوال بغير فائدة بل هو وتضييع وقت فإياك أختي المؤمنة أن تخدعى لأن الله عز وجل يمهل ولا يهمل فإنك عن قريب سيفضحك الله عز وجل.

رابعا: كن على حذر أيها المؤمن من أن تجعل من نفسك سيدا وقائدا على والديك:

تريد منهم الطاعة بدلا من أن تطيعهما وأن يكون كلامك هو الذى ينفذ دون الرجوع إليهما حتى ولو كان خطأ.

خامسا: كن على حذر أخى المؤمن أختي المؤمن من أن تكون سبب تعب لوالديك:

مثل الذى يحدث في هذه الأيام جاءت أم تشتكى من كثرة السرقة التى تحدث في البيت فكثر الكلام وقالوا إن البيت به جني يسكن به أو معمول عمل بضياغ الفلوس ولكن في النهاية وجدوا أن الأولاد هم من يقومون بسرقة هذه الأموال بل ويتهادون في الكذب بأن أموالهم كانت تسرق ومصاريف المدرسة

كانت تسرق منهم قبل الخروج من البيت حتى تصدق الأم أن هذا عمل جني ولكنه وجد في النهاية أن هؤلاء الأولاد هم الذين يقومون بالسرقة للهو واللعب مع الأصدقاء والذهاب إلى الدجالين.

سادسا: كن على حذر أخى المؤمن أختى المؤمن من عبارات التأنيب:

التي تؤلم وتجرح المشاعر ومن التأفف ومن أن تنهر والديك ومن الألفاظ التي يصدرها اللسان دون فكر ودون تعقل لعل هذه الكلمة تكون سببا في غضب الله عليك لأن أباك وأمك سجلوا هذه الكلمة فكانت ألما وجرحا شديدا لا تستطيع الأيام أن تنسيه فكن على حذر أخى المؤمن أختى المؤمنة.

صور من بر الوالدين:

الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم وبر الوالدين:

فقال تعالى عن نبيه نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ (٢٨) ﴿نوح﴾.

وقال عن نبيه إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١) ﴿إبراهيم﴾.

وقال عن نبيه يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَلَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (١٤) ﴿مريم﴾.

وقال عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَلَدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (٣٢) ﴿مريم﴾.

وأما عن نبينا محمد ﷺ فقد توفي والداه ﷺ حال صغره فكان يقول عن حاضنته أم أيمن هي أمي، بل كان يكرم مرضعته حليلة السعدية وإذا رآها قام لها وأكرمها وأجزل لها العطاء.

والله تعالى كلم موسى عليه السلام ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة فكان آخر كلامه: يا رب أوصني، قال أوصيك بأمر حسن. قال له سبع مرات، قال حسبي ثم قال: يا موسى ألا إن رضاها رضاى وسخطها سخطى^(١).

١- المستطرف في كل فن مستطرف - ص ٣٣١.

الصحابة رضوان الله عليهم وبر الوالدين:

عن عائشة رضى الله عنها قالت: {قال رسول الله ﷺ: نمت فرايتنى فى الجنة فسمعت صوت قارئ يقرأ فقلت من هذا؟ قالوا: هذا حارثة بن النعمان فقال له رسول الله ﷺ كذاك البر كذاك البر. وكان أبر الناس بأمه} (١).

وقالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها: {كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أبر من كان فى هذه الأمة بأمهها عثمان بن عفان وحارثة بن النعمان رضى الله عنهما، أما عثمان فإنه قال: ما قدرت أتأمل وجه أمى منذ أسلمت، وأما حارثة فكان يطعمها بيده ولم يستفهمها كلاما قط تأمره به حتى يسأل من عندها بعد أن تخرج ماذا قالت أمى؟} (٢).

التابعين وبر الوالدين:

عن عمر بن الخطاب قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: {إن خير التابعين رجل يقال له أويس وله والده هو بار بها لو أقسم على الله لأبره وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم} (٣).

وعن أسير بن جابر قال: كان عمر رضى الله عنه إذا أتى عليه إمداد اليمين سألهم أفيكم أويس بن عامر حتى أتى على أويس بن عامر قال: أنت أويس بن عامر؟ قال نعم. قال بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال نعم. قال: ألك والده؟ قال: نعم. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: {يأتى عليكم أويس بن عامر من مداد اليمين من مراد ثم من قرن ثم كان به أثر برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والده هو بار بها لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن تستغفر لنا فافعل. فاستغفر له فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون فى غرباء الناس أحب إلي} (٤).

١- رواه الحاكم وأحمد فى مسنده - ج ٧ - ص ٣٣٩ وهذا حديث صحيح.

٢- التبصرة لابن الجوزى - باب الكلام على قوله تعالى - ج: ١ - ص: ١٩١.

٣- المسند الموضوعى لجامع الكتب العشرة - باب مناقب التابعين - ج ٢١ - ص ١٦٤ - صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - ح م ٢٥٤٢.

٤- صحيح مسلم- كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أويس القرنى - ح م ٢٥٤٢.

ولقد كان أويس يتمنى رؤية النبي ﷺ وصحبته ولكن بره بأمه وملازمته لها حال بينه وبين ذلك
فيا له من أدب وبر يفوق الخيال.

سلفنا الصالح وبر الوالدين:

كان رجل من النساك يقبل كل يوم قدم أمه فأبطأ يوماً على أخوته فسألوه فقال كنت أتمرغ في رياض
الجنة فقد بلغت أن الجنة تحت أقدام الأمهات ^(١).

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن لى أما بلغ منها الكبر إنها لا تقضى حاجتها إلا
وظهرى لها مطية فهل أديت حقها؟ قال: لا فهى كانت تصنع بك ذلك وهى تتمنى بقاءك وأنت تصنعه
وتتمنى فراقها ^(٢).

وقيل إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم الأمير ^(٣) وقيل لعل بن الحسين رضى الله عنه
{إنك من أبر الناس ولا تأكل مع أمك فى صحفة؟ فقال أخاف أن تسبق يدي يديها إلى ما تسبق عينها
إليه فأكون قد عققته} ^(٤).

وقال محمد بن حيرز: {من مشى بين يدي أبيه فقد عقه إلا أن يمشى فيميط الأذى عن طريقه ومن
دعا أباه باسمه أو بكنيته فقد عقه إلا أن يقول يا أبت} ^(٥).

وكان خلف بن حبيد من العباد والعلماء وكان يقبل رأس أمه وكان لا يمشى فوق ظهر بيت وهى
تحتة إجلالا لها ^(٦).

١- موارد الظمآن لدروس الزمان - باب من حقوق الوالدين - ج: ٣ - ص: ٤٣٢ .

٢- البلاغة العمرية - باب من كلام له رضى الله عنه - ج: ١ - ص: ٦٠ .

٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ج: ٢ - ص: ٢٣٧ .

٤- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار - الباب الثامن والستون - ج: ٤ - ص: ٤٦٨ .

٥- كتاب زهد عبيد بن عمير - ج: ١ - ص: ٢٩٣ .

٦- بر الوالدين للطرطوشى .

أُمور ننصح بها في بر الوالدين:

- أولاً: إذا احتاج أحدهما إلى الطعام فأطعمه.
- ثانياً: إذا احتاج إلى الكسوة كساها إن قدر على ذلك.
- قال ﷺ: {أنت ومالك لأبيك} ^(١) من حق الوالد التصرف والأخذ من مال الولد بشرطين اثنين:
١ - ألا يأخذ إلا ما هو في حاجة شديدة إليه.
- ٢ - ألا يأخذ من الولد ليعطى ولداً آخر فإن ذلك من الظلم.
- فعليك أخى المؤمن أختى المؤمنة اتباع سنة رسول الله ﷺ فيما أمر به ونهى عنه.
- ثالثاً: إذا احتاج أحدهما إلى صحبته صاحبه.
- قيل لرسول الله ﷺ: {من أحق الناس بحسن صحابتي} قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أبوك {^(٢) لأن أباك رجل لو تعرض للسؤال فلا حرج إنما الأم لا فإنها تصان ولا تعرض للقليل والقال.
- رابعاً: إذا أمره بأمر أطاعه ما لم يأمر بمعصية. قال الحسن البصرى رحمه الله: البر أن تطيعهما في كل ما أمراك به ما لم تكن معصية لله والعقوق هجرانها وأن تحرهما خيرك.
- خامساً: أن يتكلم معهما باللين ولا يتكلم معهما بالكلام الغليظ: قال تعالى: ﴿... وَقُلْ لَهُمَا فَوَلًّا كَرِيمًا ۝٢٣﴾ [الإسراء].
- سادساً: أن يحترم والديه ويوقرهما: عن وهب بن منبه رحمه الله قال: إن الله تعالى أوحى إلى موسى على نبينا وعليه السلام يا موسى وقر والديك فإن من قر والديه مددت في عمره ووهبت له ولدا يوقره ومن عقر والديه قصرت في عمره ووهبت له ولدا يعقه ^(٣).

^١ - سنن ابن ماجه - باب ما للرجل من مال ولده - ج: ٣ - ص: ٣٩١

^٢ - صحيح ابن حبان - باب ذكر إثبات المرء - ج: ٣ - ص: ١٧٧

^٣ - الكبائر - ج: ١ - ص: ٤٣ .

- سابعا: أن يرضى له ما يرضى لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه.
- ثامنا: أن يمشى خلفه ولا يدعوه باسمه: فقد رأى أبو هريرة رجلا يمشى خلف رجل فقال من هذا: قال أبى؟ قال أبو هريرة لا تدعوه باسمه ولا تجلس قبله ولا تمشى أمامه^(١).
- تاسعا: أن يدعو لها بالمغفرة كلما دعا لنفسه: قال تعالى عن نبيه نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ...﴾ [نوح].

أما بعد وفاتها:

- سئل أحد الصالحين هل يمكن أن يرضيها بعد وفاتها قال نعم بثلاثة أشياء:
- أولا: أن يكون الولد صالحا في نفسه لأنها لا يكون أحب إليهما من صلاحه.
 - ثانيا: أن يصل قرابتهما وأصدقاءهما.
 - ثالثا: أن يستغفر لها ويدعو لها ويتصدق عنها.
- عن أبى أسيد مالك بن ربيعة أنه قال: كنا عند النبی ﷺ فقال رجل يا رسول الله: هل بقى على من بر أبوي شيء بعد موتها أبرهما به؟ قال: نعم خصال أربع: الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقيهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما^(٢).
- ومن البر بعد موتها قضاء الدين وصوم النذر عنها والتصدق عنها.
- أخى المؤمن أختى المؤمنة مهما فعلت فلن تقوم بتأدية ما أوجبه الله عليك من حقوق الوالدين والواجب نحوهما أن تقوم بعمل ترضى به الله سبحانه وتعالى عنك لعله يكون سببا في هدايتك إلى الصراط المستقيم:

﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا إِلَهُ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى].

١- ففروا إلى الله - باب من محاسن الإسلام - ج: ١ - ص: ٢١٠.

٢ - طه الرسول - باب حديث أبى أسيد السعدى - ج ٢٥ - ص ٤٥٧ - ورواه أبو داود في كتاب الأدب

الفصل الرابع

صلة الرحم

الحمد لله الهادي إلى الصواب ذى الجلال والإكرام وأشهد أن لا إله إلا الله الكريم الوهاب وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الرحمة الذي أتاه الله الحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم وكان فضله عليه عظيماً.. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن أحيا سنته إلى يوم الدين .. أما بعد ،،،

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١١]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: { الرحمة معلقة بالعرش تقول من وصلني وصلني الله ومن قطعني قطعه الله } (١).

معنى صلة الرحم:

الصلة لغةً:

الصلة والوصل في اللغة مصدر (وصل، يصل، صلة) وتدل مادة وصل على ضم شيء إلى شيء

والصلة ضد الهجران .

والصلة اصطلاحاً:

قد أوضح ابن منظور العلاقة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي فقال هي كناية عن الإحسان إلى

الأقربين من ذوي النسب والأصهار والعطف عليهم والرفق بهم والرعاية لأحوالهم وكذلك إن بعدوا

أو أساءوا (٢).

١ - صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب صلة الرحم وتحريم قطعها - جزء ٦ - رقم الحديث ٤٦٤١

- رقم الصفحة ٢١٣ .

٢ - لسان العرب - جزء ٨ - ص ٤٨٥١

والرحم لغة:

اسم مشتق من مادة (ر ح م) التي تدل على الرقة والعطف يقال رحمت وترحمت عليه أي لنت له وتعطفت عليه وتراحم القوم رحم بعضهم بعضا والرحمن والرحيم أسماء مشتقة من الرحمة ^(١)، والرحم: هم الأقارب وتقع على كل من يجمع بينك وبينه قرابة ^(٢) .

صلة الرحم:

وصلة الرحم هي من الحقوق التي دعت إليها الفطرة السليمة وقررتها الشريعة السمحة فالقريب الذي يتصل بك في القرابة له حق هذه القرابة بسبب قربيه.

قال تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ...﴾ [الإسراء]. وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ...﴾ [النساء].

ولقد حث الرسول ﷺ على توثيق الصلات بين الأقارب. عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: { اتقوا الله وصلوا أرحامكم } ^(٣) .

والإحسان إلى الأقارب يكون إما ببذل الجهد أو النفع البدني أو النفع المالي بحسب ما تتطلبه قوة القرابة والحاجة فإن لم يتغير هذا ولا ذاك فليكن بخلق حسن من كلمة طيبة وبسط الوجه والطلاقة ولين الجانب وخفض الجناح ونحو ذلك مما يجلب التحاب بين الأقارب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسطة الوجه وحسن الخلق } ^(٤) .

١ - الفقه الإسلامى الميسر - ص ٢٩٠ .

٢ - لسان العرب - ص ١٠٤ .

٣ - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان - باب صلة الرحم - ج: ١٠ - ص: ٣٣٠ - ح: ٧٥٧٧

٤ - أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين - فصل في توقير العالم - ج: ١ - ص: ٢١٣ - ح: ٤٢٨ حديث صحيح .

يجب على المسلم أن يكون واصلاً لأرحامه وأحق الأرحام بالصلة الوالدان، فقد أمر الحق جل شأنه بها. فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].
والصلة تكون للأقرب فالأقرب فكلما كان المرء أشد قرابة كانت الصلة في حقه أوجب وأعظم قال رسول الله ﷺ: { بر أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك ثم أدناك }^(١) وللخالة مكانة كبيرة في الصلة والبر كما قال النبي ﷺ: { الخالة بمنزلة الأم }^(٢).

المفروض في الإنسان المؤمن أن يجعل كل الناس قرباه وتذكر في هذا المقام قصة معاوية عندما كان أميراً للمسلمين ودخل عليه الحاجب وهو يقول يا أمير المؤمنين رجل بالباب يقول إنه أخوك فقال معاوية أبلغ بك الأمر ألا تعرف إخوتي؟ أدخله فلما دخل الرجل قال له معاوية أي أخوتي أنت؟ قال الرجل: أخوك من آدم. فماذا قال معاوية؟ قال: { رحم مقطوعة والله لأكونن أول من وصلها وأكرمها }^(٣).

فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يصل قرباه من الناس كافة ألا يستطيع أن يصل خاصة أقاربه والله سبحانه وتعالى يريد أن يوزع خير المجتمع على المجتمع لأنه سبحانه حينما أراد استبقاء النوع شرع لنا طهر الالتقاء بين الرجل والمرأة بعقد ووجود شهود على هذا العقد ؛ لماذا؟ لأن الثمرة من الزواج هي الأبناء التي ستأتي بقطاع جديد من البشر في الكون وهذا القطاع لابد أن يكون محسوباً على الرجل أمام الناس وإن لم يرع الرجل في أبنائه حق الله يلومه الناس على ذلك لأنهم أبنأؤه. إذن فعملية الطهر التي أرادها الله سبحانه وتعالى في الالتقاء بين الرجل والمرأة إنما أرادها سبحانه لأنه يشرع لبناء أجيال جديدة ينشأ منها مجتمع المستقبل وقبل أن يوجد هؤلاء الأبناء لابد أن يكون لهم رصيد وأساس يتحمله ووضع سبحانه الأساس ووصى سبحانه وتعالى الأبناء برعاية الوالدين والأقارب فالأبعد فالأبعد .

١- أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين - کتاب البر والصلة - ج: ٤ - ص: ١٩٧ - ح: ٧٢٤٥ - إسناده صحيح .

٢- أخرجه البخاری - باب كيف يكتب هذا - ج: ٣ - ص: ١٨٤ - ح: ٢٦٩٩ .

٣- تفسير الشعراوي - ج: ٢ - ص: ٧٣٤ .

حكم صلة الرحم ودرجاتها:

قال القاضي عياض: لا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة فمنها واجب ومنها مستحب .

والرحم التي يجب صلتها والتي فيها كل هذا الخير هي رابطة الدم التي تحرم النكاح بين اثنين لو كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى^(١).

فضل صلة الرحم:

أولاً: صلة الرحم سبب من أسباب البركة في الرزق وطول العمر:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: { من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه }^(٢).

وقال الإمام النووي رحمه الله: وبسط الرزق توسيعه وكثرته وقيل البركة فيه وأما التأخير في الأجل ففيه سؤال مشهور وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص^(٣)

قال تعالى: ﴿... فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف].

وأجاب العلماء فقالوا:

(أ) إن هذه الزيادة كناية عن البركة في عمر الواصل بسبب توفيقه للطاعة وبعده عن المعصية فيبقى الذكر الجميل فكأن الواصل لم يمت، أما بالنسبة للمال فالله عز وجل يبارك في القليل فيكفي مالا يكفي الكثير مما لم يبارك فيه عز وجل.

١ - الفقه الميسر - ص ٢٩٢ .

٢ - أخرجه مسلم - كتاب البر والصلة - باب صلة الرحم وتحريم قطعها - جزء ٦ - ص ٢٠ - رقم الحديث ٢٥٥٧ .

٣ - كتاب البركة في الرزق والأسباب الجالبة له في ضوء الكتاب والسنة - باب المطلب الأول تقوى الله - ج ١ - ص ٢٧٩ .

(ب) إن الله تبارك وتعالى يقي أثر واصل الرحم في الدنيا فلا يضمحل سريعاً كما يضمحل أثر قاطع الرحم ويكون ذلك بالذرية الصالحة والعلم النافع والصدقة الجارية وغير ذلك من أعمال الخير (الذين يصلون الأرحام هم الصادقون والمتقون).

فقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُؤُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة].
ثانياً: صلة الرحم ونزول الرحمة:

صلة الرحم سبب في إقبال الله عز وجل على الواصل باللطف والإكرام والرحمة والإنعام، روى
الأصبهاني قال: {كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فقال لا يجالسنا اليوم قاطع رحم، فقام فتى من الحلقة
فأتى خالته قد كان بينهما بعض الشيء فاستغفرها فاستغفرت له ثم عاد إلى المجلس فقال ﷺ إن الرحمة
لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم} (١).

والقطيعة التي يترتب عليها عدم نزول الرحمة هي ترك الإحسان إلى الرحم وإساءته وعدم زيارته
والسؤال عنه وإهماله إهمالاً جسيماً (٢).

ثالثاً: صلة الرحم سبب رئيسي في الصلة بين العبد وربّه:

يقول الله عز وجل {أنا الرحمن وهذه الرحمة شقت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن
قطعها بتهته} (٣).

١ - كتاب البر والصلة لابن الجوزي - رقم الحديث ١٧٧ - وقيل حديث مرفوع .

٢ - الفقه الميسر - ص ٢٩٢ .

٣ - أخرجه الأصبهاني - في مشكل الحديث - ج: ١ - ص: ٣٠١ - وقال العراقي في المغنى عن حمل الأثقال متفق عليه من حديث عائشة .

رابعاً: صلة الرحم تجعلك في أعلى المنازل:

قال ﷺ: {إن الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم الله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله عز وجل علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم الله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء} (١).

خامساً: صلة الرحم سبب من أسباب دخول الجنة:

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: {جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل يدنيني من الجنة ويباعدني من النار، قال تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل ذا رحمك، فلما أدبر قال ﷺ: إن تمسك بما أمر به دخل الجنة} (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: {أبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة. قال أفش السلام وأطعم الطعام وصل الأرحام وقم بالليل والناس نيام ثم تدخل الجنة بسلام} (٣).

الدين الإسلامي يحث على صلة الرحم:

والإسلام هو دين الأخوة والتراحم والمودة والإحسان وتقوية صلة الأرحام التي هي من أسمى مقاصده ومطلبه الأسمى وهدفه السامي .

فقد أمرنا سبحانه وتعالى أن نصل الأهل أولاً ثم الأقارب ثم الدوائر الأبعد فالأبعد ثم الجار وكل ذلك لأنه سبحانه يريد الالتحام بين الخلق للمودة والرحمة والتعاون وتقديم المساعدة ومعرفة المحتاج فهناك جارك وقريبك الفقير إن وصلته وصلك الله.

١ - أخرجه ابن الأثير في جامع الأصول - الكتاب الأول في المواعظ - ج: ١١ - ص: ٩ - ح م : ٨٤٧٠

٢ - أخرجه مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة - المجلد الأول - ص ١٨٢ - رقم الحديث ١٢ .

٣ - أخرجه أحمد في مسنده - رقم الحديث ٨٢٧٨ - رواه أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد .

وصلة الأرحام تجلب للعبد رضا الله ومحبه لأن الله عز وجل يحب العبد الوفي الذي لا ينسى أبداً حق أقاربه وأرحامه قال رسول الله ﷺ قال تعالى: { حقت (وجبت) محبتي للمتواصلين في } .
وقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد].

وأول ما أمر به الله أن يوصل هو صلة الرحم أي أن تصل ما يربطك بهم نسب. والمؤمن الحق إذا سلسل الأنساب فسيدخل كل المؤمنين في صلة الرحم لأن كل المؤمنين رحم متداخل وقال الحق سبحانه في الحديث القدسي: { أنا الرحمن، خلقت الرحم، واشتقت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته } .

ولذلك حث الشارع الحكيم وبالغ في التمسك به.

ولعل ترغيب الشارع في صلة الرحم وتشديده في أمرها وتحذيره من قطعها حتى جعلها من أكبر الكبائر أن أقارب الإنسان أشد له نصرة بعد الأبوين وأعظمهم محبة له وأكثرهم رغبة في الخير له بهم يشتد ساعده وتقوى شكيمة ويرتفع ذكره. ولا ريب فهم أكثر الناس به اختلاطاً فإذا قطعهم تكدر صفوه وتنغص عيشه وكثر همه وعظم شره وقل خيره وهذا كله يحتم على الشخص أن يصلهم وأن يعتمد إلى إيصال الخير إليهم فهم أولى بالبر من غيرهم. ألم يجعل الله الأمر بصلتهم عقب الأمر بتقواه.

قال سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء].

أي يا أيها الذين آمنوا أنفسكم بأن تنفذوا أوامر الله الذي خلقكم والذي تسألون به تقول سألتك بالله أن تفعل كذا وتساءلون أيضاً بالأرحام تقولون بحق الرحم الذي بيني وبينك فاتقوا الله عز وجل بطاعتكم إياه واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها وحق الرحم هو من الحقوق الضائعة في هذا الزمان ألا وهو صلة الرحم .

وقيل لرسول الله ﷺ أي الناس أفضل قال: (أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر) ^(١).

عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: {صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار} ^(٢).

ويحثك الدين الإسلامي على الإنفاق مما تحب لذوى القربى حتى لو كان قاطع رحم، وقال تعالى: ﴿...وَعَائِ الْوَالِدِ عَلَىٰ حَبْلٍ ذَوِي الْقُرْبَىٰ...﴾ [البقرة: ١٧٧]، ولمن يكون ذلك المال الذي ينطبق عليه القول ﴿...وَعَائِ الْوَالِدِ عَلَىٰ حَبْلٍ ذَوِي الْقُرْبَىٰ...﴾ [البقرة: ١٧٧] إنه لذوى القربى فكيف يستطيب المؤمن إذا نعيم الحياة وهو يجد أقاربه محتاجين ^(٣) من الممكن أن تكون لديك أشياء كثيرة أنت مالكها ولكن ليس كل ماتملكه تحبه فعندما تؤتي المال فمن الممكن أنك لا تحبه ولذلك يعيب الحق على جماعة من الناس يريدون العمل على طاعة الله لكنهم لا ينفقون لله إلا مايكرهون ويقول الله في حقهم قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ...﴾ [النحل: ١٢].

ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق تصدق بحائط كان له يعجبه ويعجبه عملاً بقوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [٩٢] [آل عمران].

قال يا رسول الله هو في سبيل الله للفقراء والمساكين فقال ﷺ: {وجب أجرك على الله قسمه في أقاربك، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه} ^(٤).

١- أخرجه الخرائطي - في مكارم الأخلاق - باب ما جاء في صلة الأرحام - ج: ١ - ص ١٠٢ - ح م: ٢٧١ وقال العرافي في المغني عن حمل الأثقال - رواه أحمد والطبراني من حديث درة بنت أبي لهب بإسناد حسن .
٢ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - فضل صلة الرحم - جزء ٨ - ص ٣٦ - رقم الحديث ٢٥٩٨ - وقال شعيب الأرناؤوط إسناده صحيح .
٣ - خلق المسلم في القرآن الكريم - ص ١٠ .
٤ - أخرجه البخاري - باب الزكاة على الأقارب - ج: ٢ - ص: ١١٩ - ح م: ١٤٦١ .

وأفضل الصدقة ما كانت على ذي رحم ولو كان قاطعاً مضمراً للعداوة بباطنه^(١).

قال ﷺ: {الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم صدقة وصلة}^(٢).

والدين الإسلامى يحث على صلة الرحم حتى ولم يكن مسلماً حتى يحيا المجتمع حياة يسودها الحب والتعاون والوئام وتوفر عليها المودة والألفة والانسجام فيجوز للمسلم أن يصل قريبه وأن يحسن إليه بالهدية ويقبل هديته حتى ولو لم يكن مسلماً^(٣).

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة].

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: {قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب وقرط وسمن (والضباب نوع من الحلوى) وهي مشركة فأبت أسماء بنت أبي بكر أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها فسألت عائشة النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة].

آداب صلة الرحم:

وينبغي مراعاة بعض الآداب المتعلقة بصلة الرحم وهي:

(١) النية الصالحة والإخلاص:

فإن الله لا يقبل إلا العمل الصالح الخالص فيجب على الإنسان أن يخلص لله النية في صلة الرحم ولا يصل الرحم رياء أو سمعة أو تظاهراً أمام الناس حتى يقال فلان واصل للرحم. قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أَلْقَدَرِ﴾ [البينة].

١ - خلق المؤمن - ص ٣٦.

٢ - أخرجه أحمد في مسنده - المجلد الثالث عشر - ص ٥٣٥ - رقم الحديث ١٧٨٠٩ - إسناده صحيح.

٣ - تفسير الشعراوي - جزء ٢ - ص ٦٢.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: { إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى }^(١).

(٢) الاحتساب بحيث ينتظر المسلم الأجر ويطلبه من الله تعالى:

كما وعد الله سبحانه وتعالى لا ينتظر الواصل للرحم المقابل والمكافأة من الناس بل يرجو الأجر من الله وحده. قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِضْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى]. وقال تعالى: ﴿يَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِ اجْتَرَىٰ عَلَىٰ آلِيَّ فُطْرَيْنَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود].

(٣) البدء بالأقرب فكلما كان ذو الرحم أقرب كلما كانت صلته أوجب:

يجب على الواصل أن يبدأ به فلا يعقل أن يصل المرء أبناء عمومته ويقطع أخوته. وقد قال النبي ﷺ لمن سألته: { من أحق الناس بحسن الصحبة قال أمك ثم أمك ثم أبوك ثم أدناك أدناك }^(٢). فقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث أن الحق في الصلة وإحسان الصحابة يكون على حسب درجة القرابة وكلما قويت القرابة كلما ازداد وجوب الصلة وتأكد وعظم الحقائق في إحسان الصحبة.

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت].

(٤) أن يقدم في صلته ألقاهم الله:

فكلما كان القريب ألقى الله عز وجل وأصلح في دينه كلما كان أعظم حقاً وكلما زاد الأجر في صلته. وصلة الرحم تكون للقريب الكافر خصوصاً إذا كانت بغرض دعوته إلى الإسلام وللقريب المسلم غير الصالح ولا سيما إذا كانت بغرض نصحه وإرشاده ودعوته إلى الخير.

١ - صحيح البخارى - كتاب بدء الوحي - باب بدء الوحي - الجزء الأول .

٢ - رواه البخارى ومسلم - كتاب البر والصلة والأدب - جزء ١ - باب بر الوالدين وأنهم أحق به - المجلد الثامن

- جزء ٨ - ص ٣١٧ .

(٥) أن تكون الصلة عبودية لله تعالى:

وذلك لأن الذي أمرك بصلة الرحم هو الله عز وجل، فإذا وصلت رحمك فقد أطعت ربك جل وعلا وكنت عبداً لله حقاً. فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ٣١﴾ [الأحزاب].

(٦) تفقد الأقارب:

الذين ينتمون للمرء بقرابة بعيدة فإن بعضاً من الناس يكتفي بصلة رحم إخوته فقط ثم يترك من عداهم والبعض يصل من يعرفهم فقط ولا يهتم بالبحث عن الأقارب من جهة بعيدة وهم يستحقون الصلة بل إنه إذا أحسن النية في البحث عن هؤلاء الأقارب ووصلهم كان ذلك من أفضل أعماله. وقد قال النبي ﷺ: { تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثرة في المال منسأة في الأثر }^(١).

(٧) النصح لهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر:

وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ٦٤﴾ [الشعراء].
وها هو أبو الدرداء واسمه عويمر بن مالك الخدرجي كان له صنم نصبه في أشرف مكان من بيته فنهض إليه يوماً فحياه وألقى عليه ثوباً جديداً من الحرير ولما ارتفعت الشمس غادر أبو الدرداء منزله يريد الذهاب إلى محل تجارته فإذا شوارع المدينة وطرقاتها تضيق بأتباع محمد ﷺ وهم عائدون من بدر

١ - أخرجه الترمذی - کتاب البر والصلة - باب ما جاء في تعلم النسب - جزء ٢٧ - ص ٤٩ - رقم الحديث ١٩٧٩

- حديث صحيح .

وأمامهم أفواج الأسرى من قريش فأعرض أبو الدرداء عنهم وأقبل على فتى منهم وسأله عن عبد الله بن رواحة فطمأنه الفتى عليه لما كان يعلم من الصداقة بينهما في الجاهلية.

فلما جاء الإسلام بادر إليه عبد الله بن رواحة وظل أبو الدرداء على شركه ولم يقطع ابن رواحة الصلة التي بينهما بل ظل يتعهد بالزيارة ويدعوه إلى الإسلام ويحثه عليه ويرغبه فيه وعندما وصل أبو الدرداء إلى متجره يبيع ويشترى اتجه عبد الله بن رواحة إلى منزل أبي الدرداء فلما وصل رأى أم الدرداء في الفناء (أي ساحة البيت) فقال السلام عليك يا أمة الله فقالت وعليك السلام يا أخا أبي الدرداء فقال أين أبو الدرداء فقال ذهب إلى متجره فقال أتأذنين فقالت على الرحب والسعة وأفسحت له الطريق ومضت إلى حجرتها فانشغلت منه بإصلاح شأن بيتها ورعاية أطفالها ودخل عبد الله بن رواحة إلى الحجرة التي وضع فيها أبو الدرداء صنمه وأخرج قدوما أحضره معه ومال إلى الصنم وقطعه به وكسره وهو يقول ألا كل ما يدعى مع الله باطل ثم غادر البيت ثم دخلت أم الدرداء إلى الحجرة التي فيها الصنم فرأته مكسوراً على الأرض فقالت أهلككني يا ابن رواحة ولما عاد أبو الدرداء رأى امرأته جالسة عند باب الحجرة التي فيها الصنم وهي تبكي خائفة منه فقال ما شأنك قالت أخوك عبد الله بن رواحة جاءنا في غيبتك وكسر الصنم فنظر إلى الصنم فوجده حطاماً فغضب وهم أن يستنصر له لكنه ما لبث إلا قليلاً حتى سكت غضبه ثم قال لو كان في الصنم خير لدفع عنه الأذى ثم انطلق فوراً إلى ابن رواحة ومضيا إلى رسول الله ﷺ وأعلن دخوله في الإسلام وندم ندماً كبيراً على ما فاتته من خير.

(٨) البدء بهم في الصدقة والمعروف إن كانوا محتاجين:

فعن أنس رضي الله عنه: قال ﷺ لرجل: { ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلاهلك فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك ... }^(١).

١- أخرجه مسلم - باب الابتداء في النفقة - ج: ٢ - ص: ٦٩٢ - ح م: ٩٩٧.

ولا ريب أن الصدقة على مثل هؤلاء الأقارب تنزع العداوة من قلوبهم وتحببهم في ذي رحمهم وتحمي فيهم مشاعر المودة للأقارب، وهنا يبين عظم الصدقة على ذوي الأرحام قوله ﷺ: { الصدقة على المسكين صدقة وهي على ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة }^(١).

وجعل النبي ﷺ الصدقة حيث قال ﷺ: { أفضل الصدقة: الصدقة على ذي الرحم الكاشح }^(٢).

(٩) كف الأذى عنهم:

وهم أولى الناس بكف الأذى عنهم وكف الأذى عن الناس عموماً من الواجب على المسلم، فينبغي أن لا يؤذي أقاربه سواء بقول أو بفعل وأن يراعي مشاعرهم بكل صورة ممكنة.

(١٠) إدخال الفرح عليهم:

بكل وجه ممكن كالزيارة ولا سيما في الأعياد والمناسبات وعدم قطع الزيارة عنهم مهما كانت الأسباب. وقد قيل للإمام أحمد: رجل له أخوة وأخوات بأرض غصب ترى أن يزورهم قال نعم يزورهم ويرادهم على الخروج منها فإن أجابوا إلى ذلك وإلا لم يقيم معهم ولا يدع زيارتهم^(٣).

فينبغي للمرء أن يتعاهد أقاربه بالزيارة فإن لم يستطع فبالاتصال عليهم بالهاتف وإلا فبالكتابة إليهم من حين لآخر فإن ذلك يقوي العلاقة ويزرع المودة ويذكر الأقارب بعضهم ببعض من حين لآخر .

(١١) أن يكون عمله طاعة لله ورسوله:

وعبودية خالصة له ويظهر قلبه عن كل ما حرم الله من الحقد والكراهية والبغضاء وأن يترك الأسباب التي تؤدي إلى قطيعة الرحم لأن ذلك يغضب الله سبحانه وتعالى^(٤).

١ - أخرجه ابن حبان - ج: ٨ - ص: ١٤٣ - ح م: ٣٣٤٤ وقال شعيب الأرنؤوط صحيح
٢ - أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي والجامع الصحيح للسند والمسانيد باب فضل الصدقات - جزء ٦ - ص ٣٤٧ ، وصحيح الجامع رقم ١١١٠ .

٣ - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - ج: ٧ - ص: ٢٦٣٢ .

٤ - موسوعة الآداب الإسلامية باختصار وتصرف - ص ٥٣١ ، ٥٣٥ .

قطيعة الرحم:

إن الله جل وعلا يحب من أطاعه ويبغض من عصاه ومن المعلوم أيضاً أن الناس يحبون من يحبهم ويصلهم ويحسن إليهم ويبغضون من يقطعهم ولا يصلهم ولا يحسن إليهم. وقطع الرحم تقطع الصلة بين العبد وبين الرب جل وعلا، وتوجب لعنة الله وغضبه وانتقامه (١).

عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ (٢) بك من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت بلى فذلك لك ثم قال رسول الله ﷺ: (اقرؤوا إن شئتم) قال تعالى:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٣) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٢﴾ [محمد].

وعلى المسلم أن يداوم على وصل ذي الرحم القاطع وتحمل أذاه .. وقد جاء إلى رسول الله ﷺ رجل فقال { يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ وأحلم عنهم ويجهلون علي فقال لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك } (٣). ومعنى قوله تسفهم المل، أي تطعمهم التراب أو الرماد الحار لما يلحقهم من الإثم بسببه ويقول (ظهير) أي معين عليهم دافع لأذاهم ما دمت على ذلك .

وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم (أكل الرماد والحر من الألم) ولا شيء على هذا المحسن إليهم لكنهم بناهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه وإدخالهم الأذى عليه، وهذا صريح في استحباب المداومة على صلة ذي الرحم الذي هذه صفته وعدم معاملته بالمثل .

١ - نزهة المتقين - جزء ١ - ص ٢٥٦ .

٢ - العائذ : المستجير .

٣ - رواه مسلم - كتاب البر والصلة - المجلد الثامن - ص ٣٢٨ .

لأنك لو عاملته بالمثل لقطعت الرحم تماماً ولكن إذا قابلت إساءته بالإحسان من كل وجه فقد يؤثر ذلك فيك ويستحي ويتحول إلى ما تحب. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت].

والمسلم الذي يقابل إساءة ذوي الرحم بالإحسان والصلة لا شك أنه أولى بالله عز وجل. فالتكليف يأمر بترك ما تحب وأن تنفذ بعض ما يصعب عليك وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهك عنه وكل هذا يقتضي مجاهدة النفس والصبر الذاتي على مشاق التكليف ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن الصلاة قال تعالى: ﴿... وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة].

وهذا صبر الذات على الذات ولكن هناك صبر آخر صبر منك على شيء يقع من غيرك ويخرجك هذا الشيء عن استقامة نفسك وسعادتها. قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَصَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى].

قال تعالى: ﴿.. إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود].
وها هو رسول الله ﷺ يقول لمعاذ رضي الله عنه: { اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن } (١).

وأن لا تكون الصلة على وجه المكافأة وهذه ليست صلة وإنما حقيقة الصلة أن يصل رحمه ابتغاء مرضاة الله وبكل شيء ممكن ولا يقتصر في صلته على من يبادلونه الصلة ويقطع من يقطعه فإن النبي ﷺ قال: { ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها } (٢).

فينبغي للمرء أن يصل الرحم بغض النظر عما يجده من أقاربه من سوء معاملة أو عدم مقابلة للصلة بمثلها لأنه لو قابل التقصير بمثله لانقطعت صلة الرحم بينهما بالكلية فيكون الطرفان مستحقين الإثم

١- أخرجه الدرامي - باب في حسن الخلق - ج: ٣ - ص: ١٨٣٧ - ح م: ٢٨٣٣ ، وأخرجه أحمد والترمذي وقال حديث حسن صحيح .

٢- أخرجه البخاري في الأدب - باب فضل صلاة العشاء في جماعة - ج: ١٠ - ص: ٣٥٥ .

وقطيعة الرحم مما يجعل المجتمع متفككا مقطوع الأواصر والعلاقات الاجتماعية ومن ثم يضعف المجتمع وتضعف الأمة ويكون هذا الضعف عقبة أمام تقدم هذا المجتمع وعقبة في مواجهة الأعداء. وقطيعة الرحم تجعل صاحبها بأخبث المنازل.

فقد قال ﷺ: {إنما الدنيا لأربعة نفر وذكر منهم: وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم الله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل} (١).

أسباب قطيعة الرحم:

- (١) الجهل بحقوق الأقارب . (٢) ضعف التقوى .
 - (٣) الكبر . (٤) الانقطاع الطويل الذي يسبب الوحشة والنسيان.
 - (٥) اللامبالاة وعدم الاكتراث والاهتمام بالزائرين من الأقارب .
 - (٦) العتاب الشديد من بعض الأقارب مما يسبب النفرة منه .
 - (٧) الشح والبخل مما آتاه الله فتراه لا يصل قرابته لئلا يخسر من ماله .
 - (٨) الطلاق بين الأقارب . (٩) تأجيل قسمة الميراث .
 - (١٠) التكليف من قبل الموصول مما يجعل الواصل لا يحرص على زيارته لئلا يقع في الحرج .
- فعلى الأقارب أن يحاولوا اجتناب هذه الأسباب المؤدية للقطيعة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وعلى الأقارب أن يجعلوا هذه الصلة عبودية لله وطاعة له ولرسوله .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ [النور].

وحق القرابة قد ضاع في هذا الزمان من قبل كثير من الناس إلا من رحم ربي، فكثير من الناس يشكون من عدم الحب واللامبالاة التي طرأت على الجميع من قطيعة الرحم وحب النفس حتى انشغل كل واحد بنفسه ونسى الآخرين من ذوى رحمه بل ويعتبرهم أعداء له لا يحب لهم الخير وتجد

١ - أخرجه أحمد في مسنده - رقم الحديث ١٧٩٥٤ - المجلد الرابع عشر - ص ٤١ ، ٤٢ .

أيضاً منهم من لا يصل قرابته لا بالجاء ولا بالمال ولا بالخلق تمضي الأيام والشهور وكل واحد في حاله ولا يسأل على الآخر ولا يرسل إليهم بهدية ولا يجلب لهم منفعة ولا يدفع عنهم مضرة بل ربما إلى جانب ذلك أساء إليهم بالقول أو بالفعل أو بأيهما معاً، يصل البعيد ويقطع القريب. ومن الناس من يعامل قرابته بالمثل إن وصلوه وصلهم وإن قطعوه قطعهم والواصل حقيقة هو من يصل قرابته ابتغاء وجه الله ولا يبالي سواء وصلوه أم لا .

وهذا مما يحدث في زمننا هذا، فعلينا بالعودة من هذه الغفلة إلى طريق النور الذي به نصل إلى النفس الراضية المطمئنة التي تحب الخير لغيرها كما تحب لنفسها وأن تجعل العمل كله ابتغاء مرضات الله عز وجل فتسود المحبة بين الجميع .

الباب الثانى

- الفصل الأول: طهارة القلوب.
- الفصل الثانى: السماحة.
- الفصل الثالث: التقوى.
- الفصل الرابع: أداء الأمانة.

الفصل الأول

طهارة القلوب

الحمد لله فاطر السموات والأرض، شرف الإنسان بنعمه التي أنعم بها على عبده، بنعمه الكثيرة التي فاقت أصناف الخلق لا تحصى ولا تعد، شرفه بنعمة القلب الذي هو أساس المعرفة بالله تعالى التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره، وفي الآخرة عدته وزخره، وأشهد أن لا إله إلا الله مقلب القلوب وغفار الذنوب وستار العيوب، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وجامع شمل الدين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيرا.

أما بعد ،،،

قال تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة].

وقال رسول الله ﷺ: {ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب} ^(١).

معنى طهارة القلوب:

الطهارة في اللغة: النظافة والنزاهة عن الأقدار ^(٢).

الطهارة في الشرع: هي عبارة عن رفع ما يمنع الصلاة من حدث أو نجاسة بغسل أعضاء مخصوصة بصفة مخصوصة وقيل هي عبارة عن النظافة والصيانة عن كل ما هو مستقبح وقبيح. القلب: هو لطيفة ربانية بها قوام البدن. ومن خصائصه أنه يصدر عنه الذبذبة والتقلب ولذلك كان المعصوم ﷺ يقول: {اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك} ^(٣).

^١ - أخرجه البخارى - باب فضل من استبرأ لدينه - ج ١ - ص ٣٠ - ح م ٥٢ .

^٢ - معجم التعريفات - ص ١٢٠ .

^٣ - الجامع الصحيح للسنن والمسائيد - باب تصريف الله تعالى للقلوب - ج: ٣ - ص: ٣٣٧ .

طهارة القلب: هى تطهير القلب من كل ما هو مذموم ويغضب الله تعالى ومنها تطهير القلب من أقدار الشرك والشك والحسد والغل والحقد والغش والكبر والعجب والرياء والسمعة وذلك بالإخلاص واليقين وحب الخير وإرادة وجه الله تعالى بالنيات والأعمال الصالحة لأن الطهارة عبادة والعبادة قربة إلى الله تعالى وطاعة له وامتنال لأمره ولا بد من النية^(١).

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: {إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى}^(٢).

عناية الإسلام بطهارة القلوب:

إن الإسلام عنى بطهارة القلوب لتزكية الأخلاق وسمو الأعمال وبلوغ القصد، فالقلب هو الأساس لاستقامة الظواهر، والإنسان إذا تراكت الذنوب على قلبه قسى وعمى وصار يتخبط فى ظلمات الباطل ويفترى على الله وعلى الناس.

قال تعالى فى شأن أهل الكتاب: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِّيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۗ اللَّهُ ۖ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرَ﴾ [المدثر: ٤].

قال المارودى: فى تفسيره وجهان أحدهما لابن عباس وقتادة والمعنى: وقلبك فطهر من الإثم والمعاصى، والثانى لابن سيرين: وتيابك فطهر أى اغسلها بالماء^(٣).

ورسول الله ﷺ كان يعلم أمتة ما ينفعها فى الدنيا والآخرة.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كان نكتة سوداء فى قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقلت قلبه، فإن زاد زادت حتى يغلق قلبه، فذلك الران الذى ذكره الله تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ}^(٤).

فتهاى الفلاح فى سلامة القلب وصدق اللسان وطمأنينة النفس.

^١ - أحياء علوم الدين ج٣.

^٢ - أخرجه البخارى - باب كيف كان بدء الوحي - ج ١ - ص ٦.

^٣ - ابن كثير.

^٤ - شرح السنة للبغوى - باب التوبة - ج ٥٥ - ص ٨٦ - ح م ١٣٠٤ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن.

عبودية القلب أعظم وأدوم من عبودية الجوارح:

قال الغزالي:

المعرفة تكون بالقلب لا بجارحة من الجوارح فمحل العلم هو القلب أعنى اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهى المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء فالقلب هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله وهو الساعى إلى الله تعالى وهو المكاشف بما عند الله ولديه وإنما الجوارح هى أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله تعالى وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذى يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه وهو الذى يخيب ويشقى إذا دنسه وداسه وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى وإنما الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره وهو العاصى المتمرد على الله تعالى وإنما السارى إلى الأعضاء من الفواحش آثاره بإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساوئه إذ كل إناء ينضح بما فيه^(١).

وقال ابن القيم رحمه الله:

من تأمل الشريعة فى مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب وأنها لا تنفع بدونها وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح وهل يميز المؤمن من المنافق إلا بما فى قلب كل واحد من الأعمال التى ميزت بينهما وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم فهى واجبة فى كل وقت^(٢).

آثار المعاصى على القلب:

■ أولاً: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه عن السير فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر والقلب إنما يسير إلى الله تعالى بقوته فإذا

^١ - إحياء علوم الدين - ج ٣ - ص ٣.

^٢ - بدائع الفوائد لابن القيم - ج ٣ - ص ٣٠٤.

مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التى تسيره ولأن من عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة إلا لسبب ذنب ولا حلت به نعمة إلا بذنب.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: { ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة } وقد قال

تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى).

■ ثانياً: المعصية تذهب الحياء وهو مادة القلب والذى هو أصل كل خير وذهابه ذهاب كل خير بأكمله.

■ ثالثاً: المعصية تلقى الرعب فى قلب العاصي: إن من عقوبات المعصية ما يلقيه الله تعالى من الرعب والخوف فلا تراه إلا خائفا ومرعوباً فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين.

■ رابعاً: المعصية تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضاً فإن تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى الأبدان بل الذنوب أمراض القلوب ودأؤها ولا دواء لها إلا تركها فإنها لا تصل إلى مولاهما حتى تكون صحيحة سليمة^(١).

■ خامساً: من عقوبات المعصية أن يخون الإنسان قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم قل: لا إله إلا الله. فقال: آه آه لا أستطيع أن أقولها فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه وتعالى قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان مفرطاً.

فعليك أختي المؤمن بتطهير قلبك من المعاصي والذنوب حتى يرزقك الله تعالى بحسن الخاتمة.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ

الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) [إبراهيم].

^١ - أحاديث الجمعة ومواعظها - عبد الحميد كشك - المختار الإسلامى للطبع والنشر.

أمراض القلوب وطهارتها منها:

اعلم أيها المؤمن أن تمام الفلاح والفوز برضوان الله تعالى في سلامة القلب وطهارته من الصفات المذمومة فالمؤمن سخي النفس سليم الصدر طاهر القلب من أمراضه ومن صفاته المذمومة التي تمرضه وأمراض القلب كثيرة منها الحسد والغضب والكبر والحرص والطمع والرياء والحقد والعجب والتعلق بشهوة الدنيا ونسيان الآخرة وسوء الظن والبعد عن الله.

أولاً: الحسد والحقد:

والحسد أن تكره النعمة عن أخيك وتحب زوالها، فإن الحسد خلق مذموم مع أضراره بالبدن وفساد للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شره.

فقال تعالى: ﴿وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق].

وقال بعض السلف: الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء يعني حسد إبليس لآدم عليه السلام وأول ذنب عصي الله به في الأرض يعني حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله.

وقيل العين حق وقد يقع سرها من صالح بدون قصد إن نسي أن يذكر الله تعالى لكن المؤمن سليم الصدر إن حدث منه ذلك لا يشق عليه أن يعلن أنه المقترف لهذا الفعل دون أن يجد في نفسه غضاغة لإيضاح ذلك وهنا يجد المصاب حلاً لما دهاه فينجو بصدق أخيه وطهارة قلبه وسخاوة نفسه^(١).

والحقد: هو غضب تراكم في الصدر فلم يقطع صاحبه أسبابه بل يتراكم حتى يتمنى أن يشفى غليله بإيذاء المحقود والاعتداء عليه لتمتع النفس الأمارة بالسوء.

ولكن من صفات المؤمن سلامة صدره من الحقد والحسد والبغضاء والشحناء والضغينة. قيل {يا رسول الله: أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب صدوق اللسان، قالوا يا رسول الله: صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟ قال: هو التقى النقى لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد}{^(٢).

^١ - أدب الدنيا والدين للماوردي - تحقيق محمد فريد - المكتبة التوفيقية.

^٢ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب من الأخلاق الحميدة - ج ٩ - ص ٤٨٦ - صحيح الجامع

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: { كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار ينظف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمر - تابع الرجل - فقال إني لاحيت أبى^(١) فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تأويني إليك حتى تمضي .. قال نعم. قال أنس فكان عبد الله يحدث أنه بات معه ثلاث ليالٍ فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعارى تقلب في فراشه ذكر الله عز وجل حتى ينهض لصلاة الفجر قال عبد الله غير أنى لم أسمعته يقول إلا خيراً فلما مضت الليالي الثلاثة وكدت أحترق عمله قلت يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبى غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرات فأردت أن أوى إليك فأنظر ما عمالك فأقتدى بك فلم أرك عملت كبير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. قال عبد الله: فلما وليت دعانى فقال: ما هو إلا ما رأيت إلا أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التى بلغت }^(٢).

فعليك أيها المؤمن بطهارة قلبك من هذه الصفات المذمومة بعمارتها بالصفات المحمودة فتشفى من مرضك بإذن الله تعالى. فعليك بالآتى:

{أ} العلم: العلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف أن الحسد ضرر عليك فى الدين والدنيا، والعلم بأن النعمة لا تزول عن المحسود لحسدك إياه والعلم بأن الحسد يؤلم القلب مع عدم النفع والعذاب الذى تناله فى الآخرة.

^١ - لاحيت : أغضبت .

^٢ - عجالة الراغب المتمنى فى تخريج كتاب عمل اليوم والليلة لابن السنى - باب ما يقول إذا تعارى من الليل - ج ٢ - ص ٦٦٨ .

{ب} الرضا بقضاء الله والزهد في الدنيا: وعليك بالتنافس في الخير وفي الارتقاء عن العباد ليزيد

حظك عند ربك قال تعالى: ﴿..... وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: { لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله عز وجل القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار }^(١).

ثانيا: الكبر:

وهو من مرض القلوب وهو عبارة عن احتقار الناس واستعظام نفسه فهو يرى نفسه في صفات الكمال فهو يحقر من دونه وآفة الكبر عظيمة.

وقد قال رسول الله ﷺ: { لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر }^(٢).

فعليك أخى المؤمن باستئصال هذا الداء الذى نهى عنه رسول الله ﷺ بطهارة قلبك من هذا المرض المذموم والذى يحجبك عن المولى تعالى.

قال النبی ﷺ لعمة العباس: { أنهاك عن الشرك بالله والكبر فإن الله يحتجب منهما }.

فعليك أن تعرف نفسك فإذا علم الإنسان نفسه حق المعرفة لعلم أنه أذل كل ذليل وحكى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشى الخيلاء فقال: يا أبا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب: ألا تعرفني؟ فقال: بل أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قدرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة^(٣).

فأنت أيها الإنسان أولك نطفة قدرة وآخرك جيفة منتنة تلقى في التراب تبلى أعضاؤك وتنخر عظامك ويأكل الدود أجزاءك فلماذا هذا التكبر فعليك بتطهير قلبك بخلق التواضع لله تعالى ولعباده

^١ - أخرجه البخارى - باب الاعتبار في العلم والحكمة - ج ١ - ص ٢٥ - ح م ٧٢ .

^٢ - الجامع الصحيح للسنن والمسائيد - باب علاج الكبر - ج ٦ - ص ٧٨ - صحيح الترغيب والترهيب - ح م ٢٧١٠ .

^٣ - أدب الدنيا والدين - ص ٨٩ .

وذلك بالمواظبة على التأسي بأخلاق المتواضعين ولنا في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة في تواضعه وأخلاقه الحسنة.

ثالثا: البعد عن الله:

البعد عن الله من الأمراض التي تमित القلوب وتعمى بصيرتها.

جاء رجل إلى سفيان الثوري رضى الله عنه يشكو من مرض البعد عن الله فقال له سفيان الثوري رضى الله عنه: يا هذا عليك بعروق الإخلاص وورق الصبر وعصير التواضع ضع ذلك في إناء التقوى وصب عليه من ماء الخشية وأوقد عليه بنار الحزن وصفه بمصفاة المراقبة وتناوله بكف الصدق واشربه من كأس الاستغفار وتمضمض بالورع وأبعد نفسك عن الحرص والطمع تشفى من مرضك بإذن الله (١).

رابعا: سوء الظن:

اعلم أن سوء الظن من الصفات المذمومة التي تكون سببا في مرض القلوب والتي نهانا المولى عز وجل عنها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ.....﴾ [الحجرات].

فمن حكم بالشر على غيره بالظن السيئ فتح باب الشيطان بالوسوسة إليه فيطول اللسان فيهلك ويتوانى في إكرامه وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه وكل ذلك من المهلكات ومن أجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم.

قال ﷺ: { اتقوا مواضع التهم } حتى احترز صلوات الله وسلامه عليه من ذلك، روى عن علي بن الحسين أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي ﷺ كان معتكفا في المسجد قالت فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشى معي فمر به رجلان من الأنصار فسלما ثم انصرفا فناداهما وقال:

^١ - الخطب المنبرية - ج ٢ - ص ١٢٣ .

إنها صفة بنت حبي. فقالا: يا رسول الله ما نظن بك إلا خيرا. فقال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإنى خشيت أن يدخل عليكما.

هذا هو رسول الله ﷺ علم أمته طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله، وقيل من يضع نفسه في التهم فلا يلوم من أساء الظن وخاصة في هذه الأيام التي شاع فيها الفساد وكثر فيها الظن لأنهم تركوا الاحتراز من التهمة التي وضعوا الناس فيها فلا يلوموا من أساء الظن بهم.

ويجب علينا تطهير القلب من هذا المرض المذموم بالاحتراز عن ظن السوء وعليه أن يطلب المعاذير ولا يطلب العيوب ويترك أمره لله عز وجل فالله تعالى أعلم.

خامسا: الغضب والشهوة:

فإن الغضب هو غول العقل فإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان وكلما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة، وقد قيل إن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب: أى أخلاق بنى آدم أعون لك؟ قال: الحدة فإن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقرب الصبيان الكرة.

وذكر لنا بعض الأولياء:

قيل لإبليس: أرني كيف تغلب ابن آدم قال: آخذه عند الغضب وعند الشهوة. فعليك يا ابن آدم بتطهير قلبك من هذا المرض المذموم وعمارته بالمحمود فتعالج نفسك إذا هاج غضبك أن تعرف فضيلة كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال. أن يخاف من عقاب الله تعالى ويقول إن قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان فأنا أحوج إلى عفو الله عز وجل وعليه أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وفق مراد الله عز وجل لا على وفق مراده.

وينبغي له السكون والتعوذ وتغيير الحال إن كان قائما جلس وإن كان جالسا اضطجع وتوضأ ويلصق نفسه بالأرض وأن يحذر نفسه عاقبة العداء والانتقام وتشميت العدو في هدم أعراضه والشاة بمصائبه.

حسن الخلق وطهارة القلوب:

الهدف الأسمى للبعثة المحمدية إنها كان إحياء مكارم أخلاق، قال ﷺ: {إنها بعثت لأتمم مكارم الأخلاق} (١).

وقال يحيى بن معاذ: سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة الحسنات.

وقال الفضيل: لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إليّ من أن يصحبنى عابد سيئ الخلق.
كما أن حسن الأخلاق سبب في لين القلوب وطهارة النفوس وشرح الصدور.
عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ قال: {أحب أن تلين قلبك وتذكر حاجتك أرحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلين قلبك وتذكر حاجتك} (٢).

وحسن الأخلاق عامل رئيسى في إسلام غير المسلمين ونشر دين الإسلام في أرجاء المعمورة وقد ذكر أنه كان للإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان جار ماجوسى أخذ إلى السجن فلما علم أبو حنيفة بذلك زاره في السجن وأخرجه منه فلما رأى الماجوسى ذلك أسلم وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.
وحسن الخلق وصية رسول الله ﷺ التى كثيرا ما يوصى بها أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين كما جاء عن صاحب الخلق العظيم {اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها} (٣).

فعلى المؤمن أن يجاهد نفسه ويتكلف إلى أن يصير حسن الخلق خلقا له وطبعا فيه فالذى يريد أن يتسم بالأخلاق المحمودة عليه بتطهير قلبه من الأخلاق المذمومة واتباع الشهوات التى ينال بها رضا الرحمن ويسد بها أبواب الشيطان.

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب وإنك لعلى خلق عظيم - ج ٢٣ - ص ٤٥ - صحيح الجامع ح م ٢٨٣٣ .

^٢ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب الرحمة بالأيتام - ج ١٠ - ص ٢٤٤ - صحيح الجامع ح م ٨٠ .

^٣ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب تكفير الذنوب بالحسنات - ج ٨ - ص ١٩٦ - ح م ٢١٥٢٦ إسناداه صحيح .

قال ﷺ: { المؤمن بين خمس شدائد: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يقاتله، وشيطان يضلّه، ونفس تنازعه }^(١).

وقال ﷺ: { المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل }^(٢).

وأجمع العلماء والحكماء بأن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم، قال أبو يحيى الوراق: من أَرْضَى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجرة الندامات، وقال أيضاً: من أحب شهوات الدنيا فليتهياً للذل، فإنه لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن النعيم المباح فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة وفضول الكلام أحق أن يلزمه عن السكوت إلا عن ذكر الله.

وأيضاً الذي أراد أن يتسم بخلق الجود فعليه بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليها تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له فيصير به جواداً.

والذي أراد أن يتسم بخلق التواضع وغلب عليه الكبر فعليه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهداً نفسه إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً.

علامات حسن الخلق:

حسن الخلق هو الإيمان وسوء الخلق هو النفاق وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، قليل الفضول، برا ووصولا ووقورا وصبوا وشكورا وراضيا، حليماً رفيقاً عفيفاً شقيقاً لا لعاناً ولا سباباً ولا نهاماً ولا مغتاباً ولا عجبلاً ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويغضب في الله. هذا هو حسن الخلق الذي به يكون القلب طاهراً نقيّاً صافياً بإذن الله.

^١ - أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف .

^٢ - أخرجه الترمذی وصححه ابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد .

عمارة القلوب:

فعليك أيها المؤمن بعمارة قلبك بتطهيرها من الصفات المذمومة وعمارتها بالصفات المحمودة وعليك

باتباع هذه الفضائل:

أولاً: فضيلة الذكر:

وحقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة وإلا

فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع السلطان الشيطان ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف].

خصص بذلك المتقى. فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز ولحم فإنه ينزجر بأن تقول له اخساً فبمجرد الصوت يدفعه فإن كان بين يديك لحم وهو جائع يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر. فالذكر يكون مطردة للشيطان إذا خلا قلبه من الشهوات.

قال أبو هريرة رضى الله عنه: التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فإذا شيطان الكافر دهين سمين كاسى وشيطان المؤمن مهزول أشعس أغبر عارى فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن: مالك مهزول؟ قال أنا مع رجل إذا أكل سمى الله فأظل جائعاً، وإذا شرب سمى الله فأظل عطشان، وإذا لبس سمى الله فأظل عريانا وإذا دهن سمى الله فأظل أشعس فقال ولكن أنا مع رجل لا يفعل شيئاً من ذلك فأشاركه في طعامه وشرابه ولباسه.

ثانياً: فضيلة التقوى:

الذكر دواء والتقوى احتماء وهى تخلص القلب عن الشهوات. فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة

بالشهوات الدنيا فلا ينطرد عنك الشيطان إذا صليت، فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر منك الشيطان كما فر من عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ولذلك قال وهب بن منبه: اتق الله ولا تسب الشيطان فى العلانية وأنت صديقه فى السر.

ثالثا: فضيلة الدعاء:

فالدعاء إلى الله عز وجل والتمسك به بالدعاء بأن يطهر قلبك ويعمره بالأخلاق الحسنة وأن يدفع عنك عدوك لأنك تعلم أن قوة الله تقهر كل قوة فهذا محمد بن واسع كان يقول كل يوم بعد صلاة الصبح: اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم اللهم فأيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير، قال فتمثل له إبليس يوما في طريق المسجد فقال له: يا ابن واسع هل تعرفني؟ قال: من أنت؟ قال: أنا إبليس؟ فقال: وما تريد؟ قال: أريد ألا تعلم أحدا هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك. قال: والله لا أمنعها ممن أراد فاصنع ما شئت.

عليك بمعرفة شروط الدعاء حتى يستجيب لك المولى سبحانه وتعالى وتكون مستجاب الدعوة كما أن الله تعالى قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ (٦٠) [غافر].

وأنت تدعو ولا يستجاب لك لفقدك شروط الدعاء، كذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقدك شروط الذكر. قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو ولا يستجاب لنا وقد قال الله تعالى: ﴿...ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ (٦٠) [غافر]. قال: لأن قلوبكم ميتة. قيل وما الذي أماتها؟ قال: ثنائي خصال: عرفتم الله ولم تقوموا بحقه، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده، وقلتم نحب الله ورسوله ولم تعملوا بسنته، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له، وقال تعالى:

﴿...الشَّيْطَانُ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا...﴾ (٦٠) [فاطر]. فواطئتموه على المعاصي، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم فكيف يستجاب لكم.

فالقلوب الطاهرة النقية من أدناس الشر ومن الصفات المذمومة هي القريبة من المولى عز وجل وتكون سببا في سد أبواب الشيطان وفي التنعم بالحياة الدنيا.

واعلم أيها الإنسان أن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولى عليه ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله وسد أبوابه ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه. فحماية القلب عن وساوس الشيطان وعن النفس الأمارة بالسوء وأمراض القلوب يكون سببا في طهارة القلوب التي توصلنا إلى المحبوب.

الفصل الثانى

السماحة

الحمد لله رب العالمين، هادى الناس إلى الصراط المستقيم، أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لإظهار الحق بأخلاقهم السمحة لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن سيدنا محمدا الرسول الخاتم رسول السماحة اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على سنته ومنهاجه إلى يوم الدين ... أما بعد:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) [فصلت].

عن النبي ﷺ قال: {رحم الله عبدا سمحا إذا باع سمحا إذا اشترى سمحا إذا اقتضى} (١).

تعريف السماحة:

لغة: بذل ما يجب تفضلا (٢).

اصطلاحا: السماحة طيب فى النفس عن كرم وسخاء وانشراح فى الصدر عن نقاء وتقوى وذلة للمؤمنين دون هوان والتجاوز عن النذر اليسير من المال وقيل المساهلة فى التعامل والجود والاتساع فى أن يقال بالحق فإن فى الحق سمحا أى متسعا ومندوحة عن الباطل (٣) والتيسير فى طريق الدعوة إلى الله دون مجاملة.

الدين الإسلامى دين السماحة:

فهو مبنى فى تشريعاته وأحكامه على اليسر والسماحة وقد أمر الشارع الحكيم بالتيسير فى كل الأمور والتعاملات قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣) [الأعراف].

١- أخرجه البخارى - ح م ٢٧٠٦ .

٢- معجم التعريفات - ص ١٠٥ .

٣- فيض القدير - ج: ١ - ص: ٦٧ .

وهذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس وما ينبغى في معاملتهم. فقد حفل الإسلام بالدعوة إلى التسامح منذ بدء فجره لأن السماحة عنوان الإيمان وشيمة المؤمن وصفة المحسن، قال ﷺ: {الإيمان. الصبر والسماحة} (١).

والله عز وجل أمرنا بالتسامح في المعاملة مع غير المسلمين فلم يمنع المسلمين من البر بغير المسلمين ما داموا في سلم مع المسلمين وحسن صلة، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَنِّلُواكُم فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) [الممتحنة].
وأمر الإسلام بالرفق في الدعوة إليهم وأمر بمناقشة المخالفين بالحسنى.

قال تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١٢٥) [النحل].
وبين الله عز وجل للنبي ﷺ أنه مكلف أن يبلغ الدعوة ويشر بالإسلام وليس مكلفاً أن يحمل الناس عليها بالقوة (٢).

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ (٣٥٦) [البقرة].

وقال تعالى: ﴿فَدَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) [الغاشية].

فالحق عز وجل يوضح لنا نحن العباد المؤمنين ولسائر البشرية أنه لا إكراه في الدين، والإكراه هو أن تحمل الغير على فعل لا يرى هو خيراً فيه أن يفعله، فالله عز وجل لم يكره خلقه وهو خالقهم على دين وكان من الممكن أن الله عز وجل يقهر الإنسان المختار كما قهر السموات والأرض والحيوانات والنبات والجماد ولا أحد يستطيع أن يعصى أمره فيقول عز وجل:

﴿...لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً...﴾ (٢١) [الرعد].

١ - أخرجه أبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق

٢ - سماحة الإسلام - تأليف الدكتور / أحمد محمد الحوفي - وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الرسول له مهمة البلاغ عن الله لأن الله لم يرد خلقه مكرهين على الدين، إذًا فالمبلغ عنه لا يكره خلقه على التدين^(١).

هذا هو الدين الإسلامى دين التسامح الحق. فبالعلم الحقيقى تعرف معنى الدين الإسلامى ولكن بدون علم وجدال بالباطل وأخذ ثغرة والجدال فيها دون فهم المراد والوصول إلى النتيجة القصوى بدون معرفة هذا هو الذى أدى بنا إلى الهبوط والسقوط، فتعلم أيها المؤمن قبل أن تجادل وتناقش والجدال فى الدين والجدال فى السياسة والجدال فى العلوم والآداب عندما يتصدى له هذا النفر من الأدعياء البلغاء يفسد به الدين وتفسد السياسة والعلوم والآداب. ولعل السبب فى الانهيار العمرانى والتخريب الفكرى والانقسام الطائفى وغير ذلك مما أصاب الأمة الإسلامية هو الجدال الملعون فى حقائق الكون وشئون الحياة فكثر الذين يجادلون بغير علم فنتج عن ذلك كثرة الفساد.

روى عن عدد من الصحابة قالوا: { خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتمارى فى شيء من أمور الدين فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله ثم انتهرنا فقال: مهلا يا أمة محمد إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ذروا المراء^(٢) لقله خيره، ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى، ذروا المراء فإن الممارى قد تمت خسارته }^(٣).

فاعلم أيها المؤمن أن الدين الإسلامى دين تسامح مع كل الشعوب سواء مسلمين أو غير مسلمين. هذا هو الإسلام الحق ولكن من كثر لغطه وفساده فهو لا يفقه عن الدين شيئا لأن الدين الإسلامى دين سماحة فى معاملة كل الناس بالحسنى فيقابلهم بوجه طليق ويساعد محتاجهم ويعين ضعيفهم ويرد سائلهم ولو بالقليل.

قال رسول الله ﷺ: { ردوا السائل ولو بظلف محرق }^(٤).

^١ - تفسير الشعراوى - ص ٢٥ .

^٢ - المراء : الجدال . والتمارى والمماراة : المجادلة على مذهب الشك والريبة ويقال المناظرة .

^٣ - ضعيف الترغيب والترهيب - باب التهيب من المراء والجدال - ج : ١ - ص : ٧٤ .

^٤ - المسند الموضوعى الجامع للكتب العشرة - باب فضل الصدقة - ج : ٥ - ص ٣٦٥

والدين الإسلامى يدعو إلى السباحة فى البيع والشراء والتجاوز عن المعسر بوضع جزء من المال عنه أو التصديق عليه والعفو عن الحق الذى عنده.

ومن سباحة الدين الإسلامى أنه دين وسطية:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (١٤٣) [البقرة].

الله عز وجل وصف الأمة المحمدية بأنها أمة وسط لتوسطهم فى الدين فلا هم أهل غلو فيه ولا هم أهل تقصير فيه ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه فالزيادة عن المطلوب فى الأمر إفراط والنقص عنه تقصير وتفريط وكل من الإفراط والتقصير ميل عن الجادة القويمة فهو شر مذموم وأحب الأمور إلى الله عز وجل أوسطها وأعدلها والوسط هو العدل الذى جاءت به جميع الشرائع السماوية فأنزل الله بها كتبه وأرسل بها رسوله.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾ (٢٥) [الحديد].

أى بالعدل فما من كتاب أنزل ولا رسول إلا أمر أمته بالعدل وأوجه عليهم وقد كان العدل من أهم ما يجب على الأمة الإسلامية ومن أعظم ما يميزها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾ (٥٨) [النساء].

فالعدل حق لكل الناس وجميع الناس، لا عدل بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب ولا عدل مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وإنما هو لكل إنسان بوصفه إنساناً، فهذه الصفة صفة الناس التى يترتب عليها حق العدل فى المنهج الربانى وهذه الصفة التى يلتقى عليها البشر جميعاً مؤمنين وكفاراً أصدقاءً وأعداءً سوداً وبيضاً وعرباً وعجماً، وهذا من سباحة الإسلام لأنه دين السباحة والعدل لأن العدل واجب على هذه الأمة ولو كان فيهم مراغمة لعواطف البغض والعداوة.

قال تعالى: ﴿...وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ...﴾

[المائدة].

جاء رجل من أهل مصر يشكو ابن عمرو بن العاص واليه على مصر قائلاً: يا أمير المؤمنين عائد بك من الظلم. قال: عذت معاذاً. قال: سابت ابن عمرو بن العاص فسبته فجعل يضربني بالسوط ويقول: أتسبني وأنا ابن الأكرمين؟ فكتب عمر رضى الله عنه إلى عمرو رضى الله عنه يأمره بالقدوم ويقدم ابنه معه. فقدم فقال عمر: أين المصرى؟ خذ السوط فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين. قال أنس: فضربه فوالله لقد ضربه ونحن نحب ضربه فما رفع عنه حتى تمنينا أن يرفع عنه. ثم قال عمر للمصرى: اصنع على صلعة عمرو. فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى وقد اشتكيت منه فقال عمر لعمرو: منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى^(١). وعن عائشة رضى الله عنها أن قريشاً أهمهم أمر المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا: {ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ ومن يجترئ عليها إلا أسامة فقال: أتشفع فى حد من حدود الله. ثم قام فخطب فقال: يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم انهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها {^(٢).

السماحة جزء من العقيدة:

جاء الإسلام بعد ديارتين؛ جاء على أثر المسيحية وكانت المسيحية قد جاءت بعد اليهودية. فاستقبل الإسلام أهل الكتاب من اليهود والنصارى استقبالا سمحا لأنه امتداد لهما فى مسيرة الأمن والسلام. والإسلام قد جاء لا لينتقم ولا ليزرع الفرقة بين الناس والأديان لكن الإسلام جاء لينشر منهج الله سواء أمنت بالله أم لم تؤمن لأن إيمان الفرد بالله لا يزيد الله شيئاً، إنما الإيمان هو الذى يجعل الفرد عنصراً مفيداً فعلاً فى المجتمع، والإيمان بالإسلام يؤكد أنه منهج الله فى أولويات التطبيق وهو آخر أديان السماء وهو الدين الخاتم الذى يجب الإيمان به والإسلام دعا الأديان إلى قضية واضحة وإلى حسم مسألة الإيمان بالله. قال الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَتَّأَهِّلُ الْكَتَّابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

^١ - جامع الأحاديث - باب مسند عمر بن الخطاب - ج: ٣٥ - ص: ٤٧٦.

^٢ - رواه البخارى - كتاب الحروب - باب كراهية الشفاعة إذا رفع إلى السلطان - ج ١٢ - ص ٨٧ - ح م: ٦٧٨٨.

إن الرسول ﷺ يدعو أهل الكتاب إلى كلمة عادلة جامعة لا تخص أحدا بالعبادة غير الله ولا نشرك به أحدا ولا يتحزب بعضنا إلى بعض في إقامة حلال حرمه الله أو إقامة حرام حلله الله ولنترك حكم الله فيما أحل وفيما حرم علينا فإن أعرض أهل الكتاب عن هذه الدعوة فقولوا له إننا راضخون لأحكام الله ومخلصون له الدين ولا ندعو أحدا سواه. هذه هي سماحة الإسلام، هذه هي عدالة الإسلام لا كما يظن البعض أن الإسلام يدعو الناس بالإكراه، فقلوه تعالى: ﴿... فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فهل قال: قاتلوهم أم عذبوهم أم اجبروهم على الدخول في الإسلام؟ لا والله فإن الدين الإسلامي دين يسر وسماحة وأما الآيات القرآنية الكريمة التي نزلت مقترنة بالقتل فكانت لها أحداث وتاريخ ونزلت وقت الحرب للدفاع عن الدين وعن العقيدة وعن الإسلام كما دافعت المسيحية عن دينها ضد اليهودية فعندما انتشرت المسيحية رفضها اليهود وقالت اليهود: لا دين غير اليهودية ولا دين بعده فكثرت القتل بين اليهودية والمسيحية، كل كان يدافع عن دينه على أنه الدين الحق إلى أن جاء الدين الخاتم الذي بشر به الرسول الخاتم ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ [آل عمران: ١٩].

وهو خاتم الأديان وهو دين السماحة لا العدوان والإجبار والقتل والإكراه فإن كراهية المؤمن لهم ممزوجة بالألم من أجلهم والإشفاق عليهم وتمني الخير لهم والدعاء لهم بالتوفيق والهداية: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

وهناك أمران في عقيدة المسلم يجعلانه مع استمساكه بدينه وثباته على إيمانه أشد الناس تسامحا مع المخالفين له والكافرين بدعوته:

أولاهما: إن المسلم يعتقد جازما أن من مقتضيات الإرادة الإلهية التي لا تخلو عن الحكمة اختلاف الناس في الدين والإيمان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

﴾ [يونس: ٩٩].

وإذا كانت مشيئة الله نافذة ومشيئته تعالى مختلطة بحكمته فكيف يقاوم المؤمن مشيئة الله أو ينكر حكمة الله.

ثانيها: إن الله قد أمر نبيه المصطفى أن يتجنب اللجاجة في الجدل مع المخالفين وأن يكل أمرهم إلى الله ويعلمهم أن يوم الفصل بين المختلفين إنما هو يوم القيامة فلا داعي للجدال الذى يثير الفتن والمراء الذى يوغل الصدور.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٦٨] اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا

كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [الحج: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

ذلك هو المؤمن بعقيدة الإسلام: أحب الوجود كله، أحب الله والطبيعة، أحب القدر حلوه ومره، أحب الناس جميعا، وإذا كره فإنما يكره الشيطان ويكره حزب الشيطان كرها مقرونا بالرحمة والإشفاق وحب الخير للناس جميعا.

إن هذا الحب والتسامح هو دليل إيمانه بربه وقائده إلى جنته وصدق رسول الله ﷺ:

{والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا} ^(١).

^١ - الإيمان والحياة - ص ١٨٣ .

الرسول ﷺ وخلق السماحة:

السماحة خلق ينبع من قلب سليم وخلق كريم. ولقد قالت عائشة رضي الله عنها في خلق النبي ﷺ: { كان خلقه القرآن } فهو يأخذ بهديه ويتبع منهاجه من غير عوج ولا التواء فسماحته ﷺ تبدو في عفوه عمن عادوه وآذوه وقتلوه ولم يتركوا بابا من أبواب الأذى والقتل والسباب إلا سلكوه وما تركوا كيذا إلا كادوه، فهو كان يعالج عنف قريش بالرفق في القول ويعالج الإيذاء بالصفح الجميل الذي لا يمل به ولكنه يهدي به من شاء الله تعالى.

وروى أنه لما كذبت قريش النبي ﷺ وبالغت في الأذى ولجأ إلى ثقيف في الطائف فأغروا به سفهاءهم أتاه جبريل عليه السلام فقال له: { إن الله تعالى قد سمع تحول قومك لك وما ردوا به عليك وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت، فناداه ملك الجبال وسلم عليه وقال: مرني بما شئت إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ^(١) } فقال النبي السمع الكريم: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون { ^(٢).

وعندما فتح الله له مكة المكرمة نادى الملا من قريش ولم يفكر فيما كانوا يصنعون به وبأهل الإيمان ولكنه فكر فيما ينبغي المعاملة معهم من تطيب قلوبهم وإزالة الأحقاد من نفوسهم فقد قال لهم في ود رآه في موضعه: { ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. ما نظن إلا خيرا. قال أقول لكم ما قال أخى يوسف لأخوته:

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف].
اذهبوا فأنتم الطلقاء { ^(٣).

وحض النبي ﷺ على التسامح وحببه إلى المسلمين بقوله وبفعله.

^١ - الأخشبين: الجبلين اللذين يحيطان بمكة المكرمة.

^٢ - صحيح البخارى - باب إذا قال أحدكم آمين - ج: ٤ - ص: ١٦٥.

^٣ - سلسلة الأحاديث الضعيفة - ج: ٣ - ص: ٣٨.

قال ﷺ: { من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة } ^(١) فكان النبي ﷺ يعلم أصحابه هذا الدرس في الإنابة وضبط النفس.

وروى أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئا فأعطاه ثم قال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه. فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله فأرسل إليه وزاده شيئا ثم قال له: أحسنت إليك؟ قال: نعم. فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال له النبي ﷺ: إنك قلت ما قلت آنفا وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك. قال: نعم. ولما كان الغد جاء فقال النبي ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فردناه فرعم أنه كذلك قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال ﷺ: مثلى ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفورا فناداهم صاحبها فقال لهم: خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها منكم وأعلم. فتوجه لما بين يديها فأخذ من قشام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال لقتلتموه ودخل النار ^(٢).

إن الرسول السمع لم تأخذه دهشة لكنود الأعرابي أول الأمر وعرف فيه طبيعة صنف من الناس مرد على الجفوة في التعبير والإسراع وأمثال هؤلاء لو عجلوا بالعقوبة لقضت عليهم ولما كان ظلما وأن سماحته ﷺ لتتجلى حتى في الموقف المهتاج الذي تطمئن فيه النفوس إلى الانتقام فقد كانت الأمم تعامل أسراها معاملة العدو البغيض فتقتله أو تبيعه أو تسترقه وتسخره في أشق الأعمال فالرسول ﷺ عامل أسرى بدر معاملة حسنة، وذلك بأن وزع الأسارى السبعين على أصحابه وأمرهم أن يحسنوا إليهم فكانوا يفضلونهم على أنفسهم في طعامهم ثم استشار أصحابه في شأنهم فأشير عليه بقتلهم وأشير عليه بفدائهم فوافقهم على الفداء وجعل فداء الذين يكتبون أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وأشير على النبي ﷺ أن

^١ -الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - من آثار عقد الذمة والكف عنه - ج: ٢٧ - ص: ١٩٣

^٢ - المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار - باب بيان إعفائه ٨ - ج: ١ - ص: ٨٦٥ وأخرجه البزار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

يمثل بسهيل بن عمرو أحد المحرضين على محاربة المسلمين بأن ينزع ثنيتيه السفليتين فلا يستطيع الخطابة فرفض النبي ﷺ وقال: لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا^(١).

سماحته ﷺ مع غير المسلمين:

كان ﷺ يحضر ولائم أهل الكتاب ويغشى مجالسهم ويواسيهم في مصائبهم ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التي يتبادلها المجتمعون في جماعة يحكمها قانون واحد وتشغل مكانا مشتركا فقد كان يقتضى منهم نقودا ويرهنهم متاعا ولم يكن ذلك عجزا من أصحابه عن إقراضه فإن بعضهم كان ثريا وكلهم يتلهف على أن يقرض رسول الله بل كان يفعل ذلك تعليما للأمة وتثبيتا عمليا لما يدعوه إليه من سلام ووثام وتدليلا على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم.

وأظهر النبي ﷺ وقواد المسلمين سماحة كبيرة فيما عقدوا من صلح مع البلاد التي فتحوها. فمن شأن المنتصر أن يستبد ويملى شروطه بدافع الغيظ والانتقام والغرور بالقوة ولكن المسلمين كانوا في معاهداتهم مع المغلوبين كراما فأقروهم على عقائدهم ومشاعرهم الدينية وأوصوا برعايتهم والمحافظة على أموالهم. فقد عقد النبي معاهدة مع قبيلة تغلب سنة ٩ هـ وكان الإسلام قد قوى ودانت به العرب أباح لهم فيها البقاء على نصرانيتهم وصالح نصارى نجران وتركهم أحرارا في دينهم ووجه عماله إلى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على نصرانيته كما تؤخذ الزكاة من المسلمين فتؤخذ الجزية من اليهود والنصارى من غير المسلمين فتوضع في الأموال العامة^(٢).

الصحابه رضوان الله عليهم وخلق السماحة:

إن تاريخ الإسلام شاهد على تسامح الصحابة رضوان الله عليهم مع غير المسلمين فهم تعلموا على يد مبعوث الرحمة الإلهية واقتبسوا من نوره وتخلقوا بأخلاقه فكان خلق السماحة خلقا من أخلاقهم رضوان الله تعالى عليهم، فهذا عمر وأبو بكر رضى الله عنهما الذين كانوا يتفقدون أحوال الناس.

^١ - مصنف ابن أبي شيبة- غزوة بدر الكبرى - ج: ٧ - ص: ٣٩٥.

^٢ - أيسر التفاسير من كلام العلى الكبير - باب ٩٥ - ج: ١ - ص: ٣٢٥.

أخرج الخطيب عن أبي صالح الغفاري أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يتعاهد عجوزا كبيرة عمياء في بعض حواشى المدينة من الليل فيستقى لها ويقوم بأمرها وكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أردات فجاءها غيره مرة فلا يسبق إليها فرصده عمر فإذا هو بأبى بكر الصديق رضى الله عنه الذى يأتيها وهو خليفة. فقال عمر: أنت لعمرى ^(١).

هؤلاء الصحابة الذين يتسابقون فى أعمال الخير للمسلمين وغير المسلمين، فهذا أبو بكر قد أوصى أسامة بن زيد عندما وجهه إلى الشام بالوفاء لمن يعاهدون وبالرحمة فى الحرب وبالمحافظة على أموال الناس وبترك الرهبان أحراراً فى أديرتهم وصوامعهم وقال له: لا تحونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا للأكل ^(٢).

وهذا هو الإسلام والإسلام برىء من المتطرفين الذين يخربون ويهدمون تحت شعار الإسلام، فإن الإسلام لا يمت لهم بصلة لأن الإسلام دين تسامح لا إرهاب.

وكان عمر بن الخطاب بالشام وقد حانت الصلاة وهو فى كنيسة القيامة فطلب البطريق من عمر أن يصلى بها وهم أن يفعل ثم اعتذر بأنه يخشى أن يصلى فى الكنيسة فيدعى المسلمون فيما بعد أنها مسجد لهم فيأخذوها من النصارى. إن هذه ليست سباحة فحسب وإنما هى سباحة مضاعفة تتخطى الحاضر إلى المستقبل، سباحة مضاعفة لأن صاحبها لا يعتمد على سباحته وحده ولا على تحلله من التبعة وحده إنما يريد من يجيئون بعده طال الزمن أو قصر أن يكونوا سمحاء مثله.

وكذلك رحب القبط بالفتح الإسلامى ولقوا من عمرو أعظم التسامح لأنه أنقذهم من الاضطهاد الدينى وتنكيلهم لمخالفتهم فى المذاهب لأن قبط مصر كانوا من الأرثوذكس فى الوقت الذى صار فيه الأباطرة فى روما من الكاثوليك فقد قست فى التنكيل بهم قسوة لم ينسها أعقابهم حتى اليوم إذ كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم فى اليم وقتل منهم نحو مائة ألف فى مدينة الإسكندرية بأمر من الإمبراطور جستنيان.

^١ - حياة الصحابة - ج ٢ - ص ٣٤٧.

^٢ - أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين - باب وصية أبى بكر للجيش - ج: ١ - ص: ٣٩.

ويذكر التاريخ أن اضطهاد جستينيان وخلفائه لقبط مصر حمل كثيرًا منهم على الالتجاء إلى الصحراء للاحتباء بها كما تبع كثير منهم طريقهم إلى المنفى فرارًا من التنكيل. أما عمرو فكفل للقبط حريتهم الدينية ولم يحدث في عهده أو من بعده أن ضغط على أحدهم ليرتد عن دينه وصالح عمرو بن العاص حاكم الإسكندرية على أن يعطيه الجزية وأن يخير الأسرى بين الإسلام أو البقاء على دينهم ومن اختار الإسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ومن اختار دين قومه وضع عليه الجزية ما يوضع على أهل دينه كالزكاة فقصارى ما كانوا يعملون حينما يتم لهم الفتح أن يخيروا سكان البلد المفتوح بين أمرين إما الإسلام أو البقاء على دينهم على أن يدفعوا الجزية للدولة وكانت الجزية تشريعًا عادلًا ورحيمًا لأنها في مقابل الزكاة المفروضة على المسلمين. فالمسلم يؤدي الزكاة عن نقوده وعروض تجارته فمن العدل أن يساهم أهل الذمة وهم أعضاء في الدولة بشيء من مالههم إذ أنهم لا يزكون عن ماشيتهم ولا عن نقودهم ولا عن عروض تجارتهم، فكانوا يدفعون الجزية لقاء إعفائهم من الجندية والدفاع عن الوطن. أليست الدولة هي التي تحميهم.

ومن مظاهر ساحة الإسلام أنه أعفى من الجزية عدة طوائف، أعفى منها المساكين والأرقاء لأنهم لا يملكون شيئًا وأعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال لأن الحرب لا تعلن عليهم وأعفى منها العمى والمقعدين وأعفى منها الصبيان والمجانين لأنهم غير مكلفين وأعفى منها الرهبان والمنقطعين للعبادة ومعنى هذا أن الذين يؤدون الجزية هم العقلاء الأحرار القادرون على العمل واكتساب المال.

كذلك أسقط الإسلام الجزية عن الذمى إذا مات قبل أن يؤديها فلا تستوفى من تركته كما يستوفى الدين وأسقطها عنه إذا أسلم وأسقطها عن الذمى إذا افتقر.

فقد مر عمر برجل يسأل في الطريق فقال له: ما الذى أجبك إلى هذا فقال: الجزية والسن والحاجة. فقال عمر: من أى قوم أنت؟ قال: من اليهود. فأخذ عمر إلى منزله وأعطاه وأسقط عنه الجزية، وكتب إلى عامله انظر هذا ونظره، فليس من العدل أن تأكل شبيبته ثم تخذله عند الهرم، ولم يكتف عمر بذلك بل رتب له قدرًا من المال يكفيه ثم عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على أنه إذا عجز شخص عن الكسب أو أصابته

عاهة أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دين يتصدقون عليه طرحت جزيته وأعين من بيت مال المسلمين هو وأسرته (١).

هذه هي سباحة الدين الإسلامي، وأسلم كثير من القبط بسبب اضطهاد الرومان لهم. يقول المؤرخ القبطي يوحنا النخوي: إن المسيحيين الفقراء أسرعوا إلى الدخول في الإسلام لأنهم كرهوا أن يدينوا في أحكامهم ونظم زواجهم وطلاقهم للكنيسة التي تعاديهم ويعادونها فالذين أسلموا من قبط مصر بعد الفتح إنما أسلموا طوعا وليسوا مكرهين لأنه لا إكراه في الدين.

ثمرات السباحة:

أولاً: السباحة مفتاح كبير من مفاتيح الجنة:

قال رسول الله ﷺ {إن رجلا لم يعمل خيرا قط وكان يداين الناس فيقول لرسوله خذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله أن يتجاوز عنا، فلما هلك قال الله: هل عملت خيرا قط؟ قال: لا. إلا أنه كان لي غلام وكنت أداين الناس فإذا بعثته يتقاضى قلت له خذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله أن يتجاوز عنا. قال الله: قد تجاوزت عنك} (٢).

{وإن رجلا ممن كان قبلكم أتاه ملك الموت ليقبض نفسه فقال له: هل عملت من خير؟ قال: لا أعلم. فقال له: انظر. فقال: ما أعلم شيئا غير أني كنت أبايع الناس وأحارهم فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر. فأدخله الله الجنة} (٣).

١- الخراج - فصل فيمن تجب عليه الجزية - ج: ١ - ص: ١٣٩ .

٢- الجامع الصحيح للسنن والمسند - فصل انتظار المعسر - ج: ٨ - ص: ٧٦ وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح .

٣- أخرجه البخاري - ح: ٣٤٨٠ - مسلم - ح: ١٥٦١ .

ثانياً: السّماحة دليل على صلاح العبد وفضله:

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رجلاً أتى النّبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ له فهمٌ به أصحابه فقال رسول الله ﷺ: {دعوه فإن لصاحب الحق مقالا، ثم قال: أعطوه سناً مثل سنه. قالوا: يا رسول الله لا نجد إلا أمثلاً من سنه. قال: أعطوه فإن خيركم أحسنكم قضاءً} ^(١).

ثالثاً: السّماحة تنجى العبد من كربات يوم القيامة:

وتظله تحت عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، يقول النّبي ﷺ: {من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه} ^(٢).

رابعاً: السّماحة باب من أبواب الرحمة:

يرحم الله بها عباده، يقول النّبي ﷺ: {رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى} ^(٣).

خامساً: السّماحة عنوان الإيمان وصفة المؤمن وشيعة المحسن:

قال ﷺ: {الإيمان الصبر والسّماحة}.

^١ - أخرجه البخارى - ح م: ٢٣٦٠ - ومسلم - ح م: ١٦٠١.

^٢ - أخرجه مسلم - ح م: ١٥٦٣.

^٣ - سبق تخريجه.

الفصل الثالث

التقوى

الحمد لله مظهر الحق ومبديه، ومنجز الوعد وموفيه، ومسعد العبد ومشقيه، ومذهب الذنب ومخفيه،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك
عليه، صلاة تحل بها العقد وتفرج بها الكرب وتزيل بها الضرر، وتهون بها الأمور الصعاب، وترضى بها عنا
يا رب العالمين أما بعد ،،،

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢)

[آل عمران].

عن أبى أئمة صدى بن عجلان الباهلى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب فى حجة
الوداع فقال: { اتقوا الله وصلّوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا أمراءكم تدخلوا جنة
ربكم } (١).

التقوى فى اللغة:

بمعنى الاتقاء وهو اتخاذ الوقاية وعند أهل الحقيقة هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته وهو صيانة
النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك (٢).

التقوى فى الشرع:

الخشية والخوف من عقاب الله تعالى بالامتنال لأوامره واجتناب نواهيه تقوى تليق به
تعالى (٣).

١- رواه الترمذى - كتاب الصلاة - باب صلاة الجمعة وقال حديث حسن صحيح .

٢- معجم التعريفات - ص ٥٨ .

٣- نزهة المتقين - ص ٨٣ .

فضيلة التقوى:

فضيلة التقوى من الفضائل التى تسمو وترتقى بالإنسان إلى أعلى الدرجات فهى عز كل ذليل وحصن لكل من تحصن بها، قيل للإمام الشافعى رحمه الله حين فكر فى الرحلة إلى مصر قيل له: لا تذهب إلى مصر إلا إذا كان لك أمران يساعدانك على الإقامة فيها. قال لهم: وما هما؟ قالو: أن يكون لك صلة بالسلطان حتى يرفع شأنك ويعلى قدرك وأما الأمر الثانى أن يكون معك قوت عام لتسغتنى به عما فى أيدي الناس حتى تحصل على سبب من أسباب الرزق فقال لهم الشافعى: أمام معرفتى للسلطان فلا عز به، فوالله من لم تعزه التقوى فلا عز له، وأما حصولى على قوت سنة فذلك سوء ظن بالله ولقد ولدت بغزة ونشأت بمكة وتعلمت فى المدينة وعشت فى اليمن وما عندنا قوت يوم وليلة والله ما بتنا جياعا قط. والتقوى هى وصية الله تعالى للأولين والآخرين وصدق الله العظيم:

﴿... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ...﴾ (النساء: ١٣٦)

فأوصانا الله عز وجل بها وأمرنا أن نتزود من أعمالها فهى خير زاد ليوم الميعاد وصدق الله العظيم:

﴿... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٧٧)

وها هو أبو الدرداء رضى الله عنه يقول: إن تمام التقوى أن يتقى الله حتى يتقيه من مثقال ذرة وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما ليكون حجابا بينه وبين الحرام فإن الله تعالى قد بين للعباد الجزاء الذى يصيرهم إليه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة].

والحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نلتحم بمنهجه وأن نكون دائما فى معيته بأن نتقيه عز وجل ونجعل الوقاية بيننا وبين عقابه ومن عقابه النار، فالمؤمن الحق هو الذى يجعل لنفسه وقاية ممن يخشاه.

قال رسول الله ﷺ: { يطوى الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى عز وجل ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوى الأرض بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون وأين المتكبرون } (١).

^١ - صحيح مسلم - كتاب صفة القيامة - ج ٤ - ص ٢١٤٨ - ح م ٢٧٨٨ .

تقوى الله وابتغاء الوسيلة:

قال تعالى: ﴿... اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

﴿٣٥﴾ [المائدة].

فسبحانه وتعالى يقول: ﴿... اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ...﴾ ﴿٣٥﴾ [المائدة]. أى نبحت عن الوسيلة التى توصلنا إلى طاعته ورضوانه وإلى محبته سبحانه وتعالى، وهل هناك وسيلة إلا ما شرعه الله سبحانه وتعالى فكل إنسان يتقرب إلى أى كائن بما يجب فما بالنا بالتقرب إلى الله وما يحبه سبحانه، ويبينه لنا فى حديثه القدسى حيث يقول تبارك وتعالى: {من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإن أحبته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها وقدمه التى يمشى بها وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه} ^(١).

إذن فابتغاء الوسيلة من الله عز وجل هى طاعته والقيام على المنهج فى الفعل ولا تفعل، والوسيلة عندنا أيضا هى منزلة من منازل الجنة والرسول ﷺ طلب منا أن نسأل الله له الوسيلة، فقال: {إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرة، ثم اسألوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لى الوسيلة كتبت له الشفاعة}.

الصحابه رضوان الله عليهم وفضيلة التقوى:

ها هو سيدنا على رضى الله عنه يعرف لنا التقوى فيقول رضى الله عنه: التقوى هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل.

أولا: الخوف من الجليل:

هى مراقبة العبد لربه فى جميع حركاته وسكناته فقد أمرنا الله عز وجل بالخوف منه ونهانا عن الخوف ممن سواه، وصدق الله العظيم: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ [آل عمران].

^١ - أخرجه البخارى - باب التواضع - ج ٨ - ص ١٠٥ - ح م ٦٥٠٢.

وهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأخذ يوما تبنة من الأرض ويقول يا ليتنى كنت هذه التبنة يا ليتنى لم أكن شيئا مذكورا يا ليت أمى لم تلدنى يا ليتنى كنت نسيا منسيا. وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء ولهذا فقد أعظم الله جل وعلا جزاء الذين يخشون ربهم ويخافونه ويتقونه حق تقاته فوعدهم بالمغفرة والأجر الكبير.

وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٣) [الملك].

وها هو الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول لابنه الحسين رضى الله عنه: يا بنى استح من ثلاث، استح من الله أن يراك وأنت مقيم على ما يكره، واستح من الحفظة الكرام الكاتين، واستح من صالح المؤمنين.

والرسول ﷺ يرشدنا إلى أن نغتني الوقت فيما يفيد قبل الحسرة فقال ﷺ: { اغتنم خمسا قبل خمس، حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك }^(١).

ثانيا: العمل بالتنزيل:

والتنزيل هو القرآن الكريم: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢) [فصلت].

والعمل هو العمل بأوامره والانتهاى عما نهى عنه والوقوف على آدابه فهو النور والله عز وجل قد ذكر فى كتابه صفات عباده المتقين.

فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) [البقرة].

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب وصايا النبي ٨ - ج ٩ - ص ٤٧٩ .

ثالثا: القناعة بالقليل:

معناها الرضا بالميسور، واليأس مما في أيدي الناس توكلا على الله تعالى. والقناعة خلق من أخلاق السلف الصالح رضوان الله عليهم.

قال رسول الله ﷺ: { من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقها }^(١).

رابعا: الاستعداد ليوم الرحيل:

فالعاقل الفطن هو من يستعد ليوم رحيله من هذه الحياة الدنيا وصدق الله العظيم: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢) [البقرة]. وقال رسول الله ﷺ: { لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه }^(٣).

فتذكر يا ابن آدم يوم ينادى عليك الملك وأنت تسمع ومن حولك لا يسمعون: يا ابن آدم جمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك، يا ابن آدم تركت الدنيا أم الدنيا تركتك، يا ابن آدم استعددت للموت أم المنية عاجلتك، يا ابن آدم خرجت من التراب بلا ذنب وعدت إلى التراب وكلك ذنوب.

فالاستعداد ليوم الرحيل يكون بالأعمال الصالحة كالصيام والصدقة والجهاد في سبيل الله وكل عمل أمر الله به، والاستعداد ليوم الرحيل بالتوبة من الذنوب.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...﴾^(٤) [التحریم].

وحكى أن لصا دخل بيت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها ليلا يسرق فلم يجد فيه غير إبريق به ماء فلما أراد أن يخرج قالت له السيدة رابعة عندما رآته يتسلل إلى الباب: يا هذا إن كنت من الأذكياء فلا تخرج

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب من الأخلاق الحميدة - ج ١٠ - ص ٣٥٩.

^٢ - سنن الترمذى - باب في القيامة - ج ٤ - ص ٦١٢ - ح م ٢٤١٧.

إلى الباب بغير شيء. فقال اللص: لم أجد شيئاً. فقالت له يا مسكين توضع بهذا الإبريق وادخل في هذه الحجرة وصل ركعتين فإنك لا تخرج إلا بشيء. ففعل اللص ما أمرته به ولما قام يصلى رفعت رابعة العدوية بصرها إلى السماء وقالت: سيدى ومولاي هذا أتى ببابى فلم يجد شيئاً عندى وقد أوقفته ببابك فلا تحرمه من فضلك وثوابك، فلما فرغ اللص من صلاة الركعتين لانت له العبادة فما برح يصلى حتى آخر الليل فلما كان وقت السحر دخلت عليه رابعة العدوية رضى الله عنها فوجدته ساجدا يعاتب نفسه في سجوده يقول:

إذا ما قال لى ربى أما استحييت تعصينى
وتخفى الذنب عن خلقى وبالعصيان تأتينى
فكيف أجيب يا ويحى ومن ذا سوف يحمينى
فلما انتهى من ليلته قالت له: كيف كانت ليلتك؟ قال: بخير وقفت بين يدى مولاي بذلى وافتقارى
فقبل عذرى وجبر كسرى وغفر ذنبى وبلغت المطلوب ثم انطلق هائماً على وجهه، فرفعت رابعة العدوية
رضى الله عنها يداها إلى السماء وقالت: سيدى ومولاي هذا وقف ببابك ساعة فمنتت عليه بالقبول وأنا مذ
عرفتك بين يديك أتراك قبلتنى؟

الدين الإسلامى يحثنا على التقوى:

لم يتركنا الله عز وجل نتعثر في ظلمات الجهل ولكنه بين لنا الطريق الذى يقودنا إلى الطريق المستقيم
فأرسل إلينا رسولا بالهدى ودين الحق لينذر ويبشر ويعلم الأمة بما ينفعها في الدنيا والآخرة، فها هو الرسول
الكريم ﷺ يوجهنا ويرشدنا ويقول لنا في هذا الحديث الشريف: عن أبى عبد الرحمن معاذ بن جبل رضى
الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن }
(١).

^١ - سنن الترمذى - باب ما جاء في معاشره الناس - ٤ - ص ٣٥٥ - ح م ١٩٨٧

وهذا التوجيه النبوي الشريف يشتمل على ثلاثة حقوق:

أولاً: حق الله:

فقوله { اتق الله حيثما كنت } أى فى الخلوة والملا والشدة والرخاء أو فى أى زمان ومكان كنت فيه حتى تكون فعلاً من الذين يخشون ربهم لأنك لو استطعت أن تخدع الناس فإنك لن تستطيع أن تخدع رب الناس لأنه مطلع عليك فى جميع أحوالك.

وصدق الله العظيم: ﴿... مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

وأوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى، إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى، وإن كنتم ترون أنى أراكم فلم تجعلوننى أهون الناظرين إليكم.

وقيل لرجل من التابعين عند موته أوصنا فقال: أوصيكم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ثانياً: حق المكلف:

قوله ﷺ: { وأتبع السيئة الحسنة تمحها }، عن عبد الله قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني عاجلت امرأة فى أقصى المدينة وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها وأنا هذا فاقض فى ما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه، فقل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُكُفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

فقال رجل من القوم: { هذا له خاصة؟ قال: لا هذا للناس كافة }^(١).

^١ - صحيح مسلم - باب قوله تعالى: إن الحسنات - ج ٤ - ص ٢١١٦ ح م ٢٧٦٣.

والإكثار من قول لا إله إلا الله يكثر من حسنات العبد.

عن أبي ذر رضى الله عنه قال: { قلت يا رسول الله علمنى عملاً يقربنى إلى الجنة ويبعدنى عن النار. قال: إذا عملت سيئة فاعمل حسنة فإنها عشر أمثالها، قال: قلت يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: هي أحسن الحسنات }^(١).

وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { يدنى الله العبد يوم القيامة ويضع عليه كنفه فيستره من الخلائق كلها ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر فيقول: اقرأ يا ابن آدم كتابك فيقرأ ويمر بالحسنة فيبيض بها وجهه ويسر بها قلبه. فيقول الله: أتعرف يا عبدى فيقول نعم يا رب فيقول عز وجل إني قبلتها منك فيسجد فيقول له ارفع رأسك وقرأ كتابك فيمر بالسيئة فيسود لها وجهه ويوجل لها قلبه وترتع منها فرائسه ويأخذها من الحياء من ربه ما لا يعلمه غيره فيقول الله: أتعرف يا عبدى. فيقول: نعم يا رب. فيقول: إني قد غفرتها لك فيسجد فلا يرى الخلائق منه إلا السجود }^(٢).

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول فى دعائه: { اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى }^(٣).

ثالثاً: حق العباد:

قوله ﷺ: { وخالق الناس بخلق حسن } وهى معاملة الناس بأخلاق كريمة طيبة لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل والأخلاق الحسنة هى أم صفات المؤمنين.

وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال].

وهذا توجيه نبوى شريف يرشدنا إلى المعانى السامية والأخلاق الحميدة ومنه خلق التقوى الذى ينبث منه حسن الخلق.

^١ - رواه أحمد فى مسنده .

^٢ - صحيح البخارى - باب قوله تعالى ألا لعنة الله - ج ٢ - ص ١٢٨ - ح م ٢٤٤١ .

^٣ - صحيح مسلم - باب التعوذ من شر ما عمل - ج ٤ - ص ٢٨٧ - ح م ٢٧٢١ .

التقوى وثمارها الطيبة:

واعلموا أن التقوى لها ثمار عديدة منها:

أولاً: تقوى الله سبب من أسباب معية الله عز وجل:

قال تعالى: ﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٦) [البقرة]. ومعية الله عز وجل نوعان:

معية عامة ومعية خاصة، أما المعية العامة: فهي معية العلم الشامل والإرادة والإحاطة، فالله سبحانه وتعالى لا يعزب عن معيته شيء في الأرض ولا في السماء.

وصدق الله العظيم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧) [المجادلة].

وها هو أعرابي يمسك بأعرابية في الصحراء يريد أن يرتكب معها الفاحشة فذكرته بالله جل جلاله بأسلوب بديع وقالت له اذهب وانظر هل نام الناس في الخيام؟ قال لها: هل يرانا من أحد؟ فذهب ليتفقد أحوال الناس في الخيام فعاد إليها مسرعاً قائلاً لها: أبشرى نام الناس جميعاً لا يرانا أحد إلا الكواكب. فقالت: أين مكوكبها؟ أين الله؟ وأخذت تبكى وتعلمه أن الله عز وجل يراها ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

أما المعية الخاصة: فهي معية الله للموحدين المؤمنين المحسنين المتقين وهي معية الحفظ والتأييد

والنصر والعون، قال تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ يَتَابِعِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ (٤٢) ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٤٣) ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٤٤) ﴿فَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ (٤٥) ﴿قَالَ لَا نَخَافُكَ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦) [طه].

ثانياً: تقوى الله سبب من أسباب صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١) [الأحزاب].

ثالثا: تقوى الله سبب من أسباب الرزق بغير حساب:

صدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢]. وعن أنس رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: {من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق الله عليه شمله ولم يأتها من الدنيا إلا ما قدر له} (١).

رابعا: تقوى الله سبب من أسباب دخول الجنة:

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

خامسا: تقوى الله سبب من أسباب رضوان الله عز وجل:

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]. فعلينا بالمسارعة إلى رضا الله وتقوى الله بالعمل الصالح حتى ننال حبه ورضاه، فمثلا نجد أن الله تبارك وتعالى فرض الصلوات الخمس ولكن العبد المؤمن يتطوع بصلوات أخرى غير المفروضة كالسنن والرواتب وقيام الليل، وهذا هو مقام الإحسان، والإحسان كما جاء في الحديث: {أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك}.

والله تعالى فرض الصيام في رمضان ولكن بعض الناس يتطوع فيصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع أو ثلاثة أيام وسط الشهر العربى ومنهم من يصوم يوما ويفطر يوما وكل هذا زيادة على ما فرضه الله ولكن من جنس ما فرضه سبحانه وتعالى، وهناك من الناس من يقف عند ما فرضه الله .

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب من الأخلاق الذميمة - ج ٩ - ص ٦٥ .

وفي الحديث أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له: { لن أزيد على ما فرض الله شيئا. فقال رسول الله ﷺ: قد أفلح إن صدق }^(١).

فإذا كان من يؤدي ما فرضه الله قد أفلح فالذي يزيد على ما فرضه الله شريطة أن يكون من جنس ما فرضه الله يكون أشد فلاحا، فاتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر. وقيل: لا تأخذك في الله لومة لائم وأن تقول الحق ولو على نفسك.

وقيل عندما نزلت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران]. قال العلماء إن هذه الآية عندما نزلت وسمعتها الصحابة استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها فقال بعضهم ومن يقدر على حق التقى، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ...﴾ [التغابن].

^١ - صحيح مسلم - بابا بيان الصلوات - ج ١ - ص ٤٠ - ح م ١١.

الفصل الرابع

أداء الأمانة

الحمد لله الذى بعث الصادق الأمين لنشر الدين الحنيف والنور المبين لتنشئة خلقه على الأخلاق الحميدة، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ذو الأخلاق الحميدة الذى بُعث ليتمها، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى أصحابه وعلى من سار على سنته ومنهجه إلى يوم الدين... أما بعد،،

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٨) [المؤمنون].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: { آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان } (١).

معنى الأمانة:

الأمانة لغة: مصدر قولهم آمن، يأمن، أمانة أى صار أميناً وهو مأخوذ من مادة [أ م ن] التى تدل على سكون القلب وهى ضد الخيانة.
والأمانة اصطلاحاً: هى الوديعة والوفاء (٢).

تعريف الوديعة: الوديعة هى مأخوذة من ودع الشيء بمعنى تركه وسمى الشيء الذى يدعه عند غيره ليحفظه له بالوديعة، لأنه يتركه عند المودع.

وقال ابن عباس: { الأمانة تعنى الفرائض والطاعة }.

وقال قتادة: { الأمانة هى الدين والفرائض والحدود }.

يفهم من ذلك أن الأمانة هى الرعاية لكل حقوق الله فيها أمر به وفى كل ما نهى عنه وكل ما افترضه الله على العباد، فالأمانة ليست قاصرة على رد الودائع والأمانة إلى أصحابها وهذا فهم قاصر لمعنى الأمانة، فالأمانة أعم وأشمل وأعظم منه بكثير، فالدين الذى من الله به عليكم أمانة فى أعناقكم.

١ - صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب علامة المنافق - ص: ٥٩ .

٢ - المعجم الوجيز - ص ٢٦ .

فالصلاة أمانة والصوم أمانة وعملك أمانة، أبناؤك أمانة، زوجتك أمانة، كل أعضاء جسدك أمانة فلا تأتي الحرام من قبل ذلك وإلا أصبحت مفرطاً فيما أوثقت عليه. فمن معاني الأمانة أن تنظر إلى حواسك التي أنعم الله بها عليك وإلى المواهب التي خصك الله بها وإلى ما أحببت من أموال وأولاد فتدرك أنها ودائع الله الغالية عندك فيجب أن تسخرها في قرباته وتستخدمها في مرضاته.

فالأمانة تشمل الحياة كلها كما قال ﷺ: {كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته} ^(١).

الأمانة من أبرز أخلاق الرسل:

إن الله عز وجل جعل الأمانة صفة ملازمة لكل الأنبياء لا تنفك عنهم لحظة واحدة ولقد أمرنا الله جل وعلا بالتأسي بالأنبياء فقال جل وعلا:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ...﴾ (١٠) [الأنعام].

ولقد خلد الله ذكرى أماناتهم في القرآن الكريم فقال نبي الله نوح عليه السلام لقومه:

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٠٧) [الشعراء].

وقال نبي الله هود عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٢٥) [الشعراء].

وقال نبي الله صالح عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٤٣) [الشعراء].

وقال نبي الله لوط عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٦٢) [الشعراء].

وقال نبي الله شعيب عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧٨) [الشعراء].

وقال نبي الله موسى عليه السلام لقومه:

﴿أَنْ أَدُؤْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٨) [الدخان].

وقد قيل في معنى قوله تعالى في معنى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٢٥) [الشعراء] أي لا يخون ولا يخدع ولا

يغش ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئاً مما كلفه الله من التبليغ.

وقال جل وعلا عن أمين الوحي جبريل عليه السلام الذي ينزل بالوحي على أنبيائه:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٩٣) [الشعراء].

^١ - صحيح البخارى - كتاب العتق - باب العبد راع في مال سيده - ج: ١ - ص: ٢١٥.

ورسولنا محمد ﷺ قد كان قبل الرسالة وبعدها مشهورا بينهم ولقب بالصادق الأمين، وكان الناس يختارونه ﷺ لحفظ ودائعهم عنده ولما هاجر ﷺ وكَّل على بن أبى طالب رضى الله عنه برد الودائع إلى أصحابها.

أنواع الأمانة:

النوع الأول: الأمانة العامة:

وهى أمانة التكليف الشرعية أمرا ونهيا وفعلًا وتركًا وقولا وعملا واعتقادا وفيها نزل قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال ابن عباس يعنى بالأمانة: الطاعة.

وقال الحسن البصرى: إن الأمانة هى الفرائض، وعرضت الأمانة بالاختيار والإرادة من المطيع فأبت السموات والأرض والجبال ذلك العرض وأبت إلا البقاء والدوام على طاعة الجبر والقسر وخافت هذه المخلوقات من عصيان المنتقم الجبار لما فى الاختيار من العصيان والكفران.

عن الحسن البصرى أنه تلا هذه الآية:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]

قال عرضها على السبع الطباق الطرائق التى زينت بالنجوم وحملت العرش العظيم وقيل لها هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا. ثم عرضها على الأراضين السبع الشداد التى شدت بالأوتاد وزللت بالمهاد قال فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا. وحملها الإنسان هو الذى حمل أمانة التكليف لما لا يحملها وهو الذى رزقه نعمة العقل التى تجعله يغلب جانب الطاعة وأنه يعلم أنه إن غلب جانب المعصية فى بعض الأحيان أمكنه إلى طريق الطاعة ثانياً، وحمل الأمانة أى القيام بها وتطبيقها فحملها آدم إنه كان ظلوماً لنفسه ووصف جهولا لأنه يظلم نفسه وهذا يدل على الجهل وعدم العلم^(١).

^١ - تفسير ابن كثير - ج: ٢.

النوع الثاني : أمانة الودائع :

وهي من أكثر الواجبات التي تركها كثير من الناس، فمعنى الأمانة في عرفنا هي المال أو الأشياء القيمة الثمينة التي نخشى عليها الضياع فتودعها عند من تلتمس فيه أن يحافظ عليها حين حاجتك لها وليس أن تأخذ ممن ائتمنته صكا ولا أن تحضر شهودا وإلا ما أصبحت أمانة، فالأمانة ليس عليها إثبات إلا أمانة من أخذها فإن شاء أقرها وأداها وإن شاء أنكرها.

وأمانة الودائع صفة من صفات المؤمنين.

قال تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ ٦ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ ٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ ١١ ﴾ [المؤمنون].

مجالات الأمانة:

للأمانة مجالات كثيرة فهي تشمل جميع مجالات الحياة القولية والفعلية والدينية والدنيوية، لأنها تشمل الدين والدنيا، ومن أهم هذه المجالات:

أولا: أمانة الكلمة:

يقول الحبيب ﷺ: { إذا حدث الرجل حديثاً ثم التفت فهي أمانة } ^(١).

المؤذنون مؤتمنون على صلاة المسلمين وحاجاتهم وصيامهم.

يقول ﷺ: { المؤذنون أمناء المسلمين على صلاتهم وحاجاتهم } ^(٢).

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - باب إفشاء سر المجلس - ج: ٩ - ص: ٣٠٦.

^٢ - صحيح الجامع الصغير وزياداته - فصل في المجلس - ج: ٣ - ص: ١١٣٩.

وفي إمامة الصلاة بأداء أركانها ورعاية سننها.

يقول الصادق الأمين عليه السلام: {الإمام ضامن فإن أحسن فله ولهم، وإن أساء فعليه ولا عليهم} ^(١).

وفي غسل الميت لا يتولاه إلا العالم التقى الأمين الذي يكتم الذنوب ويستتر العيوب.

قال عليه السلام: {ليغسل موتاكم المأمونون} ^(٢).

ثانيا: الأمانة في إتقان العمل:

فالعمال والصناع والموظفون ومن في معانهم من أحق الناس في أداء هذا الخلق مراقبةً لله تعالى ووفاءً لمن استعمله، فإن الله يحب إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه، فالمعلمون عليهم بإتقان العمل الذي عليهم حيث شاع في هذه الآونة أن كثيراً من المعلمين والمعلمات الذين يقومون بالتدريس لا يؤدونه على أكمل وجه بل وأكثر من ذلك منهم الذي لا يؤدي حصة من الحصص التي يقوم بتدريسها إلى آخر العام ونشاهد ذلك في الامتحانات حيث إن كثيراً من الطلاب والطالبات يقولون إنه لم يقيم مدرس أو مدرسة بشرح هذه المادة ولا نعرف عنها شيئاً، فإننا نقوم بعرض الأمر إلى المسؤولين ولكن دون جدوى، ظهرت هذه الظاهرة بل وتزداد حتى لجأ الطلاب إلى الدروس الخصوصية بل ربما المدرس الذي يعطى الدرس الخصوصية هو المدرس الذي يعمل في المدرسة ولكنه لا يؤدي أمانة الشرح والتعليم حتى يعطى الدروس الخصوصية بالخارج، إنه يتعاطى أجراً على عمله في المدرسة ولا يقوم به ويأخذ أجراً بالخارج عن طريق الدروس الخصوصية ... أين الأمانة؟ وتلك المدرسة التي زين لها الشيطان عملها وتحسب أنها تحسن صنعا.

قال تعالى: ﴿...وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ^(١٠٤) [الكهف].

وهذه المعلمة مربية أجيال فهي مسئولة أمام الله وأمام الجميع عن هذا الجيل الذي يكون مسئولا منها، وهذه المعلمة تشرح مادة أساسية وهي اللغة العربية والتربية الدينية، هذه زين لها الشيطان بترك هذه المسئولية بالبعد عن شرح الدين وتعليم هذا الجيل الحكمة والموعظة الحسنة بحجة أنها لا تكون أسوة لذلك ولا قدوة لذلك لأنها تخشى أن يكون علمها هذا رياءً فكيف تشرح الدين مع أنها تشغل الوظيفة.

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب ما يتحملة الإمام عن المأموم - ج: ٢٨ - ص: ١٤.

^٢ - سنن ابن ماجه - باب ما جاء في غسل الميت - ج: ٢ - ص: ٤٤٧ - ح م: ١٤٦١

نقول لها: عليك أختي الفاضلة، عليك بنشر العلم وخاصة علم الدين حتى تكوني من خيرة هذه الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

قال تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ [آل عمران].

لعلك من خلال تعليم الدين يشرح الله صدرك وينوره بنور العلم ويخرجه من الظلمات إلى النور لأنك كنت سببا في إصلاح المجتمع، والدين في أمس الحاجة إلى التذكرة والعلم فياك أن تظلمي الآخرين بظلمك لنفسك ومقتها ومنعها من العلم الذي ينورها ويعلو بها.

قال تعالى: ﴿...هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...﴾ [الزمر].

وإياك أن تجلسي مكتوفة الأيدي وبعيدة عن التعليم بحجة أن هذا شيخ لا تحبين أن تتعلمي منه لأنه لا يعمل بالدين أو لأن به نقصا ولكن خذي العلم واتركي صاحب العلم للذي خلق السموات والأرض لعله يغفر له بسبب علم علمه واسمعي هذه المقولة:

خذ بعلمي ولا تركزن لعملى اجني الثمار واخل العود للنار

إنك يا أختي الفاضلة أهل دين ولكن هذه حيلة من حيل الشيطان، قال السيد الفضيل بن عياض: العمل لأجل الناس شرك، وترك العمل لأجل الناس رياء.

فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمارة ولا نقول لأحد من أولياء الله اترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة وإنما الآفة في إظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس؟

قال ﷺ: {لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من حمر النعم^(١)} (٢).

وقال ﷺ: {أيا داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من تبعه}.

^١ - حمر النعم: أى الإبل الحمراء وكانت أنفس الأموال عند العرب .

^٢ - صحيح البخارى - باب دعاء النبي ^٨ - ج: ٤ - ص: ٤٣ .

فينبغي للعالم أن يشتغل بالعلم ويترك مراده للخالق، فإن كل واحد فعل مثل ما تفعلين فستعطل العلوم ويعم الجهل على كافة الخلق، وقال العلماء رضى الله عنهم: {ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية}.

فقد قال سفيان وغيرهم: {طلبهم للعلم نية، قالوا: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله} ^(١).

ثالثا: أمانة التعامل مع المرأة:

ومن ذلك أمانة المعاملة مع المرأة بالإحسان إليها وإكرامها وصيانتها عما يشق عليها وخاصة الزوج، فهو أمين على زوجته فلا يكلفها ما لا تطيق ولا يجبرها على معصية الله كما في الحديث. قال ﷺ: {إنكم أخذتموهن بأمانة الله} ^(٢).

فأدّ أمانتك أيها الزوج ولكن كثيرا من الزوجات يشكين من أزواجهن لدرجة أن شاعت هذه المقولة: {ضاع الرجال}.

فبعض الرجال تركوا المسؤولية، كل واحد ينشغل بنفسه وما يرضاه لنفسه من شهوات الدنيا العاجلة وتركوا رعاية الأولاد والزوجات ونسوا كلام رسول الله ﷺ: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.

رابعا: أمانة صيانة المرأة لعرض زوجها:

ومن الأمانة صيانة المرأة لعرض زوجها في حضوره وغيبته فلا تدخل رجلا أجنبيا ومن باب أولى لا تعرض عرضها لرجل غيره فعلى المرأة أن تحترس من الذئاب المفترسة الذين لا يراعون حق الله ولا يخافون لومة لائم من السهر على النت واستعمال الفيس بوك من إرسال الرسائل، بل إرسال رسالة تعرض فيها عرضها لشخص تعرفه أو لا تعرفه لكى تشغل وقت فراغها أو بحجة أن زوجها لا يقوم بواجبه أو لأنه ليس معه من الأموال لكى ينفق ولكنها تستغل ذلك لتتحصل على رصيد لها تفها من الأشخاص الذين يتواصلون معها على شبكات التواصل الاجتماعى فى مقابل أن تظهر له بعض مفاتها أو تتحايل عليه بالحديث المعسول والكلام المنبوذ حتى ترضى شهوته وغرائزه وتتحصل هى على المال بصورة أو بأخرى.

^١ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - باب سفيان الثورى - ج: ٦ - ص: ٣١٤.

^٢ - صحيح مسلم - باب حجة النبى ٨ - ج: ٢ - ص: ٢٨٦ - ح م: ١٢١٨.

وهذا كله من نزغات الشيطان وتزيينه للمعاصي مع أن رب العزة قال:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾ (٣١) [النور].

فأمرك سبحانه بغض بصرك لسد منافذ فساد الأعراض ومنع أسباب تلوث النسل لتأتي الخليقة لله في الأرض طاهرة في مجتمع طاهر نظيف شريف فأمرك سبحانه بحفظ فرجك بأن نقصدها على ما أحل الله وشرعه فلا أبيعها لغير محلل له سواء كان من الرجل أو من المرأة وأن تصونه لأن رؤيته تهيج إلى الشر وإلى الفتنة عافانا الله وإياكم من شر الفتن ما ظهر منها وما بطن .

وعليك أختي المؤمنة بالالتزام بما أمرك الله به وما نهاك عنه لأنها أمانة سوف تسألين عنها يوم القيامة.

خامسا: الأمانة في التجارة واجبة:

يقول النبي ﷺ: {التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين}.

والأمانة في البيع والشراء ترجع إلى مدى رقابة الله تعالى فالبائع عليه أن يعرض بضاعته بأمانة ولا يخفي عيبتها أو يقدر عن شيء طيب وليس فيها والمشتري عليه أن يتقى الله ولا يبخرس البائع حقه ولا يكتر من الجدال والمراء. قال ﷺ: {البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما}.

يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها فاشتراها بأربعمائة فمشى بها وهي على يديه، فاستقبله يونس فعرف حلته، فقال للأعرابي: بكم اشتريت؟ فقال: بأربعمائة. فقال: لا تساوى أكثر من مائتين فارجع حتى تردها. فقال: هذه تساوى في بلدنا خمسمائة وأنا ارتضيته. فقال له يونس: انصرف معي فإن النصيح في الدين خير من الدنيا وما فيها. ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه في ذلك وقال: أما استحييت أم اتقيت الله تربح مثل الثمن وتترك النصيح للمسلمين؟ قال: والله ما أخذها إلا وهو راضٍ بها. فقال: فهلا رضيت له بها ترضاه لنفسك؟

سادسا: الأمانة في المناصب والإمارة والولاية:

فمن معانى الأمانة وضع كل شيء في مكانه الجدير به واللائق له فلا يسند منصب إلا لصاحبه الأحق به ولا تملأ وظيفة إلا بالرجل الذى ترفعه كفايته إليها واعتبار الولايات والأعمال العامة أمانات مسئولية ثابتة من وجوه كثيرة.

عن أبى ذر رضى الله عنه قال: { يا رسول الله ألا تستعملنى فقال فضر ببيديه على منكبيه ثم قال: يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها } (١).

إن الكفاءة العلمية أو العملية ليست لازمة لصلاح النفس فقد يكون الرجل حسن السيرة والإيمان ولكنه لا يحمل من المؤهلات المنشودة ما يجعله منتخبا في وظيفة معينة، وأبو ذر لما طلب الولاية لم يره الرسول ﷺ جلدا لها فحذره منها، فإذا ولينا المنصب إلى الشخص غير الجدير به لهوى أو رشوة أو قرابة فقد ارتكبنا طغيانا فادحا بتولية العاجز الذى لا يكون جديرا بهذا المنصب لأنه سينتج عنه فساد يهلك المجتمع.

دور الأمانة وأثرها على المجتمع:

إن الأمانة خلق رفيع وأدب جم لا تستقيم الحياة إلا به ولا تقوم المعاملات إلا عليه، تحتاجه الأمم الإسلامية في جميع شئونها، تحتاجه مع الإمام في حق رعيته وتحتاجه مع إمام المسجد في مسجده، ومع البائع في بيعه، والتاجر في تجارته، والمدرس في مدرسته، والزوجة في بيتها، والعامل في عمله، والجندي في موقعه، والباحث في بحثه، والغاسل مع الميت، فالأمة التى لا تعرف أداء الأمانة وصيانة الحقوق أمة ضعيفة مهينة ذليلة لما للأمانة من هذه الأهمية البالغة في استقامة وصلاح وبناء الفرد والمجتمع فإنها سر سعادة الأمم. لما كانت أمتنا من أصدق الشعوب والأمم في حمل هذه الأمانة والوفاء بها كانت أمتنا خير أمة أخرجت للناس فكانت هذه الأمة تتحرى الحلال في كل شيء.

فقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم حريصين على تحرى الحلال وكانت المرأة توصى زوجها وتقول له: { اتق الله فينا ولا تطعمنا حراما فإننا نصبر على نار الجوع ولا نصبر على نار جهنم }.

^١ - صحيح مسلم - باب كراهية الإمارة بغير - ج: ٢ - ص: ٢٤٥٧ - ح م: ٢٥١٦.

أما نحن الآن - إلا من رحم ربى - فنجمع المال من التجارة والصناعة والمكاسب الأخرى ولا نبالي
أمن حلال أم من حرام، المهم جمع المال، وهذه من علامات الساعة كما أخبرنا الحبيب ﷺ: {يأتي على الناس
زمان لا يبالي المرء ما أخذ أمن حلال أم من حرام؟} ^(١).

فمن الأمانة ألا تأكلوا إلا حلالاً أحله الله. قال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا...﴾ [البقرة: ١٦٨]

ينبه الخالق جل وعلا مؤمنهم وكافرهم، الناس جميعاً بأن يأكلوا من الحلال الطيب من الأرض، لأن
كل طيب قد حلله الله سبحانه وتعالى فعلى الإنسان إذن أن ينتبه جيداً فلا يساوى بين الحرام والحلال،
فالمتصور به أن يأكل الإنسان من الرزق الحلال الطيب، إذن فهناك رزق حرام.

مثال: اللص الذى يسرق شيئاً ينتفع به. هذا رزق جاء عن طريق الحرام، والرزق الذى يأتى عن طريق
الغصب والرشوة والربا فهذا رزق حرمه الله تعالى.

وكذلك الظاهرة التى انتشرت وملأت الأرض بالفساد والظلم وقتل النفس من الاكتساب عن طريق
الحرام بذبح ما حرمه الله مثل الميتة والخنزير، وشاع ذبح الكلاب والحمير وهذا مما حرمه الله تعالى، والذى
يحرمه الله سبحانه وتعالى يكون تحريره فى صالحنا وخيراً لنا، إنه علام الغيوب.

مثال: عندما يحرم الحق جل وعلا لحم الميتة: قال تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ...﴾ [المائدة: ٣]

والميتة هى التى ماتت ولم تذبح فلحمها يصبح ضاراً بالصحة لأن أوعية الدم فى الحيوان وفى كل كائن
حى هى وعاءان إما أوردة وإما شرايين والدم قبل أن يذهب إلى الكلى أو الرئة يكون دماً فاسداً ونحن عندما
نذبح الحيوان يسيل منه الدم الفاسد وغير الفاسد ويخرج ويصير اللحم خالصاً، ولكن الحيوان الذى لم يذبح
لم يذك ^(٢) وذلك يعنى أنه لم يطهر من فساد الدم وهو ضار للإنسان، فكل شيء أحله الله يكون طيباً وكل
شيء حرمه الله يكون خبيثاً.

^١ - صحيح البخارى - باب من لم يبالي من حيث كسب الناس - ج: ١ - ص: ١٥٣.

^٢ - الذكاء والتذكية تعنى الذبح والنحر.

فاسأل نفسك أيها الأخ المؤمن: أين الأمانة وأنت تذبح الكلاب والحمير والميتة؟ وهذا مما حرمه الله، أين الأمانة وأنت نشرت الرعب وعدم الثقة وعدم الأمن النفسى فى قلوب الناس؟ وهذا يحدث من النفوس الضعيفة والقلوب الغافلة عن ذكر الله، فراجع نفسك وخَفْ عليها فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون فإنك ستسأل عن كل كبيرة وصغيرة، فإنك بذلك تتبع خطوات الشيطان، والله عز وجل بين لنا ووضح لنا أن عدواة الشيطان للإنسان مسبقة لأنه وقف من آدم هذا الموقف وأقسم بعزة الله أن يغويكم جميعا.

قال تعالى: ﴿ قَالَ فِعْرَنُكَ لَأُعْوَذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]

ثم بين سبحانه جهات الغواية. قال تعالى:

﴿ ثُمَّ لَأَنبِئَهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧]

حيث يأتينهم من أمامهم ومن خلفهم وعن أيانهم وعن شمائلهم ولم يذكر من فوق ولا من تحت، هرب إبليس من هاتين الجهتين لأنه يعلم أن الجهة العليا تسمى الفوقية الإلهية وأن الجهة السفلى تمثل العبودية البشرية حينما يسجد الإنسان لله.

والحق سبحانه وتعالى يخبرنا عن مراد الشيطان من الإنسان، إنها يأمركم بالسوء والفحشاء.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]

والسوء: هو كل عمل أضر فاعله بالآخرين، فالذى سرق أو قتل أو ضرب أو ذبح ذبيحة محرمة فهذا فاعل السوء، فالسوء عمل يكرهه الناس ويقال: فلان رجل سو. أى يلقى الناس بما يكرهون.

فالأمانة صفة من صفات المؤمنين، فالشخص الأمين يحبه الله ويحبه الناس ويبارك الله له فيما أعطاه إن راعى حق الله سبحانه وتعالى فى كل ما أمر وفى كل ما نهى ويفرج الله همه ويريح قلبه.

وفى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار وأغلقت الصخرة عليهم

الغار فقام كل واحد من الثلاثة يتوجه إلى الله بصالح الأعمال ليفرج عنهم الصخرة، فالرجل الأول: تقرب

ببر والديه، والرجل الثانى: تقرب بخشية الله جل وعلا، والرجل الثالث: تقرب بأمانته، فقال الرجل

الثالث: اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرت أجره

حتى كثر منه الأموال، فجاءنى بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إليّ أجرى. فقلت كل ما ترى من أجرك من

الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال يا عبد الله لا تستهزئ بى. فقلت: لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون (١).

ضياع الأمانة:

اليقين الذى لا شك فيه أن الأمانة قد غابت عن مواقع كثيرة ومجالات متعددة فى أحوال المسلمين، فقد زالت إلا ما قل منها من الصدور، وكلما زال منها شيء زال نور الإيمان منه وتحل مكانه ظلمة الجهل. أيها المؤمنون ما سميتم مؤمنين إلا لأن الناس يأتمنونكم على أعراضهم وأموالهم، فالمؤمن من أمنه الناس على أعراضهم.

كما قال الحبيب ﷺ: { ومن ادعى الإيمان وهو خائن فهو كاذب فلا إيمان لمن لا أمانة له، وإن ادعى الإسلام صدق وإن ادعى الإيمان كذب }.
فضياع الأمانة بين الناس محلها النفاق والمراوغة وهذا يؤدى إلى دمار الأمة وضياعها، وكلما مرت

الأيام ذهبت الأمانة من القلوب شيئاً فشيئاً حتى ترفع فلا تجد رجلاً أميناً.

عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: { حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت فى جذر (٢) قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ثم حدثنا عن رفع الأمانة وقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت أى الأثر اليسير، ثم ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل (٣) كحجر دحرجته على رجلك فنفض فتراهم منتبراً (٤) ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى

١- وراه البخارى ومسلم - كتاب الإيجارة - رقم ٢٢٧٢ .

٢- الجذر: أصل الشيء .

٣- المجل: بفتح الجيم معناه انتفاخ جلد اليد من العمل وغيره .

٤- منتبراً: مرتفعاً .

فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل ما أظرفه وما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، والأمانة من الإيمان^(١).

أى أن الأمانة كانت في قلوبهم بحسب الفطرة ثم حصلت لهم بطريق الكسب من الكتاب والسنة فعلموا من القرآن أى علموا الأمانة منه، وتقبض وتنزع منه لسوء فعل منه تسبب عنه ذلك.

ضياع الأمانة من علامات الساعة:

جاء رجل إلى النبي ﷺ وسأله: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال ﷺ: {إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة}. قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة^(٢).
ولقد أخبر النبي ﷺ أنه ستكون هناك سنوات خداعة تنعكس فيها الأمور، فقال ﷺ: {سيأتى على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة^(٣).
فالأمانة ضمير حتى إلى جانب الفهم الصحيح للقرآن والسنة، فإذا مات الضمير انتزعت الأمانة، فما يغنى عن المرء ترديد الآيات ولا دراسة للسنن من قلب مات فيه الضمير الحى، فلنحرص جميعاً على أداء الأمانة العظيمة التى جعلها الله فى أعناقنا ولنخلص النية لله عز وجل ونقول بلسان الحال: ﴿...وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه].

١- صحيح مسلم - باب رفع الأمانة - ج: ١ - ص: ١٢٦ ح م: ١٤٣.

٢- صحيح البخارى - باب من سأل علماً وهو يشتغل - ج: ١ - ص: ٣١.

٣- سنن ابن ماجه - باب شدة الزمان - ج: ٥ - ص: ١٩٢ ح م: ٤٣٥ حديث حسن.

خائن الأمانة:

أداء الأمانة فضيلة من الفضائل وخلق من الأخلاق الحميدة التي تسمو بالإنسان وتعلو منزلته في الدنيا والآخرة. فيا من أخذت أموال الناس اعلم أنك إذا كنت تنوى أداءها فإن الله عز وجل هو الذى يؤدى عنك، كما أخبرك بذلك الصادق عليه السلام: { من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله } ^(١).

وبالمثال يتضح المقال. فلقد قال الحبيب عليه السلام كما رواه البخارى: { أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتنى بالشهداء أشهدهم. فقال: كفى بالله شهيدا. قال: فائتنى بوكيل. قال: كفى بالله وكيلا. قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى. فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا ليركبها يقدم عليه بالأجل الذى أجله فلم يجد مركبا، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زق موضعها ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أنى تسلفت من فلان ألف دينار، فسألنى وكيلًا فقلت كفى بالله وكيلا، وسألنى شهيدا فقلت كفى بالله شهيدا فرضى بك، وإنى جاهدت أن أجِد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أجِد وإنى استودعتها، فرمى بها إلى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف، وهو يلتمس مركبا يخرج إلى بيته، فخرج الرجل الذى كان أسلفه لعل مركبا قد جاء بهاله، فإذا بالخشبة التى بها المال فأخذها لأهله حطبًا فلما نشرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الذى كان أسلفه فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهدا في طلب مركب لآتيك بهالك فما وجدت مركبا قبل الذى أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلى شيئا؟ قال أخبرتك أنى لم أجِد مركبا قبل الذى جئت فيه. قال: فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشدا } ^(٢).

١- رواه البخارى - كتاب الاستقراض وأداء الديون - ح م: ٢١٨٧.

٢- صحيح البخارى - وصحيح الجامع الصغير - حرف الألف وزياداته - ج: ١ - ص: ٤٦٨.

حال خائن الأمانة فى الدنيا:

انتشار القتل بينهم وتسليط العدو عليهم.

فعن بريدة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: {ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم ولا ظهرت الفاحشة إلا سلط عليهم الموت ولا منع قوم الزكاة إلا حبس عنهم المطر وتحدث لهم فضيحة يشهدها الخلائق ألا وهى ينصب لواء عند دبره مكتوب عليه هذه غدرة فلان بن فلان وهو يحمل غدرة من المال أو غيرها يسير بها وسط الخلائق من الإنس والجن والملائكة والحيوان} (١).

وقال ﷺ: {إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به يقال: هذه غدرة فلان، وتأمل هذا المشهد لخائن الأمانة يقال له أد الأمانة وإن مات شهيدا. فيقول: كيف أؤديها وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية فيسقط فيها ويرى الأمانة أمامه ممثلة كهيئتها فى الدنيا فيحملها فإذا أراد أن يخرج زالت عن كتفه فهو يتردى وراءها أبد الآبدين} (٢).

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: {القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة، قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة ولو قتل فى سبيل الله فيقال له: أد أمانتك. فيقول أى ربى كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية فتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه فيراها فيعرفها فيهوى فى أثرها حتى يدركها فيحملها على منكبيه حتى إذا ظن أنه خارج زالت عن منكبيه فهو يهوى فى أثرها أبد الآبدين. ثم قال: الصلاة أمانة، الوضوء أمانة، الوزن أمانة، والكيل أمانة... وأشياء عددها وأشد ذلك الودائع، قال زادان فأتيته البراء بن عازب فقلت: ألا ترى إلى ابن مسعود قال كذا، قال: صدق. أما سمعت الله يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ (النساء) (٣).

١- الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب من علامات الساعة الصغرى - ج: ٢ - ص: ٣٢٥.

٢- صحيح مسلم - باب تحريم الغيبة - ج: ٣ - ص: ١٣٥٩ - ح م: ١٧٣٥.

٣- الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب خطورة المظالم وعظم شأنها - ج: ٣ - ص: ٢٦٩.

الباب الثالث

- الفصل الأول: الدعاء
- الفصل الثاني: الذكر
- الفصل الثالث: الرضا
- الفصل الرابع: الصبر

الفصل الأول

الدعاء

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على سنته ومنهاجه إلى يوم الدين. أما بعد،،

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: { ليس شيء أكرم على الله من الدعاء }^(١).

الدعاء في اللغة:

هو النداء. دعا بالشيء دعواً، دعوة، دعاء، ويقال دعا الله رغب إليه وابتهل ورجا منه الخير^(٢).

أما الدعاء في اصطلاح الشرع:

فهو طلب من العبد لربه والرغبة إليه في طلب منفعة ورفع ضرر^(٣).

اللجوء إلى الله بالدعاء:

إننا نتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء لأنه سبحانه لا يستعصى عليه أمر في هذا الكون فإنك إن أردت شيئاً وعجزت أسبابك عن تحقيقه فإنك ترجع وتستغيث بالمولى عز وجل فتقول يا رب متوجهاً إلى تلك القوة والقدرة التي أوجدت هذا الكون وخلقت أسبابه لعله سبحانه وتعالى يحقق لك ما عجزت أسبابك عن تحقيقه والله تبارك وتعالى نثر أسبابه في كونه ليأخذ منها المؤمن والكافر لذلك يجب ألا يوجه الدعاء

١- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب فضل الدعاء - الجزء الثاني والعشرون - ص ٢٦٨ - أخرجه أحمد

في مسنده - المجلد الثامن - ص ٤٠٧ - رقم الحديث ٨٧٣٣٦ - إسناده صحيح .

٢ - المعجم الوجيز - طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم - ص ٢٢٨ .

٣ - لسان العرب - ص ٣٦٧ .

للأسباب وإنما يتوجه بها للمسبب الذى أوجد النعمة فإن ذكر الله واجب عند كل نعمة وشكره واجب عند الانتفاع بها والله سبحانه وتعالى يحب سماع أصوات عباده المؤمنين وهم يطلبون منه إنه يجب أن يسمع كلمة (يا رب) من أفواههم وربما أخرج الإجابة ليستمروا في الدعاء لسمع أصواتهم وهم يدعونه لكنه جل جلاله يكره أصوات الكافرين ولذلك ربما أجابهم إلى مطالبهم الدنيوية بدون تأخير حتى لا يسمع أصواتهم وهي تدعوه وعطاء الدنيا عند الله سبحانه وتعالى لا يساوي شيئاً.

فرسول الله ﷺ يقول {لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء} (١).
إنك إذا لجأت إلى الله وحده بالدعاء والتضرع تكون قد علمت يقيناً أنه لا حول ولا قوة إلا بالله.
عن أبى العباس عبد الله بن عباس قال: {كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال يا غلام إنى أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف} (٢).

تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، فعلينا بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى وأن يدعو المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب حتى نكون إخوة متحابين في الله سبحانه وتعالى.

عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ {ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا وقال الملك: ولك مثل ذلك} (٣).

فعليك أختي المؤمن باللجوء إلى الله سبحانه وتعالى إذا ضاقت بك الدنيا وتكدت بك الحياة، يا ابن آدم إذا ضاقت بك الدنيا فقل يا الله، يا ابن آدم إذا تنكر لك الناس فقل يا الله، إذا سألت فقل يا الله إذا استعنت فقل يا الله، يا ابن آدم إذا توكلت فقل يا الله، يا ابن آدم إذا نمت على فراش المرض فقل يا الله، يا ابن آدم إذا دخل عليك ملك الموت فقل يا الله.

١ - أخرجه الترمذى - باب ما جاء في هوان الدنيا - ج ٤ - ص ٥٦٠ - ح ٢٣٢٠

٢ - سنن الترمذى - الجزء الرابع - ص ٦٦٧ - رقم الحديث ٢٥١٦ - حديث حسن صحيح .

٣ - أخرجه مسلم - باب الذكر والدعاء - باب الدعاء للمسلمين بظهر الغيب - رقم الحديث ٢٧٣٢ .

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء].

فالله عز وجل هو وحده القادر على كل شيء ولا تلجأ أيها المؤمن إلى إنسان مثلك لكي تنال منه منفعة لأنك عندما تدعو إنساناً ذا نفوذ أو سلطان فإنك تدعوا من لا قدرة له ولا قوة له لأنك تدعوا من يعيش في دنيا الأغيار وربما كان اليوم ذا نفوذ ولكنه قد يفقد نفوذه غداً وربما كان صاحب مال ولكن ماله يفنى بين يوم وليلة وربما كان حياً اليوم ولكنه سيموت غداً والله تعالى عنده الخير كله ولو أعطى الناس كلهم كل ما يطلبونه ما نفدت خزائنه إنه يرزق ما يشاء بغير حساب .

يقول الله تعالى في حديث قدسى: { يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا الذى أغفر الذنوب ولا أبالى، فاستغفرونى أغفر لكم، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسأله لم ينقص ذلك من ملكى شيئاً إلا كما ينقص البحر أن يغمس المخيط غمسة واحدة، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه }^(١) .

والدعاء مطلوب في كل مكان وفي كل وقت لأنه الصلة بين العبد وربّه فالإنسان إذا دعا الله ولجأ إليه في كل وقت يصبح الله دائماً في باله فلا يضل ولا يشقى والإنسان عندما يحس في قلبه أن الكون كله عاجز وأن الله تبارك وتعالى وحده هو القادر يقربه هذا من الايمان الصحيح فالاستعانة بالله في كل الأمور هي الطريقة المثلى للحياة المطمئنة لأن الإنسان يتذكر دائماً أن الله بقوته وقدرته وجلاله معه فيكون مطمئناً لأنه لا عزيز إلا الله ولا قادر إلا الله ولا قوي إلا الله.

^١ - أخرجه مسلم - كتاب البر - باب تحرير الظلم - رقم الحديث ٢٥٧٧ .

وأنت بدعائك لله تستند إلى ركن متين لأنه سبحانه وتعالى هو الحي الذي لا يموت وهو موجود دائماً عندما ندعوه نجده سميعاً عليماً وهو القائم على كونه لا تأخذه سنة ولا نوم.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ...﴾ (البقرة: ٢٥٥).

إن الله جلت قدرته لا يغفل عن عباده لحظة وهو القاهر دائماً، فاللجوء إلى الله بالدعاء هو طريق النجاة. قال سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٢).

كان من الواجب على الإنسان أنه ساعة ما تمسه الضراء أن يلجأ إلى خالقه بالدعاء والتضرع ليرفع عنه ذلك البلاء ولقد جعل الله الضراء وسيلة تنبيه يتذكر بها الإنسان أن له رباً وفي هذه اللحظة يجب الحق الإنسان المضطر فيغيثه مصداقاً لقوله الحق:

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم مَخْرَجًا مِنَ الْأَرْضِ إِنَّ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ (النمل: ٦٢).

وإذا صنع الله مع المضطر هذا فقد يعود إلى رشده ويقول إن الإله الذي لم أجدي مفزعاً إلا هو لا يصح أن أنساه وكأن الحق يذكرنا بطلاقة قدرته حين يقول:

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا...﴾ (الأنعام: ٤٣).

الدعاء هو العبادة:

الدعاء هو تضرع وذلة وخشوع وإقرار منك أيها الإنسان بأنك عاجز وتطلب من ربك المدد والعون واستحضارك جزاء وقدرة ربك تمثل لك استدامة اليقين الإيماني وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل له ويبتكر ويخترع فقد يأخذه الغرور فيأتي له بحاجة تعجز فيها الأسباب فيقف ليدعو.

والعلماء يقولون:

إن الدعاء إذا قصد به الذلة والعبودية يكون جميلاً، أما الإجابة فهي إرادة الله، إن حظك من الدعاء هو العبادة والذلة لله لأنك لا تدعو إلا الله إذا اعتقدت أن أسبابك كبشر لا تقدر على هذه ولذلك سألت من يقدر عليها وسألت من يملك، إذاً اجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه لإجابتك إلى ما تدعو إليه، إنك تدعو لتطلب الخير فده الحق سبحانه بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر].

فآلية الكريمة قد دلت على أن الدعاء من العبادة لأنه سبحانه وتعالى أمر عباده أن يدعوه ثم قال ﴿...إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي...﴾ [غافر] فأفاد ذلك أن الدعاء عبادة وأن ترك دعاء الرب سبحانه يُعد استكباراً ولا أقبح من هذا الاستكبار وكيف يستكبر العبد عن دعاء من هو خالق له ورازقه وموجده من العدم وخالق العالم كله ومحبيه ومميته ومثييه ومعاقبه فلاشك أن هذا الاستكبار طرف من الجنون وشعبة من كفران النعم^(١).

روى النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال:

{إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ ﴿...ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ [غافر]}^(٢).

عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: {الدعاء مخ العبادة}^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ {سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج}^(٤).

١- تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين للشوكاني - ص ٦١.

٢- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب وقال ربكم ادعوني - الجزء الواحد والعشرون - ص ١٤١ - وصحيح الجامع رقم الحديث ٣٤٠٧.

٣- سنن الترمذی - الجزء الخامس - ص ٤٥٦ - رقم الحديث ٣٣٧١

٤- سنن الترمذی - باب في انتظار الفرج - الجزء الخامس - ص ٥٦٥ - رقم الحديث ٣٥٧١

الدعاء يرد القضاء:

وهذه المسألة من المسائل التي اختلف فيها باختلاف الأدلة فيها من الكتاب والسنة.

عن سلمان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: { لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر }^(١).

الحديث فيه دليل عن أنه سبحانه يدفع بالدعاء ما قد قضاه على العبد ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: { لا يغني حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل وما لا ينزل وإن البلاء لا ينزل فيتلقاه الدعاء فيتعالجان إلى يوم القيامة }^(٢).

وقوله " لا يغني حذر من قدر " فيه دليل على أن الحذر لا يغني عن صاحبه شيئاً من القدر المكتوب عليه ولكنه ينفع من ذلك الدعاء ولذلك عقبه بقوله ﷺ { والدعاء ينفع مما نزل }.

أوقات الدعاء:

الدعاء مطلوب في كل وقت وفي كل مكان لأنه الصلة بين العبد وربّه التي لا تتوقف عند ساعة النوم أو ساعة الاستيقاظ فلقد علمنا رسول الله ﷺ كيف ندعو الله وكانت له ﷺ أدعية كثيرة تربط الحياة في كل نشاطاتها بالله سبحانه وتعالى فلا تخطو خطوة إلا ولها دعاء خاص وفي كل حركة حتى عند النوم.

عدم إجابة الدعاء أو تأجيلها ليست شراً:

عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: { ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن تعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذن نكثر؟ قال: الله أكثر }^(٣).

وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة].

^١ - أخرجه ابن ماجه في سننه - باب العقوبات - الجزء الثاني - ١٢٢٤ - رقم الحديث ٤٠٢٢ - إسناده حسن.

^٢ - المسند الموضوعي الجامع للكتب - باب ما يرد القضاء - الجزء الثاني - ص ١٨٢ - رقم الحديث ٢٢٠٤٤ - إسناده ضعيف.

^٣ - أخرجه أحمد في مسنده - المجلد العاشر - رقم الحديث ١١٧٥ - إسناده حسن.

إذن فمعرفتك ليست نهائية في تقرير الخير والشر لذلك دع الإله الأعلى وهو المأمون عليك أن يستجيب أو لا يستجيب لما تدعوه وأنت في ظنك أنه الخير فالمعرفة العليا هي التي تفرق بين الخير والشر، وفي المنع أحياناً عين العطاء، في الحقيقة أن الإنسان في دعائه يطلب أشياء هو بعلمه المحدود وقدرته البشرية الناقصة يرى أن في طلباته خيراً له ولكن الله سبحانه وتعالى الذي له القدرة والعلم وحده قد يرى فيها يطلبه العبد شراً له دون أن يعرف فتكون رحمة الله به ألا يجيبه إلى دعائه فتصبح عدم الإجابة هي الخير.

والحق سبحانه وتعالى يعالج قضية الدعاء بالخير أو الدعاء بالشر لأن الإنسان قد يضيق ذرعاً بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به فإذا ضاق ذرعاً بأمور تحيط به في ذاته من ألم كمرض مثلاً أو عاهة لا ينوي على الصبر عليها أو لا يقوى على تحملها فيقول يا رب ارحمني خذني إليك يا رب وهو هنا يدعو على نفسه بالموت فلو أن الله سبحانه استجاب دعاءه لقضيت المسألة ولكن الله هو الحكيم العزيز لا يأتمر بأمر من خلقه ولا يعجل لعجلة العباد وكما يؤجل لك استجابته لدعوة الخير منك فهو يؤجل لك استجابته لدعوة الشر منك على نفسك وفي ذلك رحمة منه سبحانه وتعالى .

وإذا كنت تقول أنا أدعو بالخير والله سبحانه وتعالى لا يعطيني فخذ مقابليها أنك تدعو بالشر على نفسك ولا يجيبك الله لأنك تجد من يقول (يا رب أصبني بالعمى فلا أراهم)، أو تدعو المرأة على نفسها أو على أولادها وأنتم تحبون أن يجيب الله تعالى دعاءكم فلو كان يجيبكم على دعاء الشر لانتهدت حياتكم إلى الفزع، فكما قبلتم أن يؤجل الله تعالى دعاء الشر على أنفسكم فاقبلوا منه أن يؤجل دعاءكم بالخير وكما تحترم عدم إجابته لك في الشر على نفسك أو على من تحبه فاحترم عدم إجابته لك فيما تظنه خيراً لك أو لمن تحب لأن الله لا يعجل لعجلة عباده لأنه سبحانه هو الذي خلقهم وهو أعلم بهم فهو القائل سبحانه:

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ... ﴾ (٣٧) [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ (١١) [الإسراء] (١).

بالدعاء يعفو الله ويتوب عن الخطايا:

انظروا إلى رسول الله ﷺ لقد علم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن تدعو بمقاييس الخير الواسع لها فقال لها: {قولي: اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعف عني} (١).

ولا يوجد جمال أحسن من العفو ومعنى العفو محو الأثر كالسائر في الصحراء تترك قدماء علامة وتأتي الريح لتزيل هذا الأثر. كأن هناك ذنباً، والذنب له أثر وأنت تطلب من الله أن يمحو هذا الذنب وعندما تدعو بالدعاء الذي علمه لنا الحق سبحانه:

﴿...وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦)

[البقرة].

فنحن بهذا الدعاء نتوجه إلى الله ضارعين: أنت يا حق تعلم أننا مهما أوتينا من اليقظة الإيمانية. والعفو: هو أن ترتكب الذنب وتطلب من الله محوه ومغفرته .

أما الرحمة: فهي الدعاء ألا يدخلنا في الذنب أصلاً، والحق سبحانه يقول لرسوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ

لَمْ أَذَنْتْ لَهُمْ...﴾ (٤٣) [التوبة].

وكلمة (عفا) تدل على أن هناك أثراً قد محي تماماً وهي تطلق على محو الله سبحانه وتعالى لذنوب عباده فلا يعاقبهم عليها وما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه فلا يجب أن يجرجه أحد بعد ذلك ولا أن يعايره أحد فقد استغفر عند من يملك الملك كله .

إن الحق سبحانه وتعالى خلق خلقه ويعلم أن الأغيار تأتي في خواطرهم وفي نفوسهم وأن شهواتهم قد تستيقظ في بعض الأوقات فتتنفلت إلى بعض الذنوب ولأنه ربٌ رحيم يَبْنِ لنا ما يمحس كل هذه الغفلة فإذا أذنب العبد ذنباً أدبه الرحيم ليتركه هكذا للذنب؟ لا إنه سبحانه شرع له العودة إليه لأن الله يحب أن يتوب عبده ويرجع إليه، وإنه غفل بمعصيته والله يحب التوبة من عباده وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدهم وقع على بعيره وقد أضله في فلاة لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتعطيه نفعاً عاجلاً

١- حديث صحيح أخرجه أحمد في مسنده- رقم ٢٥٢٦٠ - إسناده صحيح - المجلد السابع عشر - ص ٥٨٣ - ورواه الترمذی - كتاب الذكر والدعاء - باب أى دعاء أفضل .

فإن حلاوة الإيمان إن كان مؤمناً صحيح الإيمان ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيداً عن المعاصي ولذلك إن انتفعت بالتوبة وندمت على ما فعلت فإن الله لا يغفر لك ذنوبك فقط ولكن يبذل سيئاتك حسنات. وكان من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَارِنَا مَنَايِكَ وَسَبِّحْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْتَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة].

والحق سبحانه وتعالى يطمئن العبد برفع يديه داعياً الله أن يتوب عليه .
عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: { إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها }^(١).
فعلينا الاستعانة بالله واللجوء إليه والاعتماد عليه .

يقول الله سبحانه في حديثه القدسي: {وعزتي وجلالي ما اعتصم بي عبد فكادت له السموات والأرض إلا جعلت له من بينها فرجاً ومخرجاً وما اعتصم بغيري عبد إلا زلزلت الأرض من تحت قدميه}.
قال تعالى: ﴿...وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور].
وقال تعالى: ﴿...وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ...﴾ [الحج].

آداب الدعاء:

ومن آداب الدعاء الآتي:

أولاً: أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة:

كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ووقت السحر من (ساعات الليل)، قال تعالى ﴿وَالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات].
عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: {ينزل الرب في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفري فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر}^(٢).

١- أخرجه مسلم - كتاب الذكر والدعاء - باب قبول التوبة من الذنوب - حديث رقم ٢٧٥٩ - المجلد التاسع - ص ٧٦.

٢- أخرجه البخاري - كتاب التهجد - باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل - رقم الحديث ١١٤٥ - المجلد الثالث - ص ٣٢.

ثانيا: أن تغتنم الأحوال الشريفة:

قال ﷺ: {الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد} ^(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: {الصائم لا ترد دعوته} ^(٢).

ثالثا: حالة السجود:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: {أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء} ^(٣). وأن يكون يكون مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه. وقال سلمان قال رسول الله ﷺ: {إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردهم صفراً} ^(٤).

وقال ابن عباس: {كان ﷺ إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونها مما يلي وجهه}.

ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء، قال عمر رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه. ولا يرفع بصره إلى السماء.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: {ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم فاشد قوله في ذلك حتى قال: ليتتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم} ^(٥).

رابعا: خفض الصوت بين المخافة والجهر:

لما روي أن أبا موسى الأشعري قال: {كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فلما دنونا من المدينة كبر الناس ورفعوا أصواتهم، فقال النبي ﷺ: يا أيها الناس إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إن الذي تدعونه بينكم وبين أعناق ركابكم} ^(٦).

^١ - سنن الترمذى - باب العفو والعافية - الجزء الخامس - ص ٥٧٧ - رقم الحديث ٣٥٩٥ - صحيح .

^٢ - أخرجه أحمد في مسنده - المجلد التاسع - ص ٤١١ - رقم الحديث ١١٣٦ - إسناده حسن .

^٣ - أخرجه مسلم - باب ما يقال في الركوع - الجزء الأول - ص ٢٥٠ - رقم الحديث ٢١٥ .

^٤ - سنن ابن ماجه - باب رفع اليدين في الدعاء - الجزء الثانى - ص ١٢٧١ - رقم الحديث ٣٨٦٥ - صحيح .

^٥ - رواه البخارى - كتاب الأذان - باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة - ص ٧٥٠ .

^٦ - رواه مسلم - كتاب الذكر والدعاء - باب استحباب خفض الصوت بالذكر - رقم الحديث ٢٧٠٤ .

وقال تعالى: ﴿...وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]. وقد أثنى الله على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٢]. أن لا يتكلف السجع في الدعاء قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]. فإنه قد يتعدى في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته.

وقد قال رسول الله ﷺ: {إياكم والسجع في الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل} ^(١)، وقال بعضهم: ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق، والمراد بالسجع المتكلف من الكلام فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة .

خامسا: التضرع والخشوع والرهبة:

قال تعالى:

﴿...إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٢].

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل} ^(٢).

وقال سفيان بن عيينة: {لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق "إبليس لعنه الله" إذ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين} ^(٣).

^١ - الإفطار والدعوات - ج: ١ - ص ٣٦٣ - ح م: ١٢٨. قال العراقي غريب بهذا السياق . وقال ابن السبكي لم أجد له إسنادا.

^٢ - إحياء علوم الدين تصنيف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المجلد الأول الدار البيضاء .

^٣ - أخرجه الترمذى .

^٤ - كتاب البحر المحيط في التفسير - أبو حيان محمد بن يوسف - ص ٢٠٧ - ج: ٢ .

سادساً: أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً:

قال ابن مسعود: { كان إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً }^(١). قال رسول الله ﷺ: { يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي. فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً فإنك تدعو كرياً }^(٢).

سابعاً: أن يفتح الدعاء بذكر الله عز وجل فلا يبدأ بالسؤال:

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من أراد أن يسأل الله حاجة، فليكثر من الصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل حاجته، وليختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما^(٣).

ثامناً: التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل وهو الأصل في الإجابة:

روي عن كعب الأحبار أنه قال: أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج موسى ببني إسرائيل يستسقى بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام إني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام فقال موسى يا رب ومن هو حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله عز وجل إليه يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نهما فقال موسى لبني إسرائيل توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النميمة فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث^(٤).

تاسعاً: أن يسأل الله بأسمائه الحسني:

وصدق الله العظيم: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ [الأعراف].

^١ - أخرجه مسلم - باب ما لقي النبي ٨ - ج ٣ - ص ١٠٧ - ح ١٤١٨.

^٢ - الأدب المفرد في التعليقات - باب من تعوذ بالله من الكسل - الجزء الأول - ص ٢٤٣ - رقم الحديث ٦٥٤ - صحيح.

^٣ - أحياء علوم الدين ج ٢.

^٤ - كتاب الأعلام لفوائد عمدة الأحكام - ج ١ - ص ٥٣٤ لابن الملقن سراج الدين أبو حفص.

عاشرا: ألا يدعو بإثم أو قطيعة رحم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم }^(١).

حادى عشر: الطهارة:

ينبغي على الداعي أن يكون طاهر القلب سليم النية على وضوء لأن الوضوء سلاح المؤمن يتحصن به من الشيطان الرجيم .

ثانى عشر: الإخلاص:

وهذا الأدب هو أعظم الآداب في إجابة الدعاء لأن الإخلاص هو الذي تدور عليه دوائر الإجابة، وصدق الله العظيم: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [١٤] غافر.

ثالث عشر: أن يكون المأكَل والمشرب والملبس من حلال:

فمن الواجب على المسلم أن يتحرى الحلال في كل شيء وأن يبتعد عن الحرام.

وصدق الله العظيم:

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [١٣٨]

[البقرة].

والرسول يعلمنا ويدعونا إلى الطيب من الرزق لتكون مجابي الدعوة فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال:

{إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين} قال تعالى:

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [١٧٣] [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث

أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له^(٢) .

^١ - أخرجه مسلم - باب بيان أنه يستجاب - الجزء الرابع - ص ٢٠٩٦ - رقم الحديث ٢٧٣٥ - صحيح .

^٢ - أخرجه مسلم - باب قبول الصديق - الجزء الثانى - ص ٧٠٢ - رقم الحديث ١٠١٥ .

الفصل الثانى

الذكر

الحمد لله الواحد القهار العزيز الغفار مقدر الأقدار مصرف الأمور مكور الليل على النهار تبصرة لأولى العقول والأبصار.. وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد.. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وحببيه وخليله أفضل المخلوقين وأكرم الصادقين واللاحقين صلوات الله وسلامه على سائر النبيين صلوات الله عليهم أجمعين؟ أما بعد ،،،

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ﴾ [الأحزاب]. وعن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: {ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله تعالى} (١).

تعريف الذكر:

الذكر فى اللغة جاء لمعانٍ شتى. قيل الذكر هو جرى الشيء على لسانه، وقيل الذكر الصلاة لله والدعاء إليه والثناء عليه، وفى الحديث كانت الأنبياء عليهم السلام إذا حزبهام أمر فزعوا إلى الذكر أى إلى الصلاة يقومون فيصلون ويطلق الذكر ويراد به القرآن.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر]. ويأتى الذكر ويراد به الصيت والشهرة وقد يطلق على الاعتبار (٢).

^١ - الجامع الصحيح فى السنن والمسائيد - باب فضل الذكر - الجزء السادس - ص ٢٤٩ ، وصحيح الجامع

٢- لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور - دار الحديث - القاهرة - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .

الذكر: في اصطلاح الشرع هو ما يجري على اللسان والقلب من تسبيح الله تعالى وتنزيهه وحمده والثناء عليه ووصفه بصفات الكمال ونعوته بصفات الجمال فالذكر ليس قاصراً على كلمات يرددّها اللسان وتنبس بها الشفاه.

الذكر استحضر عظمة الله في جميع الأحوال:

الذكر هو استحضر عظمة الله وجلاله وكبريائه وخشيته في قلبك سواء كنت قائماً فاستحضر عظمة الله في قيامك وسواء كنت قاعداً فاستحضر عظمة الله في قعودك وسواء كنت نائماً على جنبك مضجعاً فاستحضر عظمة الله في كل حال وعلى كل حال، ولا بد مع الذكر من فكر فالذكر بلا فكر جفاء والفكر بلا ذكر عداء والذكر مع الفكر وفاء^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران].

وليس الذكر قاصراً على اللسان بل الذكر على سبعة أعضاء: ذكر العينين البكاء، وذكر اللسان الشناء، وذكر الأذنين الإصغاء، وذكر اليدين العطاء، وذكر البدن الوفاء، وذكر القلب الخوف والرجاء، وذكر الروح التسليم والرضا، العينين إذا بكت من خشية الله فقد ذكرنا الله، والأذن إذا صغت إلى ما أحل الله فقد ذكرت الله، اليدين إذا أعطتا ما أباح الله فقد ذكرنا الله، البدن إذا وفى فقد ذكر الله، القلب إذا رضى فقد ذكر الله، الروح إذا خافت فقد ذكرت الله.

سأل موسى بن عمران ربه قال: يا رب كيف أشكرك يا رب، قال له رب العزة: يا موسى تذكرني ولا تنساني إنك إن ذكرتني شكرتني وإن نسيتني كفرتني^(٢). وقال الحبيب ﷺ: اقرأوا قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة].

فعلينا باستحضار عظمة الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة وفي السر والعلن لكي نقتبس من نور الله الذي ينعكس علينا ذكره لأن الله نور.

١ - فقه السنة - السيد سابق - المجلد الثاني - الطبعة الحادية عشرة - دار الفتح للإعلام العربي .

٢ - الخطب المنبرية - عبد الحميد كشك - الجزء الخامس - مكتبة الصحافة - العباسية - ص ٨١ .

قال تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [النور].

وهذا النور يخرجنا من الظلمات ومنها ظلم الناس وظلم النفس من اقتراف المعاصي واتباع الشهوات فلو ذكرنا الله تعالى قبل كل عمل لكان ذلك سبباً في نجاتنا من فعل المعاصي فمثلاً لو استحضر كل إنسان عظمة الله تعالى بقلبه وقت ذبح الحمير والكلاب ووقت الإقدام على هذا الفعل المحرم لانعكس نور الذكر في قلبه وكان رادعاً له ومانعاً له عن فعل هذا الحرام لأنه سيذكر انتقام الله منه بفعل ما حرمه الله تعالى، ولو استحضر كل إنسان عظمة الله تعالى وقت سهره الليالي على النت باستخدامه بطريقة خاطئة ومحرمه وأنه سيسأل عن هذا الوقت وعن ضياعه في اتباع الشهوات التي توصله إلى فعل الفاحشة والكلام الفاسد الذي يعود بالضرر عليه وعلى الآخرين، لو استحضر هذا الشخص عظمة الله لكان رادعاً له ومانعاً عن فعل المعصية. فذكر الله نجاة.

وإليك هذه القصة ..

المرأة التي ذكرت بالله فتأبست باستحضارها عظمة الله والخوف من الجبار .. يروى أصحاب السير والتراجم أن قوماً أمروا امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خيثم لعلها تفتنه وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه ثم تعرضت له حين خرج من مسجده فنظر إليها فراعه أمرها فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمك فغيرت ما أرى من لونك وبهجتك أم كيف بك لو نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين أم كيف بك لو سألك منكر ونكير فصرخت صرخة فسقطت مغشية عليها، فوالله لقد أفاقت بتذكيرها لله واستحضارها لعظمة الله وبلغت من عبادة ربها أنها كانت يوم ماتت كأنها جزع محترق من خشية الله عز وجل^(١).

ولو استحضر كل إنسان سارق ومرتشى والذى يغش الناس عظمة الله تعالى في قلبه لكان هذا رادعاً له ومانعاً له من فعل الحرام الذى أصبح ظاهرة في هذا المجتمع وكان سبباً في انتشار الفساد.

١ - ترتيب الأفواه بذكر من يظلمهم الله بظلمه ج: ١ - ص ٩٦ .

قال تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١)

[الروم].

وإليك قصة بنت بائعة اللب، إنها باستحضارها لعظمة الله قالت لأُمها بعدما غشت اللب بالماء يا أُمها أغشين المسلمين وتحشين باليمين وتكذبين على أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه وسمع عمر كلامها عندما كان يتفقد أحوال الرعية، فقال: لمن هذا البيت وطرق الباب ففتحت الأم الباب فعلم عمر رضى الله عنه بقول هذه البنت لأُمها عندما غشت الماء باللبن قالت لها بعدما خلطت الماء باللبن: ألم ينهك أمير المؤمنين عن هذا، فقالت لها أُمها: وهل يرانا أمير المؤمنين، فقالت: إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن الله رب العالمين يرانا^(١).

ذكر الله نور يعكسه في القلب وماذا فعل عمر مع بنت بائعة اللب، جمع أولاده فقال من منكم يتزوج بنت بائعة اللب قال لعبد الله ولعبيد الله ولعاصم فلم يرد عليه أحد، فقال عمر رضى الله عنه إن لم يتزوجها أحدكم لتزوجتها أنا، إنه لا يتزوجها جسداً وإنما يتزوجها قيمة من القيم الخلقية ومثلاً من المثل الرفيعة فيتزوجها عاصم ابن عمر أمير المؤمنين ويعيش معها عيشة راضية وتنجب منه فتاة اسمها ليلي بنت عاصم بن عمر تتزوج ليلي من عبد العزيز بن مروان وتنجب منه خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز الذى كان يخاف من النار وشدة خوفه كأن النار لم تخلق إلا له وحده رضى الله عنه .

الذكر عمل القلوب:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال].

والمراد من الذكر حضور القلب فينبغى أن يكون هو مقصود الذاكر فيحصل على تحصيله ويتدبر ما يذكر ويتعقل معناه. فالتدبر في الذكر مطلوب كما هو مطلوب في القراءة لاشتراكهما في المعنى المقصود.

^١ - صلاح البيوت في جهد الرسول ٨ ج: ١ - ص ٩٦.

روى عن على رضى الله عنه قال: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا قراءة بلا تدبر ^(١).

ولهذا كان المذهب الصحيح المختار باستحباب مد الذكور قول لا إله إلا الله لما فيه من التدبر، فالذكر يكون بالقلب ويكون باللسان والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان فإن اقتصر على إحداهما فالقلب أفضل ثم لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به رياء بل يذكر بهم جميعاً ويبسط به وجه الله وحده.

روى عن السيد الجليل أبى على الفضيل بن عياض رضى الله عنه قال: ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما فلا يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به رياء بل يذكر بهما جميعاً ويقصد به وجه الله تعالى ولو فتح الإنسان عليه الباب ملاحظة الناس والاحتراز من تطرق ظنهم الباطلة لانسد عليهم أكبر أبواب الخير وضيع على نفسه شيئاً عظيماً من مهمات الدين وفضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوهما بل كل عامل لله بطاعة فهو ذاك لله ^(٢).

الذكر واطمئنان القلب:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

اطمئنان القلب هو النتيجة للإيمان بالعقيدة حيث إننا نعلم أن الإنسان له حواس إدراكية يستقبل بها المحسّات وله عقل يأخذ هذه الأشياء ويضمها بعد إدراكها ويفحصها جيداً ويلتمس مدى صدقها أو كذبها ويستخرج من كل ذلك قضية واضحة يبقّيها في قلبه لتصبح عقيدة لأنها وصلت إلى مرحلة الوجدان المحب لاختيار المحبوب فإنها باستقرارها بالقلب تصبح عقيدة وإننا نلاحظ أنه قد يمر على القلب بعض من الأغيار التي تزلزل الإيمان وتضعفه ولكن مع ذكر الله تطمئن القلوب وتهون كل الأسباب لأن الأسباب إنعجزت فلن يعجز المسبب وهكذا نجد أن من يقبل قدر الله ويذكر أن له رباً فوق كل الأسباب فالاطمئنان يعمر قلبه

^١ - لا تحزن لعائض بن عبد الله القرنى - ج: ١ - ص ٥٦٧.

^٢ - المنتخب من كلام سيد الأبرار - تأليف الإمام الحافظ شيخ الإسلام محي الدين بن زكريا بن شرف النووي - الطبعة الأولى - حققه وخرج أحاديثه الدكتور محمد زيهيم - ص ٨٩.

أمام أى حدث مهما كان لأنه يعلم أن الله يريد له الخير فالمداومة على ذكر الله تطمئن القلوب في أصعب وأشد المراحل التى تلحق بالإنسان من هم أو نكد أو شدة تصيبه .

والاطمئنان هو سكون القلب واستقراره وأنسه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل ليناقشها من جديد (١).

الذكر وطهارة القلوب:

والمقصود من الذكر تزكية الأنفس وتطهير القلوب وإيقاظ الضمائر وإلى هذا تشير الآية الكريمة قال

تعالى: ﴿...وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أى أن ذكر الله في النهى عن الفحشاء والمنكر أكبر من الصلاة وذلك أن الذاكر حيث يفتح لربه جنباه ويلهج بذكره لسانه يمدد الله بنوره فيزداد إيماناً إلى إيمانه ويقيناً إلى يقينه فيسكن قلبه للحق ويطمئن به وإذا اطمئن القلب للحق اتجه نحو المثل العليا وأخذ سبيله إليه دون أن تلفتة عنه نوازع الهوى ولا دوافع الشهوة، ومن ثم عظم أمر الذكر وجل خطره في حياة الإنسان، ومن غير المعقول أن تتحقق هذه النتائج بمجرد لفظ يلفظه اللسان فإن حركة اللسان قليلة الجدوى ما لم تكن مواظمة للقلب وموافقة له وينبغى لمن كان له وظيفة من الذكر في وقت الليل أو النهار أو عقب صلاة أو حالة من الأحوال ففاته أن يتداركها ويأتى بها إذا تمكن منها ولا يهملها فإنه إذا اعتاد الملازمة عليها لم يعرضها للتفويت وإذا تساهل في قضائها سهل عليه تضييعها في وقتها (٢).

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

{ من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل } (٣).

فالمداومة على الذكر وعدم تضييعه تكون سبباً في طهارة القلوب من الصفات المذمومة وعمارتها بالصفات الحمودة .

١- لا تحزن إن الله معنا - لإمام الدعاة محمد متولى الشعراوى - أعده وعلق عليه عبد الرحيم متولى الشعراوى

- المكتبة التوفيقية للطباعة - ص ٨٤ ، ٨٥ .

٢ - فقه السنة - ص ٧٠ ، ٧١ .

٣ - أخرجه مسلم - باب جامع صلاة الليل - الجزء الأول - ص ٥١٥ - رقم الحديث ١٤٢ .

آداب الذكر:

• **أولاً:** إخلاص النية لله تعالى وابتغاء وجهه وحباً في الله وتلذذاً بذكره وحضور القلب معه: قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة].

• **ثانياً:** أن يكون على طهارة فينبغي أن يكون طاهراً: عن الحسن قال: {كانوا يستحبون أن يذكروا الله على طهارة} ^(١).

• **ثالثاً:** التدبر: تدبر ما يقوله وتعقل معناه لأن المراد من الذكر حضور القلب فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر. عن أبي مجلد: أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام: إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضائك وكن عند ذكرى خاشعاً مطمئناً فإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك وإذا قمت بين يدي فقم مقام العبد الحقير الذليل وذم نفسك فهي أولى بالذم وناجني حين تناجيني بقلب وجل ولسان صادق ^(٢).

• **رابعاً:** أن يكون جالساً في موضع استقبال القبلة: والذاكر ينبغي أن يكون على أكمل الصفات فإن كان جالساً في موضع استقبال القبلة فإن سيد المجالس قبالة القبلة. واستقبال القبلة: أي الجهة التي يتوجه إليها العابدون لله سبحانه وتعالى والداعون له والمتقربون إليه. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {إن لكل شيء سيذاً وإن سيد المجالس استقبال القبلة} ^(٣). والذاكر عليه أن يجلس متزلاً متخشعاً في سكينه ووقار مطرقاً رأسه ولو ذكر على غير هذه الأحوال جاز ولا كراهة في حقه لكن إن كان بغير عذر كان تاركاً للأفضل والدليل على عدم الكراهة قوله تعالى:

^١ - الجامع لعلوم الإمام أحمد - ج: ٢٠ - ص ٣٦٧.

^٢ - الجامع لعلوم الإمام أحمد - ج: ٢٠ - ص ٣٦٧.

^٣ - الجامع الصحيح للسند والمسند - باب استقبال القبلة أثناء الوضوء - الجزء الثاني والعشرون - ص ٢٧٨ - وصحيح الترغيب والترهيب - رقم الحديث ٣٠٨٥.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِيَ الْأَلْبَابِ ۝١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ... ﴿١١١﴾ ﴿آل عمران﴾.

- خامساً: ينبغي أن يكون الموضع الذي يذكر فيه خالياً نظيفاً لأنه أعظم في احترام الذكر ولهذا مُدح
الذكر في المساجد والمواضع الشريفة. قال تعالى:

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦﴾ [النور].

- سادساً: خفض الصوت:
قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُورَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ
مِّنَ الْغَافِلِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف].

الأحوال التي يكره فيها الذكر:

اعلم أن الذكر محبوب في جميع الأحوال إلا في أحوال ورد الشرع باستثنائها وهي:

- أولاً: يكره الذكر حال الجلوس عند قضاء الحاجة: يكره الذكر والكلام حال قضاء الحاجة سواء
كان في الصحراء أو في البنيان وسواء في ذلك جميع الأذكار والكلام إلا كلام الضرورة حتى قال
بعض أصحابنا: إذا عطس لا يحمد الله تعالى ولا يشمت عاطساً ولا يرد السلام ولا يجيب المؤذن
ويكون المسلم مقصراً لا يستحق جواباً والكلام بهذا كله مكروه كراهة تنزيه، ولا يكرم فإذا
عطس حمد الله بقلبه ولم يحرك لسانه فلا بأس وكذلك يفعل في حالة الجماع^(١).
- ثانياً: في حالة جماع.
- ثالثاً: وفي حالة الخطبة لمن يسمع صوت الخطيب.
- رابعاً: وفي القيام في الصلاة بل يشتغل بالقراءة.
- خامساً: وفي حالة النعاس.

^١ - الأذكار - ج: ١ - ص ٢٦.

فضيلة مجالس الذكر:

والذاكر لله يكون في حياة ذاتية وروحية لما يغشاه من الأنوار ويصل إليه من الأجور فعليه بمجالسة الصالحين ومجالسة الذين يذكرون الله كثيراً لأن هذا هو ميراث رسول الله ﷺ^(١).

عن أبي هريرة رضى الله عنه: { أنه دخل السوق وقال أراكم ها هنا وميراث رسول الله ﷺ يقسم في المسجد فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق فلم يروا ميراثاً، فقالوا يا أبا هريرة ما رأينا ميراثاً يقسم في المسجد، قال: فماذا رأيتم؟، قالوا: رأينا قوماً يذكرون الله عز وجل ويقرأون القرآن، قال: فذلك ميراث رسول الله ﷺ }^(٢).

ولكى تنال المغفرة أيها المؤمن فعليك بمجالسة القوم الذين يذكرون الله ويقرأون القرآن ويتعلمون العلم.

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات }^(٣).
واعلم أيها المؤمن أنه كما يستحب الذكر يستحب الجلوس في حلقة أهله، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: { إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله، قال: خلق الذكر فإن الله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون خلق الذكر فإذا أتوا عليهم حفوا بهم }^(٤).

١- تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين - تأليف الإمام الحافظ محمد بن محمد الشوكاني - المكتبة التوفيقية - تحقيق هاني الحاج .

٢ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب فضل العلم والتعلم - الجزء السادس - ص ٤١٤ - صحيح الترغيب والترهيب - رقم الحديث ٨٣ .

٣ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب فضل مجالس العلم - الجزء السادس - ص ٤٢٤ - صحيح الترغيب والترهيب - رقم الحديث ١٥٠٤ ، وقال شعيب الأرنؤوط إسناده حسن .

٤ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب فضل مجالس العلم - الجزء الثامن - ص ٢٩٩ - صحيح الترغيب والترهيب - رقم الحديث ١٥١١ .

وفى صحيح مسلم عن معاوية رضى الله عنه أنه قال: { خرج رسول الله ﷺ على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم، قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا، قال: الله ما أجلسكم إلا ذاك أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة }^(١).
وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: { لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده }^(٢).

كفارة المجلس:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ { من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك }^(٣).

فوائد الذكر:

- أولاً: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره. عن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ: { الشيطان جاثم على قلب ابن آدم إذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس له }^(٤).
- ثانياً: أنه يرضى الرحمن عز وجل ويرفع الدرجات. عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: { ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا العدو فتضربوا أعناقهم ويضرب أعناقكم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله }^(٥).

^١ - أخرجه مسلم - باب فضل الاجتماع - الجزء الرابع - ص ٢٠٧٥ - رقم الحديث ٢٧٠١.

^٢ - أخرجه مسلم - باب فضل الاجتماع - الجزء الرابع - ص ٢٠٧٤ - رقم الحديث ٢٧٠٠.

^٣ - أخرجه أحمد فى مسنده - ج ١٦ - ص ٢٦١ - ح م: ١٠٤١٥. إسناده صحيح على شرط مسلم.

^٤ - تخرىج أحاديث وأثار كتاب فى ظلال القرآن - ج: ١ - ص: ٥٤٩ - ح م: ١٠٢٠. حسن ورواه البخارى موقوفاً.

^٥ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - باب فضل الذكر - الجزء السادس - ص ٢٤٩ - وصحيح الجامع ٢٦٢٩.

- ثالثاً: أنه سبيل النجاة: عن معاذ رضى الله عنه أن النبي ﷺ يقول: { ما عمل امرؤ عملاً قط أنجى له من ذكر الله عز وجل } ^(١).
 - رابعاً: إن الله سبحانه وتعالى يذكره ويكون في معية الله: قال تعالى: ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾ [البقرة]. وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: { أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة } ^(٢).
 - خامساً: أنه يزيل الهم والغم عن القلب: عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: { من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب } ^(٣).
 - سادساً: إن مجالس الذكر مجالس الملائكة ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين.
 - سابعاً: كثرة الذكر أمان من النفاق. قال عز وجل في المنافقين:
- ﴿...وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء].
- ثامناً: الذكر ثناء على الله والدعاء سؤال حاجة فالذكر أفضل من الدعاء.
 - تاسعاً: الذكر والثناء يجعل الدعاء مستجاباً.
 - عاشراً: أنه أيسر العبادات وهو من أجلها وأفضلها وأنه سبب لتنزيل السكينة وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذكر وأنه يورث حياة القلب. قال ابن تيمية: {الذكر للقلب مثل الماء للسّمك فكيف يكون حال السمك إذا ترك الماء}.

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - باب فضل الذكر - الجزء السادس - ص ٣٥٢ - وصحيح الترغيب والترهيب ١٤٩٣.

^٢ - أخرجه البخارى - باب قوله تعالى: ويحذركم - الجزء التاسع - ص ١٢١ - رقم الحديث ٧٤٠٥.

^٣ - أخرجه أبو داود - باب في الاستغفار - ج: ٢ - ص ٦٢٨ - ح: ١٥١٣ - إسناده ضعيف.

الوعيد الشديد لتارك الذكر:

توعد الحق سبحانه وتعالى المعرضين عن ذكره بالمعيشة الضنك والعذاب الأليم .

قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه].

قال الإمام الشعراوي رحمه الله: الإعراض هو الانصراف وأن تعطيه عرض أكتافك وقوله تعالى "معيشة ضنكاً" الضنك هو الضيق الشديد الذى تحاول أن تغفل منه هنا أو هناك فلا تستطيع والمعيشة الضنك هذه تأتي بمن أعرض عن ذكر الله لأن من آمن بالله انعزت عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً لأنه يعلم أن له رباً يخرجها مما هو فيه أما غير المؤمن فحينما تضيق به الأسباب وتعجزه لا يجد من يلجأ إليه فالمؤمن يقول لى رب يرزقنى ويفرج كربى (١).

كما يقول عز وجل:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

وتارك الذكر هو الميت على الحقيقة عن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: {مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره مثل الحى والميت} (٢)، فتارك الذكر وإن كان فى حياة فليس لها اعتبار بل هى شبيهة بالأموات الذين لا يفيض عليهم شيء مما يفيض على الأحياء المشغولين بالطاعة لله عز وجل ومثل ما فى هذا الحديث قوله تعالى:

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾

كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام].

والمعنى تشبيه الكافر بالميت وتشبيه الهداية إلى الإسلام بالحياة.

١ - تفسير وخواطر الإمام الشعراوي - المجلد ١١ - ص ٧٤٩.

٢ - أخرجه البخارى - باب فضل ذكر الله - الجزء الثامن ص ٨٦ - رقم الحديث ٦٤٠١.

فضيلة التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير:

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: { من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك }^(١).

وعن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال^(٢): { قال الفقراء لرسول الله ﷺ: ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم، فقال: أو ليس قد جعل لكم ما تصدقون به إن لكم بكل تسبيحة صدقة وتحميدة صدقة وتهليلة صدقة وتكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة ويضع أحدكم اللقمة في فم أهله فهي له صدقة وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر، قال ﷺ: أرأيتم لو وضعها في حرام كان عليه وزر، قالوا: نعم، قال: كذلك إن وضعها في الحلال كان له أجر }^(٣).

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ { كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم }^(٤).

الذكر المضاعف:^(٥)

عن جويرية رضى الله عنها أن النبى ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهى فى مسجدّها ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة فقال ما زلت على الحالة التى فارقتك عليها، قالت: نعم، قال النبى ﷺ: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهم سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته^(٦).

١ - أخرجه البخارى - باب صفة إبليس وجنوده - الجزء الرابع - ص ١٢٦ - رقم الحديث ٣٢٩٣ .

٢ - إحياء علوم الدين - ص ٢٦٢ ، ٢٦٥ .

٣ - أخرجه مسلم - باب بيان أن اسم الصدقة - الجزء الثانى - ص ٦٩٧ - رقم الحديث ١٠٠٦ .

٤ - أخرجه البخارى - باب فضل التسبيح - الجزء الثامن - ص ٨٦ - رقم ٦٤٠٦ .

٥ - فقه السنة - ص ٧٤ .

٦ - أخرجه مسلم - باب التسبيح أول النهار - الجزء الرابع - ص ٢٠٩ - رقم الحديث ٢٧٢٦ .

أذكار الصباح والمساء:

قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى:

﴿...وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

قال مجاهد: لا يكون من الذاكرين لله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضجعاً^(١).
وسئل ابن صلاح عن القدر الذي يسير به من الذاكرين لله كثيراً والذاكرات، فقال إذا واطب على الأذكار الماثورة المثبتة صباحاً ومساءً وفي الأوقات والأحوال المختلفة ليلاً ونهاراً كان من الذاكرين لله كثيراً والذاكرات.

*** أذكار الصباح يتبدئ وقتها من الفجر إلى طلوع الشمس.

*** أذكار المساء ما بين العصر والغروب.

قال تعالى: ﴿...وَمِنْ أَنَايَ إِلِيلَ فَسِيحَ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة طه].

وروى عن ابن مسعود قال: كان النبي ﷺ إذا أمسى قال: { أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير رب أسألك خير ما في هذه الليلة وما بعدها وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر وأعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر وإذا أصبح قال ذلك أيضاً أصبحنا وأصبح الملك لله }^(٢).

وروى أيضاً عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يعلم أصحابه يقول: إذا أصبح أحدكم يقول اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور، وإذا أمسى فليقل اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير.

^١ - فقه الأدعية والأفكار - ج: ١ - ص ٤٣.

^٢ - أخرجه مسلم - باب التعوذ - الجزء الرابع - ص ٢٠٨١ - رقم الحديث ٢٧٢٣.

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ { ما من عبد يقول صباح كل يوم ومساء كل ليلة بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات، لن يضره شيء }^(١).

وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة أنه قال لأبيه: يا أبت إنى أسمعك تدعو كل غداة اللهم عافنى فى بدنى الله عافنى فى سمعى اللهم عافنى فى بصرى لا إله إلا أنت، تعيدها ثلاثاً حين تصبح وثلاثاً حين تمسى، فقال إنى سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهن فأنا أحب أن أستن بستته^(٢).

روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: { من قال كل يوم حين يصبح وحين يمسى حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه }^(٣).

وفى صحيح البخارى عن شداد بن أوس عن النبى ﷺ قال: { سيد الاستغفار: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء لك بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها حين يمسى فمات من ليلته دخل الجنة، ومن قالها حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة }^(٤).

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسائيد - باب المرض بقدر - الجزء الثانى - ص ٤٢٢ - وصحيح الترغيب والترهيب ٦٥٥.

^٢ - أخرجه أبو داود - باب ما يقول إذا أصبح - جن ٤ - ص ٣٢٤ - ح ٥٠٩٠.

^٣ - عجالة الراغب المتمنى فى تخريج كتاب عمل اليوم والليلة لابن السنى - باب ما يقول إذا أصبح - الجزء الأول - ص ١٠٧ - إسناده ضعيف.

^٤ - أخرجه البخارى - باب فضل الاستغفار - الجزء الثامن - ص ٦٧ - رقم الحديث ٦٣٠٦.

أذكار النوم:

روى البخارى عن حذيفة وأبى ذر رضى الله عنهما قالا: { كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول:

باسمك أحيأ وأموت، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، وكان من هديه

أن يضع يده اليمنى تحت خده ويقول اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك ثلاثاً^(١).

وأن يقول المضجع: باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فارحمها وإن أرسلتها

فاحفظها بها تحفظ عبادك الصالحين .

^١ - شرح السنة للبعوى - باب ما يقول إذا أخذ مضجعه - الجزء الخامس - ص ٦٩ - رقم الحديث ١٣١٢ .

الفصل الثالث

الرضا

الحمد لله نحمده ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه اللهم يا رب أرضنا وارض عنا ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. وأن سيدنا محمد عبده ورسوله اللهم صلّ عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد ،،،،

قال تعالى: ﴿... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...﴾ [المجادلة].

روى أن النبي ﷺ سأل طائفة من أصحابه: ما أنتم؟، فقالوا مؤمنون، فقال: ما علامة إيمانكم؟، فقالوا: نصبر على البلاء ونشكر على الرخاء ونرضى بمواقع القضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة.

الرضا لغة^(١): مصدر رضا وهو مأخوذ من مادة (ر ض و) التى تدل على خلاف السخط.

الرضا اصطلاحاً: سرور القلب بمُرّ القضاء^(٢).

فالرضا بقضاء الله يشرح الصدور ويريح القلوب فإذا رضيت بما قسم الله لك أرحت نفسك وبدنك فحمد لله والرضا بالمقسوم تؤدى بصاحبها الفوز فى الدارين الدار الدنيا والدار الآخرة فى الدار الدنيا بالراحة النفسية وزيادة الخير وفى الدار الآخرة برضا الله عليه وبها لا رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر .

قال تعالى: ﴿... لِيَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ [إبراهيم].

فقد رفع الله سبحانه وتعالى الرضا فوق جنات عدن فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب ساكنها وأن الله عز وجل له حكم فى كل أمر يريد به سبحانه.

وقال تعالى: ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة].

وينبغى على كل مسلم أن يسلم التدبير لمديره والمملكة لملكها بالرضا فى كل شيء.

^١ - لسان العرب - ج: ٤ - ص ١٦٤ .

^٢ - معجم التعريفات - ص ٩٦ .

يقول المولى عز وجل: {عبدى أنت تريد وأنا أريد، فإن سلمت لى ما أريد كسبت ما تريد وإن لم تسلم لى ما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد} ^(١).

إن الرضا بالله ربك يلزمك أن ترضى بأحكامه الشرعية وترضى بأوامره ممثلاً وترضى بنواهيه مجتنباً وترضى بأقداره المؤلمة فترضى بكل نعمة ومصيبة وكل منع وعطاء وشدة ورخاء فهو سبحانه حكيم يختار الأجل والأكمل والأفضل لعبده وإنه تعالى لا يفعل شيئاً عبثاً ولا يقضى أمراً يريد به عسراً لعباده لأنه سبحانه أرحم بهم من الوالدة بوليدها وأن الخير مطوًى في جوف ما نظنه كارثة وشرّاً.

قال تعالى: ﴿...فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء].

يُروى أن عيسى عليه السلام مر ببعض الأنهار فإذا بصبيان يلعبون في ذلك النهر ومعهم صبي أعمى قد كف بصره وهم يغمسونه في الماء ويفرون منه يميناً وشمالاً وهو يطلبهم ولا يظفر بهم ففكر عيسى عليه السلام في أمره ودعا ربه أن يرد عليه بصره وأن يساوى بينه وبين أصحابه، فرد الله عليه بصره فلما فتح عينيه ورآهم وثب على واحد منهم فتعلق به ولم يزل يغمسه في الماء حتى قتله وطلب آخر فتعلق به كذلك حتى مات وهرب الباقيون فهاب عيسى عليه السلام ذلك وتعجب منه وقال إلهى ومولاى أنت أعلم بخلقك ودعا ربه أن يرده كما كان ويكفيهم أمره فأوحى الله إلى عيسى قد كنت أعلمتك وتعرفت إلىّ في حكمى وتديرى فخر عيسى ساجداً ^(٢).

أنواع الرضا:

أولاً: الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه:

لأن الأصل في العبادات الطاعة سواء علم الحكمة منها أو لم يعلم. وحكم هذا النوع، قيل واجب ولهذا ذم من تركه بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْمُرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٨﴾ [التوبة].

^١ - حاشية الصاوى على الشرح الصغير بلغة السالك لأقرب المسالك - ج: ٤ - ص ٧٨٦.

^٢ - بحر الدموع - ج: ١ - ص ١٣١.

ثانياً: الرضا بالمصائب والابتلاءات والمقدر والمكتوب:

(١) الرضا بالمقدر والمقسوم:

المؤمن راضٍ بما قسمه الله له من رزق وما قدر له من مواهب وما وهب له من حظ لأنه مؤمن بعدل الله فيما قسم من أرزاق وبحكمته فيما وزع من مواهب وهذا هو معنى القناعة التي حث عليها الدين وأشاد بها الحكماء والصالحون ^(١).

قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْحَيَاةَ وَالْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٦٥] [الأنعام].

وهي أن الله سبحانه وتعالى لا يريدنا أن نكون متساوين في المواهب ولكنه يريدنا أن نكون متكاملين فيها ... لماذا؟

لأنه إذا كان الناس كلهم صورة مكررة لفسدت الأرض فلو أننا جميعاً قضاة أو أطباء أو مهندسون أو فلاحون ما استقام الكون ولكنه رفع بعضنا فوق بعض درجات. فلو أننا جميعاً خريجو الجامعة فلن نجد إنساناً يقبل أن ينظف الشارع أو يحمل القمامة أو يقوم بإصلاح المجارى وهكذا، فكل إنسان يستفيد منه الكون ويستفيد هو من غيره، فالمهندس الناجح في فن الهندسة يبنى لنا جميعاً العمارات فنستفيد كلنا منه، من يملك ومن يسكن وإذا احتاج هذا المهندس إلى بدلة أنيقة يلبسها فإنه يذهب إلى ذلك الإنسان الذي موهبته التفصيل ليحصل منه على ملابس وهكذا حكمة الله سبحانه وتعالى أن كل إنسان منا يفيد ويستفيد (وقيمة كل امرئ ما يحسنه) وما دام يحسن عمله يكون إنساناً ناجحاً في الكون .

وهكذا شاءت حكمة الخالق سبحانه أن يكون كل منا مرفوعاً في شيء ومرفوعاً عليه في شيء آخر فالجميع إذاً في الكون سواسية ليس منا من بينه وبين الله قرابة كلنا عبيد لله وقد نثر الله المواهب في الناس جميعاً ليتكاملوا فيما بينهم وليظل كل منهم محتاجاً إلى الآخر وهكذا يتم الترابط في المجتمع .

١ - الإيمان والحياة - دكتور / يوسف القرضاوى - مكتبة وهبة - ص ١٣٧ .

وقال تعالى: ﴿... وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ اتَّكُفُّوا...﴾ [١٦٥] [الأأنعام].

إذا المسألة فيها ابتلاء واختبار والاختبار هنا ليس اختبار علم الله سبحانه وتعالى لا يغيب عن علمه شيء ولكنه اختبار لنكون شهداء على أنفسنا تماماً فهذا الاختبار إقرار علينا وليس اختبار علم الله فالامتحانات التي تعقد في كل أنحاء الدنيا ليس هدفها أن يتعلم الأستاذ من التلميذ فالأستاذ هو الذي يعطى تلاميذه العلم فلماذا يختبرهم؟ إنه يختبرهم حتى يكون كل واحد منهم شهيداً على نفسه فهذا اختبار من الله سبحانه وتعالى للعبد ليقول سبحانه وتعالى للإنسان لقد خلقتك وأعطيتك هذه الموهبة وميزت بها عن خلقي لتكاملوا وتتعاونوا^(١) فارض يا ابن آدم بما قسم الله لك تكن أغنى الناس لأن هذه قسمة قسمها الله لك وميزة ميزها بك الله لأنك لا تعلم ما يكون مدخراً لك في الآخرة بسبب رضاك بالمواهب التي أعطاك الله وكلنا سواسية عند الله عز وجل فارتق يا أخى المؤمن وأختى المؤمنة بالعمل الصالح واتصفوا بصفة الرضا حتى يرضى الله عنكم ويحل عليكم رضوانه فلا يسخط.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: { أن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول هل رضيتم؟، فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعطى أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك، فيقول: وأى شيء أفضل من ذلك؟، فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(٢). }

(٢) الرضا بالبلاء:

إن كثيراً من الناس عندما تسأله .. هل أنت راضٍ بما قدره الله لك؟ يقول نعم .. إننى أشعر بالرضا .. وهل يوجد سبب لهذا السؤال .. هل تشاهدنى أمزق ثيابى .. أم أصرخ من متطلبات الحياة .. ولكن هذا الإنسان الذى أجاب بأنه راضٍ عندما ابتلاه الله من مرض أو مصيبة عرف معنى الرضا وعلم أن هذه الكلمة لا تقال باللسان فقط ولكن يحسها القلب وينطق بها مع جوارحه، فالمؤمن وحده هو الذى يغمره الإحساس بالرضا بعد كل قدر من أقدار الله.

١ - منهاج المؤمنين في القرآن الكريم - إمام الدعاة فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى .

٢ - أخرجه البخارى - باب صفة الجنة والنار - الجزء الثامن ص ١١٤ - رقم الحديث ٦٥٤٩ .

لذلك نجد أن مجرد الابتلاء ليس شراً ولكن الشر هو أن تسقط في الابتلاء فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان ولا يرفع قضاء من الله على خلقه إلا بعد التسليم لقضاء الله وقدره أى أن يستسلم الخلق لقضاء الله وقدره والرضا به حيث إن الإنسان بالصحة يكون في نعمة الله ولكنه بالمرض يكون في معية الله تعالى، فلا يعرف هذا الإنسان معنى الرضا بقلبه إلا بعد هذا الابتلاء لأن الرضا نعمة روحية جزيلة هيئات أن يصل إليها جاحد بالله أو مراتب في جزاء الآخرة إنما يصل إليها من قوى إيمانه بالله وحسن اتصاله به وكان مع الله وكان الله فى باله ليلة ونهاره، فعليك يا بن آدم بالرضا بالبلاء لكي تكون مع الله.

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ { إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى، قال: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده }^(١) إن المريض الذى يكون في معية الله وراضٍ بقضاء الله لاستحيا أن يقول آه ولرغب إلى ربه ومولاه وسأله العفو والعافية لأنه يعلم أن ما كتبه الله له إنما ليخفف عنه من سيئاته .

قال تعالى: { وعزنى وجلالى لا أخرج عبدى من الدنيا وقد أردت به الخير حتى أوفيه ما عمله من السيئات من مرض في جسمه وخسارة في ماله وفقد في ولده، فإذا بقيت عليه سيئة ثقلت عليه سكرات الموت حتى يأتيني كيوم ولدته أمه }^(٢).

فالحمد بالله والرضا بالمقسوم يؤدي بصاحبه إلى الفوز في الدارين، الدار الدنيا والدار الآخرة. وأول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله على كل حال لأنك يا أيها الإنسان من ساعة ولادتك في هذا الكون وجدت أشياء كثيرة تخدمك ولا عمل لك فيها ولا للسابقين عليك فوجدت شمساً تشرق وهواءً لازماً لحياتك وماء يروى.

ولما اخترع إديسون المصباح الكهربائي قامت ضجة كبيرة وتكريم لهذا المخترع فما بالناس بخالق الشمس التي تنير الكون كله، إذاً الله سبحانه وتعالى هو المستحق للحمد وحده والرضا بقضائه وهو الذى خلق وقدر

^١ - أخرجه مسلم - باب فضل عيادة المريض- الجزء الرابع - ص ١٩٩٠ - رقم الحديث ٢٥٦٩ .

^٢ - ضعيف الترغيب والترهيب لمحمد ناصر الدين الألبانى - ج ٢ - ص ٣٧١ - ح م : ٢٠٠٤ .

وهدى وسخر للإنسان كل ما في السماوات والأرض ويسر له مهمته في عمارة الكون، إنك أيها الإنسان إذا أسدى إليك شخص معروفاً تظل ساعات يلهج لسانك بالشكر والثناء، أو تأخذ رأى الناس لتصل إلى صيغة الشكر، ولكن الله سبحانه وتعالى علمنا أن نحمده بكلمتين وهما [الحمد لله].

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ونعمة الرضا:

كان رضا رسول الله ﷺ فوق ما يصفه الواصفون فهو راضٍ في جميع الأحوال في الغنى والفقر في السلم والحرب وفي القوة والضعف، راضٍ وقت الصحة والسقم راضٍ في الشدة والرخاء، رضي صلوات الله وسلامه عليه يوم أودى أشد الأذى وكُذِبَ أشد التكذيب ورضي يوم طُرد من بلده ومسقط رأسه ورضي عن الله وهو يذهب إلى الطائف ليعرض دعوته فيواجه بأقبح رد وبأسوأ استقبال ويُرمى بالحجارة، ورضي ﷺ بأقل القليل وجزء هذا الرضا منه ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى].

وكان صلوات الله وسلامه عليه يُعلم الأمة الرضا بقضاء الله .

عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ {عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له} ^(١).

وها هو سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد إسماعيل عليه الصلاة والسلام ويأتيه هذا الأمر في رؤيا، ورؤيا الأنبياء حق. إن على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه وهذا ارتقاء في الابتلاء، ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عذراً ليهرب من ابتلاء الله له، لم يقل إنها مجرد رؤيا وليست حياً لقد جاءه الأمر بأشق تكليف وهو ذبح الابن ونرى عظمة النبوة في استقبال أوامر الحق فيقبل خليل الرحمن الأمر عن طيب نفس ورضا بالقضاء فيلهمه الله أن يشرك ابنه إسماعيل في استقبال الثواب بالرضا بالقضاء.

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِيَّيْ أَرَىٰ فِي الْمَنَآوِ إِيَّيْ أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَابَعْتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ

سَجِدْنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات].

^١ - رواه مسلم - كتاب الزهد - باب المؤمن امره كله خير - رقم الحديث ٢٩٩٩ .

امتلاً قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله ولم ينشغل بالحقد على أبيه ولم يقاوم ولم يدخل في معركة جدلية. لقد أخذ عليه السلام أمر الله بقبول ورضا.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيِّرْهُمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥﴾
﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُئِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصافات].

لقد اشترك الاثنان في قبول قضاء الله واستسلم كل منهما للأمر عن طيب خاطر ورضوا. أسلم إبراهيم كفعل وأسلم إسماعيل كمنفعل، ورأى الله تعالى صدق كل منهما في استقبال أمر الله، فجاء الحق سبحانه وتعالى بالتخفيف وجاء النداء ﴿يَذْبَحْ عَظِيمٍ﴾ لقد جعله الله منسكاً من مناسك ذرية إبراهيم والذين آمنوا إلى يوم القيامة، بل وكافأه مكافأة عظيمة وبشره بإسحق نبياً من الصالحين، لقد رفع الله عن إبراهيم القضاء وأعطاه الخير وهو ولد آخر.

سلفنا الصالح ونعمة الرضا:

ها هو الصحابي الجليل عروة بين الزير رضى الله عنه الذى يُضرب به المثل فى الصبر على البلاء والرضا بقضاء الله، ها هو يتعرض لهذا البلاء الشديد الذى سيظل العلماء والخطباء يرددونه على المنابر وفى دروس العلم.

فعن هشام بن عروة عن أبيه قال: وقعت الأكلة فى رجله رضى الله عنه، فقيل له ألا ندعو لك طبيباً، قال إن شئتم، فجاء الطبيب فقال أسقيك شراباً يزول فيه عقلك، فقال: امض لشأنك ما ظننت أن خلقاً يشرب شراباً ويزول فيه عقله حتى لا يعرف ربه، قال: فوضع المنشار على ركبته اليسرى ونحن حوله فما سمعنا له حساً، فلما قطعها جعل يقول لئن أخذت فقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عفيت، وما ترك حزبه من القراءة تلك الليلة^(١).

قال شفيق البلخى: (من يرى ثواب الشدة لا يشتهى المخرج منها).

^١ - مختصر تاريخ دمشق لمحمد بن مكرم بن على أبو الفضل - ج ١٧ - ص ١٢.

وقال الثوري يوماً عند رابعة: { اللهم ارض عنا، فقالت: أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راضٍ، فقال: أستغفر الله، فقال جعفر بن سليمان: فمتى يكون العبد راضياً عن الله، قالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة، وكان الفضيل يقول: إذا استوى عند العبد المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى، فأنت إذا كنت راضياً بالنعمة التى أعطاه الله لك أو الابتلاء أياً كان نوعه فحمدت الله وأحسست بحلاوته لأنه من الله وأحسست بطعم الأجر فأنت راضٍ عند الله تعالى } (١).

وقيل: { إن امرأة عثرت فقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع، فقالت: إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجعه } (٢).

ويروى أن عيسى عليه السلام مر برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنين بفالج وقد تناثر لحمه من الجزام وهو يقول: الحمد لله الذى عافانى، فقال له عيسى عليه السلام: يا هذا أى شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك، فقال: يا روح الله أنا خير ممن لم يجعله الله فى قلبه مما جعله فى قلبي من معرفته (٣).

وقال بعض عباد أهل الشام: { كلكم يلقي الله عز وجل مصداقاً ولعله قد كذبه وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ولو كان بها شلل ظل يوارىها } (٤).

يقول عمر رضى الله عنه: { أصبحت لآلى غنياً أو فقيراً فإنى لا أدري أيهم خير لى }.

المصيبة ليست مصيبة:

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا...﴾ (٥١) [التوبة].

ما كتبه الله يكون لصالحنا فإن ابتلينا فذلك رحمة من الله تعالى بنا، فما كتبه الله لنا فى تلك المصائب والابتلاءات، إنما ليخفف عنا بها مصائب أخرى لا نعلمها أو ليخفف عنا عذاب يوم القيامة، أو ليخرجنا

١- إحياء علوم الدين - ج ٤ - ص ٣٤٦.

٢- المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر أحمد بن مروان الدينورى - ج ٨.

٣- إحياء علوم الدين - ج ٤ - ص ٣٤٩.

٤- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ج ٥ - ص ١٤٠.

من ظلمات الجهل إلى نور العلم، فكم من مرض أو مصيبة أو شدة كانت نوراً لصاحبها لأنه في هذا الوقت علم ما كانت تخفيه الأيام وتكنه الصدور من صديق تركه وقت الشدة والحاجة ومن أهل وأحباب لم يقفوا بجواره في وقت المصيبة والمرض، فأفاق هذا الإنسان من ظلمة الجهل إلى نور العلم بأن الله عز وجل هو كل شيء لا ابن آدم لا أهل ولا صديق ولا زوج ولا زوجة ولا ابن ولا ابنة.

قال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء].

فالمؤمن حين يصاب يرى ما لا يراه غيره فلا يرى المصيبة مصيبة وذلك لأمرين:

- أولاً: لأن الأمر من الله تعالى فلا يعتبر مصيبة عند المؤمنين، إن المسلم يقدر الأجر على المصيبة. قال تعالى: ﴿... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة]. أى أنهم إذا أصيبوا لم يجزعوا ولم يخرجوا عن إيمانهم ولم يستطع الشيطان وجنوده أن يسيطروا عليهم ويهيمنوا على قلوبهم المؤمنة. وقال تعالى: ﴿... إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة]. فهذا اعتراف بأن أموالهم وأولادهم وأنفسهم من الله وإلى الله فمال المسلم وما يملك وديعة فإن أخذها صاحبها أو أخذ بعضها يغضب المسلم، كلا إن أمره كله مفوض إلى الله تعالى مالك الملك.
- ثانياً: المؤمن موقن تمام اليقين أن تدبير الله له أفضل من تدبيره لنفسه ورحمته تعالى أعظم من رحمة والديه به، ينظر في الأنفس والآفاق فيرى نعمه تعالى ورحمته فيناجى ربه: ﴿... بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٦﴾ [آل عمران]. فالخير بيده والشر ليس إليه، وكل ما يأتى من الله تعالى خير.

مثال: ما حدث مع موسى عليه السلام والخضر لما أحدث عيباً في السفينة فخرقها، إننا إذا نظرنا إليه نقول لماذا يفعل هذا الأمر المنكر ونتزاحم عليه وتأخذنا مشاعر الرقة والعطف لأن هذه السفينة سفينة مساكين وليس ظالمين أو جبارين، ولكن عندما نعرف الحقيقة وندرك أن وراء هذه السفينة ملكاً جباراً يأخذ

كل سفينة غصبا سنراجع الفكر ونقول للذى فعل ذلك العيب بها أشكرك بلسان هؤلاء المساكين لقد أنقذتهم بفعلتك هذه من الضياع المؤكد.

قال تعالى:

﴿فَانْظُرْ أَفَاقًا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣﴾ [الكهف].

ولما أراد أن يفسر ما خفى عليه قال:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧١﴾ [ال

كهف].

هذا مثال يبين لنا فيه الحق تبارك وتعالى: رُبَّ ضارة نافعة والمؤمن الذى يرى بنور الله يعلم أن وراء الصبر على المصائب خيراً كثيراً فإن صبر وشكر واحتسب الثواب عند الله هانت عليه كل مصيبة وصغر فى عين عقله كل خطب، وإذا تبين ذلك علمنا أن المسلم ليس عنده مصيبه لأن معنى المصيبة تأتى بالخسارة ولكن مادامت تأتیه بمكسب فليست مصيبة.

• **ثالثاً:** إن فى هذه المصيبة دواء: حيث إنه سبحانه لولا يداوى عباده بأدوية المحن والابتلاءات لطغوا وبغوا وعتوا. هو سبحانه إذا رضى بعبد خيراً سقاه دواء من الابتلاء على قدر حاله حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه أهله لأشرف مراتب الدنيا وهى عبوديته جل وعلا.

• **رابعاً:** إنه يعلم أن هذه المصيبة والمحن والابتلاءات هى من المكاره التى حُفت بالجنة فلا يعتبرها مصيبة بل يرضى ويصبر حتى ينال الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فإن الجنة حُفت بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال ﷺ: { لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال انظر إليها وإلى ما أعددت له أهلها فيها، قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، قال: فرجع إليه، قال: فوعزت لك لا يسمع بها أحداً إلا دخلها فأمر بها فحفت بالمكاره، فقال: ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت فيها لأهلها، قال: فرجع إليها فإذا هى قد حفت بالمكاره، فرجع إليه: فقال وعزت لك لقد خفت ألا يدخها

أحد، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها ^(١).

وحفت الجنة بالمكاره أى جعل الأمور التى تكرهها النفوس بطبعها محيطة بها من كل جانب فلا يصل إليها أحد وفى هذا الحديث قد شبه حال التكاليف الشاقة على النفوس التى لا يصل أحد إلى الجنة إلا بأدائها والقيام بها والمحافظة عليها، ومنها الصبر على البلاء والمحن والمصائب، شبه ذلك كله بحال أسوار كثيفة من الأشواك التى يكمن فيها كل حيوان ضار من الوحوش والحيات والعقارب، وهذه الأسوار الكريهة محيطة ببستان عظيم تلتف به من كل مكان بحيث لا يصل أحد إلى هذا البستان ولا يحظى بالتنعم بها فيه من النعيم إلا بعد أن يتخطى هذه الأسوار البغيضة المليئة بالحيات والعقارب والحيوانات المفترسة، ولا شك أن هذا يحتاج إلى جهاد شاق طويل وصبر دائم فكذلك الجنة لا يراها ويحظى بنعيمها الدائم إلا من تحظى شدائد دنياء مجاهداً لنفسه صابراً على ما يصيبه فيها راضياً بقضاء الله تعالى قائماً بتكاليف الإسلام خير قيام مستهيناً بكل شدة تعترضه فهذا الإنسان لا يعتبر المصيبة مصيبة لأنها ستنقله إلى جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ^(٢).

فعليك أخى المؤمن بالرضا بقضاء الله وقدره حتى تكن أغنى الناس، من رضى بما قسم الله له يكن أغنى الناس .

^١ - الجامع الحديث للسند والمسانيد - صفة الجنة - الجزء الثانى - ص ٢٤٤ - صحيح الجامع - رقم الحديث ٥٢١٠ .

^٢ - الأحاديث القدسية - ص ٣٠٦ للإمام المحدث محى الدين أبى زكريا يحيى بن شرف النووى - تحقيق وتعليق مصطفى عاشور - مكتبة القرآن للطبع والنشر .

الفصل الرابع

الصبر

الحمد لله رب العالمين أهل الحمد والثناء المتوحد بصفات المجد والعلاء ذو الجلال والإكرام المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء .. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .. أما بعد قال تعالى:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران].
عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
[الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفس فمعتقها أو موبقها]^(١).

معنى الصبر لغة: هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله^(٢)، كما أثنى الله تعالى على عبده داود بقوله ﴿...إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص].

معنى الصبر اصطلاحاً: حبس النفس عن الجزع وهو أيضاً عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وثبات باعث الدين حالة تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب العادة في الدنيا والآخرة^(٣).

^١ - رواه مسلم - كتاب الطهارة - باب فضل الطهور - رقم الحديث ٢٢٣ .

^٢ - معجم التعريفات - ص ١١٢ ، معجم الوجيز - ص ٣٥٩ .

^٣ - إحياء علوم الدين - ص ٦٠ .

قال سعيد بن جبير: الصبر اعتراف العبد بالله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر (١).

خلق الصبر:

من محاسن أخلاق المؤمن التي يتحلى بها الصبر واحتمال الأذى في ذات الله تعالى بالرضا والتسليم فإن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند النوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة.

قال الله تعالى: ﴿...وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧) [لقمان].

فالمؤمن يحبس نفسه على ما تكرهه من عبادة الله وطاعته ويلزمها بذلك إلزاماً ويجبسها دون معاصي الله فلا يسمح لها باضطرابها ولا يأذن لها في فعلتها مهما تآقت لذلك بطبعها ويجبسها على البلاء إذا نزل بها فلا يتركها تجزع ولا تسخط، فعلى المؤمن الصبر على قضاء الله تعالى وعدم الجزع لأن الجزع لا يغير من القضاء شيئاً فكان من راحة العقل أن يتحلى الإنسان بالصبر عند المكاره.

قال ابن كثير: الإنسان بطبعه إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب ويأس أن يحصل له بعد ذلك خير وإذا حصلت له نعمة من نعم الله بخل بها على غيره ومنع حق الله تعالى فيها إلا المصلين أى إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه وهم المصلون وليعلم المؤمن أن قضاء الله تعالى عدل وأن حكمه نافذ سواء صبر العبد أم جزع، غير أن مع الصبر الأجر ومع الجزع الوزر، ولما كان الصبر وعدم الجزع من الأخلاق التي تكتسب وتنال بنوع من الرياضة والمجاهدة فعلى المؤمن أن يلجأ إلى الله تعالى بالدعاء أن يرزقه خلق الصبر لأن الصبر ضياء ونور يهدي صاحبه إلى اتباع الطريق المستقيم ويحقق لصاحبه الفوز بمعية الله وجنته ونيل عظيم ثوابه .

الله مع الصابرين:

قال تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣) [البقرة].

إن من يعيش في حضانة ربه فلا يجروء عليه الشيطان. فالشيطان خناس ومعنى خناس إذا سهوت عن الله اجترأ عليك وإذا ذكرت الله خنس وضعف وهو لا قوة له، ومادام الله مع الصابرين فلا يجروء عليك

١ - تفسير ابن كثير - جزء ١ - ص ٨٧ .

الشیطان لأنك مع القوة التي تفوق كل قوة على الأرض فالله عز وجل مع الصابرين وما دام الله مع الصابرين فلا بد أن نعشق الصبر وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا .

نحن نريد أن يكون الصبر معنا دائماً والصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة أما في البهائم فلنقتصاها وأما في الملائكة فلكمها وذلك لأن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث على الحركة والسكون بلا شهوة وأما الملائكة فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية ..

الصبر نصف الإيمان:

الإيمان نصفان نصف صبر، ونصف شكر، قال ابن مسعود: [الصبر نصف الإيمان]^(١)، وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه [الإيمان نصفان، نصف صبر، ونصف شكر] ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الصبر والشكر في قوله تعالى: ﴿...إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم].
فالإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية وهى ترجع إلى شطرين فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة الله وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية والدين كله في هذين الشئين فعل المأمور وترك المحذور^(٢).

والصبر نصف الإيمان: هو أن الإيمان يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً فيكون للإيمان ركنان أحدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة لهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال الدين في قهر باعث الهوى. قال على كرم الله وجهه: [الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له]^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة].

^١ - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ج: ١ - ص ١٥٠ حم: ٤٧ .

^٢ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين للعلامة محمد بن أبي بكر أيوب بن سعد بن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

^٣ - قوت القلوب في معاملة المحبوب - ج ١ - ص ٣٢٥ .

لأن الصبر نصف الإيمان والصلاة عماد الدين لذلك كان الصبر والصلاة هما أول ما يطلبه الله من الذى آمن بهذا الدين إعداداً للمؤمنين ليوجبوا مقتضيات إيمانهم ومتطلباته وهذا يحتاج إلى الصبر، الصبر على الإيمان والصبر على الصلاة والصبر على الطاعة والصبر على الصبر وهو التصبر. إن الله سبحانه وتعالى منعك من أشياء هى من شهوات النفس وأمرك بأشياء فيها مشقة وهذه محتاجة إلى الصبر ولكن بحبك لله سبحانه وتعالى ستجد حلاوة الإيمان والطاعة ولا تجد مشقة.

وكان رسول الله ﷺ يقول لبلال ساعة الأذان للصلاة: { أرحنا بها يا بلال } ولم يقل كما يقول بعض الناس وأعوذ بالله (أرحنا منها) ذلك أن هناك من يقول لك إن الصلاة تكون على كتفى مثل الجبل وأرتاح .. نقول له أنت ترتاح لها ولا ترتاح منها لأنك وقفت بين يدي الله المكلف ومادام الإنسان واقفاً أمام ربه فكل أمر شاق يصبح سهلاً.

أنواع الصبر:

وللصبر نوعان:

أولاً: ما يوافق هواه. ثانياً: ما لا يوافق هواه.

النوع الأول: ما يوافق هواه:

وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهاك فى ملاذها المباحة أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان .

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ (٦) أَن رَّاهُ اسْتَفْتَىٰ (٧)﴾ [العلق].

وقال سهل: { الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى

الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر }^(١).

ولذلك حذر الله تعالى من فتنة المال والزوجة والولد .

^١ - إحياء علوم الدين - ج ٤ - ص ٦٩ .

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْخَسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن].

ولما نظر عليه الصلاة والسلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه

ثم قال: {صدق الله} ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ إني لما رأيت ابني يتعثر لم أملك نفسي أن أخذته {^(١)}.
فالرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها ألا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده

وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا ينهمك في التمتع واللذة واللهو واللعب وأن يرعى حقوق الله في ماله
بالإنفاق وفي بدنه يبذل المعونة للخلق وفي لسانه يبذل الصدق وكذلك في سائر ما أنعم الله عليه .

قال تعالى ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَ مِيزَانٍ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر].

وقال بعض الحكماء: (من ترك نصيب الدنيا استوفى حظه من الآخرة) ^(٢).

وقال أبو العتاهية:

أرى الدنيا لمن هى في يديه عذاباً كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه^٣
فلا تركز يا بن آدم إلى الدنيا وملذاتها فكيف يهنا لك العيش في هذه الدنيا وربك غير راضٍ عنك
فسارع بالطاعات والصبر على الملهذات.

^١ - رواه الترمذى - كتاب المفاقب - رقم الحديث ٣٧٨٣ ، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب .

^٢ - أدب الدنيا والدين - ج ١ - ص ١١٦ .

^٣ - أدب الدنيا والدين - ص ١٥٠ .

النوع الثاني: ما لا يوافق هواه:

وهو ثلاثة أنواع:

- أولاً: الصبر على الطاعات .
- ثانياً: الصبر على المعاصي واحتمال الأذى.
- ثالثاً: الصبر على المصائب .

النوع الأول: الصبر على الطاعات ومنها:

(١) الصبر على امتثال ما أمر الله به والانتهاز عما نهى الله عنه:

لأن به تخلص الطاعة وبه يصح الدين وتؤدي الفريضة ويستحق الثواب .

قال تعالى: ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى].

والصبر على الطاعة يكون بأدائها مهما كانت ثقيلة على النفس ومن أفضل من حقق هذا النوع إسماعيل

- عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِلَيَّ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلُ

مَا تَوَمَّرْتُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾ [الصافات].

فيحتاج العبد إلى الصبر عليها بأدائها مهما كانت ثقيلة على النفس لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية

وتشتهي الربوبية ولذلك قال بعض العارفين: { ما من نفس إلا وهى مضمرة وذلك ما أظهره فرعون من

قوله " أنا ربكم الأعلى " وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره

وطاعته }، إذا العبودية شاقة.

(٢) الصبر في ساحة القتال:

وللصبر في قتال أعداء الله شأن عظيم فإن الصابر يلقي بروحه وجسده في أرض المعركة لا يوالى دبره

ولا يضمن بنفسه إرضاء لربه ^(١).

١ - خلق المؤمن - ص ٩٧ .

عن أبي قتادة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم: { أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال فقال يا رسول الله أرأيت إن قُتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي، فقال له رسول الله ﷺ نعم، نعم إن قُتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ثم قال رسول الله ﷺ كيف قلت، قال أرأيت إن قُتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي، فقال رسول الله ﷺ نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل قال لي ذلك }^(١).

٣ (الصبر على مشاق الدعوة:

فلنا في رسول الله - ﷺ - الأسوة الحسنة عندما أودى من أئمة الكفر (أبو جهل وأبو لهب) عندما كانت امرأة أبي لهب ترمى القاذورات أمام بيت النبي - ﷺ - وكانت امرأة أبي لهب تناديه مذمماً فيقول ﷺ: { دعوها إنها تنادى مذموم وأنا محمد }.

وعندما تطاول عليه أبو جهل وألقى عليه جزوراً وهو يصلي عند الكعبة فجاء أبو بكر وألقاه من على رسول الله - ﷺ - وهو يقول: { أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله }، وما تعرض له أيضاً من سفهاء أهل الطائف وصبيانهم ونسائهم ولكنه ﷺ قابل كل ذلك بالصبر واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى وكان الله جل وعلا يمد له يد العون بآيات الصبر .

قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ... ﴾ [الأحقاف].

وقال تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا... ﴾ [الطور].

وإن الدعوة والمصلحين يتلون بمن يعكر عليهم صفو الدعوة فيجب عليهم الصبر لأن الله تعالى قال في كتابه الكريم: ﴿... إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر].

٤ (الصبر على العبادات:

إن من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببها جميعاً كالحج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

^١ - صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب من قتل في سبيل الله أغفرت خطاياهم - ص ٢٨ - سنن الترمذي والنسائي - باب الجهاد - رقم الحديث ٣١٥٦، ١٧١٢.

إن الله منعك من أشياء هي من شهوات النفس وأمرك بأشياء فيها مشقة وهذا محتاج إلى الصبر ولكن بحبك الله سبحانه وتعالى ستجد حلاوة الإيمان والطاعة ولا تجد مشقة، انظر إلى الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة محبة إلى النفس فيها هو رسول الله - ﷺ - كان يقول لبلال ساعة الأذان للصلاة { أرحنا بها يا بلال }.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

١ - قبل الطاعة: وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد. قال صلوات الله وسلامه عليه [إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى] متفق عليه من حديث عمر.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ [البينة: ٥] ولهذا قدم الله سبحانه وتعالى الصبر على العمل فقال عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ [هود: ١١].

٢ - حالة العمل: كى لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ولعل قوله عز وجل ﴿...نَعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [٥٨] الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [٥٩] [العنكبوت]. أى صبروا على تمام العمل.

٣ - بعد الفراغ من العمل: إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب (١).

قال أبو العتاهية:

أراك أمراً ترجو من الله عفوهُ وأنت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر أيا من يداوى الناس وهو سقيم^(٢)

١ - إحياء علوم الدين - المجلد الرابع - ص ٦٧ باختصار وتصرف.

٢ - أدب الدنيا والدين - ص ٢٥٢ .

النوع الثاني: الصبر على المعاصي:

فما أحوج العبد إلى الصبر عنها قال تعالى: ﴿... وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل].

عن فضالة بن عبيد قال: قال ﷺ { المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه }^(١).
وأشد أنواع الصبر هو الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فالصبر عن المعاصي أشد أنواع الصبر كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً فترى اللسان يطلق لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر بل يخوض في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر أن الغيبة أشد من الزنا .

وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى].

فاستعمل هنا لام التوكيد لأن الصبر هنا شاق والله عز وجل يطلب من المؤمن أن يغفر لمن أصابه.
فاصبروا عباد الله على عمل لا غنى بكم عن ثوابه واصبروا على عمل لا صبر لكم على عقابه فالذى يقدم على ارتكاب المعاصي يستحق عذاب الله عن فعل ما أمر الله به من طاعته وعذاب المجترئ على ما أقدم عليه من معاصيه.

وقد قال ابن شبرمة: عجبت لمن يحتسى من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتسى من المعاصي مخافة النار.^(٢)

فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال:

جسمك قد أفنيت به بالحمى دهرًا من البارد والحرار
وكان أولى بك أن تحتمى من المعاصي حذر النار^٣

١ - أخرجه العراقي في المغنى عن حمل الأسفار ج ٥ - ص ٢١٣٦ وابن ماجة والنسائي بإسناد جيد .

٢ - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - ج ٧ - ص ٢٦٧٣ .

٣ - أدب الدنيا والدين - ص ١٢٦ .

احتمال الأذى:

هو الصبر ولكنه أشق فهو بضاعة الصديقين وشعار الصالحين وحقيقته أن يؤذى المسلم في ذات الله فيصبر ويتحمل فلا يرد السيئة بالسيئة ولكنه يردّها بالحسنة ولا ينتقم لذاته ولا يتأثر بشخصيته ما دام ذلك في سبيل الله ومؤدياً إلى مرضاته وأسوة بذلك المرسلون الصالحون، وقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: { ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى }

وقال تعالى: ﴿... وَلَنْصَبِرَ عَلَىٰ مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم].

وقسم رسول الله - ﷺ - مرة مالا فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر رسول الله - ﷺ - فاحمرت وجنتاه ^(١) ثم قال [يرحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من ذلك فصبر]، وقال ﷺ: [صل من قطعك وأعط من حرملك واعف عن من ظلمك] ^(٢).

وفي الإنجيل قال عيسى بن مريم { لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف وأن أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى } ^(٣).

وذكر القرآن الكريم جانباً من إيذاء المنافقين لرسول الله - ﷺ - وكيف أنه صلوات ربه وسلامه عليه واجه إيذاءهم بصبر جميل .

قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ وَايمَاءٌ لِّمَنَالُوا وَمَا نَفَعُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة].

١- وجنتاه معناها: خديه .

٢- شرح السنة للبعغوى - باب ليس الواصل بالمكافئ - الجزء الثالث عشر - ص ٣١ - رقم الحديث ٣٤٤٣.

٣- هل العهد الجديد كلمة الله؟ لابن محمود الصقار - دار الإسلام للنشر - الطبعة الأولى - ص ٢١٩ .

قال الإمام الشعراوى - رحمه الله - فى هذه الآية يبين لنا الحق سبحانه وتعالى الحلف بالكذب للمنافقين فهم يحلفون أنهم ما قالوا ويجعلون الله عرضة لأيمانهم مع أنهم قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد أن أعلنوا الإسلام بلسانهم فهذه الآية قصة واقعية أحداثها فى غزوة تبوك التى حارب المسلمون فيها الروم وكانت أول قتال بين المسلمين وغير العرب حيث دعا رسول الله - ﷺ - إلى هذه الغزوة فى فترة شديدة الحرارة وكان كل واحد منهم يفضل الجلوس تحت النخل والشجر فى جو رطب ولا يرغبون فى القيام من الظل، وعندما دعا رسول الله - ﷺ - للجهاد فى سبيل الله والذهاب إلى قتال الروم تلمس المنافقون الأعذار الكاذبة حتى لا يذهبوا للجهاد فظل القرآن ينزل فى هؤلاء والذين تخلفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين، وقال رجل اسمه الجلاس بين سويد: (والله إن كان ما يقوله محمد عن الذين تخلفوا عن القتال صدقاً فنحن شر من الحمير)، وهنا قال عامر بن قيس الأنصارى: لقد صدق رسول الله - ﷺ - { وأنتم شر من الحمير وأنت يا جلاس شر من الحمار }^(١)، وهنا قام عدد من المنافقين ليقتلوا عامر بن قيس لأن الجلاس بن سويد كان من سادة قومه وذهب عامر بن قيس إلى رسول الله - ﷺ - وأخبره ما حدث فاستدعى رسول الله - ﷺ - سويد وسأله عن الخبر فحلف بالله إن كل ما قاله عامر بن قيس لم يحدث وتركه رسول الله - ﷺ - بعد أن حلف وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء وقال " اللهم إنى أسألك أن تنزل على عبدك وحبيبك محمد ﷺ تصديق الصادق وتكذيب الكاذب " فقال رسول الله - ﷺ - " آمين "، فلم ينته من الدعاء حتى نزل الوحي بقوله جل وعلا:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولَاٰئِمَّا لَمْ يَنَالُوْا...﴾

[التوبة].

ذلك أن الله تبارك وتعالى أراد أن يعلم المنافقين أنه سبحانه يخبر نبيه بما يخفيه المنافقون عن رسول الله - ﷺ - ولو نزلت الآية فقط فى حادثة الحلف الكذب لقال المنافقون ما عرف محمد - ﷺ - إلا ما قال عامر ولكن هناك أشياء لم يسمعها عامر وهم قالوها ذلك أن المنافقين قد تأمروا على حياة رسول الله - ﷺ -

^١ - كتاب البداية والنهاية - الجزء الخامس - تخريج أحاديث الكشاف - باب سورة التوبة - الجزء الثانى - ص

واتفقوا على قتله عند عبوره للعقبة، والعقبة هذه هي مجموعة من الصخور العالية التي تعرض الطريق ودبروا أن يدفعوا رسول الله - ﷺ - من أعلى الصخور في الوادي، لكن حذيفة بين اليمان - رضى الله عنه - الذى كان يسير خلف ناقة رسول الله - ﷺ - تنبه للمؤامرة فهرب المنافقون وهكذا لم ينالوا ما يريدون وقيل إنهم تأمروا على قتل عامر بن قيس لأنه أبلغ رسول الله - ﷺ - ما قاله الجلاس بن سويد ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك (١).

النوع الثالث: الصبر على المصائب:

الصبر على سائر أنواع البلاء كالمصائب مثل مصيبة الموت وخاصة موت العزيز ومصيبة فقد الأموال وزوال الصحة بالمرض .
وقال بعض الشعراء:

إذا بليت فثق بالله وارض به إن الذى يكشف البلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ما لأمري حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه لا تيأسن فإن الصانع الله^٢
فأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس .
عن ابن عمر قال: قال ﷺ { اللهم أسألك من اليقين ما تهون به من مصائب الدنيا } (٣).
والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد وهو ثلاث أنواع صبر على فرائض الله فلا يضيعها، وصبر عن محارمه فلا يرتكبها، وصبر على أقضيته وأقداره فلا يتسخطها وأكبر أسقام البدن والقلب إنما تنشأ من عدم الصبر فالصبر يحفظ صحة القلوب والأبدان والأرواح ونعرف أن مجرد الابتلاء ليس شراً ولكن الشر هو أن تسقط في الابتلاء فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان ولم يقل أحد إن الامتحانات شر، إنها تصير شراً من

١ - تفسير الشعراوى - جزء ٨ - ص ٥٩٨ .

٢ - أدب الدنيا والدين - ج ١ - ص ٢٩٧ .

٣ - رواه الترمذى - كتاب الدعوات - ص ٨٣ - رقم الحديث ٣٥٠٢ ، قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب.

وجهة نظر الذى لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح أما الذى بذل الجهد وفاز بالمركز الأول فالامتحانات خير بالنسبة له والابتلاء علامة من علامات حب الله وابتلاء العبد فى دينه ونفسه وولده علامة من علامات حب الله للعبد.

يقول النبى - ﷺ -: { إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط } ^(١).

وعظم البلاء دليل على قوة الإيمان:

قال النبى - ﷺ -: { أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل يتملى المرء على قدر دينه فإن كان فى دينه زيادة زيد فى بلائه وإن كان فى دينه نقص قل بلاؤه } ^(٢).

وسئل الفضيل عن الصبر فقال هو الرضى بقضاء الله وقال أبو سليمان والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره ^(٣).

وقال النبى - ﷺ -: { قال الله عز وجل: إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً } ^(٤). وقال - ﷺ -: { انتظار الفرج بالصبر عبادة وكل بلاء ينزل على العبد المؤمن فى جسده أو ماله أو زوجه أو ولده فصبر كفر الله بذلك خطاياهم } ^(٥).

قال - ﷺ -: { ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب "مرض" ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بذلك خطاياهم وحط عنه ذنوبه } ^(٦).

^١ - كتاب سنن الترمذى - كتاب الزهد عن رسول الله ^٨ - باب ما جاء فى الصبر على البلاء - ص ٦٦ وقيل هذا الحديث حسن غريب .

^٢ - المعجم الكبير - باب خولة العبسية - الجزء الرابع والعشرون - ص ٢٤٥ - رقم الحديث ٦٢٩ .

^٣ - الترغيب والترهيب لإسماعيل بن محمد بن الفضل بن على القرشى - ج ٢ - ص ٢٩٤ .

^٤ - كتاب المجالسة وجواهر العلم للدينورى - رقم الحديث ١٠١ .

^٥ - سلسلة الأحاديث الضعيفة - الجزء الرابع - ص ٢٧٠ - رقم الحديث ١٥٧٢ - حديث موضوع .

^٦ - أخرجه البخارى - فى المرض - باب ما جاء فى كفارة المرض - رواه مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها - رقم الحديث ٢٥٧٤ .

ويقال إن امرأة عثرت فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها أما تجددين الوجع، فقالت إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجعي.

الصبر على مصيبة الموت:

وقال داود بن سليمان - عليهما السلام - يستدل على تقوى المؤمن بثلاث، حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات، فإن قلت فيماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختيارك فهو مضطر شاء أم أبى فإن كان المراد به ألا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختياره فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين في الجزع وشق الجيوب ودرب الكروب والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة^(١).

قال تعالى:

﴿.....وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ [البقرة].

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً، وعلى قدر إيلامها يكون الثواب عليها وإن يأتى منها خير، وهناك قصة عن أم سلمة رضي الله عنها حيث مات زوجها أبو سلمة وقيل لها قولي ما علمنا رسول الله ﷺ قالت: وما علمكم: قالوا: قولي إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أؤجرني في مصيبتى واخلفنى خيراً منها، فإذا بها بعد انقضاء عدتها يذهب إليها النبي ﷺ خاطباً، فقيل لها: أوجدتى خيراً من أبى سلمة؟ قال: ما كنت أتوقع مثل هذا.

وقال صلوات الله وسلامه عليه: { ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أؤجرني في مصيبتى واعقبني خيراً منها إلا فعل الله به ذلك }^(٢).

^١ - إحياء علوم الدين - ج ٤ - ص ٧٣.

^٢ - شرح السنة للبعوى - باب ما قل عند من حضره الموت - الجزء الخامس - ص ٣٩٤ - رقم الحديث ١٤٦٣ - حديث صحيح.

الصبر على فقد الولد:

قال شيب بن شيبه المهدي:

ولئن تصبك مصيبة فاصبر لها عظمة مصيبة مبتلى لا يصبر^(١)

قال رسول الله - ﷺ -: { إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي، فيقولون نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاد عبدي، فيقولون نعم، فيقول فماذا قال عبدي، فيقولون حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد }^(٢).

وروى عن الروميصاء أم سليم رحمها الله أنها قالت: { توفي ابن لي وزوجي أبى طلحة غائب فقممت فسجيت في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقممت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل وقال كيف الصبي، قلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنعت له بأحسن ما كنت أتصنع له من قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته، ثم قلت له ألا تعجب من جيراننا، قال ما لهم، قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم فاسترجعت جذعوا، فقال بشئ ما صنعوا، فقلت هذا ابنك كان عارية من الله وأن الله قد قبضه إليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال اللهم بارك لهما في ليلتهما }^(٣)

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: { مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند القبر، فقال اتقي الله واصبري، فقالت إليك عني لأنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقل لها إنه رسول الله ﷺ فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت له لم أعرفك، فقال لها صلوات الله وسلامه عليه إنها الصبر عند الصدمة الأولى }^(٤).

^١ - أدب الدنيا والدين - ج ١ - ص ٢٨٨ .

^٢ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - باب تكفير الأمراض والمصائب - الجزء الثامن - ص ١٨٦ - وصحيح الجامع - رقم الحديث ٧٩٥ .

^٣ - رواه مسلم - كتاب الآداب - باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته - رواه الترمذي - كتاب الجنائز - باب فضل المصيبة إذا احتسبت - رقم الحديث ١٠٢١ .

^٤ - رواه مسلم - كتاب الجنائز - باب الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى .

أى أن النبي ﷺ زار مقبرة في المدينة فرأى امرأة تبكى على ولدها عند قبره بصوت يدل على السخط والجزع وعدم الرضا فأمرها بتقوى الله تعالى والخوف منه والصبر على مصيبتها بموت ولدها فالموت مكتوب على العباد جميعاً والجزع لا يرد مفقوداً بل يضيف إلى المصيبة مصيبة أعظم منها وهى السخط على قضاء الله تعالى الذى لا مفر منه وقد بشر الله الصابرين على قضائه بالمغفرة والرحمة والهداية ولكن بدلاً من امتثالها أمر الرسول ﷺ زادت في المعصية، وقالت له تنح عنى فإنك لم تصب بمصيتى لست مصاباً مثلى ولم تكن تعرفه، لتواضعه صلوات الله وسلامه عليه في مشيه ورفقه بأمته لأنها مشغولة في البكاء على ولدها فلما عرفته ضاق صدرها واشتد كربها فسارعت إلى بيته ﷺ فلم تجد عنده بواباً ولا حاجباً فيجب الناس عنه كما هو شأن الملوك فاعتذرت له بأنها لم تكن تعرفه ورغبت أن تكون من الصابرين الذين يبشرهم الله تعالى بمغفرته ورضوانه فعنى عنها النبي ﷺ، ولكنه أخبرها أن الصبر الحقيقى هو الذى يكون عند مفاجأة المصيبة، أما الصبر بعد هذه الصدمة فهو صبر اضطرارى جاء بعد اليقين أن الجزع لا فائدة منه.

كلمات الصبر المستحبة:

يستحب لمن مات له قريب أو صاحب عزيز أن يتسلى في صبره بالحمد والاسترجاع والاستسلام والرضا بقضاء الله وقدره والتصبر على فراقه وعدم النوح عليه وابتغاء الأجر والثواب في الآخرة والالتجاء إلى الله تعالى ليغفر لميته وليؤجره فى مصيبتيه ويخلف له خيراً منها.

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: { إذا أصابت أحدكم مصيبة فليقلل إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم عندك أحسب مصيبتى فأؤجرني فيها وأبدل لي بها خيراً منها }^(١).

أقسام الصبر حسب القوة والضعف:

١ - أن يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتغلب عليه باعث الدين ويتوصل إليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون إلى هذه المرتبة هم الأقليون فلا جرم هم الصديقون المقربون

^١ - تلخيص المتشابه في الرسم - رقم الحديث ٣٤٢ - حديث مرفوع.

الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستوتوا على الصراط المستقيم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين.

٢ - أن يغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم الذين استأقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شهواتهم فحملوا أعداء الله في قلوبهم وهؤلاء الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة وخسرت صفقتهم.

٣ - أن يكون الحرب سجلاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين لا من الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم.

دواء الصبر وما يستعان به عليه:

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، والصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بالعلم والعمل وهو كالاتي ^(١):

١ - تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة، أما تقوية باعث الدين فتكون بإطاعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدنيا والآخرة وما يناله من الثواب العظيم ورضا الله عليه عز وجل.

٢ - عليه بعمل الطاعات المتواصلة من القراءة والأذكار والصلوات: قال ﷺ: {إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها} ^(٢). فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع المهم كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان.

٣ - عليه بالرضا والتسليم لقضاء الله وقدره لأن فيه الخير الكثير في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

١ - إحياء علوم الدين - المجلد الرابع - ص ٧٢ - اختصار وتصرف .

٢ - ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد - ج ١٠ - ص ٢٢١ - ح ١٧٧١٣

الباب الرابع

- الفصل الأول: البعد عن جريمة الزنا.
- الفصل الثاني: البعد عن التبرج.
- الفصل الثالث: الحياء.
- الفصل الرابع: مصاحبة الصالحين.

الفصل الأول

البعد عن جريمة الزنا

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وعلى آله وصحبه أجمعين ... أما بعد ،،،
قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله) (١).

الزنا لغة: الوطء في قبل خالٍ من ملك وشبهة (٢).

الزنا اصطلاحاً:

هو كل اتصال جنسي غير شرعي بين رجل وامرأة تأباه مكارم الأخلاق وهو إدخال فرج في فرج محرم شرعاً وقيل هو الوطء في قبل خالٍ عن ملك أو شبهة (٣).

جريمة الزنا:

فاحشة الزنا تعتبر من أكبر الآثام وأعظم الجرائم التي تدنس النفس البشرية وتحول بين سعادتها وكمالها فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رؤوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنا: فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل، وإن أبقت حمله أدخلت على أهلها العار ربما رفض

١- رواه الحاكم - ج ٣ - ص ٣٧ - وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ورواه الطبراني بإسناد جيد - انظر الترغيب

- ج ٣ - ص ١٩٩٤ .

٢- معجم التعريفات - ص ٩٩ .

٣- صحيح فقه السن وأدلتها - ج: ٤ - ص: ٢١ .

الزاني بها الاعتراف به وإن نسب إليها فتعيش به ذليلة ويعيش الولد أو البنت في كآبة طوال حياتهم لأنها تعتبر لقيطة أو بما تسمى لقيط وإن زنا الرجل فهذا يوجب اختلاط الأنساب وإفساد المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد هي والجنين وهذه كبيرة لأنها تحدث خراب الدنيا والدين فليس بعد جريمة القتل أعظم من جريمة الزنا ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ولو بلغ العبد أن امرأة من نسائه سواء بنته أو أخته أو امرأته قُتلت لكان أسهل عليه من أن يبلغهم أنها زنت لأن الزنا عار يهدم البيوت الرفيعة ويطأطيء الرؤوس العالية ويسودّ الوجوه البيض.

ومن هنا كانت التربية الإيمانية والتوجيه الواعي ولزوم الجماعة الصالحة واجتناب صحبة الفاسقين والباطلين من وسائل الإسلام في محاربة الرذيلة واستئصال شأفتها.

احتياطات الإسلام لسد ذرائع الفتنة بالمرأة:

أولاً: التحذير من فتنة المرأة:

في الحقيقة أن المرأة المسلمة لقيت عناية فائقة من الإسلام بما يصون عفتها ويجعلها عزيزة الجانب سامية المكانة وإن الضوابط التي فرضها عليها في ملبسها وزينتها وعلاقتها بالرجال لم تكن إلا لسد ذريعة الفساد وتخفيف منابع الافتتان بها، فلقد حذرنا رسول الله ﷺ من فتنة المرأة ونصح لأمته أعظم النصيح.

فعن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { ما تركت بعدى فتنة هي أضر على الرجال من النساء }^(١).

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء }^(٢).

١- رواه البخارى - جزء ١ - ص ٤١ - كتاب النكاح - باب ما يتقى من شؤم المرأة - والترمذى فى الأدب رقم (٢٧٨٠) باب ما جاء فى التحذير من فتنة النساء وقال حديث حسن .

٢- رواه مسلم - كتاب الذكر - باب أكثر أهل الجنة الفقراء - رقم الحديث (٢٧٤٢) - والترمذى باب ما أخبر النبى^٨ أصحابه بما هو كائن يوم القيامة - رقم الحديث (٢١٩٢)

فقد يقع الافتتان بالمرأة إذا خلبت لب الرجل وسحرت عقله وزينت له ترك الواجب أو فعل المحرم فمن حكمة الله تعالى أنه ركب في الإنسان شهوة الفرج تركيباً قوياً وجعل لها عليه سلطاناً شديداً فإذا ثارت كانت أشد الشهوات عصياناً على العقل فلا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً وخاصة الذي يداوم عليها منذ الصغر وشعوره بالراحة النفسية لهذا العمل فإذا تكدرت نفسه سارع إلى هذه الشهوة ظناً منه أنها تريجه نفسياً وتبعده عن ما يكدر صفو الحياة فهذا لا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً إلا من تحجزه التقوى بخوفه من الجليل واستعداده للرحيل وعلمه بأن هذه الدار الدنيا دار ابتلاء واختبار فيشغل نفسه بما يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة بالعلم والأعمال الصالحة وبعصمة الله عز وجل ويتوفيقه له بالبعد عن المعاصي والشهوات فالمرأة من طبعها استهواء الرجل والسيطرة على مشاعره وامتلاك حسه ولبه وفي سبيل إغوائه ولفت أنظاره فقد تصنع من ألوان الفتن ما يجر إلى المنكر^(١).

روي أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض محاله إذ أقبل عليه إبليس وعليه بُرنس^(٢) يتلون فيه ألواناً، فلما دنا منه خلع البرنس ووضعه ثم أتاه فقال السلام عليك يا موسى، فقال موسى من أنت فقال أنا إبليس، فقال لا حياك الله ما جاء بك، قال جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه، قال فما الذي رأيت عليك، قال برنس أختطف به قلوب بني آدم، قال فما الذي إذا صنعه إنسان استحوذت عليه، قال إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسي أبويه، وأحذرك ثلاثة: لا تخل بامرأة لا تحل لك فإنه ما خلى رجلٌ بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابه حتى أفتنه بها وأفنتها به. ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به وما عاهد الله أحد إلا كنت صاحبه دون أصحابه حتى أحول بينه وبين الوفاء به. ولا تخرجن صدقةً إلا إذا أمضيته فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابه حتى أحول بينه وبين إخراجها ثم ولى وهو يقول يا ويله ثلاثا علم موسى ما يحذر به بني آدم^(٣).

١ - أدلة الحجاب - بحث جامع لفضايا الحجاب وأدلة وجوبه - تأليف الدكتور محمد بن إسماعيل المقدم - الإسكندرية دار الخلفاء الراشدين - ص ٢١ : ٢٧ باختصار .

٢ - برنس : هو كل ثوب رأسه منه ملتصق به وقد شاع استعماله في المغرب .

٣ - تلييس إبليس للحافظ الإمام / جمال الدين أبي الفرج - ص : ٣٨ .

وقال بعضهم إن الشيطان يقول للمرأة: { أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به فلم أخطئ وأنت موضع سري وأنت رسولي في حاجتي } (١).

فنصف جنده هو الشهوة ونصف جنده الغضب .

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: { اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء } (٢).

والإسلام يقدر ما ركب في طبيعة النوعين من التجاذب الذي يؤدي إلى الافتتان والفساد فإذا ترك الناس لدواعي أهوائهم فسدت الأعراض وفشت الإباحية ومن أجل ذلك كله كان الحفاظ على العرض أحد المقاصد الأساسية العليا للشريعة الإسلامية تعظيماً لحرمات الله وصيانة للأعراض والمحافظة على النسل وتطهير المجتمع من الرذيلة.

ثانياً: التحذير والنهي عن اقتراب الزنا:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. قال الحق جل في علاه (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى) ولم يقل "لا تزنا" لأن هذه الجريمة مقدمات تؤدي إليها فاحذر أن تجعل نفسك على مقربة منها . قال رسول الله ﷺ: { ومن وقع في الشبهات كراخٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا إن لكل ملك حمى ألا إن حمى الله في أرضه محارمه } (٣).

وهذا احتياط واجب حتى لا نقرب من المحذور فنقع فيه، أي لا نقرب من أي قول أو فعل يوصل إلى جريمة الزنا كالتخاطب بالألفاظ التي تؤدي إلى العلاقات القبيحة بين الرجال والنساء أو كالاختلاط الشائن الذي يتنافى مع الحياء والأدب والنظرة الحبيثة فإن ذلك يفتح الطريق للوصول إلى الفواحش التي

١ - المرجع السابق نفسه .

٢ - صحيح البخارى - كتاب الرقاق - باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء - رقم الحديث ٢٧٤٢ ، وصحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - رقم الحديث ٢٧٤٢ - سنن الترمذى - كتاب الفتن ٢١٩١ .

٣ - أخرجه البخارى - جزء ١ - ص ١٢٦ ، ومسلم - ص ١٥٩٩ .

هي كل قولٍ أو فعلٍ نهى الله عنه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً...﴾ [الإسراء].
والفاحشة هي الشيء الذي اشتد قبحه وقد جعل سبحانه الزنا فاحشة .

رابعاً: الزواج:

الزواج نعمة من نعم الله تعالى على الرجل والمرأة على حد سواء فهو أساس المجتمع فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي الناس من أن يتعثروا وراء الشهوات والأهواء ولذلك يرشدنا سبحانه إلى نعمة الزواج، نعمة العفة والطهارة فيختار الرجل أنثى عفيفة ذات دين وترضى به زوجاً أمام أعين الناس جميعاً ويصير معروفاً للمجتمع أن هذه امرأة وهذا زوجها دخوله وخروجه غير منقود. وسبحانه أراد أن يحمي هذا النسل من الضياع ويوفر له الحياة الكريمة لأنه سبحانه حينما خلق الزوجين الذكر والأنثى وقدر أن يكون بينهما التناسل والتكاثر قدر لهما أصولاً يلتقيان عليها لحفظ الإنسان ويطمئن كل إنسان على سلامة نسبه ونسب ولده، ومن الأصول التي يلتقي عليها الزوجان عقد القران الذي يجمعهما بكلمة الله وعلى سنة رسوله ﷺ، وهب أن لك بنتاً بلغت سن الزواج وعلمت أن شاباً ينظر إليها أو يحاول الاقتراب منها ماذا سيكون موقفك، لا شك أن نار الغيرة ستشتعل بداخلك وربما تعرضت لهذا الشاب وأقمت الدنيا ولم تقعدها، لكن إذا ما ترك بابك وتقدم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترحاب وتسعد به وتدعو الأهل وتقيم الزينات والأفراح، إذ فم الذي حدث وما الذي تغير وما الفرق بين الأولى والثانية، الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام^(١).

فبمجرد أن يقول ولي الزوجة زوجتك ويقول الزوج قبلت تنزل هذه الكلمة على القلوب برداً وسلاماً وتحدث فيها انبساطاً وانشراحاً وهكذا يلتقي الزوجان في راحة وهدوء نفس ويسكن كل منهما للآخر لأن قلوبهما انسجمت وتألفت.

وصدق رسول الله ﷺ: { وإنا أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله تعالى }^(٢).

١ - اللقاء بين الزوجين في القرآن والسنة لإمام الدعاة فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى - أعده وعلق عليه عبد الرحيم محمد متولى الشعراوى - المكتبة التوفيقية - أمام الباب الأخضر .
٢ - أخرجه أحمد ومسلم - كتاب النفقات - جزء ٢ - ص ٢٩٧ - حديث صحيح .

واعلم يا ابن آدم أن شهوة الفرج فائدتها لبقاء النسل ودوام الوجود وإيجاد مجتمعٍ نقيٍّ طاهر ولكن فيها من الأزمات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال فعلى الرجل العاقل المتدين ألا يشغل نفسه بهذه الفاحشة ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح.

قال رسول الله ﷺ: { يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء } (١).

والإسلام يعد الزواج من العبادات ويكون عبادة مطلوبة ممن توافرت له دواعيه المادية والمالية ولماذا ينكل الرجل عن الزواج وهو في المرأة راغب وعلى نفقتها قادر، فليعصم نفسه من الوقوع في المحذور (٢).

التعاليم الإسلامية فى المعاملات بين الرجل والمرأة:

فقد وضع الإسلام التعاليم الآتية فى المعاملات العامة بين الرجال والنساء لإنشاء مجتمعٍ طاهر من الدنس والأقذار مجتمعٍ إيماني يخاف الله سبحانه وتعالى، فعلى كل من الرجال والنساء الالتزام بالأمور الآتية:

أولاً: غض البصر:

فلا يجوز لأحد أن يتأمل ملامح الآخرين إجابة لنزوة جنسية والعين الجريئة آثمة.

قال تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا... ٣١﴾ [النور].

والنظرة المريبة التي تفتح معها الشهوة مفتاح شرور كثيرة ويتبعها بما يسميه علماء النفس بتداعي المعاني وإدمان النظر يعرض على القلب صوراً لا حصر لها من مثيرات الفتن.

وكما أمر الرجل بغض النظر أمرت المرأة بغض بصرها، لأن اللعنة قد تكون أيضاً للرجل ذي الوسامة، وهذا الاحتياط وهذه الحدود التي وضعها الله عز وجل وألزمنا بها إنما هي لمنع هذه الجريمة البشعة التي بدأت بها سورة النور لأن النظر أول وسائل الزنا وهو البريد لما بعده.

١ - أخرجه البخارى - كتاب النكاح - باب من لم يستطع الباءة فليصم - رقم الحديث ٥٦٦ .

٢ - تفسير وخواطر محمد متولى الشعراوى - ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

ألا ترى شوقي رحمه الله حين تكلم عن مراحل الغزل يقول:

نظرة فابتساماً فسلاماً فكلاماً فموعداً فلقاءً
فالأمر بغض البصر ليسد منافذ فساد الأعراض ومنع أسباب تلوث النسل لباقي الخليقة لله في الأرض
طاهراً في مجتمع طاهرٍ نظيفٍ شريفٍ لا يتعالى فيه أحدٌ على أحدٍ بأن له نسباً وشرفاً، والآخر لا نسب له .
فغض البصر يعني قصره على ما أحل الله وكفه عن ما حرم فلا تعطي له الحرية المطلقة فينظر إلى كل
شيء إنما توقفه عند أوامر الله فيما يرى وفيما لا يرى (١).

فساعة تنظر إلى المرأة هذا إدراك فإن أعجبتك وانبسبت لها أساريرك فهذا وجدان لا بد أن يترك في
تكوينك تفاعلاً كيميائياً لا يهدأ إلا أن تنزع، فإن طاوعت نفسك في النزوع فقد اعتديت وإن كبت في داخلك
هذه المشاعر أصابتك بعقدٍ نفسي ودعتك إلى أن تبحث عن وسيلة أخرى للنزوع لذلك، رحمك ربك من
بداية الأمر ودعاك إلى منع الإدراك بغض البصر.

لذلك بعد أن أمرنا سبحانه بغض البصر قال: ﴿...وَحَفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾ (٣١) [النور]، لأنك لا
تملك أن تفصل النزوع عن الوجدان ولا الوجدان عن الإدراك، وحفظ الفروج يكون بأن نقصرها على ما
أحلّه الله وشرعه فلا آتیه لغير محل له سواء أكان من الرجل أو من المرأة، وأحفظه وأصونه أن يرى لأن
رؤيته تهيج إلى الشر وإلى الفتنة ﴿...ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ...﴾ (٣١) [النور]، يعني أظهر وأسلم وأدعى لراحة
النفس لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرماً ويلج في أعراض الناس وإما لا ينزع فيكدر نفسه ويؤلمها بالصبر على
ما لا تطيق ثم يقول سبحانه: ﴿...إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) [النور].

وزنا العين من كبائر الصغائر وهو يؤدي إلى القرب من الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج، ومن لم يقدر
على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه، وقيل ليحيى عليه السلام ما بدء الزنا قال النظر والتمني وقال
الفضيل يقول إبليس هو قوسي القديرة وسهمي الذي لا أخطئ به - يعني النظر (٢).

١ - كتاب حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة - محمد الغزالي - دار الدعوة للطبع والنشر
والتوزيع - الطبعة الخامسة.

٢ - كتاب لا تحزن إن الله معنا - إمام الدعاة محمد متولي الشعراوي (أعده عبد الرحيم متولي الشعراوي المكتبة
التوفيقية) .

وقال ﷺ: { النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غص بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه نوراً } (١).

عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: { لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر واليدان تزنيان وزناهما البطش والرجلان تزنيان وزناهما المشي والفم يزني وزناه القبلة والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه } (٢).

وقالت أم سلمة: { استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله ﷺ وأنا وميمونة جالستان فقال ﷺ: احتجبا، فقلنا أوليس بأعمى لا يبصر، فقال: وأنتما لا تبصرانه } (٣).

وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة في المآثم والولائم فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة. والنظرة الأولى لا يؤاخذ بها.

قال ﷺ: { لك الأولى وليس لك الثانية " أي النظرة " } (٤).

فقد روي عن أبي بكر بن عبد الله المزني أن قصاباً أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له: لا تفعل لأننا أشد حباً لك منك بي ولكنني أخاف الله، قال أفأنت تخافينه وأنا لا أخافه فرجع تائباً (٥).

وقال ﷺ: { ثلاثة لا ترى أعينهم النار، عين حرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله، وعين كفت عن محارم الله } (٦).

١ - أخرجه الطبراني في الكبير - جزء ١٠ - ص ٢١٤ - حديث رقم ١٠٣٦٣ - رواه الحاكم وأحمد .

٢ - أخرجه أحمد في مسنده - حديث رقم ٨٥٠٧ - المجلد الثامن - ص ٣٣٩ ، أبو داود كتاب النكاح - حديث صحيح .

٣ - صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب جواز أذان الأعمى إذا كان معه بصير - حديث رقم ٦٠٩ .

٤ - أخرجه أبو داود والترمذي - شرح السنة للبلغوي - باب النهي عن مباشرة النساء - جزء ٩ - ص ٤٢ .

٥ - حلية الأولياء - ج: ٢ - ص: ٢٣٠ .

٦ - أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد - ج: ٥ - ص: ٢٣٨ - ح م : ٩٤٩٠ ورواه الطبراني .

ثانياً: إخفاء الزينة ومنع التبرج:

قال تعالى: ﴿...وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا...﴾ (٣١) [النور].

وقال تعالى: ﴿...وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١) [النور].

وقد أمر الإسلام المرأة أن تغطي رأسها وصدرها وترخي ثوبها وهذا من غير شك أصون لها وأدل على حشمتها .

الشیطان يخدع كثيراً من الفتيات بأن التبرج والزينة وإظهار المفاتن أمور تتطلبها عادات التحضر والارتقاء ولا تعني التحلل الخلقي وعليها أن تظهر جمالها لأنه يريد منها أن تفسد الشباب في إهاجة غرائزهم فهل ترضين بذلك .

وقد قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿...وَلَا تَبْرَجْ تَبْرَجَ الْجَنَّةِ الْأُولَى...﴾ (٣٣) [الأحزاب].

فيجب عليك أختي المسلمة الالتزام بما أمر الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه، فعلى من اختار الدين أن يقبل أحكام هذا الدين حتى ولو كانت أحكامه تقيد حريته في الفعل ولا تفعل لأن الله سبحانه وتعالى يريد بنا الخير وأن يذهب عنا السوء .

ويجب أن يكون الزي زياً إسلامياً، قال رسول الله ﷺ: { سيكون آخر أمتي نساء كاسيات عاريات، على رؤوسهن كأسنمة البخت العنوهن فإنهن ملعونات } (١) .

وإذاً يكون الثوب رقيقاً يصف الجسم مجسداً لهيئته وألاً يكون مبختراً ولا تكون ممن تضع الرائحة فتجذب الرجال فإن استعمال المرأة العطر خارج بيتها حرام.

قال ﷺ: { أيها امرأة استعطرت فخرجت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية } (٢) .

١ - رواه البخارى ومسلم .

٢ - أخرجه النسائي والجامع الصحيح للسند والمسند - باب تبرج المرأة من الكبائر - الجزء ٥ - ص ٢٨٣ ، ورواه الترمذى - كتاب الأدب - رقم الحديث ٢٧٨٧ .

فعلى المرأة المسلمة الالتزام بحسن الخلق وإذا كانت المرأة مضطرة إلى الخروج فعليها أن تكون محتشمة ملتزمة بالزي الأخلاقي، والحق أن رغبة بعض النساء في الإغراء والاستهواء تملأ الدنيا بيدع في الملابس وصور للأزياء.

ليس فيها أثارة من تقوى ولا أمانة على دين، وكل هذه محاولات طائشة لإثارة الرجال كلما بدت محاولة أو قل فعلها ظهرت محاولة أشنع حتى انتهى الأمر بالعري على الشواطئ وذلك كله جر الدمار على الأسرة وجر العلاقات الجنسية إلى مستوى الحيوانات .

وقد يخصص للعجائز بالتخفيف من الملابس في غير تبرج لكن القرآن الكريم نصح باستكمال الثياب ووصف ذلك بأنه دليل على العفة .

قال تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [النور].

ثالثاً: منع الخلوة والاختلاط الفاجر:

فأما خلوة الرجل بامرأة أجنبية عنه فإن ذلك باب إلى ما لا يحمد عقباه ولن يجد الشيطان فرصة أسنح منها للإغراء بالمنكر .

قال ﷺ: { لا يخلون رجل بامرأة إلا معها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم }^(١). والإسلام يبعد الجنسيين عن الانحراف ويأمر بالغض والعفاف ويضع سداً بعد سداً أمام جريمة الزنا. قال رسول الله ﷺ: { لأن يطعنَ في رأس أحدكم بمخيطٍ من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له }^(٢).

١ - صحيح مسلم - كتاب الحج - باب سفر المرأة مع محرم إلى الحج وغيره - ص ٩٧٨ ، وصحيح البخارى - كتاب الحج رقم الحديث ١٧٦٣ - حديث صحيح .
٢ - رواه البيهقي - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب مصافحة المرأة الأجنبية - جزء ٩ - ص ٤٢١ ، وصحيح الجامع - رقم الحديث ٥٤٥ .

واحذر ما يشيع على الألسنة من قولهم هي بنت عمه وهو ابن خالها وهما تربيا في بيت واحد إلى آخر هذه المقولات الباطلة التي لا تغير من وجه الحرام شيئاً، فطالما أن هذه الفتاة تحل لك فلا يجوز لك الخلوة بها.

وفي الحديث النبوي: { لا يخلون رجل بامرأة، إلا كان الشيطان ثالثهما } ^(١).

لكن الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان فيغش الإنسان وإذا ما سئل أدى البراعة وحسن النية وأخذ من صلة الزمالة أو القرابة أو الجوار ذريعة للمخالطة والمعاشرة وهو لا يدري أنه واهم في هذا كله وأن خالقه سبحانه وتعالى أدرى به وأعلم بحاله .

ويرفض الإسلام كذلك أن يدخل أقارب الرجل على زوجته وهو غائب عن بيته وسيلهم في ذلك سبيل الأجانب .

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: { إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرايت الحمى؟ قال: الحمى الموت } ^(٢).

عقوبة الزنا:

ومن حماية الإسلام للأسرة أنه يعاقب على الزنا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فبالجلد تارة وبالقتل تارة أخرى، فهو يأمر بالرجم حتى الموت للزوجة أو الزوج إذا اقترف أحدهما هذه الفاحشة .
قال الله تعالى:

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور].

قال العلماء: هذا عذاب الزانية والزاني في الدنيا إذا كانا عزيين غير متزوجين، فإن كانا متزوجين أو تزوجا ولو مرة في العمر، فإنها يرجمان بالحجارة إلى أن يموتا .

١ - صحيح البخارى - باب ما جاء في لزوم الجماعة - ص ٤٥٠ ، سنن الترمذى - كتاب الفتن - رقم الحديث ٢١٦٥ ، ومسند أحمد - مسند العشرة المبشرين بالجنة - حديث صحيح .

٢ - أخرجه البخارى - باب ليخلون رجل بامرأة - ج: ٧ - ص: ٣٧ - ح م: ٥٢٣٢ .

كذلك ثبت في السنة عن النبي ﷺ، فإن لم يستوف القصاص منهما في الدنيا وماتا من غير توبة فإنهما يعذبان في النار بسياط من نار .

كما ورد أن الزبور مكتوب فيه أن الزناة معلقون بفروجهم في النار يضربون عليها بسياط من حديد فإذا استغاث من الضرب نادته الزبانية: أين كان هذا الصوت وأنت تضحك وتمرح ولا تراقب الله تعالى ولا تستحي منه ^(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر} ^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: {قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم، قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قال: قلت ثم ماذا؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قال: قلت ثم ماذا؟ قال: أن تزني بحليلة جارك - يعني زوجة جارك -} ^(٣).

فأنزل الله عز وجل تصديق ذلك. قال عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهَكَمًا ۖ﴾ ^(٦٨) ^(٦٩) {إِلَّا مَنْ تَابَ...} ^(٧٠) [الفرقان].

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: {إن الإيمان سربال يسربله الله من يشاء، فإن زنا العبد نزع منه سربال الإيمان، فإن تاب رد عليه} ^(٤).

وورد أيضاً أن من وضع يده على امرأة لا تحل له بشهوة جاء يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه، فإن قبلها قرضت شفتاه في النار فإن زنى بها نطقت فخذته وشهدت عليه يوم القيامة وقالت أنا للحرام ركبت، فينظر

^١ - الكبائر لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي - ج: ١ - ص ٥٠.

^٢ - أخرجه مسلم كتاب الإيمان - باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية - رقم الحديث ١٧٢ ، وصحيح مسلم بشرح النووي - المجلد الأول - ص ٣٥٧.

^٣ - أخرجه مسلم - كتاب الإيمان - باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها - رقم الحديث ١٤١ .

^٤ - رواه البيهقي في حديث أبي هريرة - والمنذرى عن أبي داود والترمذى - وضعيف الجامع الصغير - جزء ١ - ص ٢٠٥.

الله تعالى إليه بعين الغضب فيقع لحم وجهه فيكابر ويقول ما فعلت فيشهد عليه لسانه فيقول أنا بما لا يحل نطقت، وتقول يداه أنا للحرام تناولت وتقول عيناه أنا للحرام نظرت، وتقول رجلاه: أنا لما لا يحل مشيت، ويقول فرجه أنا فعلت ويقول الحافظ من الملائكة وأنا سمعت، ويقول الآخر وأنا كتبت، ويقول الله تعالى وأنا اطلعت وسترته، ثم يقول الله تعالى يا ملائكتي خذوه ومن عذابي أذيقوه فقد اشتد غضبي على من قل حياؤه مني.

وفي صحيح البخاري في حديث منام النبي ﷺ الذي رواه سمرة بن جندب وفيه أنه ﷺ جاءه جبريل وميكائيل قال: ^(١) { انطلقنا فأتينا على مثل التنور قال فأحسب أنه كان يقول فإذا فيه لغط وأصوات قال فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا ^(٢) قال قلت لهما: ما هؤلاء قالوا: انطلق انطلق - وفي آخر الحديث - وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني، فقلت منهؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الزناة والزواني يعني من الرجال والنساء فهذا عذابهم إلى يوم القيامة } ^(٣).

نصيحتي لأختي المؤمنة وأخي المؤمن:

فعليك أخي المؤمن، أختي المؤمنة أن تتقي الله فيما أمرك الله به وأن تجتنب ما نهى الله عنه، فالمؤمن الكامل قوي الإيمان كالجسم الصحيح لا تدخله جراثيم المرض وإن دخلت مات فعلى المؤمن أن لا يتبع خطوات الشيطان ولا النفس الأمارة بالسوء التي تلح عليه بالمعصية.

قال تعالى: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ [آل عمران].

فمن الناس من زين له حب الشهوات من النساء وخاصة في هذه الأيام - أيام النت والفيس بوك - وشاع الفساد وازداد حتى ملأ الآفاق حتى أصبح في كل بيت انتشار الفساد من الانحلال الأخلاقي

١- كتاب الكبائر دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع- الطبعة الثانية - المؤرخ الإسلامي الحافظ شمس الدين الذهبي - ص ٤٥ ، ٤٩ .

٢ - أي صاحوا من شدته .

٣ - صحيح البخاري - كتاب التعبير - باب تعبير الرؤية بعد صلاة الصبح ، وأخرجه أبو داود والنسائي من حديث الأعرج .

بمشاهدة العورات واستغلالها والبعد عن طاعة رب العباد، واتخذوا وقت الفراغ بمشاهدة العورات من كل جنس سواء أكان ذكراً أم أنثى وعند النصح والإرشاد نجد عدم السماع بل تبرير المواقف ويقولون سواء أكان ذكراً أو أنثى " حب استطلاع "، والرد الآخر أننا لا نشاهد الأفلام غير الأخلاقية بل نسأل عن الأصدقاء من خلال الفيس بوك والاتصال بالأهل والاطمئنان عليهم نتخذه في عمل الخير هذا ما يجللونه لأنفسهم، ويقولون أيضاً إننا لا نستطيع ترك هذه الأشياء ليس هذا بيدي ولكن لا أعرف ما السبب أريد أن أذهب إلى الطبيب النفسي أو إلى الشيخ حتى يعرف ما السبب لأنني لا أستطيع أن أتحكم في نفسي وجسدي لأنني أدمنت ذلك بكثرة المشاهدة والإثارة فلا أعرف أشعر بأن جسدي هو الذي يرغب في ذلك، وهذا سببه كله البعد عن طاعة رب العباد وعند النصح والإرشاد تجد عدم السماع وكأنه طمس على قلوبهم وعلى آذانهم تغلبت عليهم الشهوات حتى زاد الإهمال إهمالاً في كثير من الحقوق الزوجية والحقوق الأسرية .

وإذا كانت ربة البيت ورب البيت يشاهد ويستمتع فكيف ينصحان أولادهما فيا حسرة على العباد، الآن لا يستطيع أحد الاستغناء عن الموبيل، وبوجوده معه يشعر أنه حصل على كثير وينسى خالق الكون سهروا الليالي مع الموبيل والكمبيوتر وآي باد ولا ب توب بدلاً من إقامة الصلاة وقيام الليالي بالتهجد والدعاء ويا لطيف لطفك الطف بهذه الأمة بالرحمة والغفران والهداية إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه والبعد عن طريق الشيطان وإغوائه باتخاذ المنهج السليم من رب العالمين .

فيا أيها المسلم الموحد بالله خف على نفسك ولا تظلمها خف على أهلك خف على أقاربك لأنه من دق الباب على الناس دُق الباب عليه فراعي أيها المسلم الموحد وانتبه لرعيتك ولا تتبع الفساد والإهمال الذي سيطر على الجميع من إهمال في البيت وفي تربية الأولاد وفي مصاريف البيت، أصبح الرجل في هذا العصر لا يستحق أن يكون رجلاً لأنه ترك المسؤولية واتبع خطوات الشيطان، حافظ على نفسه لكي يستغلها في الأغراض الدنيئة القذرة أعاذنا الله من هذا وأصلح شباب الأمة ونساء الأمة وشيوخ الأمة لأن من الناس من يتخذ العمل الصالح ظاهراً وإذا لاحظت عليه أعمالاً قذرة قد فعلها أو فعلتها وتقدم له أو لها النصح يتعالون ويقولون لنا الظاهر والله يتولى السرائر ويتهادون في المعصية ويقولون سوف نستغفر الخالق، أو يقول إنني أعمل الكثير من صلاة وذكر وخوف الله إلا أنني ضعيف بالنسبة للنساء فالله سوف يغفر لي لأنني أعمل

الكثير من الطاعات وهذا ما يستحلونه لأنفسهم فيا أرحم الراحمين ارحمنا برحمتك الواسعة وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وصلّ اللهم وبارك على سيدنا محمد .

وإليك أخی المؤمن وأختی المؤمنة روضة العلاج:

أولاً: العلم وقبول النصيحة:

فالمؤمن عليه أن يسعى إلى العلم والتعلم ويجعلها هي الأساس في حياته لأنها تشغله عن شهوات الدنيا والحاجة إلى العلم أكثر من الحاجة إلى المال فالعلم شرف يثمر على صاحبه وعلينا بإرشاد العباد إلى ما ينفعهم في الدين والدنيا والنعم الكثيرة ومنها نعمة مكارم الأخلاق والمحافظة على العبادات التي تكون رادعة عن فعل المنكرات.

قال تعالى: ﴿...إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾ (٤٥) ﴿[العنكبوت].

وقال رسول الله ﷺ: { الدين النصيحة } (١) .

فعلينا بالنصح بما يعيد المؤمن إلى الصلاة والورع. وقال تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ (١١٠) ﴿[آل عمران].

[آل عمران].

ثانياً: الخوف من الله:

فالخوف من الله هو العامل الوحيد الذي يقف أمام عوامل الإغراء والهوى والرغبة الجنسية فالخوف من الله يورث أماناً فتهدون أمامه المخاوف وتذوب في ظله كل الملذات ويكون السلطان للعقل والروح والإيمان وليس للعاطفة والجسد والغرائز أولئك الذين يربط الله على قلوبهم ويصبرهم عواقب أمورهم ويعصمهم من ذلة الشيطان (٢) .

واعلم يا بن آدم أن شهوة الفرج هي أغلب الشهوات التي عند الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل إلا أن مقتضاها قبيح يستحي منه ويخشى من اقتحامه وامتناع أكثر الناس إما لعجز أو لخوف أو لحياء

١- أخرجه البخاري - ج: ١ - ص: ٢١ - ح م: ٥٧ .

٢ - من يظلمهم الله - ص ٤٤٢ .

أو لمحافظة على جسمه وليس في شيء من ذلك ثواب فإنه إثارة حظ من حظوظ النفس على حظ آخر فإن من ترك الزنا اندفع عنه إثمه بأي سبب كان تركه وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب لا سيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: { من عشق فعف فكمات فهو شهيد }^(١).

وقال ﷺ: { سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .. (وعد منهم) ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله }.

وروي أن سليمان بن يسار كان من أخشى الناس وأنه خرج من المدينة حاجاً ومعه رفيق له حتى نزل بالأبواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق إلى السوق وجلس سليمان بالخيمة، وكان من أجل الناس وجهاً وأروعه فبصرت به أعرابية من قمة الجبل وانحدرت إليه حتى وقفت بين يديه وعليها البرقع فأسفرت عن وجهها كأنه فلقة قمر وقالت أهبتني؟ فظن أنها تريد طعاماً فقام إلى فضل السفرة ليعطيها، فقالت: لست أريد هذا إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله فقال: جهزك إلى إبليس، ثم وضع رأسه بين كفيه فأخذ في النحيب فلم يزل يبكي فلما رأت ذلك سدلت البرقع على وجهها ورجعت إلى خيمتها، فجاء رفيقه وقد ابتاع لهم ما يرفقهم، فلما رآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه قال: ما يبكيك؟ قال: خير ذكرت صبيتي، قال: لا إن لك قصة، إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها، فلم يزل به رفيقه حتى أخبره بشأن الأعرابية، فوضع السفرة وجعل يبكي بكاء شديداً، فقال له سليمان: أنت ما يبكيك؟ قال: أنا أحق بالبكاء منك، قال: فلم قال: لأنني أخشى لو كنت مكانك لما صبرت عنها، قال: فما زال يبكيان، قال: فلما انتهى سليمان إلى مكة وطاف وسعى أتى الحجر، واحتبى بثوبه فنعس، فإذا رجل وسيم جميل طوال له شارة حسنة ورائحة طيبة، فقال له سليمان: من أنت رحمك الله؟ قال: أنا يوسف بن يعقوب، قال: يوسف الصديق؟ قال: نعم، قلت: إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لشأناً عجباً، فقال له يوسف: شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب^(٢).

١- أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس .

٢- حلية الأولياء - ج: ٢ - ص: ١٩٣ .

ثالثاً: مخالفة الهوى:

أما الهوى فهو عن الخير صاد وللعقل مضاد لأنه ينتج من الأخلاق فضائحتها ويظهر من الأفعال فضائحتها ويجعل ستر المروءة مهتوكاً ومدخل الشرور مسلوفاً، قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: الهوى إله يعبد من دون الله ثم تلا قوله تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...﴾ [الفرقان] (١) فالهوى رق في القلب وغل في العنق وقيد في الرجل فمن خالف هواه عُتِقَ من رقه وصار حراً وخلع الغل من عنقه والقيد من رجله فمخالفة الهوى مطردة للداء عن القلب والبدن، فأمراض القلوب كلها من متابعة الهوى ولو فُتِش على أمراض البدن لرأيت غالبها من إثارة الهوى على ما ينبغي تركه فاتباع الهوى من المهلكات.

قال ﷺ: { ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنا. وثلاث مهلكات: هوى مُتَّبَع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه } (٢).

قال ابن القيم رحمه الله:

{ إنك إذا تأملت السبعة الذين يظلمهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وجدتهم إنما نالوا ذلك إلا بمخالفة الهوى فإن الإمام المسلط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه، والشاب المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك، والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعي إلى أماكن اللذات والمتصدق المخفى صدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك، والذي دعت المرأة الجميلة فخاف الله عز وجل هو الذي خالف هواه، والذي ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه منه خشيته إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه فلم يقل لحر الموقف وعرقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحر والعرق كل مبلغ وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهاوية } (٣).

١ - أدب الدنيا والدين - ص ٣٤.

٢ - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان - ج: ٩ - ص: ٣٩٦ - ح م: ٦٨٦٥.

٣ - من يظلمهم الله - ص ٤٩٩.

رابعاً: حفظ نفسه من نفسه:

فعلى المؤمن أن يتقى الله عز وجل في عدم ظلمه لنفسه الذى هو أشد أنواع الظلم بل عليه أن يحفظها من النفس الأمارة بالسوء التى تأمره باتباع الشهوات وتدله على سوء الصراط باتباع خطوات الشيطان فيكون تحت قهر عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلاً إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد، فعليه أن يحفظ نفسه وينهاها عن كل قبيح.

إذا المرء أعطى نفسه كلما اشتتهت ولم ينهها تاقَت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذى دعتَه إليه من حلاوة عاجل^(١)
فعليه حفظ نفسه بالوعظ والإرشاد، قال الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنن كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانها عن غيرها فإن انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك تعذر إن وعظت ويقتهى بالقول منك ويقبل التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم^(٢)

فعلى ابن آدم أن يجلس مع نفسه ويتفكر فيما تطالبه به نفسه من ارتكاب المعاصى واتباع الشهوات إلى متى ترتكبن المعاصى، هل لك من وقفة، ألم يأن لك العودة فماذا يعود عليك بعد ارتكاب المعصية غير الذل والانكسار والعار فى الدنيا وفى الآخرة وغضب الجبار ودخول النار.

وكان الثورى رحمه الله كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

تُفنى اللذائة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الوزر والعار
تبقى عواقب سوء فى مغبتها لا خير فى لذة من بعدها النار^(٣)

^١ - المجالسة وجواهر العلم - ج: ٥ - ص: ٣٧٣ .

^٢ - أدب الدنيا والدين - ص ٣٩ .

^٣ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين - ج: ١ - ص: ٣٣٠ .

الفصل الثانى

البعد عن التبرج

الحمد لله رب العالمين أمرنا بطاعته ونهانا عن معصيته وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. له الملك يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون .. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرشدنا إلى ما فيه فلاحنا ونجاتنا وسعادتنا اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تحل بها العقد وتفرج بها الكرب وتزيل بها الضرر وترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين .. أما بعد.

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار ..

قال تعالى: ﴿...وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجِ الْجَنَهِلَةَ الْأُولَى...﴾ (٣٣) [الأحزاب].

معنى التبرج:

التبرج لغة:

هو إبداء المرأة زينتها وإظهار الجمال وإبراز محاسن الوجه والجسم ومفاتهنه أو كما قال البخارى رضى الله عنه [التبرج أن تخرج المرأة محاسنها] وأصل التبرج مأخوذ من البروج وهو القصور العالية الارتفاع فالمرأة المتبرجة تبرز محاسنها أو تحددها كما تعلن البروج عن نفسها بارتفاعها والتبرج بمعنى الظهور ويراد هنا إظهار المرأة شيئاً من بدنّها وزينتها وسُميت الكواكب بروج السماء أى زينتها^(١).

التبرج فى اصطلاح الشرع:

هو تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه وهو التبر والتكسر فى المشية وقيل هو: كل زينة أو تحمل تقصد المرأة بإظهاره أن تحلو به فى أعين الأجانب^(٢).

١ - لسان العرب - جزء ٣ - ص ٣٣ - المعجم الوسيط - ص ٤٦ .

٢ - عودة الحجاب - ج: ٣ - ص: ١٣٣ .

عناية الإسلام بملابس المرأة:

لقد سبب الجهل والتقليد الأعمى الانحراف عن الطريق المستقيم وجاء الاستعمار فنفتح فيه وأوصله إلى غايته ومداه من بث الأفكار الفاسدة من وسائل الإعلام والوسائل الحديثة من النت والفيديو فأصبح من المعتاد أن يجد المسلم المرأة المسلمة متبذلة عارية عارضة مفاتنها خارجة في زينتها كاشفة صدرها ونحرها وظهرها وذراعها وساقها ولا تجد أى غضاضة بل تجد من الضروري وضع الأصباغ والمساحيق والتطيب بالطيب واختيار الملابس المغرية وتجد المرأة من مفاخرها ومن مظاهر رقيها أن ترتاد أماكن الفجور والفسق والمسارح والسينما والقهاوى وتبلغ منتهى هبوطها في المصايف وعلى البيلاج وهى عارية ولا تجد غضاضة في ذلك.

لهذا عنى الإسلام عناية خاصة بملابس المرأة وتناول القرآن ملابس المرأة مفصلاً لحدودها. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٨﴾ [الأحزاب].

وتوجيه الخطاب إلى نساء النبي وبناته ونساء المؤمنين دليل على أن جميع النساء مطالبات بتنفيذ هذا الأمر دون استثناء واحدة منهن مهما بلغت من الطهر ولو كانت طاهرة بنات النبي ﷺ وطهارة نسائه. ويولى القرآن الكريم هذا الأمر عناية بالغة ويفصل ذلك تفصيلاً.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَصْوَهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُدْنِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَىٰ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَىٰ الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يُضْرَبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٦١﴾ [النور].

حتى المرأة العجوز التى لا رغبة لها ولا رغبة فيها .

قال تعالى:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ

بِزِينَتِهِنَّ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٦٠﴾ [النور].

وفي عهد النبوة كان رسول الله ﷺ يرى بعض مظاهر التبرج فيلفت نظر النساء إلى أن هذا فسق عن أمر الله ويردهن إلى الحياة المستقيمة ويحمل الأولياء والأزواج هذا الانحراف وينذرهم بعذاب الله .
 روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد دخلت امرأة من مزينة ترفل^(١) فقال النبي ﷺ: { يا أيها الناس انموا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر في المسجد فإن بنى إسرائيل لم يلعنوا حتى لبسوا نساءهم الزينة وتبختروا في المسجد }^(٢).

وكان ابن عمر رضي الله عنه يخشى من هذه الفتنة فكان يطلب لها قبل وقوعها قاعدة الوقاية خير من العلاج، فقد روى أنه كان يتفقد أحوال الرعية ليلة فسمع امرأة تقول هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل من سبيل إلى نصر بن حجاج، فقال أما في عهد عمر فلا فلما أصبح استدعى نصر بن حجاج فوجده من أجهل الناس وجهاً فأمره بحلق شعره فازداد جمالاً فنفاه إلى الشام^(٣).

تكريم الله عز وجل للإنسان:

إن أهم ما يتميز به الإنسان عن الحيوان اتخاذ الملابس وأدوات الزينة، فالله عز وجل من على الإنسان بنعم كثيرة لا تحصى ولا تعد ومنها نعمة العقل التي يدرك بها الإنسان حقائق الأمور ويميز بين الخير والشر وبين النافع والضار وأكرمه بنعمة اتخاذ الملابس وأدوات الزينة التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان، فالملابس والزينة هما مظهران من مظاهر المدنية والحضارة والتجرد عنهما إنما هو ردة إلى الحيوانية وعودة إلى البدائية.
 قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ قَدَّ اَنْزَلْنٰ عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْوِيْ سَوْءَ تَكْوُرٍ وَّرِيْشًا وَّلِبَاسٌ اَلْتَّقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِنْ ءَايٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف].

فاتخاذ الملابس لازم من لوازم الإنسان الراقى فإنه بالنسبة للمرأة ألزم لأنه هو الحفاظ الذي يحفظ عليها دينها وشرفها وكرامتها وعفتها وحياءها، وهذه الصفات ألصق بالمرأة وأولى بها من الرجل ومن ثم كانت الحشمة أولى بها وأحق، فإن أعز ما تملكه المرأة الشرف والحياء والعفاف والمحافظة على هذه الفضائل محافظة

^١ - ترفل: رفل الشخص في ثيابه أي جرثوبه متبخترا في مشيه .

^٢ - المسند الموضوعي الجامع للكتب - الجزء التاسع - رقم الحديث ٤١٠٠ - ص ٢٦٢

^٣ - فقه السنة - ص ٢٥٧ ، ٢٥٩ .

على إنسانية المرأة في أسمى صورها وليس من صالح المرأة ولا من صالح المجتمع أن تتخلى المرأة عن الصيانة والاحتشام لأن ذلك سيكون سبباً في انتشار الفساد وسيكثر الانحراف وإن كثرت الانحرافات فسيكثر الفسق وينتشر الزنا وينهدم كيان الأسرة وتهمل الواجبات الدينية وتهمل العناية بالأطفال وتشتد أزمة الزواج لعدم وجود الثقة والاطمئنان ويصبح الحرام أيسر حصولاً من الحلال.

ففاحشة الزنا من أعظم الفواحش وأشدّها خطراً وضرراً وعاقبة على ضروريات الدين ولهذا صار تحريم الزنا معلوماً من الدين بالضرورة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

ولهذا حُرمت الأسباب الموصلة إليه من التبرج ووسائله وتشبه المرأة بالرجل. ولقد حذر الله المؤمنين والمؤمنات من الاقتراب مما يثير شهواتهم وشهواتهن فلم يشدد التحذير من الزنا فحسب بل مما يدعو إلى الزنا.

فقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال ﷺ: {العينان تزنيان وزناهما البصر} ^(١).

وقال ﷺ: {ثلاث أعين لا تمسهما النار عين غضت عن محارم الله وعين حرصت في سبيل الله وعين بكت من خشية الله} ^(٢).

دليل النهي عن التبرج: ^(٣)

وقد دلّ الكتاب والسنة والإجماع على تحريم تبرج المرأة وهو إظهار شيء من بدنّها أو زيتها المكتسبة التي حرم الله عليها إظهارها أمام الرجال الأجانب عنها.

^١ - أخرجه أحمد في مسنده - عن أبي هريرة - الجزء الرابع عشر - ص ٣١١ - رقم الحديث ٨٥٢٦ - إسناده صحيح على شرط مسلم.

^٢ - شرح السنة للبعثي - باب البكاء من خشية الله - الجزء الثالث عشر - ص ٢٦٥ - رقم الحديث ٤١٦٩.

^٣ - كتاب الكبائر - الطبعة الثانية - لشيخ الإسلام الذهبي - ص ١٢٠.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ { صنفان من أهل النار لن أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت "أى الهودج الذى علا الجمل الذى يتمايل يمينا ويساراً" لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها يوجد من مسيرة كذا وكذا }^(١).

وهذا نص فيه وعيد شديد يدل على أن التبرج من الكبائر لأن الكبيرة كل ذنب توعد الله عليه بنار الغضب أو لعنة أو عذاب أو حرمان من الجنة. فزينة المرأة وظهور جمالها بين الرجال شرارة تضر وتوهج ما كمن وخمد فى نفوسهم من شهوة حيوانية كما أن رؤية الطعام وشم رائحته يوقظان الشهية فالعين هى مدخل الشهوة والنفس لا تشتهى إلا ما تقدم العين بها ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى الرجال بغض أبصارهم قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ...﴾ [النور].

صور التبرج:

١- التبرج بخلع الحجاب وإظهار المرأة شيئاً من زينتها المكتسبة مثل ملابسها التى تصف جسدها، قال

تعالى: ﴿...وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ...﴾ [النور].

٢- بتنى المرأة فى مشيتها وتبخرها أمام الرجال قال تعالى:

﴿...وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ...﴾ [النور].

٣- التبرج يكون بالحضور بالقول والملاينة بالكلام قال تعالى:

﴿...فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ...﴾ [الأحزاب].

قال بشار:

يا قوم أذنى لبعض الحى عا شقة والأذن تع شقق بل ال عىن أحيا ناً

٤- التبرج بالاختلاط بالرجال والخلوة بهم، عن ابن عباس رضى الله عنها قال: سمعت النبى ﷺ يخطب

يقول: { لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو المحرم }^(٢).

^١ - أخرجه مسلم - باب النساء الكاسيات - الجزء الثانى - ص ١٦١٠ - رقم الحديث ٢١٢٨ .

^٢ - أخرجه البخارى - باب لا يخلون رجل بامرأة - الجزء السابع - ص ٢٧ - رقم الحديث ٥٢٣٣ .

٥- بخروج المرأة متطيبة متعطرة فمن المعلوم أن من دواعي فتنة الرجال بالمرأة ما يشم منها من الطيب.
عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال ﷺ: {أيها امرأة استعطرت ثم خرجت فمرت على قوم
ليجدوا ريحها فهي زانية} ^(١).

٦- التبرج في محارمه وذلك بالتساهل في لباس بناته.
عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالأمر
راع مسئول عن رعيته والرجل راع في بيته ومسئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن
رعيته والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته} ^(٢).

وصيتي للأخت المسلمة بعدم التبرج:

أولاً: عليك أختي المسلمة بعدم شراء عرض الحياة الدنيا الزائل وبيع الآخرة الباقية.

فيا لهذه المتبرجة من ضالة تبيع الجنة بثمن وتشتري الجحيم بثمن غال.

قال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ^(٨٦) [البقرة].

ثانياً: عليك أختي المسلمة بعدم تضييع الأموال والوقت فيما لا يفيد.

والمواظبة على التبرج والتجمل تتطلب مالاً كثيراً وصبراً ووقتاً طويلاً أكثر مما تتطلب عبادة الله سبحانه
وتعالى ولكن قاتل الله الهوى والغفلة فلقد تمكن منها الشيطان الذى حجب إليها العصيان وكره إليها الطاعة
والإيمان وكم ضيعت الصلاة من أجل قليل من الأصباغ على وجهها وتنسيق شعرها فلا تتوضأ لتحافظ
على الزينة ولا تحاظ على الصلاة بل إن صلاتها على كل حال هابطة لأنها لم تنهها عن هذا المنكر.

قال تعالى فى كتابه الكريم: ﴿..... إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهٰى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ

أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ^(٤٥) [سورة العنكبوت].

^١ - المسند الموضوعى الجامع بالكتب - باب كل شيء بقدر - الجزء الثالث - ص ١٥٤ - رقم الحديث ٦٨١ -.

^٢ - أخرجه البخارى - باب الجمعة فى القرى والمدن - الجزء الثانى - ص ٥ - رقم الحديث ٨٩٣ .

وقال ﷺ: { من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له } ^(١).

وهي تضع كذا صومها لأن الرسول ﷺ يقول: { من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يضع طعامه وشرابه } ^(٢).

ثالثاً: عليكِ أختي المؤمنة بعدم طاعة من يطلبون منك التبرج حتى ولو كان أباك أو زوجك .

وقد يظن الآباء والأمهات أن تبرج بناتهن واستعراض جملهن يعجل بزواجهن فيعرضون لذلك بناتهن كما يعرض التاجر سلعته للبيع والسيدة التي تزعم أنها تتبرج إرضاء لزوجها وتخرج متزينتة طاعة لأمره أتظنين أن هذا العذر ينفع عند الله بعدما أبطل عذرنا لقول رسول الله ﷺ:

{ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولا طاعة إلا في معروف } ^(٣).

وقال تعالى: ﴿...وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ^(٧١) [الأحزاب].

وقال تعالى:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(٦٠) [النور].

فيا أختي المسلمة استجيبى لأمر الله تعالى وأمر رسوله. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ ^(٢٤) [الأنفال].

رابعاً: النية في العمل:

انوى أختي المسلمة بعمل الالتزام بالزى الشرعى أن يكون حباً لله وطاعة لله وإيماناً به وبتكليفه وأن يكون عملك كله لله وليس لأسباب تتغير وكل من تلبس الحجاب بهذه النية فإن حبها لله يزداد يوماً بعد يوم فلا يبقى عمل إلا إذا بقى سببه ونحن نريد الحب لله فيجب أن نعمل العمل بقصد وجه الله لأن كل شيء

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب ترك صلاة الجماعة بغير عذر- الجزء الخامس - ص ٣٠١.

^٢ - أخرجه البخارى - باب قول الله تعالى { واجتنبوا } - الجزء الثامن - ص ١٧ - رقم الحديث ٦٠٥٧.

^٣ - الجامع الصحيح في السنن والمسانيد - باب حق الإمام على الرعية - الجزء السادس والعشرون - ص ٤٣٢.

هالك إلا وجهه ذو الجلال والإكرام لأنك عندما تحبه لله فالله باقٍ وبهذا ضمنت أن الحب سيبقى وما عند الله لا ينفد فأنا أعمل لله سبحانه وتعالى سواء رضى الناس أم سخطوا لأن رضا الناس ليس حسبان العابد فهل يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله فإذا عمل الإنسان عملاً صالحاً ثم زهد فيه أقول له كنت تعمله لغير الله فالذى يقصد بقاء عمل الخير على الأرض أن يقصد به وجه الله لأنك لو كنت تعمل العمل لله لخرسه الله تعالى.

خامساً: خدعة الشيطان:

إياكِ أختي المسلمة أن تنخدعى وراء خدع شياطين الإنس والجن من أن التبرج وإظهار الزينة والمفاتن أمور تتطلبها أمور عادات التحضر والارتقاء ولا تعنى التحلل الخلقي، بل ويوسوس لها أن عليها أن تظهر جمالها بزيتها لأنه يريد منها أن تفسد الشباب في إهاجة غرائزهم فهل ترضين بذلك فاحذرى أيتها المسلمة بالآ تنخدعى بمن يشجعك على التبرج ولنفرض أن المرأة خارجة للعمل أو للتعليم فما علاقة التعليم والعمل بإظهار الزينة والملابس الكاشفة للجسم والواصفة له ولا تنخدعى وراء نفسك الأمانة بالسوء أو الناس السوء بكلامهم المعسول بأن الزى غير مهم والمهم هو الجوهر فأى جوهر تملكه تلك المتبرجة وهى تثير شهوات العباد وأى جوهر وهى لا تحب أمر الله كما تحب هواها لو امتلأ قلب المتبرجة بحب الله تعالى لسارعت إلى تنفيذ أمره وأى جوهر هذا ولكن هذه حيلة إبليس ومكيدة الشيطان .

سادساً: احذرى أختي المسلمة من أن ترددى هذه المقالة بأنك لازلت صغيرة وفي ريعان شبابك ولم يحن بعد وقت الحجاب.

سئل زين العابدين رحمه الله: ما بالك لا تلهو مع اللاهين وتلعب مع اللاعبين ؟ قال: إني رأيت أُمى إذا أوقدت الكانون بدأت بصغار الحطب قبل كبارهِ وإنى أخشى أن يبدأ الله بعذاب الصغار في النار قبل الكبار . فإن دقات قلبى قائلة لى إن الحياة دقائق وثوانى فعلى أن أجتهد في الطاعة الآن قبل الندم والخسران.

سابعاً: واحذرى أختي المسلمة أن تؤخرى عمل الخير وطاعة الله عز وجل أمام التفكير في الزواج لأن هذا له وقت معلوم لا تعرفى متى يكون ربما يكون موعد وفاتك قبل زواجك أو تقولى لنفسك بعد الزواج

الالتزام بالحجاب فلعل الحجاب يؤخر الخطاب قولى لهم ومن كانت معصية الله جالبة للسعادة وهل يفكر فى التقدم إلى وأنا متبرجة إلا من لا يبالى بالدين لأن صاحب الدين لا يرغب أن يتزوج المتبرجة أو تقولى هذه رجعية فأين التحضر والمدنية.

ما معنى الرجعية؟

إنها فى الحقيقة التمسك بالقديم الذى اتضح مخالفته للحديث وإذا رجعنا للوراء لرأينا التبرج هو الذى ساد عهد الفراعنة وحتى أيام مشركى العرب ولهذا نها الله عن ذلك.

وقال الله تعالى: ﴿...وَلَا تَبْرَجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى...﴾ [الأحزاب].

ثامناً: إياك أن تقولى يا أختى المسلمة إن هذا الالتزام بالحجاب يقيد حريتك لأن الإنسان الذى يعيش فى مجتمع ما يُسمى بالحرية المطلقة لابد أن تكون حريته حرية نسبية فلا تتعدى على حريات الآخرين وبعيداً عن مخالفة الدين وتعاليمه هل يستطيع الواحد منا أن يفعل ما يريد إذا أراد أن يمشى فى الطريق العام بدون ملابس على الإطلاق فهل يمكنك ذلك بدعوى أنك حرة تفعلين ما تشائين إذا أردتى أن تستمعى إلى موسيقى عالية بعد منتصف الليل لكى تتمتعى بالحرية المطلقة عليكى أن تذهبي إلى مكان لا يعيش فيه أحد فيجب على من اختار الدين أن يقبل أحكام هذا الدين حتى لو كانت هذه الأحكام تقييداً لحريته فى الفعل ولا تفعل فلا تكونى من الذين يقلدون الغير تقليداً أعمى لأن الله عز وجل يريد بعباده الخير.

الحجاب:

واسمعى أيتها المسلمة أوامر الله إن كنتِ حقاً من المؤمنات .

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الذَّيْفِ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً إِنَّهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [النور].

معنى الخمار:

الخمار مفرد خمر ومعناه الستر والتغطية وهى ما تغطى به المرأة رأسها ووجهها وعنقها وجيبها .
والخمار كل ما ستر وهو ثوب تغطى بها رأسها وهو تغطية الرأس والعنق والصدر بكل ما فيه من زينة
وحلى وهذا كلام رب العالمين وهذا تكليف من الله سبحانه وتعالى فامتثل يا أختي المسلمة لأمر الله تعالى
ونجد أن الغالبية من الناس يستسهلون أن يقولوا إنه كلفنى بشيء لكن الظروف تحكم نظراً لكذا وكذا فنقول
له لا هذا تعديل على خالقه الذى آمنت به فيكون رداً للحكم على الله حيث يؤمن الإنسان بالله سبحانه
وتعالى وبتكليفه وحكمه لكنه غير قادر على حمل نفسه على تنفيذ ما اقتنع به يكون فى هذه الحالة مؤمناً عاصياً
والمؤمن العاصى أحسن حالاً من الكافر الذى يرد الحكم على الله وهذا الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس
فإبليس رد الحكم على الله وآدم عليه السلام قال ظلمت نفسى إذا الإيثار بالله هو حيثية كل حكم فأنت تفعل
ذلك لماذا؟ لا تقل لأن حكمته كذا وكذا ولكن قل لأن الله الذى آمنت به أمرنى بهذه الأفعال سواء فهمت
الحكمة منها أو لم تفهمها وإن المرأة كلها عورة فى حق الأجنبى عنها بدليل أمره ﷺ بستر القدمين فالوجه
مثلاً أعظم فتنة من القدمين..

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ [المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان
وأقرب ما تكون فى رحمة ربها وهى فى قعر بيتها]^(١).

فيجب شرعاً على جميع نساء المؤمنين الالتزام بالحجاب الشرعى الساتر لجميع الزينة المكتسبة من ثياب
وحلى وغيرها عن كل رجل أجنبى عنها وعلى نساء المؤمنين الاستجابة إلى الالتزام بما افترضه الله عليها من
الحجاب والستر والعفة والحياة طاعة لله..

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب].

^١ - أخرجه الترمذى - رقم الحديث ١٧٢ - حديث حسن صحيح.

فضائل الالتزام بالحجاب الشرعى:

١ - طهارة القلوب: الحجاب داعية إلى طهارة قلوب المؤمنين والمؤمنات وعمارتها بالتقوى وصدق الله

العظيم: ﴿...ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ...﴾ (٥٣) [الأحزاب].

٢ - مكارم الأخلاق: الحجاب داعية إلى توفير مكارم الأخلاق من العفة والاحتشام والغيرة علامة على

العففيات لذلك رغب الإسلام فى التعفف وعظم شأنه، قال تعالى:

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ﴾ (٤٨) [الصفات].

وقاصرات الطرف يعنى العففيات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

٣ - الحجاب وقاية اجتماعية من الأذى وأمراض قلوب الرجال والنساء فيقطع الأطماع الفاجرة حفظ

الحياء وهو خلق يودعه الله فى النفوس التى أراد تكريمها فيبعث على الفضائل^(١). يروى عن زيد

بن طلحة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: {إن لكل دين خلقاً وخلق الإسلام الحياء} (٢).

٤ - الحجاب طاعة لله عز وجل وطاعة لرسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب].

صفات الزنى الشرعى:

١ - ألا يكون الثوب والخمار زينة قال تعالى: ﴿...وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ...﴾ (٣١) [النور].

٢ - أن يكون صفيقاً لا رقيقاً يشف عما تحته فيجب أن يكون كثيفاً لا شفافاً وألا يكون له خاصية الالتصاق

وأن يكون واسعاً ولا يبدى تفاصيل الجسم .. قال صلوات الله وسلامه عليه: {سيكون فى آخر

أمتى نساء كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت^(٣) العنوهن فإنهن ملعونات} (٤).

١ - كتاب أدلة الحجاب - ص ٩٨ .

٢ - الجامع الصحيح وزياداته - ج: ١ - ح م: ٣٩١٢ وفى صحيح الجامع ح م: ٢١٤٩

٣ - أسنمة البخت: أى اليهودج الذى على الجمل .

٤ - أخرجه مسلم - باب النساء الكاسيات - الجزء الثالث - ص ١٦٨٠ - رقم الحديث ٢١٢٨ .

٣- ألا يكون ثوبها مشبهاً لثوب الرجل لقوله ﷺ: { ليس منا من تشبه بالرجال من النساء ولا من تشبه

بالنساء من الرجال } ^(١). ويقول ﷺ: { لعن الله المتشبهات بالرجال من النساء ولعن الله المتشبهين

بالنساء من الرجال } ^(٢) لأن كلاً منهما خرج عن الفطرة.

٤- ألا يكون معطراً مبخراً قال ﷺ: { أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا من ريحها فهي

زانية } ^(٣) وإن استعمال المرأة للعطر خارج بيتها حرام.

فعليك أختي المسلمة الامتثال لأمر الله والالتزام بالزى الشرعى وترك النمص والتنمص ولا يجوز

للمرأة تخفيف الحواجب لقوله ﷺ: { لعن النامصة والمتنمصة } ^(٤). والنامصة هي التى تخفف حواجب

النساء، والمتنمصة هي التى تطلب النامصة لتصنع لها ذلك.

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { لعن الله الواشيات والمستوشيات

والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله } ^(٥).

فبلغ ذلك امرأة بنى أسد يقال لها أم يعقوب فجاءت فقالت قد بلغنى أنك لعنت كيت وكيت فقال

عبد الله ومالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ومن هو فى كتاب الله فقالت أم يعقوب لقد قرأت ما بين

اللوحين فما وجدت فيه ما تقول فقال لأن كنت قرأتيه لقد وجدته أما قرأتى قوله تعالى: ﴿..... وَمَا آتَاكُمْ

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الحشر].

١- أخرجه أحمد فى مسنده - الجزء السابع - ص ٥٠٧ - رقم الحديث ٦٨٧٥ .

٢- المسند الموضوعى الجامع للكتب - باب تشبه الرجال بالنساء - الجزء الرابع ص ١١٨ - رقم الحديث ١٩٠٤ .

٣- الجامع الصحيح للسنن والمسائيد - باب تبرج المرأة من الكبائر - ورواه أحمد فى مسنده - رقم الحديث ١٩٥٩٩ -
- إسناده صحيح .

٤- أخرجه مسلم - باب تحريم فعل الواصلة - الجزء الثالث - ص ١٦٧٨ - رقم الحديث ٢١٢٥ .

٥- المرجع السابق نفسه .

الفصل الثالث

الحياء

الحمد لله رب العالمين الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك قريب مجيب أنيس حبيب يروى العطشان بذكره ويغيث الملهوف بدعائه ويشبع الجائع بأنسه وخلوته ويشفى المريض بقرآنه .. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى أصحابه ومن سار على منهاجه وستته إلى يوم الدين.

أما بعد،،

قال تعالى: ﴿ فَذَلَّهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفَقَا يَحْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ... ﴾ [الأعراف].

قال رسول الله ﷺ: { الحياء شعبة من الإيمان } ^(١).

معنى الحياء:

الحياء لغة التوبة والحشمة وقد حيي منه حياءً، واستحيا واستحي ^(٢).

والحياء اصطلاحاً: قال العلماء: حقيقة الحياء، خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير فى حق ذى الحق ^(٣).

والحياء من أبرز الصفات التى تنأى بالمرء عن الرذائل وتحجزه عن السقوط إلى سفاسف الأخلاق وحماة الذنوب فهو علامة صادقة على طبيعة الإنسان فهو يكشف عن قيمة إيمانه ومقدار أدبه، وعندما ترى الرجل يتحرج من فعل ما لا ينبغى أو ترى حمرة الخجل تسبق وجهه إذا بدر منه ما لا يليق فاعلم أنه حيي الضمير نقى المعدن ذكى العنصر، وإذا رأيت الشخص سفيهاً بليد الشعور لا يبالي ما يأخذ أو يطلب فهو امرؤ لا خير فيه وليس له من الحياء وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنيايا.

^١ - أخرجه البخارى - باب أمور الإيمان - ج ١ - ص ١١ - ح م : ٩ .

^٢ - لسان العرب - المجلد الثانى .

^٣ - رياض الصالحين - ص ٣٠٧ .

عقوبات المعصية وذهاب الحياء:

ومن عقوبات المعصية ذهاب الحياء الذى هو مادة الحياة للقلب وهو أصل كل خير وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه، كما جاء فى الحديث الصحيح: {الحياء خير كله} ^(١).

والمقصود أن الذنوب تذهب الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية، فإن الذنوب تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضاً معلولاً لا ينتفع بالأغذية التى بها حياته وصلاحه فإن تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى الأبدان بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ولا دواء لها إلا بتركها.

قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تमित القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك نسيانها
فالمعصية تضعف فى القلب تعظيم الرب جل جلاله وتضعف وقاره فى قلب العبد ولو تمكن وقار
الله وعظمته فى قلب العبد لما تجرأ على معاصيه ومن استحى من الله عند معصيته يستحى الله من عقوبته
يوم يلقاه ومن لم يستح من الله تعالى من معصيته لم يستح الله من عقوبته.
وإذا كان الحياء من الإيمان كما قال صلوات الله وسلامه عليه: {الحياء شعبة من الإيمان} فإن المعاصى
سبب فى ذهاب الحياء.

فالمحافظة على الإيمان واجتناب المعاصى أصل حفظ الحياء.

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا
لم تستح فاصنع ما شئت} ^(٢).

^١ - رواه البخارى - كتاب الأدب - حم: ٦١١٧.

^٢ - مسند الإمام أحمد - باب بقية حديث أبي مسعود - ج ٢٨ - ص ٣٢٥ - حم: ١٧٩٨. إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وليس هذا القول إغراء بفعل المعاصي عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معانى الكلام وموضوعات الخطاب وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالى ولم تستح فاصنع ما تشاء
فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقى للحاء^(١)
لا ريب أن الرجل إذا مزق الحجاب عن وجهه ولم يتهيب على عمل حسابا ولم يستح فى سلوكه لومة
لائم مد يد الأذى للناس وطغى على كل من يقع فى سلطانه وإذا ضاع الحياء فلا حياة.
وكذلك المرأة إذا رفعت الحجاب عن وجهها ولم تغض بصرها وتستر نفسها كانت سببا فى نشر الفساد
وذهاب الحياء وغضب الجبار فالوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون فى الوعاء فإذا سقطت صفة الحياء
عن الوجه كما تسقط القشرة الخضراء عن العود الغض فقد أذنت الحياة الفاضلة بالضمور وتهاى الحطام
الباقى أن يكون حطبا للنار.

والعبد إذا سقط منه الحياء فقد عرض نفسه لانتقام الله جل ذكره وظهرت عليه آثار المقت والغضب
الإلهى وأصبح مبغضا من عباد الله فاجتمع عليه الغضب ان القاتلان غضب الله وغضب خلقه.
وقد روى عن رسول الله ﷺ أن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء فإذا نزع منه الحياء
لم تلقه إلا مميتا ممقتا^(٢).

فإن الرجل إذا ما مزق الحجاب عن وجهه ولم يستح فى سلوكه لومة لائم مد يد الأذى للناس فمثل
هذا الشخص الشرس لن يجد قلباً يعطف عليه بل إنه يغرس الضغائن فى القلوب وينميها وأى حب لا مرئ
تجراً على الله وعلى الناس لا يردده عن الآثام حياء فإذا صار الشخص بهذه المثابة لا يؤتمن على شيء قط إذ
كيف يؤتمن على أموال لا ينجل من أكلها أو على أعراض لا يستحى من فضحها أو على موعد لا يهمنه أن
يخلفه أو على واجب لا يبالى أن يفرط فيه أو على بضاعة لا يتنزّه عن الغش فيها. فإذا فقد الشخص حياء

^١ - أدب الدنيا والدين - ص ٣٠٤ .

^٢ - ممقتا : مبغضا .

وفقد أمانته أصبح وحشا كاسرا ينطلق معربدا وراء شهواته فعلى هذا الشخص أن يرجع إلى الإيمان لأن الإيمان يزكى النفوس ويطهرها فالإيمان صلة كريمة بين العباد وربهم ومن حق هذه الصلة بل أثرها الأول تزكية النفوس وتقويم الأخلاق وتهذيب الأعمال ولن يتم ذلك إلا إذا تأست في النفوس عاطفة حية تترفع بها عن الخطايا.

قال ﷺ: { الحياء والإيمان قرناء جميعا إذا رفع أحدهما رفع الآخر } ^(١).

أنواع الحياء:

الحياء نوعان:

أولاً: غريزي (فطري):

والحياء فطرة فطر الله الخلق عليها فأبونا آدم وأمنا حواء عليهما السلام لما انكشفت عوراتهما في الجنة تعجلا تغطيتها بورق الجنة.

قال تعالى:

﴿... فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ... ﴾ ^(٢٢) [الأعراف].

وإبليس لعنه الله منذ خلق الإنسان يعمل على تغيير هذه الفطرة لثلاث تسير على منهج الله تعالى.

قال تعالى:

﴿... وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ ^(١١٨) وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيَّتْهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَبْتَ كُنْ
ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْئِيَّتْهُمْ فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ... ﴾ ^(١١٩) [النساء].

وقد نجح الشيطان نجاحا بالغا فدعا جماعة كبيرة من الرجال وكذلك النساء إلى خلع جلابيب الحياء فخرجن من بيوتهن سافرات متبرجات وأهل الفساد يحضون المرأة على أن تبدي من عوراتها وتغري الرجل أشد مما أغرت ويسرون لها خرق نظام الفطرة فيسمون ضلالهم حرية وتقدما ورقيا ومدنية مع أنه فساد وهلاك على المجتمع.

^١ - الجامع الصحيح للسنن والأسانيد - باب الحياء من الإيمان - ج ٤ - ص ١٤٨ - والصحيح الجامع حم: ١٦٠٣

ثانياً: الحياء المكتسب:

هو الذى جعله الشارع من الإيمان. قال ﷺ: { الحياء شعبة من الإيمان }. وهو المكلف. وقد ينطبع الشخص بمكتسب حتى يصير كالغريزى لأن خلق الحياء من أعظم الأخلاق التى ينبغى أن يتحلى بها كل مسلم، فهو طليعة الخصائص الأخلاقية لهذه الملة الحنيفية لأنه مهتم بمكارم الأخلاق.

قال ﷺ: { إن لكل دين خلقاً، وخلق الإسلام الحياء }^(١). فعلى المؤمن أن يجاهد نفسه حتى يكتسب هذا الخلق المحمود الذى يبعث على ترك القبيح من الأقوال والأفعال ويمنع من التقصير فى حق ذى الحق. قالت عائشة رضى الله عنها: { مكارم الأخلاق عشرة صدق الحديث وصدق اللسان وأداء الأمانة وصلة الرحم والمكافأة بالصنيع وبذل المعروف وحفظ الذمام للجار وحفظ الذمام للمصاحب وقرى الضيف ورأسهن الحياء }^(٢).

يقال القناعة دليل الأمانة والأمانة دليل الشكر والشكر دليل الزيادة والزيادة دليل بقاء النعمة والحياء دليل الخير كله^(٣).

الله تعالى حيي:

والله جلّت أسماؤه منعوت بالحياء كما يليق بعظمته.

عن على بن أمية رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: { إن الله حيي ستير يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر }^(٤).

عن سلمان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: { إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين }^(٥).

١- سنن ابن ماجه - باب الحياء - ج ٢ - ص ١٣٩٩ - ح ٤١٨١.

٢- رأسهن: أساسهن.

٣- المستطرف فى كل فن مستظرف - ص ١٨١.

٤- المسند الموضوعى الجامع للكتب العشرة - باب للرب عز وجل ستر - ج ١ - ص ١٣٩ - ح ١٣٩٧٠ إسناده حسن.

٥- المسند الموضوعى الجامع للكتب العشرة - باب آداب الدعاء - ج ١٤ - ص ٤٧٤ - ح ٣٥٥٦ قال الألبانى صحيح.

الحياء من أبرز أخلاق الرسل عليهم السلام:

والحياء خلق ملازم للأنبياء عليهم السلام وإذا كان الحياء خلقا إسلاميا عاما يطلبه الإسلام في أتباعه فإن تحلى القدوة به أوجب ولذا وردت الأحاديث النبوية الكثيرة تصف حياء رسول القدوة وتدفع المسلمين إلى التزامه.

عن أبي سعيد الخدرى قال: كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا رأى شيئا يكرهه عرفناه فى وجهه^(١).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبى ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ولكن يقول ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهى عنه ولا يسمى فاعله^(٢).

وهذا موسى عليه السلام لا يرى من جلده شيء ولا يظهر من عورته أقل من مثقال ذرة ولا يكشف من بدنه إلا ما ينكشف من الرجال غالبا.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { إن موسى كان رجلا حيا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدره^(٣) وإما آفة. وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أفضى إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا^(٤) بثوبه فأخذ موسى عصاه عريانا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون ووقف الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن للحجر لندبا^(٥) من أثر ضربه ثلاثا أو أربعاً أو خمسا } فذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ۝﴾ [الأحزاب]^(٦).

١- أخرجه البخارى - باب صفة النبى ٨- ج ٤ - ص ١٩٠ - ح ٣٥٦٢.

٢- سنن أبى داود - باب فى حسن العشرة - ج ٤ - ص ٢٥٠ - ح ٤٧٨٨.

٣- أدره: نفخة فى الخصية.

٤- عدا: مضى سريعا.

٥- لندبا: أثرا.

٦- صحيح البخارى - باب حديث الخضر - ج ٤ - ص ١٥٦ - ح ٣٤٠٤.

أقسام الحياء:

أولاً: الحياء من النفس:

الحياء من النفس سيما إن خلا العبد بنفسه فحياء المرء من نفسه هو حياء النفوس الشريفه العزيزة الرفيعة ،ومن رضى لنفسه بالدون وقنعها بالقليل فيجد نفسه مستحيا من نفسه حتى كأن له نفسين يستحى بإحدهما من الأخرى وهذا أكمل ما يكون من الحياء فإن العبد إذا استحى من نفسه فهو أجدر بأن يستحى من غيره .

عثمان رضى الله عنه وأرضاه كان أكثر أصحاب النبى ﷺ حياءً حتى إن الملائكة تستحى منه كما قال ﷺ: { إن عثمان حياى ستر تستحى منه الملائكة } وتقول عائشة رضى الله عنها: كان رسول الله ﷺ مضطجعا كاشفاً عن فخذه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه يقول الراوى ولا أقول ذلك فى يوم واحد فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهش له ولم تبال ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال: ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة } .

وكان حياء محمد بن سيرين يفوق الخيال. يقول عن نفسه ما غششت امرأة قط لا فى يقظة ولا فى نوم غير أم عبد الله زوجتى وإنى لأرى المرأة فى المنام فأعلم أنها لا تحل لى فأصرف بصرى عنها .

ثانياً: الحياء من الخلق:

ومنه حياء عبد الله بن عمر رضى الله عنه إجلالاً لكبار الصحابة ممن هم أسن منه فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: { إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهى مثل المسلم حدثونى ما هى فوقع الناس فى شجر البوادرى ووقع فى قلبى أنها النخلة فنظرت فإذا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فاستحييت، قالوا حدثنا يا رسول الله، قال: هى النخل } ^(١).

ومنه حياء عمرو بن العاص رضى الله عنه من النبى ﷺ يقول: { والله ان كنت لأشد الناس حياءً من رسول الله ﷺ فما ملئت عينى من رسول الله ﷺ ولا راجعته بما أريد حتى لحق بالله عز وجل حياءً منه

^١ - صحيح البخارى - باب قول المحدث : حدثناه - ج: ١ - ص: ٣٣ .

وكذلك حياء الرسول ﷺ من القوم الذين دعاهم لوليمة زينب بنت جحش رضى الله عنها فتهيأ لى القيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام قام من قام وقعد ثلاث نفر يتحدثون فاستحيا أن يقول لهم قوموا فنزلت الآية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ...﴾ [الأحزاب: ٥٢] (١).

والسيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها كانت تستحي من الأموات. عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: { كنت أدخل البيت الذى دفن فيه رسول الله وأبى بكر رضى الله عنه فقط واضعة ثوبى وأقول إنما هو زوجى وأبى فلما دفن عمر رضى الله عنه فوالله ما دخلته إلا مشدودة عليّ ثيابى حياءً من عمر رضى الله عنه وأرضاها } (٢).

ثالثاً: الحياء من الله جل وعلا:

فالحياء من الله من أسمى منازل الحياء وأكرمها. فلا غرو فإن الإنسان يستحي أن يقدم إلى من أحسن إليه من بنى جنسه ولو نعمة صغيرة أدنى إساءة، فكيف لا يستحي من خالقه الذى له عليه حق عظيم فقد أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة فهو يحبى بكرم الله ويتحرر بفضل الله وما من نعمة وخير يصل إليها إلا والله الفضل.

قال يحيى بن معاذ: { من استحيا من الله مطيعاً استحيا الله منه وهو مذنب }.

وقال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه: { إنى لأدخل البيت المظلم لأغتسل من الجنابة فأحمى فيه صلبى حياءً من ربى }.

قال رسول الله ﷺ: { استحيوا من الله حق الحياء من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى وليحفظ البطن وما حوى وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا فممن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء } (٣).

١- المسند الموضوعى الجامع للكتب - باب مناقب المهاجرين - ج: ٢٢ - ص: ٤٠.

٢- سيرة السيدة عائشة أم المؤمنين - باب الاهتمام بالحجاب - ج: ١ - ص: ٣٣٣.

٣- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب الحياء من الله - ج: ٢ - ص: ٣٦.

فالمسلم الذى يعرف من تعليم دينه أنه لا يغيب عن الله أبداً لأنه ماثل في حضرته ليلاً ونهاراً ينبغي أن يكون في هيئة لجلاله وتأدبه بشرائه جل وعلا ولا يجعله أهون الناظرين إليه كما في الحديث القدسي { لم جعلتموني أهون الناظرين إليكم }^(١).

فتعالوا بنا لتتعاش بقلوبنا مع حق الحياء:

الحق الأول: أن تحفظ الرأس وما وعى فمن المعلوم أن اللسان والعينين والأذنين فى الرأس:

أولاً: حفظ اللسان:

فمن حق الحياء حفظ اللسان، اللسان نعمة من نعم الله العظيمة. فعلى المسلم أن يصون هذه النعمة بالطاعة بما أمر الله عز وجل بأنه لا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرف فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله لأنه أعظم إله للشيطان في استغواء الإنسان وكم من حرب جرتها كلمة واحدة وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: { وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم } .

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه } .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: { إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تذكر اللسان فتقول اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا } .

فعلى الانسان المؤمن أن يحفظ لسانه من أفاته الكثيرة ومنها الكلام فيما لا يعنى والخوض في الباطل والمرء والجدال والخصومة والفحش وبذاءة اللسان والسب واللعن والسخرية والاستهزاء والغيبة والنميمة والكذب وقذف المحصنات والغناء والاستغاثة بغير الله وإفشاء السر وغيرها من الآفات الكثيرة التي تكون سببا في هلاك العبد في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

^١ - العاقبة في ذكر الموت - الباب الثانى والعشرون - ج: ١ - ص: ١٣٥ .

ثانيا: حفظ العينين:

البصر نعمة من أجل النعم لا يشعر بها إلا من فقدوها وجعل الله سبحانه وتعالى ثواب من ابتلاه بفقد عينيه - فاحتسب وصبر - جعل ثوابه الجنة.

عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: { إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبته فصبر عوضته بالجنة } يقصد بحبيبته: عينيه.

وكان صلوات الله وسلامه عليه يدعو الله عز وجل أن يحفظ عينيه فكان يقول: اللهم اجعل في قلبي نورا وفي لساني نورا وفي سمعي نورا. فمن الواجب على كل مسلم ومسلمة أن يستعمل نعمة البصر فيما أمر به الله والبعد عن النظر فيما نهى عنه حتى تفوز برضوان الله جل وعلا.

فقد قال ﷺ: { اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا الأمانة إذا أؤتمتتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم }^(١).

وقال تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠)

[النور].

والنظر الممنوع: هو كل ما يجر إلى منكر وشر فاسد، فالحوادث العظام إنما هى كلها من فضول النظر، كما قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم من نظرة فتكت فى قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر
فمن الحياء أختى المؤمنة أختى المؤمن أن تحفظ نظرك عن كل ما يغضب الله تعالى ويا حسرة على بعض
العباد فقدوا الحياء واتبعوا الشهوات يجلس الواحد إلى الثانى ليعرض عليه فيديوهات من صور النساء
العاريات وما بها من مواقع فاسدة ومفسدة وناشرة للزيلة ومروجة للدعارة والبغاء، يجلس أصدقاء السوء
سواء من الرجال أو النساء ليشاهدوا هذه الأفلام الإباحية بلا استحياء من بعضهم البعض، ذهب الحياء

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسائيد- باب أداء الأمانة من الإيمان - ج: ٤ - ص: ٦٤.

وضاع باتباع شهوات الدنيا لا حياء من المولى عز وجل ولا حياء من نفسه ولا حياء من الخلق لأنه طمس على قلوبهم وأبصارهم.

ويا حسرة على بعض الطلاب والطالبات أصبح كل هم الواحد منهم ليس التعليم ولا الاستفادة الصحيحة من الحياة الدنيا ولا ليعلم لماذا خلق وما فائدة هذه الحياة ولكن همه أن يقيم علاقة بينه وبين شابة بالتواصل على الهاتف المحمول أو مقابلتها من وراء أهلها، ويا أسفا على الشباب الذى يسرق ليشترى الموبايل لفتاة لكى يتواصل معها بالكلام الفاحش البذيء.

ثالثا: حفظ السمع:

إن نعم الله علينا كثيرة لا تعد ولا تحصى، فجدير بمن أنعم الله عليه بتلك النعم أن يستعملها فى طاعة الله لكى يحفظ تلك النعم، وأن يبعدها عن كل ما يغضب الله عز وجل من سماع الغناء والغيبة والنميمة والتجسس على الناس والتلذذ بسماع صوت امرأة أجنبية عبر الهاتف أو سماع رجل أجنبى فإن كثرة المعاصى تزيل النعم وقد أحسن القائل:

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد قرب العباد سريع النقم^١
واحذريا ابن آدم من يوم تُسأل فيه عما سمعت.

قال تعالى: ﴿...إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣١) [الإسراء].

أى يسأل كل واحد منهم عما اكتسب وعما هواه سمعه وبصره وفؤاده فمن حق الحياء أن تستعمل سمعك فيما يرضى الله عز وجل.

الحق الثانى من حق الحياء: أن تحفظ البطن وما حوى:

فمن الناس من يعيش فى هذه الدنيا من أجل شهواته وملذاته ويذل فى سبيل ذلك الغالى والنفيس فلا يهتم بما يدخله فى جوفه هل هو من الحلال الطيب أم من الحرام فيجب على ابن آدم تحرى الحلال لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

^١ - نضرة التعيم فى مكارم أخلاق الرسول ٨- باب من فوائد التأمل - ج: ٣ - ص: ٨٦٣.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ...﴾ (١٧٢) [البقرة].

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: { أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة فى طعمة } (١).
وعن عبيد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { من أصبح منكم آمناً فى سربه معافى فى جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها } (٢).

فالواجب على كل مؤمن أن لا يتعدى فى طلبه للحلال على حقوق الآخرين.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...﴾ (١٨٨) [البقرة]. أى: لا يأكل بعضكم مال بعض.

قال ابن عباس رضى الله عنه: يعنى باليمين الباطلة الكاذبة يقتطع بها الرجل مال أخيه بالباطل، فالله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:

﴿يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) [المؤمنون].

الحق الثالث من حق الحياء: أن تتذكر الموت والبلى:

فجدير بمن كان الموت مصرعه والدود أنيسه ومنكر ونكير جلسه ألا يكون له ذكر ولا فكر إلا فيه.
قال ﷺ: { أكثروا من ذكر هادم اللذات }.

١ - تخريج أحاديث إحياء علوم الدين - باب ٢٦٩١ - جزء ٤ - ص ١٧٦٨ .

٢ - سنن ابن ماجه - باب القناعة - جزء ٥ - ص ٣٥٣ .

الفصل الرابع

مصاحبة الصالحين

الحمد لله رب العالمين، مكور الليل على النهار تبصرة لأولى العقول والأبصار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وصفيه وحببيه وعلى أصحابه أجمعين ومن سار على سنته ومنهاجه إلى يوم الدين أما بعد،،،

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، قال تعالى:

﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: { لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي } ^(١).

معنى مصاحبة الصالحين:

تعريف المصاحبة:

صحابة وصحبة أى رفقة، ويقال فى الدعاء { صحبك الله } حفظك ورافقتك عنايته، واصطحب فلان صحبة، والصاحب المرافق ^(٢). الصالح: هو الخالص من كل فساد ^(٣).

الصحبة الصالحة:

إن الرفقة الصالحة من أعظم الأسباب المعينة على محاسن الأخلاق، فالإنسان مفطور على الأنس بالناس ومخالطتهم، وهذه الفطرة تنمو أحيانا بين شخص وبعض أشخاص فيزداد لهم ميلا ورغبة فى مجالستهم ومصاحبتهم .

^١ - رواه أبوداود - كتاب الأدب - رقم الحديث ٤٨٣٢ والترمذى كتاب الزهد - رقم الحديث ٢٣٩٥ .

^٢ - المعجم الوجيز - ص ٣٥٩ .

^٣ - معجم التعريفات - ص ١١٢ .

يقول رسول الله ﷺ: {إنما مثل المجلس الصالح والجلس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحزبك وإما أن تبتاع منه، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة^(١)} {^(٢)}.
والطبع لص يسرق من الطبع الخير والشر فمن كان جلسيه صالحا استفاد منه صلاحا وأخلاقا، فمن المجالسة والمخالطة تخرج الصداقة ولا ريب أن المجالسة عامل رئيسى فى صناعة الناس وتحويل أفكارهم وتغيير أخلاقهم وتطوير عاداتهم لذلك قال ﷺ: { لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي }^(٣).
والمؤمن ألف مالوف لا يعتزل الناس ولا يعيش بعيدا عنهم إلا إذا كانت فى مخالطتهم فتنة أو وقوع فى محرم أو ترك واجب.

قال ﷺ: { المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم }^(٤).

لذلك فإن مصاحبة الصالحين دواء للقلب ونجاح فى الدنيا وفوز فى الآخرة.

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف].

فالصاحبان اللذان تصاحبنا على المعاصى أو الكفر يخرجان من قبرهما يلعن كلاهما الآخر ويسب كل منهما صديقه وإنما يعرف دين الرجل وخلقه وصلاحه بصديقه. فالمرء على منهاج صاحبه، يقول الصادق المصدوق: { المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل }^(٥).

ولا ريب أن المجالسة عامل رئيسى فى صناعة الناس وعلى المرء أن يجالس من يستفيد منه ويكون عوناً له فى الفوز بالدار الدنيا والدار الآخرة، قال لقمان لابنه: { يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن القلوب

^١ - نافع الكير: زق ينفخ فيه الحداد ، يحزبك : أى يعطيك ، تبتاع منه : تشتري منه .

^٢ - صحيح مسلم - باب استحباب المجالسة - الجزء الرابع - ص ١٤٦ - رقم الحديث ٢٦٨ . وأخرجه البخارى - باب فى العطار وبيع المثل - الجزء الثانى - ص ١٦٢ - رقم الحديث ٢١٨ .

^٣ - سنن أبى داود - باب من يؤمر أن يجالس - الجزء الرابع - ص ٢٥٩ - رقم الحديث ٤٨٣٢ .

^٤ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - باب مشروعية الخلطة - الجزء العاشر - ص ٤٨٧ - والصحيح الجامع - رقم الحديث ٦٦٥١ .

^٥ - أخرجه الحاكم فى المستدرک - ج: ٤ - ص: ١٨٩ - ح م : ٧٣٢٠ صحيح ولم يخرجاه .

لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر {^(١) فالليب من يستفيد من مخالطة الآخرين سواء كان ناقصا أو كاملا فأكثر العقلاء والحكماء يتعلمون مكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادهم.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والكثير من الناس يتعلم المروءة ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادهم كما روى عن بعض الأكابر أنه كان له مملوك سيئ الخلق فظ غليظ لا يناسب فسئل عن ذلك فقال إنى أدرس عليه مكارم الأخلاق، وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضد أخلاقه ويقوم بتمرين النفس على مصاحبته ومعاشرته والصبر عليه. ومصاحبة الصالحين دواء للقلب ونجاح للمرء في الدنيا والآخرة وفوز في الدنيا والآخرة .. والله در القائل:

دواء قلبك خمس عند قسوته فدم عليها تفز بالخير والظفر
إخلاء بطن وقرآن تدبره كذا تضرع باك ساعة السحر
كذا قيامك جنح الليل وأوسطه وأن تجالس أهل الخير والخبر^(٢)

الصحبة السيئة:

إن أصحاب السوء من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى سوء الأخلاق فإنهم يضعون رفيقهم دائما على شفا جرف هار وسرعان ما ينهار به والعياذ بالله في نار جهنم فيخسر ويندم على مصاحبة قرناء السوء.
قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ بَعْضُ الظَّالِمِ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۚ﴾ (٢٧) يَوَلَّيْتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ لَنَا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ [الفرقان].

فقرناء السوء يكونون وبالا على من يصاحبه وهل منع أبا طالب من التلفظ بكلمة التوحيد التي بها نجاته وفلاحه إلا الصحبة السيئة، فالصحبة السيئة قد تحمل الإنسان على عداوة رسول الله ﷺ من أجل صديقه بل ويدفعه إلى الكفر وترك الإيمان.

^١ - أخرجه مالك في الموطأ - ج: ٥ - ص: ١٤٥٨ - ح م: ٣٦٧٠.

^٢ - دليل الواعظ إلى أدلة المواعظ - ج: ٢ - ص: ٦٠٤.

كان عقبة بن أبى معيط وأبى بن خلف متصافيين حسنا ما بينهما فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله ﷺ فبلغ ذلك أبيا فأتى عقبة وقال له إننى بلغنى أنك جالست محمدا وسمعت منه وجهى من وجهك أن أكلمك - واستغلظ من اليمين - إن أنت جلست إليه وسمعت منه أو لم تأتبه فتتفل فى وجهه ففعل عقبة لعنه الله فأنزل تعالى فيها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْبَسَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ۝ يَوَلَّيْنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا حَلِيلًا ۝﴾ [الفرقان].

وقال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ۝ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا تَلَمِّدُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ ۝ فَأُطْلِعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّيْنَ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ ۝ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۝﴾ [الصافات].

هذا الصديق الذى كاد أن يردى صاحبه إلى النار ولولا نعمة الله لأصبح الصديق الصالح معه فى جهنم. فمصاحبة قرناء السوء مرض فى القلوب وخسران فى الدنيا والآخرة ولهذا أمرنا صاحب الخلق العظيم ﷺ بمصاحبة المؤمن ومصادقة الصالح ونهانا عن مصادقة الفاسق ^(١) فقال ﷺ: { لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلى تقي }.

ولله در القائل:

لا تصحب أخا الجهل	وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى	حليما حين أخاه
يقاس المرء بالمرء	إذا ما هو ماشاه
وللشيء من الشيء	مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب	دليل حين يلقاه ^(٢)

^١ - خلق المؤمن - ٣٨٢ .

^٢ - المجالسة وجواهر العلم - ج: ٤ - ص ٢٣٥ .

الصحة بالمعروف:

والمعروف هو ما يحسن في الشرع^(١) إن الصحة بالمعروف أمر يصنعه الإنسان مع من يحب ومن لا يحب وإن الصحة بالمعروف أمر لا يتطلب الحب ولكن يتطلب المعاشة وإن المؤمن بسلوكه مع من حوله قدوة تنير قلوب الضالين إلى الهداية.

فإن آمن الضال فالمؤمن من ثواب إيمانه إن لم يؤمن الضال فللمؤمن الثواب لأنه عايش الضال دون أن يتأثر بدعوة الضال أو أن يحيد عن منهج الحق حتى وإن جاءت هذه الدعوة من أبيه أو أمه أو من آخرين .. قال تعالى:

﴿وَلِإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَعَالَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥]

إن الله تعالى يأمر الابن أن يصاحب والديه بالمعروف ولا يطيعهما في دعوتها له بالشرك بالله بل يأمره أن يتبع طريق التوحيد والإخلاص وإن مرجعهم جميعا هو إلى الله تعالى بما فعلوا من خير أو شر وأن الله سبحانه هو الذى سيجزى كل إنسان جزاء عمله ومعلوم أن الصحة بالمعروف فعل الجوارح^(٢) فالمؤمن الحق هو الذى يريد أن يأخذ من الحسنات في مواجهة الحياة فقد سمع الحسن البصرى أن رجلا قد اغتابه في مجلس بكلام يؤذيه وافترى عليه فذهب الحسن إلى أحسن ما عنده من التمر فأعد منه سلة صغيرة ثم كتب إلى الرجل: بلغنى أنك قد اغتبتنى أمس في مجلس كذا وكذا وقلت كذا .. وحيث إنك أعطيتنى أحسن ما عندك هو حسناتك التى ستعطى لى يوم القيامة بما قلته افتراء علي فإنى لم أجد إلا أن أرد لك الهدية بأن أهديك أحسن ما عندى وهو هذا التمر .. فهذا الرجل الصالح لم يضجر ولم يقابل السيئة بالسيئة بل قابل السيئة بالحسنة حتى تكون سببا في هداية أخيه المؤمن فهذا يكون معروفا قدمه الحسن البصرى للذى قام بسبه.

^١ - معجم التعريفات ص ١٨٥ .

^٢ - منهاج المؤمنين ص ٣٦٥ .

الحب فى الله:

ومن كرم الله تعالى ونعمته على المسلمين أنه أضفى على الصداقة لونا جميلا من الاتصال بالله فدعا المتحابين على الحق وللحق وفى الحق متحابين فى الله لترتبط المحبة برباط وثيق بينهما حتى يلتقيان يوم القيامة تحت ظل عرش من تحابا فيه .

يقول رسول الله ﷺ: { إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون فى جلالى اليوم أظلمهم بظلى يوم لا ظل إلا ظلى }^(١) .

ويقول النبى ﷺ: { سبعة يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل - شاب نشأ فى عبادة الله - رجل قلبه معلق بالمساجد - ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه - ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله - ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شئاله ما تنفق يمينه - ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه .. }^(٢) .

والمتحابون فى الله عز وجل تجب لهم محبة الله .. يقول الله عز وجل: { وجبت محبتى للمتحابين فى المتجالسين فى والمتجاورين فى المتبازلين فى }^(٣) .

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال: { يا رسول الله كيف تقول فى رجل أحب قوما ولم يلحق بهم، فقال ﷺ: المرء مع من أحب }^(٤) .

وقال ﷺ: { إن من عباد الله ناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله، قالوا يا رسول الله أخبرنا من هم قال: هم ناس تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعل نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس }^(٥) .

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - باب فضل الحب فى الله - الجزء السابع - ص ٤٩٦ .

^٢ - أخرجه البخارى - باب من جلس فى المسجد - الجزء الأول - ص ١٢٣ - رقم الحديث ٦٦٠ .

^٣ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - باب فضل عيادة المريض - الجزء الأول - ص ١٨٦ ، وصحيح الجامع - رقم الحديث ٤٣٢١ .

^٤ - صحيح مسلم - باب المرء مع من أحب - الجزء الرابع - ص ٣٠٢٤ - رقم الحديث ٢٦٤٠ .

^٥ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - باب فضل الحب فى الله - الجزء السابع - ص ٤٩٩ ، وصحيح الترغيب والترهيب - رقم الحديث ٣٢٦ .

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس].

فالحب في الله نور للقلوب وغذاء للأرواح ودواء للصدور وشفاء للأفئدة وذلك لأنه يوصل إلى تذوق حلاوة الإيمان. قال رسول الله ﷺ: { أن رجلا زار آخر في قرية أخرى فأرصد ^(١) الله تعالى على الطريق ملكا فلما أتى عليه قال أين تريد قال أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها عليه ^(٢) قال: لا غير أنى أحبه في الله تعالى قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه } ^(٣).

فإن بنيت الصداقة على الحب في الله صلحت وأثمرت دنيا أخرى لأن الكريم جل وعلا يرزقهم ظل رحمته في الدنيا وظل عرشه وكريم المنازل في الآخرة، وإذا بنيت الصداقة على حب الدنيا فسدت وأفسدت ديننا لأن أبناء الدنيا لا يفلحون ^(٤).

شروط اختيار الصديق:

ولعظم خطر الصديق وكبر أثره على خليله فإنه ينبغي فيمن يختار صاحباً له خمس خصال:
أولاً: أن يكون عاقلاً: فالعقل هو رأس الأمر فلا خير في صحبة الأحمق إذ رب عاقل يفهم الأشياء على ما هي ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أطاع هواه.

ثانياً: أن يكون حسن الخلق: قال بعض الأدباء لا تصحب من الناس إلا من يكتم سرّك ويستر عيبك فيكون معك في النوائب ويكثر بك بالרגائب وينشر حسنتك ويبطل سيئتك فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك ^(٥). وقال بعض الحكماء أيضاً: لا تصحب من يتغير عليك عند أروع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه ^(٦).

^١ - أرصد: وكله بحفظه .

^٢ - تربها: تقوم بها .

^٣ - صحيح مسلم - باب فضل الحب في الله - الجزء الرابع - ص ١٩٨٨ - رقم الحديث ٢٥٦٧ .

^٤ - خلق المؤمن ص ٣٨٧ .

^٥ - إحياء علوم الدين - ج: ٢ - ص: ١٧٣ .

^٦ - إحياء علوم الدين - ج: ٣ - ص: ١٧٩ .

وقال أبو سعيد الخدرى: إذا أردت أن تؤاخي رجلا فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك فإن قال خيرا وكتم سرّك فاصحبه ^(١).

ثالثاً: ألا يكون فاسقاً: فالفاسق المصّر على الفسق لا فائدة في صحبته لأن من يخاف الله لا يصّر على كبيرة ومن لا يخاف لا تؤمن غائلته. قال تعالى:

﴿...وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

رابعاً: ألا يكون كذاباً: فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب، قال جعفر الصادق رضى الله عنه: لا تصحب خمسة: الكذاب فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب، والأحمق فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك، والبخيل: فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشر والفاسق: فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها، فقيل وما أقل منها قال الطمع فيها ثم لا ينالها.

خامساً: ألا يكون جباناً: فإنه يسلمك ويفر عند الشر.

ومما سبق يتضح أن أثر الصديق في صديقه خطير وكبير ومن ثم كان لزاماً على الإنسان أن يتتقى أصدقاءه وأن يختبر معدنهم حتى يأنس إلى أصالتهم فلا يصاحب إلا قرناء الخير لأنهم يعينونه على أداء الواجبات وحفظ الحقوق ويبعدونه عن السوء واقتراف الآثام وبالجملّة فهم يقودونه إلى النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة.

قال على رضى الله عنه: { إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك ومن إذا ريب الزمان صدعك ^(٢) شئت فيك شمله ليجمعك } ^(٣).

^١ - موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق - قصص تربوية من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين - ج: ٢ - ص: ٣٤٩.

^٢ - ريب الزمان: مصائب وحوادث الدهر.

^٣ - إحياء علوم الدين - ج: ٣ - ص: ١٧٣.



الباب الخامس

- الفصل الأول: الالتزام بشروط الصلاة.
- الفصل الثاني: الالتزام بأداب الصلاة.
- الفصل الثالث: الجهاد الأكبر.
- الفصل الرابع: قيام الليل.

الفصل الأول

الالتزام بشروط الصلاة

الحمد لله رب العالمين أهل الحمد والثناء المتوحد في صفات المجد والعلاء، ذو الجلال والإكرام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولى الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، ومن سار على سنته ومنهاجه إلى يوم الدين أما بعد،،

قال تعالى: ﴿... فَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء].

عن معاذ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه

الجهاد في سبيل الله} (١).

معنى الصلاة:

لغة: التضرع والدعاء.

واصطلاحاً: هى أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم (٢).

الصلاة صلة بين العبد وربّه تقوده إلى رضوانه وتمهد له الطريق إلى العناية الربانية، فهى عماد الدين وهى التى تكون مع العبد فى الأزمات تكون له عوناً ودفاعاً تؤدى به إلى الفلاح والفوز فى الدار الدنيا والآخرة، فإنه إذا وضع ابن آدم فى القبر وانفض الناس من حوله جاءه الملكان السائلان، فجلست الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن شماله وفعل الخيرات عند قدميه والقرآن يطوف حوله كما تطوف الكواكب الدرية فى السماء، فإذا ما رأى الملكان أن يقعداه عند رأسه هبت الصلاة قائلة: لا تقلقاه من جهتي، فكثيراً ما وضع جبينه ساجداً لله تعالى، فإذا ما جاء إلى اليمين قالت الزكاة: أستحلفكما بالله لا تقلقاه من جهتي فكثيراً ما تصدق ابتغاء مرضاة الله وعند الشمال يقوم الصيام شفيحاً وكذلك فعل الخيرات والقرآن

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسائيد - باب أحاديث جامعة فضائل الأعمال - الجزء السادس - ص ٢٨٣ وصحيح

الجامع - رقم الحديث ٥١٣٦ .

^٢ - الفقه الإسلامى الميسر - ص ٧٣ .

يطوف حوله، كما ينادى الملكان على ابن آدم نداء رقيقاً: يا عبد الله قم للسؤال فينظر العبد فيرى كأن الشمس عند غروبها فيقول لهما: دعاني حتى أصلى العصر يظن نفسه في دار الدنيا، فيقول الملكان: عشت حريصاً على الصلاة ومت حريصاً على الصلاة أبشر بجنة عرضها السموات والأرض، ويفرش له القبر من حرير.

شروط الصلاة:

إننا كثيراً ما نقرأ في كتب الفقه عن شروط وجوب الصلاة وشروط صحة الصلاة ولكننا لم نتكلم عن الركن الركبن والحصن الحصين وهو شروط قبول الصلاة، وقبل أن نتحدث عن شروط قبول الصلاة فإننا نتحدث عن:

أولاً: شروط وجوب الصلاة، بمعنى أنها لا تجب إلا على من تتحقق فيه هذه الشروط:

- (١) الإسلام: لأنها لا تجب على كافر ولا تصح منه.
- (٢) العقل: لأنه أهل التكليف أما المجنون فلا تصح منه.
- (٣) البلوغ: قال رسول الله ﷺ: {رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يشب، وعن المعتوه حتى يعقل} (١).

ثانياً: شروط صحة الصلاة: بمعنى أنها لا تصح إلا بتحقيق هذه الشروط:

(١) العلم بدخول الوقت:

قال تعالى: ﴿.....إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (١٣٠) [النساء].

(٢) الطهارة من الحدث الأصغر والحدث الأكبر:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمْ يَمْسَسْهُ الْبَسَاءُ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ...﴾ (١٥٠) [المائدة].

^١ - مسند أبي يعلى - باب مسند عائشة - الجزء السابع - ص ٣٦٦ - رقم الحديث ٤٤٠٠ - قال حسين سليم أسد إسناده جيد .

وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال: { مفتاح الصلاة الطهور }^(١).

ومن هذه الطهارة:

(أ) طهارة الثوب والبدن والمكان: قال تعالى: ﴿وَيَايَكَ فَطَهَّرَ﴾ [المذثر].

(ب) الطهارة من دم الحيض والنفاس: فلا تصح الصلاة من الحائض والنفساء إلا بعد الطهر من الدم.

(٣) ستر العورة: فلا تصح صلاة من إنسان وهو مكشوف العورة، والقرآن الكريم قد أمر أتباعه بأن

يلبسوا أنظف ملابسهم عند الصلاة، قال تعالى:

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾ [الأعراف].

ولقد كان السلف الصالح يقفون بين يدي الله في عبادتهم وهم في أكمل زينة. فهذا الإمام الحسن بن

علي كان إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه فقليل له يا ابن بنت رسول الله ﷺ: لماذا تفعل ذلك؟ فقال: إن

الله جميل يحب الجمال فأنا أحب أن أتجمل لربي لأنه هو القائل:

﴿...خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾ [الأعراف].

(٤) استقبال القبلة: لا خلاف بين العلماء في أنه يجب على المصلى سواء كان ذكراً أو أنثى أن يتجه في صلاته

إلى المسجد الحرام.

ثالثاً: شروط قبول الصلاة:

قال الله عز وجل في حديثه القدسي: {إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ولم يستطل على خلقي

ولم يبت مصراً على معصيتي وقطع نهاره في ذكرى ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم

المصاب} (٢).

فما هي النتائج الستة التي تنتجها هذه الشروط الخمسة:

^١ - المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة - باب حكم الوضوء - الجزء الحادى عشر - ص ٢٨ - رقم الحديث ٢٣٨.

^٢ - سلسلة الأحاديث الضعيفة - باب ٩٥ - جزء ٣ - ص ٣٦٥ - عن عبد الله بن واقد عن حنظلة بن أبي سفيان عن ابن عباس مرفوعاً . حديث ضعيف .

(١) نوره كنور الشمس .

(٢) أَكَلَاهُ بَعَزَتِي .

(٣) أَسْتَحْفَظُهُ مَلَأْتُكَتِي .

(٤) أَجْعَلْ لَهُ فِي الظِّلْمَةِ نُورًا

(٥) وَفِي الْجَهَالَةِ حِلْمًا .

(٦) مِثْلُهُ فِي خَلْقِي كَمِثْلِ الْفِرْدَوْسِ فِي الْجَنَّةِ .

وأول هذه الشروط :

أولاً: إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي :

فالتواضع هو الخضوع والإذعان لله عز وجل ، يقول المولى سبحانه وتعالى : { الكبرياء ردائي والعظمة

إزاري فمن نازعني فيه أدخلته ناري } وقال تعالى :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٨٣) [القصص].

فالتواضع من شروط قبول الصلاة والصلاة هي استحضار العبد وقفته بين يدي ربه وحينما يقف العبد بين يدي ربه لا بد أن يزول كل ما بنفسه من كبرياء ويدخل بدلا منه الخضوع والخشوع والذلة لله سبحانه وتعالى ، فالتكبر غافل عن رؤية ربه والصلاة تحارب الاستكبار في النفس ، لذلك كان مؤدى الصلاة أنها تركز الخشوع في النفس ، والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الله سبحانه وتعالى ويعلم أن ما عنده يمكن أن يذهب به الله سبحانه وتعالى في لحظة ، لأننا نعيش في عالم الأغيار ولا بد أن يفهم الإنسان الذي يستعلى بالأسباب أنه سيأتي وقت لا تعطيه الأسباب .

جلس رجل مع موسى بن عمران على نبينا وعليه السلام وذكر أجداده وذكرهم على وجه الفخار والكبرياء فإذا بجبريل ينزل على سيدنا موسى كليم الله ويقول له : يا موسى أخبر صاحبك بأنه ذكر تسعة من أجداده كلهم في النار وهو عاشرهم .. لماذا؟ لأن التفاخر لا يكون بالحسب ولا بالنسب وإنما بالتواضع لله وبالعمل الصالح .

قال ﷺ: { لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر .. قال رجل: يا رسول الله الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا.. قال الحبيب ﷺ: الله جميل يحب الجمال، الكبر غمط الناس وبطر الحق (١){ (٢).

وكان رجل في عصر النبي نوح عليه السلام رأى كلبا أسود اللون ماشيا فبصق عليه فأوحى الله إلى نوح عليه السلام: قل لهذا الذي بصق على الكلب أتعيب الصنع أم تعيب الصانع؟ ولذلك فقد تواعد الله كل همزة لمزة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّكُلِّ هُمَزَةٌ لَّمْزَةٌ﴾ [الهمزة (٣)].

المؤمن يتواضع في غير ذلة ولا مهانة فالتواضع من أخلاقه المثالية وصفاته العالية كما أن الكبر ليس له ولا ينبغي لمثله، فالمؤمن يتواضع ليرتفع ولا يتكبر لثلاث يخفق. قال ﷺ: { ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله } (٤).

روى أن عمر بن عبد العزيز أتاها ليلا ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، فقال الضيف: إذن أنبه الغلام فقال عمر إنها أول نومة نامها فلا تنبهه وذهب إلى البطية وملاً المصباح زيتا ولما قال له الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين أجاب قائلاً: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء وخير الناس من كان عند الله متواضعا.

عليك يا ابن آدم باغتنام واكتساب صفة التواضع لكي يرفعك الله في الدنيا والآخرة (٥).

١ - غمط الناس: احتقار الناس، بطر الحق: عدم قبول النصيحة.

٢ - صحيح مسلم - باب تحريم الكبر - الجزء الأول - ص ٩٣ - رقم الحديث ١٤٧.

٣ - الهماز: هو الذي يعيب الناس، اللماز: هو الذي يطعن في أعراض الناس.

٤ - الحسان على صحيح ابن حبان - باب فضل الزكاة - الجزء الخامس - ص ١٨٠ - رقم الحديث ٣٢٣٧.

٥ - منهاج المسلم ص ١٧٨.

ثانياً: من شروط قبول الصلاة: لم يستطل على خلقى:

الاستطالة هى أذى العباد فمعنى لم يستطل على خلقى: لم يؤذى خلقى، والأذى يتنوع لأنواع عديدة وكثيرة على حسب الأعضاء التى أمدنا الله بها، فالعينان تؤذيان إذا نظرنا إلى ما حرم الله، وإذا نظرنا إلى نعمة من نعم الله وتمتتا زواها عن عباد الله، والعينان تزنى وزناها النظر إلى ما حرم الله فكل ما حرم الله النظر إليه على ابن آدم أن يطيع الله ورسوله فى كل ما أمر وكل ما نهى إذا كان مؤمناً بالله ورسوله، قال تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾ (النور).

والأذنان تؤذيان إذا استمعتا إلى أسرار العباد وإذا استمعتا إلى ما نهى الله عن استماعه، فيحكى أن رجلاً من الصالحين نعت أخته بعد موتها وجلس عند القبر قليلاً وقد انصرف المشيعون فوجد دخاناً غزيراً يخرج من قبرها والقبور ظاهرها الحجر والتراب وداخلها الثواب أو العذاب، رأى هذا الرجل دخان الدنيا ماذا يفعل إن نار القبور لا يملك إطفاءها إلا خالقها الذى قال:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۖ وَلَا يُوثِقُ وِثْقُهُ أَحَدًا﴾ (الفجر).

إذا فلا حيلة له فترك أخته وانصرف إلى بيته وهذا حال الدنيا عندما يموت ابن آدم يكون له ثلاثة أصدقاء: صديق لا يغادر عتبة البيت وهو المال يقول لك من هنا انتقلت ملكيتك إلى غيرك وأنت الذى جمعته وبسببه نسيت ربك تركت الصلاة وقطعت الأرحام وملأت الأرض شرقتها وغربها ظلماً وفساداً وبخلت بخلاً شحيحاً، أما الصديق الثانى فينصرف بعدما يوضع الجسم فى تراب القبر وهو الأهل والأصدقاء، أما الصديق الثالث الذى يسمح له بالدخول معك فهو عملك لا بدلك من قرين يدخل معك قبرك وهو حى وتدخل معه وأنت ميت إن كان ذلك القرين صالحاً نفعك وإن كان سيئاً خذلك فاجعله صالحاً فإنه عملك.. عدى .. رجعوا وتركوك وفى التراب دفنوك ولو ظلوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحى

الذى لا أموت .. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ (الأنعام).

ورجع العبد الصالح بعدما ترك أخته تقاسى عذاب النار فرجع ليسأل أمه ماذا كانت تفعل أخته فقالت له أمه لماذا تسأل هذا السؤال؟ فقص على أمه ما رآه فقالت له: والله يا بنى لقد كانت أختك صوامعة قوامه ولكنها كانت تضع أذنهما على أبواب الجيران.

قال تعالى: ﴿...وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا...﴾ [الحجرات].

قال النبي ﷺ لمعاوية بن أبي سفيان: { لا تلمس الريبة^(١) في أمتي فإنك إن التمت الريبة في أمتي أفسدتهم }.

مثال: ماذا يقول فلان إذا جلس مع فلان .. في ماذا يتكلمان؟

لماذا يدخل فلان بيت فلانة؟ يجلس ليستطلع ويتجسس على أخبار الناس فهذا مما نهى الله عنه. ولنسمع ما حدث لعمر بن الخطاب رضى الله عنه يمشى ذات ليلة فيسمع صوت قوم يشربون الخمر داخل بيت من البيوت فيقف عمر إن هو طرق الباب فسوف ينفض السامر إذن ماذا يصنع عمر فتسور رضى الله عنه الجدار وقفز من فوق السطح على حين غفلة ينظر السكارى فيجدون أمامهم أمير المؤمنين وليس كبقية الأمراء إنه الرجل الذى كان يقول لو أن مناديا نادى يوم القيامة وقال كل الناس يدخلون الجنة إلا واحدا خشيت أن أكون أنا ذلك الواحد فأصيب القوم بذهول وكأنما نزلت بهم غاشية قسمت ظهورهم كأن صاعقة من السماء فيها ظلمات ورعد وبرق يقف عمر أمام السكارى وهم يستعدون لاحتساء الخمر .. إذ بأحدهم يقول يا أمير المؤمنين: لأن كنا أخطأنا خطأ واحدا فقد أخطأت أنت يا أمير المؤمنين ثلاث مرات .. وعندئذ أنصت عمر كأنه العصفور الوديع فى عش أمه الهادي لم يخرج سيفه ولم يستعمل صوته ولم يستعمل يديه ولا رجله وهو العملاق الكبير لأن عمر كان يقول: رحم الله امرئ أهدى إلى عيوبى. فقال عمر رضى الله عنه: يا هذا .. أهذا الكلام من كتاب الله أم من سنة رسول الله ﷺ. فقال الرجل: بل هو من كتاب الله يا أمير المؤمنين. فقال رضى الله عنه: هات الأولى يا رجل.

قال له أما الأولى قال تعالى: ﴿...وَلَا يَجَسَّسُوا...﴾ [الحجرات] وأنت تجسست علينا فما الذى

أخبرك أننا نشرب، وأما الثانية قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا...﴾ [النور]، أما

الثالثة قال تعالى: ﴿...وَلَيْسَ الْبِرَّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا...﴾ [البقرة]. فانصرف الأمير عمر

بن الخطاب رضى الله عنه بعدما سأل الله لهم الهداية ولما خرج المخورون التقى بهم عمر خارج البيت

^١ - التماس الريبة: أى استعمال الجواسيس على أسرار العباد.

وعاهدوا الله جميعاً ألا يعصوه أبداً، وذات يوم إذ بأحدهم الذى كان يجادله يلقي عمر فى أحد الطريق ومع المغمور زجاجة يشرب خمر ماذا يفعل: لقد عاهد أمير المؤمنين بالأمس ألا يشربها وألا يحملها فقال بينه وبين ربه اللهم إذا نجيتنى من عمر ومن الخزى أمام عمر فإننى أعاهدك ألا أشربها بعد اليوم أبداً وإذ بعمر يقترب منه رويداً رويداً وإذ بيد عمر تمتد إلى الزجاجة ويمسك بها ويفرغها ليرى ما فيها ويقول عمر رضى الله عنه ألم أنك عن حملها فقال الرجل: إنها خل وليست خمرأ يا أمير المؤمنين، فلما علم الله عز وجل صدق نيته حول الخمر إلى خل.

واللسان يؤذى:

سئل الحبيب ﷺ عن امرأة تقوم الليل وتصوم النهار ولكنها تؤذى جيرانها فماذا قال .. قال لا خير فيها لا صلاة لها ولا قيام لها إنها لها النار.

والقلب يؤذى:

أذى القلب بالبغضاء والشحناء والحقد وأذى البطن وأكل الحرام والرشوة فعليك أخى المؤمن بالابتعاد عن هذه الصفة لكى يقبل الله منك صلاتك وأن تتصف بصفة العفو والحلم.

روى محمد بن حارث الهلالى أن جبريل نزل على النبى ﷺ فقال: يا محمد إني أتيتك بمكارم الأخلاق فى الدنيا والآخرة ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف].

وقال بعض الشعراء:

أحب مكارم الأخلاق جهدى وأكره أن أعيب وأن أعاب
وأصفح عن سباب الناس حلما وشر الناس من يهوى السباب
فمن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهاب^١
فالحلم من أشرف الأخلاق وأحبها لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد وهذا النبى ﷺ كان يتصف بصفة العفو والحلم .. عن ابن أبى إسحاق قال: سمعت أبا عبد الله الجادلى يقول

^١ - أدب الدنيا والدين ص ٣١٠ .

سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: { لم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا في الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح }^(١).

وقال رجل للقاضي ابن غزوان إن فلاناً يقع فيك قال لأغيظن من أمره غفر الله له. قيل له من أمره قال: الشيطان^(٢).

ثالثا: لم يبت مصرا على معصيتي:

قال تعالى: ﴿...وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور].

وهذا هو رسول الله ﷺ المغفور له من ذنبه ما تقدم وما تأخر يتوب إلى الله ويستغفر كل يوم مائة مرة، قال ﷺ: { فإني أتوب إلى الله وأستغفره في اليوم مائة مرة }^(٣) وها هو كليم الله موسى يقول لرب العزة ماذا تقول للعبد إذا قال يا ربى وهو راکع قال الله عز وجل: يا موسى أقول له لبيك يا عبدى. قال فإذا قالها وهو ساجد: قال أقول له لبيك يا عبدى. قال وإذا قالها وهو عاصي. قال: أقول له لبيك لبيك عبدى أطعنا فقربتناك وعصيتنا فأهملناك ولو عدت إلينا بعد ذلك قبلناك. وقال تعالى:

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ﴾ [الزمر].

فالمرء الحق هو الذى لم يبت مصراً على المعصية بل يلجأ إلى ربه سبحانه وتعالى في التوبة والاستغفار، عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: قال النبي ﷺ: { سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علىَّ وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت }^(٤).

^١ - سنن الترمذى - الجزء الخامس - ص ١٦ - رقم الحديث ٢٠١٦.

^٢ - موسوعة من أخلاق رسول الله ص ٨٠٨.

^٣ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب من الأخلاق الحميدة - الجزء العاشر - ص ١٤٨ - والصحيحة - رقم الحديث ١٤٥٨.

^٤ - صحيح البخارى - باب فضل الاستغفار - الجزء الثامن - ص ٦٧ - رقم الحديث ٦٣٠٦.

حكم التوبة:

قال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله لا تتعلق بحق الآدمي فلها

ثلاثة شروط:

أولاً: أن يقلع عن المعصية . ثانياً: أن يندم على فعلها .

ثالثاً: أن يعزم على ألا يعود إليها أبداً.

فإن فقد أحد هذه الثلاثة لم تصح توبته - أما إن كانت المعصية تتعلق بآدمي فله أن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالا ونحوه رده إليه، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه وإن كانت غيبة استحله منها^(١).

على المؤمن الحق أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى عن كل معصية وأن يسارع إلى التوبة قبل فوات الأوان حتى يتقبل الله سبحانه وتعالى منه صلاته.

رابعاً: وقطع نهاره في ذكرى:

الذكر: هو استحضار عظمة الله سبحانه وتعالى في قلب العبد فليس الذكر قاصراً على كلمات يرددها اللسان أو تنبس بها الشفاه إنما الذكر أن تستحضر عظمة الله وجلاله وكبريائه وخشيته في قلبك على أي حال كنت فاستحضر عظمة الله في قيامك وقعودك وعلى جنبك، فاستحضر عظمة الله في كل حال .. قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ ١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقَتَا عَذَابَ النَّارِ ۝ ١١١﴾ [آل عمران].

والذكر يكون على سبعة أنواع:

- ١ - ذكر العينين: هو البكاء.
- ٢ - ذكر الأذنين: هو الإصغاء لما أمر الله به .
- ٣ - ذكر اللسان: الثناء.
- ٤ - ذكر اليدين: العطاء.

^١ - نزهة المتقين ص ١٥٨ .

٥ - ذكر البدن: الوفاء. ٦ - ذكر الروح: الخوف والرجاء.

٧ - ذكر القلب: التسليم والرضا.

فكما أن لكل جارحة من الجوارح معصية كذلك إن لكل جارحة من الجوارح ذكراً تذكر به الله فهي غير مؤقتة بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل وقت وعلى كل حين، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بؤر خراب والذكر هو عمارتها وأساسها فهو جمال القلوب وصقالها ودواؤها، وصدق القائل:

وقفت على نجوى الإله جوارحي لذلك فقلبي منزل كله ذكر
وأخليت قلبي من مناجاة غيره فأصبح طوداً لا يزلله الغير^(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة }^(٢).
فجميع الأعمال إنما شرعت لإقامة ذكر الله تعالى والمقصود بها تحصين ذكر الله سبحانه وتعالى .. قال تعالى: ﴿...وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) ﴿طه﴾.

فعموم الذكر في العبادات لم يقيد بالذكر وحده عبادة السر والجهر وعبادة النفس والفكر والقلب^(٣).

خامساً: ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) ﴿الأنبياء﴾ [إن رحمة الله عز وجل واسعة ولا يمكن لأى إنسان أن يتخيل أو يستشعر هذه الرحمة،

^١ - من يظلمهم الله ص ٣٣٥ .

^٢ - صحيح البخارى - باب قوله تعالى : ويحذركم - الجزء التاسع - ص ١٢١ - رقم الحديث ٧٤٠٥ .

^٣ - الخطب المنبرية ج٥

قال تعالى: ﴿.... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ....﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ففى الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: { قدم على النبى ﷺ سبى فإذا امرأة من السبى تحلب ثديها تسقى إذ وجدت صبيا فى السبى أخذته وألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبى ﷺ: أترون هذه طارحة ولدها فى النار، قلنا: لا وهى تقدر على ألا تطرحه، فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها }^(١).

فالرحمة فضيلة من الفضائل يبنى عليها رقة القلب على الضعفاء ولو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عريان ولا مغبون، وراحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء. فالمؤمن باتباعه الخير وعمله الصالح وابتعاده عن الشر واجتنابه المفسد هو دائما فى طهارة نفس وطيب روح ومن كان هذا حاله فإن الرحمة لا تفارق قلبه فالرحمة فى حقيقتها رقة القلب وانعطاف النفس ومن آثارها العفو عن ذى الذلة والمغفرة لصاحب الخطيئة وإغاثة الملهوف ومساعدة الضعيف وإطعام الجائع وكسوة العارى ومداواة المريض ومواساة الحزين^(٢).

وقلب المؤمن يفيض بالرحمة على كل من حوله فهو يعلم يقينا أنه على قدر الرحمة التى تكون فى قلبه للناس من حوله فإنه سيجد فى مقابلها رحمة أعظم منها تنتظره فى الدنيا والآخرة من الرحمن الرحيم جل وعلا.

فهو يرحم كل من رحم عباده، قال ﷺ: { الراحمون يرحمهم الرحمن .. ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء }^(٣).

^١ - صحيح البخارى - باب رحمة الولد - الجزء الثامن - ص ٨ - رقم الحديث ٥٩٩٩.

^٢ - منهاج المسلم ص ١٦٦.

^٣ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب فضل الأمر بالمعروف - الجزء السادس - ص ٤٢٣ - صحيح الجامع

- رقم الحديث ٣٥٢٢.

ومن هذه الرحمة رحمة المسكين، والمسكين هو العاجز عن الكسب القاعد الذى أسكنته الحاجة فلا يقوى على العمل وليس له من يعوله فرحمته واجبة والمسكنة لها معانى .. قد يكون معناها الحاجة وقد يكون معناها التواضع وقد يكون معناها الذل.

قال ﷺ: { اللهم أحيى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين }^(١).

فالمسكنة هنا ليس معناها الذل أو الحاجة إنما معناها التواضع أى أحيى متواضعا لله واحشرنى فى زمرة المتواضعين لله عز وجل.

ومن هذه الرحمة رحمة ابن السبيل، فابن السبيل هو الغريب الذى انقطعت به السبل فلا دار له فى البلد ولا أهل، قال الله عز وجل:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ...﴾ (١٧٧) [البقرة].

فإذا كان هناك غريب قد نزل بلدتك وحل بها واستأجر مسكنا فلا شك أنه يكون فى الغالب منكسرا لغرفته وقلة معارفه وانعدام أقربائه فينبغى أن يرحم وأن يتجاوز له عن بعض ذلله وأن يستضاف ويزار الحين بعد الحين تعويضا له عن أقاربه وأصدقائه، قال الحبيب ﷺ: { سبعة تصل الميت فى قبره .. من علم علما، أو ورث مصحفا، أو حفر بئرا، أو غرس نخلا، أو بنى لله مسجدا، أو بنى دارا لابن السبيل }^(٢).

ومن الرحمة رحمة الأرامل والأيتام، ومن أعظم من يحتاج إلى الرحمة الأرامل والأيتام فقد فقدوا عزيزا عليهم وقائما كان يقوم بأمرهم ويدبر شئونهم بعد الله عز وجل وقد وردت نصوص من الكتاب والسنة تحث على إكرام اليتيم والإحسان إلى الأرامل وترغب فى صلتهم ومواساتهم وتحذر من أذاهم، عن سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: { أنا وكافلا ليتيم فى الجنة وقال بأصابعه السبابة والوسطى }^(٣).

١- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب فضل الزهد - الجزء العاشر - ص ٣٧٥ - وصحيح الجامع - رقم الحديث ١٢٦١ .

٢- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب وصول ثواب بعض الأعمال للميت - الجزء الثانى - ص ١٣٠ - وصحيح الترغيب والترهيب - رقم الحديث ٧٣ .

٣- صحيح الأدب المفرد - باب كن لليتيم كالأب - ص ٧٥ - رقم الحديث ١٣٥ - صحيح .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { الساعى على الأرملة والمسكين المجاهد فى سبيل الله }^(١).

وبين سبحانه وتعالى أن من أسباب اقتحام العقبة الإحسان إلى الأيتام.

قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكُ رَقَبَةً ۚ أَوْ إِطْعَمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۚ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۚ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۚ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ۚ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۚ﴾ [البلد].

ومن الرحمة رحمة المصاب: فلا يكون إنسان فى هم وحزن وبكاء لألم حلَّ به وأنت تضحك وتبتسم، قال النبى ﷺ: { مثل المؤمنين فى توادهم وتراحهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى }^(٢).

والزيارة فى الله ونقصد الأحوال والمواساة لمن مات له ميت والوقوف بجانبه عند المصيبة للتخفيف عنه ويكون ذلك أحيانا بتذكيره بالله وتقوى الله والصبر على المصائب والاحتساب، قال تعالى:

﴿...وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝﴾ [البقرة] ^(٣).

^١ - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - باب الإحسان إلى الأرملة والمساكين - الجزء الثالث - ص ٣٢٣ - رقم الحديث ١٨٧٨ .

^٢ - صحيح الجامع الصغير وزياداته - باب حرف الميم - الجزء الثانى - ص ١٠١٨ - رقم الحديث ٥٨٤٩ .

^٣ - موسوعة الأخلاق ص ٩١٣ .

الفصل الثانى

الالتزام بأداب الصلاة

الحمد لله رب العالمين العزيز الغفار الواحد القهار مقدر الأقدار مصرف الأمور مكور الليل على النهار تبصرة لأولي العقول والأبصار. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على سنته ومنهجه إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي سيدنا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ ﴿٣٢٨﴾ [البقرة]

قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»^(١).

الصلاة فى اللغة: الدعاء^(٢)،

وفى الشرع عبارة عن: أركان مخصوصة وأذكار معلومة بشرائط محصورة فى أوقات مقدرة، وقيل هى عبارة عن عبادة ذات أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم^(٣).

منزلة الصلاة فى الإسلام: الأصل فى العبادات الإسلامية الالتزام والطاعة والأداء سواء فهم المسلم أسرار ما يؤديه أم لم يفهم وسواء عَلمَ الحكمة التى من أجلها شُرعت هذه العبادة أو تلك أم لم يفهم، فإذا هو علم فقد جمع بين الحسينيين ودخل فى زمرة العالمين الذين رفع الله شأنهم واصطفاهم من بين خلقه.

١- صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام - رقم الحديث ٢٠ - الجزء الأول - ص ١٨٧ .

٢- معجم التعريفات - ص ١١٤ .

٣- الفقه الميسر وضوء الكتاب والسنة - إعداد نخبة من العلماء - تقديم معالي الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ - الطبعة الأولى - مكتبة طالب العلم .

قال تعالى:

﴿...يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [١١] [المجادلة].

والصلاة فرض فرضه الله على المسلمين يؤدونه خمس مرات في اليوم وهي مجموعة من الحركات المنظمة التي تتخللها قراءة نصوص وأذكار معلومة.

والصلاة في الإسلام لها منزلة لا تعادلها منزلة أي عبادة أخرى فهي عماد الدين الذي لا يقوم إلا به وهي أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات أوجبها سبحانه وتعالى بمخاطبة رسوله ليلة المعراج من غير واسطة.

قال أنس رضي الله عنه:

«فُرضت الصلاة على النبي ﷺ ليلة أُسرى به خمسين ثم نقصت حتى جُعِلت خمسة ثم نودى يا محمد إنه لا يبدل القول لدي وإن لك بهذه الخمس خمسين» (١).

وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة أن أمر بالمحافظة عليها في الحضر والسفر والأمن والخوف وقال مبيناً كيفيتها في السفر والحرب (٢).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء].

وقد شدد التنكير على من يفرط فيها وهدد الذين يضيعونها قال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [٤] الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [٥] [الماعون].

١- رواه النسائي والترمذي وأحمد في مسنده - باب مسند أنس بن مالك - الجزء ٢٠ - ص ٨٦ - رقم الحديث ١٢٦٤١ - إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٢ - فقه السنة - ص ٧٠.

ولأن الصلاة من الأمور الكبرى التي تحتاج إلى هداية خاصة، سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعله هو وذريته مقيماً لها فقال:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم].

فيا أخوتي في الإسلام هناك آداب الصلاة التي يجب أن يتحلّى بها المسلم لينال القرب من العزيز الغفار ومن هذه الآداب:

أولاً: الطهارة:

تستلزم الصلاة الطهارة الحسية والطهارة المعنوية، والطهارة في اللغة النزاهة عن الأقدار^(١).

وفي الشرع: رفع ما يمنع الصلاة من حدث أو نجاسة بالماء أو رفع حكمة قال تعالى:

﴿... فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة].

وشرع الله تعالى الطهارة وفرضها على عباده لأنها تجعل المسلم يبني حياته على الطهارة والنظافة فيعيش نظيف البدن والملبس والمكان فينعم بالراحة في صحته وفي سلوكه كما تجعله يحرص على أن يكون طاهر القلب طيب القول فالمسلم الحق هو الذي يكون طاهر الظاهر والباطن .

والطهارة لها أربع مراتب:

المرتبة الأولى:

تطهير الظاهر عن الأحداث وهو الحدث الأكبر والحدث الأصغر وطهارة الجسم والثياب قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا

بُرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ....﴾ [المائدة].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا لا يا رسول الله لا يبقى من درنه شيء. قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»^(٢).

١ - الفقه الإسلامى الميسر - ص ٥٠ .

٢ - رواه مسلم - كتاب المساجد - باب المشي إلى الصلاة - رقم الحديث ٢٨٣ - ص ٦٦٧ .

المرتبة الثانية:

تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام بالبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وقال جل وعلا:

﴿...إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾

[العنكبوت].

المرتبة الثالثة:

تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والذائل الممقوتة ومنها تطهير القلب عن الحقد والغل والكرهية والحسد والبغضاء وغيرها.

المرتبة الرابعة:

تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .
فيجب تطهير القلب من العقائد الفاسدة والذائل المسمومة فلا يصل الإنسان إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارتها بالمحمودة ما لم يفرغ من تطهير قلبه عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق المحمود .
ثانيا: ومن آداب الصلاة قضاء الحاجة قبل الصلاة وترك الدنيا:

قيل: من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة.
عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال ﷺ «إذا صليت فصل صلاة مودع فالمصلي سائر إلى الله تعالى بقلبه يودع هواه ودنياه وكل شيء سوى الله سبحانه وتعالى»^(١).
ولهذا ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصلي أحد بحضرة الطعام ولا يصلي وهو يدافع الأخبثين»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إذا وضع العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء»^(٣).

١ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب وصايا النبي ﷺ - الجزء التاسع - ص ٤٧٠ ، صحيح الجامع - رقم الحديث ٧٤٢.

٢ - رواه أحمد في مسنده - رقم الحديث ٢٤١٥١ - مسنده صحيح .

٣ - رواه أحمد ومسلم في مسنده - كتاب المساجد ومواضع الصلاة .

وربما تجد في الصلاة ظاهرة عجيبة لم يسلم منها أحد إلا الذين استطاعوا أن يروضوا أرواحهم رياضة فيها فناء في الله بحيث لا يخطر على بالهم شيء سوى الله وهم المخلصون لله سبحانه وتعالى بحيث لا يخطر على بالهم سوى الله جل وعلا فإنك تجد أعقد مشاكل الحياة لا يحسن التفكير فيها إلا وقت الصلاة والمسائل التي قد تعز على الإنسان فهماً تأتي في الصلاة لها حلول لتشغل الإنسان عن الوقوف بين يدي الله ولو عرفنا ذلك لعرفنا قول الحق سبحانه وتعالى حينما عرض علينا جدل إبليس لربه حينما قال:

﴿ قَالَ فِعْزَكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص].

وبعد ذلك قال: ﴿.... لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف] طريقة تؤكد بواقع التطبيق صدق قول إبليس: ﴿.... لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١﴾ ﴾. اشتهر أبو حنيفة بالفتوى والفتوى المعقدة تعرض عليه فكلماً ضرب واحداً مسألة من المسائل يذهب إلى أبي حنيفة بالفتوى ليستفتيه فيها ولو كان أمراً لا يتعلق بالعلم ولا بالتشريع. جاء رجل مرة وقال يا إمام إنني أودعت شيئاً من مالي في حفرة ثم ردمتها وبعد ذلك طال عليّ العهد فلم أعرف الآن أين موقعها يا إمام، قال أبو حنيفة يا بني ليس لي في ذلك شيء وليس في أي باب من أبواب الفقه ولكن أحتال لك اذهب فإذا ما صليت العشاء قف بين يدي ربك متهجداً ليلتك ثم أحضر في الصباح وقل ماذا حدث لك، وبينما الإمام يصلي الصبح فلما فرغ أقبل الرجل وقال يا إمام أبشر فقد وجدت المال، قال وكيف وجدته؟، قال وقفت كما قلت متهجداً وبينما أنا في الصلاة خطر لي خاطر يقول ألا تذكر أنك كنت قست المسافة بالخطوة لو قست المسافة بكذا من الخطوات من جهة الجنوب لأمكنك أن تصل إلى موقع المال فقطعت صلاتي وذبحت لأخذ المال، قال أبو حنيفة والله لقد عرفت أن الشيطان لا يدعك تتم ليلتك مع ربك فهلاً أتممتها شكراً، قال الرجل أفعل إن شاء الله.

فيجب إخراج كل ما بهم الإنسان من مشاغل الحياة لأن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر فكان يفزع إلى الصلاة ويقول أرحنا بها يا بلال^(١)، فكان رسول الله ﷺ قرّة عينيه في الصلاة.

^١ - أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد - ج: ٢ - ص: ٣٨٣ - ح م: ٦٣٧.

قال ﷺ: «حب إليّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»^(١) فيجب أن نترك شواغل الدنيا وإذا أحسننا بالوسوسة فنقول كما قال جلا في علاه

﴿وَمَا يَزَعْنِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢) [فصلت].

ولكننا أصبحنا لا نستعيز ولكن نأخذ الحبل أو الفكرة من الشيطان ونسطح بتفكيرنا وعقلنا. وعلى ابن آدم أن يتبه أنه في حضرة ربه وأن الفكرة التي ألقاها إليه إبليس في أمر دنياه فقارن بين أمور دنياك وموقفك في حضرة ربك، فعليك أن تحجل إن كنت مؤمناً حقاً أن ترجح أمور الحياة الدنيا على موقفك في حضرة ربك، وحين يعرف الشيطان ذلك فسيتحول إلى أحد سواء فيجب على الإنسان ألا يكون مشغول القلب بشيء قل أو كثر لأن الأكياس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما أمروا لأن الدنيا لا تساوي عند الله عز وجل جناح بعوضة^(٣).

وقال عمر رضي الله عنه على المنبر: (إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل الله صلاة، قيل وكيف ذلك قال لا يتم ركوعها وتواضعها وإقباله على الله فيها)^(٤).

ثالثاً: البُعد عن علامات النفاق في الصلاة والافتداء بصلاة رسول الله ﷺ:

على المسلم الحق أن يبعد عن علامات النفاق في الصلاة، عن علاء بن عبد الرحمن أنه دخل على أنس بن مالك في داره بالبصرة حين انصرف من الظهر قال فلما دخلنا عليه قال: أصليتما العصر فصلينا، فلما انصرفنا الساعة من الظهر، قال تقدموا فصلوا العصر فقمنا فصلينا، فلما انصرفنا قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تلك صلاة المنافقين يجلس يترقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»^(٥).

١ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب جمع الرسول ٨ - الجزء الثاني - ص ٤٠ ، صحيح الجامع - رقم الحديث ٣١٢٤ .

٢ - لا تحزن إن الله معنا ، ص ١٠٠ ، ١٠١ باختصار .

٣ - قوت القلوب - ج: ٢ - ص ١٧٠ .

٤ - أخرجه أحمد في مسنده - ج: ٢٠ - ص: ٢٦٤ - ح م: ١٢٩٢٩ إسناده صحيح .

وقال الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ

اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء).

فهذه صفات في الصلاة من علامات النفاق:

١ - الكسل عند القيام إليها قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾.

٢ - ومراعاة الناس في فعلها وتأخيرها قال تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾.

٣ - قلة ذكر الله فيها قال تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٤ - التخلف عن جماعتها.

٥ - نقرها .

عن أبي عبد الله الأشعري قال: «قام رسول الله ﷺ بأصحابه ثم جلس في طائفة منهم فدخل رجل منهم فقام يصلي فجعل يركع وينقر في سجوده ورسول الله ﷺ ينظر إليه فقال: ترون هذا لو مات مات على غير ملة محمد، ينقر صلاته كما ينقر الغراب الدم إنما مثل الذي يصلي ولا يركع في سجوده كالجائع لا يأكل إلا ثمرة أو ثمرتين فما يغنيان عنه فأسبغوا الوضوء وويل للأعقاب من النار فأتموا الركوع والسجود»^(١).

وقد جعل رسول الله ﷺ لص الصلاة وسارقها شراً من لص الأموال وسارقها .

ففي المسند من حديث أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، قالوا يا رسول الله كيف يسرق من صلاته، قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها أو قال لا يقيم صلبه في الركوع والسجود»^(٢).

فصرح بأنه أسوأ حالاً من سارق الأموال ولا ريب أن لص الدين شر من لص الدنيا.

١- صحيح ابن خزيمة - باب إتمام السجود - الجزء الأول - ص ٣٢٢ - رقم الحديث ٦٦٥ .

٢- أخرجه ابن حبان - ج: ٥ - ص ٢٠٩ - ح م: ١٨٨٨ إسناده حسن .

وفي المسند من حديث سالم عن أبي الجعد عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة مكيال، فمن وفى وفى له ومن طفف فقد علمتم ما قول الله في المطففين»^(١).

فإذا توعده الله سبحانه وتعالى بالويل للمطففين في الأموال فما الظن بالمطففين في الصلاة؟ وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد فأحسن وضوءه، ثم قام إلى الصلاة فأتى ركوعها وسجودها والقراءة فيها قالت له الصلاة: حفظك الله كما حفظتني ثم يصعد بها إلى السماء ولها ضوء ونور وفتحت لها أبواب السماء حتى تنتهي إلى الله تبارك وتعالى فتشفع لصاحبها. وإذا ضيع وضوءها وركوعها وسجودها والقراءة فيها قالت له الصلاة: ضيعك الله كما ضيعتني ثم يصعد بها إلى السماء فتغلق دونها أبواب السماء ثم تُلف كما يلف الثوب الخرق ثم يضرب بها وجه صاحبها»^(٢).

وهذه الصلاة قد ضيعها الناس من عهد أنس بن مالك رضي الله عنه ففي صحيح البخاري من حديث الزهري قال: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت له ما يبكيك فقال لا أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضيعت^(٣).

ولكن لنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة في صلاته فقد قال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٤) ولنر معاً كيفية صلاة النبي ﷺ من حين استقباله القبلة وقوله (الله أكبر) إلى حين سلامه.

كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة واستقبل القبلة ووقف في صلاة رفع يديه إلى فروع أذنيه واستقبل بأصابعه القبلة ونشرها وقال (الله أكبر) ثم كان يمسك شماله بيمينه فيضعها عليها فوق المفضل ثم يضعها على صدره ثم يقول (سبحانك) اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي

١- شرح السنة للبغوي- باب الخشوع في الصلاة - الجزء ٢ - ص ٢٦١ .

٢ - صحيح البخاري- كتاب الوضوء - باب ما جاء في الوضوء - حديث حسن صحيح .

٣ - أخرجه البخاري- باب تضييع الصلاة - ج: ١ - ص ٥٣٠ .

٤ - أخرجه البخاري- باب الأذان للمسافر - الجزء الأول - ص ١٢٨ - رقم الحديث ٦٣١ .

كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد، وكان يقول أحياناً (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين) ثم يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثم يقول بسم الله الرحمن الرحيم ولم يسمعهم ثم يقرأ فاتحة الكتاب فإن كانت الصلاة جهرية أسمعهم القراءة وإن كانت سرية لم يسمعهم وكان يقطع قراءته مداً آية آية ثم يقف عند كل آية فيقول (رب العالمين) ثم يبتدئ (الرحمن الرحيم) ويقف ثم يبتدئ (مالك يوم الدين) على ترسل وتمهل وترتل يمد الرحمن ويمد الرحيم وكان يقرأ (مالك يوم الدين) وإذا ختم السورة قال (آمين) يجهر بها ويمد تارة، ومتوسطة تارة، ثم يرفع يديه إلى أن يحاذي بهما فروع أذنيه كما رفعها في الاستفتاح ثم يقول الله أكبر ويخر راکعاً ويضع يديه على ركبتيه فيمكنها من ركبتيه وفرج بين أصابعه وجافى مرفقيه عن جنبه ثم اعتدل وجعل رأسه حيال ظهره فلم يرفع رأسه ولم يصوبه وهصر ظهره أي مده ولم يجمعه ثم قال (سبحان ربي العظيم) ومكث قدر ما يقول القائل عشر مرات وقال سبح قدوس رب الملائكة والروح أو قال (اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربي خشع قلبي وسمعي وبصري ودمي ولحمي وعظمي وعصبي لله رب العالمين وربما كان يقول (سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة) ثم يرفع رأسه قائلاً (سمع الله لمن حمده) وربما قال (ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد، ثم يكبر ويخر ساجداً ولا يرفع يديه وكان يضع ركبتيه قبل يديه هكذا قال عنه وائل بن حجر وأنس بن مالك ثم يسجد على جبهته وأنفه ويديه وركبتيه وأطراف أقدامه ويستقبل بأصابع يديه ورجليه القبلة^(١).

^١ - الصلاة وأحكام تاركها لمحمد بن أبي بكر بن سعد شمس الدين - ج: ١ - ص: ١٦٠.

رابعاً: المحافظة عليها:

قال تعالى: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦) [النور].

وعن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «اللهم لا تدع فينا شقياً ولا محروماً ثم قال ﷺ، قال أندرون

من الشقي المحروم قالوا من هو؟ قال: تارك الصلاة» (١).

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْخَاسِرُونَ﴾ (٩) [المنافقون].

وسئل ﷺ أي الأعمال أفضل فقال: «الصلاة لمواقيتها» (٢) وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: «إذا

حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التي أوقدتموها فأطفئوها» (٣).

وقال تعالى: ﴿..... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤)، والصلاة هي أول ما يحاسب عليه العبد يوم

القيامة إن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسدت سائر عمله وهي العبادة التي أمر الله بالمحافظة عليها،

وقال سبحانه: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨) [البقرة]

حكم ترك الصلاة:

ترك الصلاة انسلاخ من الإسلام، ترك الصلاة جحوداً بها وإنكاراً لها كفر وخروج عن ملة الإسلام

يأجماع المسلمين أما من تركها مع إيمانه بها واعتقاده بفرضيتها ولكنه تركها تكاسلاً أو تشاغلاً عنها بما لا يعد في الشرع

عذراً فقد صرحت الأحاديث بكفره ووجوب قتله .

لقوله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه: «بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة» (٤).

١- مجلة البحوث الإسلامية - ج: ٧٧ - ص ٣٨ .

٢- أخرجه البخاري- باب وصايا النبي^٨- الجزء التاسع - ص ١٥٦ - رقم الحديث ٧٥٣٤ .

٣- إحياء علوم الدين - ج: ١ - ص ١٤٧ .

٤- أخرجه مسلم - باب بيان إطلاق اسم الكفر - الجزء الأول - ص ٨٨ - رقم الحديث ٨٢ .

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله عز وجل» (١).

رأي بعض العلماء:

الأحاديث المتقدمة ظاهرها يقتضي كفر تارك الصلاة وإباحة دمه ولكن كثيراً من علماء السلف والخلف ومنهم أبو حنيفة ومالك والشافعي على أنه لا يكفر بل يفسق ويستتاب فإن لم يتب قتل حداً عند مالك والشافعي وغيرهم (٢).

وقال أبو حنيفة لا يقتل بل يعزز ويجبس حتى يصلي لقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨)

[النساء].

وعن رسول الله ﷺ قال: «أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» (٣).

واعلم أن الله وحده وتعالى أوجب الصلوات الخمس وقد قال رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد كفر» (٤) فبالصلاة تحقيق العبودية وأداء حق الربوبية فهي تجمعنا على أن العبودية المطلقة لله وحدة والله سبحانه وتعالى حين كلفنا كلفنا بها تشريفاً لنا لأنه دعاك إليها ليعطيك وما دام دعاك ليعطيك فلا يستنكف العاقل أن يقبل عليها. معنى أنه دعانا في اليوم والليلة أنه لم يوصد أي لم يغلق بابه فسبحانه وتعالى بابه مفتوح وليس مغلقاً بل أنت حينما آمنت بالله أخذت مفتاح القرب من الله إن شئت لم تترك الله أبداً وتظل في حضرته دائماً فكرر لقاءه ما شئت وسل ما شئت على خلاف القادة والسادة ورؤساء البلد فهم

١- أخرجه البخاري- باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة - الجزء الأول - ص ١٤ - رقم الحديث ٢٥ .

٢- فقه السنة والسيد سابق ، ص ٧١ - ٧٢ .

٣- أخرجه البخاري- باب الحرص على الحديث - الجزء الأول - ص ٢١ - رقم الحديث ٩٩ .

٤- سنن الترمذي- كتاب الإيمان - ص ٢٦٢١ - وابن شعبة - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب ماجاء فيمن ترك الصلاة - رقم الحديث ١٠٧٩ .

حين يدعوننا يعطوننا شيئاً من حياتهم ولكن إذا أردنا لقاءهم قد نُجاب أو لا نجاب وإذا ما أُجبنا حدد الزمان وحدد المكان وحدد الموضوع ولكن الله يقول المفتاح معك القني في أي وقت وسلني أي شيء ولن أنهي أنا المقابلة كما يفعل عظماء دنياكم بل أنت العبد الذي تنهي المقابلة أما أنا فلا أملٌ حتى تملوا وهذه عز العبودية لأن عبوديتنا لإنسان مثلي من خلق الخلق عبوديته مبعوضة لأن السيد يأخذ خير عبده ولكن العبودية لله تجعل العبد يأخذ خير سيده إذن العبودية عبودية البشر للبشر مبعوضة.

فاجتهد يا بن آدم ولا تضع الفرصة وامثل لأمر الله لأنك لا تعلم ماذا ينتظرك غداً والله درُّ القائل:
إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى يُدنى من الأجل
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً إنما الربح والخسران في العمل^(١)

فالعامل من أخذ الدنيا بمقدار ما ينفعه في الآخرة وتزود من الأولى للثانية، قال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع هواه وتمنى على الله الأماني»^(٢).

وإن قوماً ألهمتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل، فحافظ يا ابن آدم على أداء الصلاة ولا تظلم نفسك بتركها أو التكاثر منها لا تشغالك بالدنيا الفانية بل سارع بالمحافظة على الصلوات قبل أن يأتي يوم الحسرة والخسران يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون .

خامساً: التجميل بما يستر العورة:

حُسن المظهر وجمال المنظر سمة من سمات المؤمن لا تفارقه وخلق من أخلاق المسلم لا يغادره إذاً هو جزء من شطر الإيمان .

قال تعالى: ﴿وَيَا بَنِي آدَمَ فَطَهِّرْ﴾ [المائدة: ٤] [المدرثر]. قال ﷺ: «الطهور شرط الإيمان»^(٣).

^١ - جامع العلوم والحكم

^٢ - شرح السنة للبعوي - باب الاجتناب عن الشهوات - الجزء الرابع عشر - ص ٢٠٩ .

^٣ - أخرجه مسلم - باب فضل الوضوء - الجزء الأول - ص ٣٠٢ - رقم الحديث ٢٢٣ .

وصدق القائل:

حسن ثيابك ما استطعت فإنها زين الرجال بها تعز وتكرم
ودع التخشن في الثياب تواضعاً فالله يعلم ما تكن وتكتم^(١)
وقال ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٢).

وجمال المظهر لا يعني الكبر فالكبر ينبع من الباطن ويتربع في القلب^(٣)، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر». قال رجل إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً قال إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس والله جميل يحب الجمال نظيف يحب النظافة»^(٤).
قال تعالى:

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَشَرُّوْا وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾ [الأعراف].
والمعنى عليكم يا بني آدم أن تتجملوا بما يستر عورتكم وأن تتجملوا بلباس زينتكم كلما صليتم أو طفتم بالكعبة .

ولقد كان السلف الصالح يقفون بين يدي الله في عبادتهم وهم في أكمل زينة فهذا الإمام الحسن بن علي كان إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه فقليل له يا ابن بنت رسول الله ﷺ لماذا تفعل ذلك فقال إن الله جميل يحب الجمال فأنا أحب أن أتجمل لربي لأنه هو القائل:

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٥) وعورة الرجل من سرته إلى ركبته والركبة من العورة أما المرأة فجميع بدنها عورة سوى وجهها وكفيها وكلما كان اللباس الذي يلبسه الرجل أو المرأة نظيفاً وساتراً كان ذلك أكمل وأفضل .

^١ - نزهة المجالس ومنتخب النفائس - ج ١ - ص ١٣٧ .

^٢ - أخرجه الترمذي - ج ٥ - ص ١٢٣ - باب ما جاء في أن الله تعالى يحب .

^٣ - خلق المؤمن ، ص ٣١٠ .

^٤ - أخرجه مسلم - باب تحريم الكبر - الجزء الأول - ص ٩٣ - رقم الحديث ١٤١ .

^٥ - التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمحمد سيد طنطاوي - ج ٥ - ص ٢٦٥ .

سادساً: الخشوع في الصلاة:

قال تعالى: ﴿..... وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف]. قال النبي ﷺ: «الصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة» (١).

فالصلاة صلة بين العبد وربّه وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعاً لرب العالمين وقد ورد أن الله تعالى إذا تجلّى لشيء خضع له ومن يتحقق بالصلة في الصلاة تلمع له طوابع التجلي فيخشع .
وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله تعالى جنة عدن وخلق ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها تكلمي» (٢) فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ [المؤمنون]. والفلاح للذين هم في صلاتهم خاشعون وبانعدام الخشوع ينعدم الفلاح. قال الله تعالى: ﴿..... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه] وإذا كانت الصلاة للذكر فكيف يقع فيها النسيان قال تعالى:

﴿..... لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ.....﴾ [النساء].

فمن قال ولا يعلم ما يقول كيف يصلي وقد نهاه الله عن ذلك فالسكران يقول الشيء لا بحضور عقل والغافل يصلي لا بحضور عقل فهو كالسكران وقيل كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء وينظرون يميناً وشمالاً فلما نزل قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون]

جعلوا وجوههم حين يسجدون وما رؤي بعد ذلك أحد منهم ينظر إلا إلى الأرض. والخشوع في الصلاة حضور القلب وسكون الجوارح فأحسن آداب المصلي أن لا يكون مشغول القلب بشيء قل أو كثر لأن الأكياس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما أمروا لأن الدنيا لما كانت شاغلة بالقلب رفضوها رغبة في القرب للعلی الكبير .

١- إحياء علوم الدين - ج ١ - ص: ١٥٠ .

٢- أخرجه الهيثي في مجمع الزوائد - ج: ١٠ - ص: ٣٩٧ - ح م: ١٨٦٣٨ بإسناد جيد .

تقول السيدة عائشة رضوان الله عليها وهي تحدثنا عن صلاة الحبيب ﷺ كان يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه^(١).

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «إذا قام العبد إلى الصلاة المكتوبة مقبلاً على الله بقلبه وسمعه وبصره انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وروي عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما يعقل منها»^(٢).
وورد في لفظ آخر: منكم من يصلي الصلاة كاملة ومنكم من يصلي النصف والثلث والرابع والخمس حتى يبلغ العشر. فلا بد من حضور القلب وسكون الجوارح.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإن قال العبد بسم الله الرحمن الرحيم قال الله عز وجل مجدني عبدي وإذا قال الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدي عبدي وإذا قال مالك يوم الدين قال الله تعالى فوض إلي عبدي فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال الله تعالى هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»^(٣).

فيقرأ الفاتحة وما بعدها بحضور قلب وجمع هم ومواطأة بين القلب واللسان بحظ وافر من الخشوع والخشية والتعظيم والوقار.

وكان الإمام علي رضي الله عنه إذا أراد أن يدخل في الصلاة انتفخ وتغير لونه واصفر وجهه فيسألوه يا إمام مالك ممتقع اللون مصفر الوجه فيقول لأنني قادم على أداء أمانة عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها^(٤).

^١ - أخرجه مسلم - ج: ١ - ص: ٢٩٦ - ح م: ٣٨ باب وجوب قراءة الفاتحة.

^٢ - أخرجه العراقي في تخريج حديث علوم الدين - ج: ١ - ص: ٣٦٣

^٣ - أخرجه مسلم - باب وجوب قراءة الفاتحة - ج: ١ - ص: ٣٩٦.

^٤ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - ج: ١١ - ص: ٢٧٦.

وها هو حاتم الأصم العارف بالله يُسأل ويقال له يا حاتم كيف أنت إذا دخلت الصلاة فيقول حاتم إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامي والموت ورائي والجنة عن يميني والنار عن شمالي والصراط تحت قدمي والله مطلع علي ثم أتم ركوعها وسجودها فإذا سلمت لا أدري أقبلها الله أم ردها علي وعلى المؤمن عدم الالتفات الكثير في الصلاة لأن هذا ينافي الخشوع^(١).

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين يدي الرحمن فإذا التفت قال له الرب إلى من تلتفت إلى من هو خير لك مني ابن آدم أقبل إليّ فأنا خير لك ممن تلتفت إليه»^(٢).

وأبصر رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»^(٣) وقال ﷺ: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق قيل وما خشوع النفاق قال خشوع البدن ونفاق القلب»^(٤).
سابعاً: كثرة الدعاء:

إن الصلاة في اللغة هي الدعاء فكان المصلي يدعو الله تعالى بكل جوارحه فصارت أعضاؤه كلها الستة يدعو بها ظاهراً وباطناً ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والله عز وجل أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة فقال جل في علاه (ادعوني أستجب لكم) وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وإياك أن تقبل على الله بالدعاء لتجرب لأن التجربة مع الله شك وما دمت أنت تجرب مع الله فأنت في شك وأنت حين تدعو الحق ولا يعطيك فإنه يعطيك على قدر حكمته لا على قدر حكمتك وفهمك فأنت قد تطلب في صلاتك من الله شيئاً وأنت ساجد وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فلا يستجيب لك أي لا يعطيك مرادك ولكنه في واقع الأمر العقائدي استجاب لك بما يناسب حكمته وإن لم يستجب لك بما يناسب حكمتك أنت. إذا جاء لك ابنك فقال أريدك أن تشتري لي مسدساً فتخاف أن يعبث به ويلعب فيصيب إنساناً فتقول له بعد

١ - إحياء علوم الدين - المجلد الأول - ص ١٣٦.

٢ - أخرجه المتقي الهندي في كنز الأعمال - ج: ٧ - ص: ٥٠٥ ح م: ١٩٩٨٥.

٣ - الجامع الصغير وزياداته - ج: ١ - ح م: ١٢٨٩.

٤ - أخرجه المتقي الهندي - ج: ٨ - ص: ١٩٦ - ح م: ٢٢٥٢٥ والبيهقي في شعب الإيمان.

مدة وتسوف له في الأمر فأنت حين تفعل معه ذلك أعطيته فوق ما يريد هو لأنه أراد متعة يدل بها على لذته وأنت خفت عليه من الشر فأنت منعت عنه وفي منعك العطاء فيجب عليك إذا ما دعوت الله وأنت في صلاتك ثم لم يستجب لك فاعلم أنه لم يستجب لك على طريقة حكمتك وإنما استجاب لك على طريقة حكمته هو ولذلك يقول الحق جل في علاه

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْهُولًا﴾ [الإسراء] (١).

ويستحب الدعاء بعد التشهد الأخير وقبل السلام بما شاء من خيري الدنيا والآخرة، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم» (٢) (٣).

يُستحب الدعاء بين السجدين بما روى عن النبي ﷺ: «اللهم اغفر لي وعافني واهدني وارزقني» (٤). وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دُبر كل صلاة بهذه الكلمات: «اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر» (٥).

وكان سعد رضي الله عنه يعلمهن أولاده.

سابعاً: الاستغفار والتسبيح والتحميد والتكبير عقب الصلاة: ومنها ما روي عن ثوبان رضي الله عنه كان ﷺ إذا سلم قال: «أستغفر الله ثلاثاً» اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (٦).

١ - تفسير وخواطر الشعراوي ، ص ٥٨ .

٢ - المأثم: الإثم. المغرم: الدين.

٣ - أخرجه البخاري- باب الدعاء قبل السلام - ج: ١ - ص: ١٦٦ - ح م: ٨٣٢ .

٤ - أخرجه أحمد في مسنده - ج: ٢٢ - ص: ١٥٣ - ح م: ١٩٤١٠ . حديث حسن .

٥ - أخرجه البخاري- باب التعوذ من عذاب القبر - ج: ٨ - ص: ٧٨ - ح م: ٦٣٦٥ .

٦ - أخرجه مسلم - ج: ١ - ص: ٤١٤ - ح م: ١٣٥ باب استحباب الذكر .

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في أعقاب كل صلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(١).

ومنها ما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخذ بيده يوماً ثم قال له يا معاذ إني لأحبك فقال معاذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأنا أحبك أي أفتديك بأبي وأمي فقال له ﷺ: يا معاذ لا تتركن أن تقول بعد كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك^(٢).

ومنها ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «من سبح عقب كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبر ثلاثاً وثلاثين تلك تسع وتسعون ثم قال في تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت له خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»^(٣). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «من قرأ آية الكرسي عقب كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»^(٤).

^١ - أخرجه البخاري - باب ما يكره من كثرة السائل - ج: ٩ - ص: ٩٥ - ح م: ٧٢٩٢.

^٢ - أخرجه أحمد في مسنده - ج: ٢٦ - ص: ٤٣٣ - ح م: ٢٢١٢٦ إسناده صحيح.

^٣ - أخرجه النسائي في الكبرى - ج: ٩ - ص: ٦٣ - ح م: ٩٨٨٥.

^٤ - أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد - ص: ١٠٢ - ح م: ١٦٩٢٢.

الفصل الثالث

الجهاد الأكبر

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونؤمن به ونتوكل عليه ونثنى عليه الخير كله نشكره ولا نكفره ونخلع ونترك من يفجره .. اللهم إياك نعبد ونحمد ولك نصلي ونسجد. وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين .. وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله اللهم صلّ عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على منهاجه إلى يوم الدين .. أما بعد:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [١] ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [١٠] [الشمس].

عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»^(١). والمقصود بالجهاد الأكبر هنا هو جهاد النفس.

تعريف الجهاد:

الجهاد هو الدعاء إلى الدين الحق^(٢).

وقيل: إن الجهاد ينقسم إلى قسمين حسى ومعنوى فالحسى هو قتال الكفار وأعداء الجبار، والمعنوى جهاد النفس فى كل صغيرة وكبيرة حتى تستقيم مع الخالق^(٣).

وقيل: إن المجاهدة لغةً هى المحاربة، وفى الشرع محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب فى الشرع، ومعنى النفس هى لطيفة ربانية بها قوام البدن يصدر عنها الشر غالباً، وقيل إن النفس هى الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية وسماها الحكيم الروح الحيوانية.

^١ - مسند الإمام أحمد - باب مسند فضالة بن عبيد - ص ٢٨٦ - رقم الحديث ٢٣٩٦٥ - إسناده صحيح .

^٢ - معجم التعريفات - ص ٧٢ .

^٣ - الفقه الإسلامى الميسر - ص ٢٧١ .

مراتب النفس:

اعلم أن للنفس سبع مراتب:

- أولها: النفس الظالمة أو الأمارة بالسوء: وهي التي لا يصدر عنها إلا الشر وهي التي تميل إلى الطبيعة البدنية وتأمّر بالذات والشهوات الحسية وتجذب القلب إلى الجهة السفلية فهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة.
- المرتبة الثانية: وتسمى بالنفس اللوامة وبالمجاهدة تسمى بالملهمة: وهي التي تنورت بنور القلب قدر ما تنبّهت به عن سنة الغفلة كلما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية أخذت تلوم نفسها وتتوب.
- المرتبة الثالثة: وتسمى بالنفس المطمئنة: وهي إلى تنورت بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتحلقت بالأخلاق الحميدة.
- المرتبة الرابعة: وتسمى النفس الراضية: وهي التي ترضى عن ربها.
- المرتبة الخامسة: وتسمى مرضية: وهي التي يرضى عنها ربها.
- المرتبة السادسة: تسمى النفس الكاملة.
- المرتبة السابعة: تسمى النفس المكملّة: وهي درجة النبيين والصديقين^(١).

جهاد النفس أكبر من جهاد الأعداء:

قد نبه النبي ﷺ إلى أن جهاد النفس أكبر وأخطر من جهاد الأعداء وقال في ذلك لأصحابه بعد أن رجعوا من ميدان القتال «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(٢) ثم بيّن لهم أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس وذلك لأنك في ساحة القتال تجاهد عدواً ظاهراً يتضح لك عدده وأساليبه فجهاد الأعداء مهما تكن شدته وقوته فإنه مؤقت بزمان ومحدد بمكان، أما جهاد النفس فإنك تجاهد عدواً من نفسك ومن

^١ - الفقه الإسلامي الميسر - ص ١٠ .

^٢ - أخرجه العراقي في المغنى عن حمل الأثقال - ج: ٤ - ص ١٥٣٧ - ح م: ٢٣٥٩ - ورواه البيهقي وهذا إسناد فيه ضعف .

داخلك فإنه يعز عليك جهاده لأنها تلح عليك أن تشبع رغباتها، فجهاد النفس لا يكون مؤقتاً بزمان ولا محدداً بمكان بل هو دائم ولازم في كل مكان وزمان لأن شهواتها ونزواتها دائمة معها لازمة لها لا تنفك عنها في أى مرحلة من مراحل حياتها وإن كان بعضها يختلف عن بعض باختلاف المراحل والأطوار التى تمر بها حياة الإنسان كشهوة اللعب فى الطفولة والطمع فى الرجولة والسلطة فى الكهولة، وهذه الشهوات والغرائز وما يتصل بها لا بد لها من رقابة واعية وتقويم سليم وتوجيه رشيد وجهاد شاق وإلا انحرفت وسارت وراء شهواتها^(١).

وجهاد النفس يكون بأمر كثيرة منها:

أولاً: جهاد النفس بمخالفة الهوى:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ [النازعات]. الهوى كما قال ابن عباس: إله معبود^(٢) وأكثر الناس تحركهم أهواؤهم فيكون الهوى هو الباعث على العمل وهو فى الوقت نفسه الغاية التى يسعى صاحب الهوى إلى تحقيقها.

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ۖ وَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان].

فصاحب الهوى متعبد لهواه حباً وخوفاً ورجاءً ورضىً وسخطاً وتعظيماً وذلاً إن أحب لهواه وإن أبغض أبغض لهواه وإن أعطى أعطى لهواه فهو آثم عنده وأحب إليه من رضا مولاه^(٣). قال بعض الحكماء: من استولت عليه النفس صار أسيراً فى حب شهواتها محصوراً فى سجن هواها مقهوراً مغلوباً زمامه فى يدها تجره حيث شاء وتمنع قلبه من الفوائد.

وقال وهيب بن الورد: من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل فإنه لا يمكن إصلاح القلب ما لم يمنع نفسه عن التمتع بالمباح فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت فى المحظورات^(٤) فالإنسان قد يتعرض

١ - تفسير الشعراوي - جزء ١٣ - ص ٥٣٣ .

٢ - المستطرف فى كل فن مستطرف

٣ - تعطير الأنفاس من حديث الإخلاص - جمع وترتيب الدكتور سيد بن حسين العفانى - دار العفانى للنشر - ط ٥ - ص ٤٧٢ .

٤ - إحياء علوم الدين - ج: ٣ - ص ٦٦ .

فى كثر من الأوقات لكثير من المؤثرات والمغريات والمثيرات فإن لم يكن قوى النفس منيع الجانب عظيم الأخلاق فإنه لا يصمد أمام عوامل الإغراء ولا يصبر على المكارم، ومن ثم كانت حاجته إلى الأخلاق السوية والقوية كحاجته إلى تقويم غرائزه وتهذيب ميوله ونزعتة الشخصية (فقوم نفسك بالأخلاق تستقم).

اعلم ابن آدم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جانبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير وأمرت بتزكيتها وتقويمها إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن ملذاتها. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۝١ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ۝١٠﴾ [الشمس]. فإن أهملت النفس جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاقبة والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير إلى النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عبادة الله راضية مرضية. وعليك بأن تعظ نفسك وتذكرها يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد غباوة وحمقاً، ألا تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت سائرة إليها إحداهما على القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشغلين باللهو واللعب أما تعلمين أن الموت يأتى بغتة والقبر صندوق العمل، ويحك يا نفس لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فانظري يا نفس فيما أمرك ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة وإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمي الصحة قبل السقم والفرار قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها بمخالفة أهوائك وشهواتك^(١).

ثانياً: مجاهدة النفس بترك ظلم النفس:

اعلم أن الظلم كالجور وهو نوع من الاعتداء أو القهر أو الانتقاص إذا الظلم انتقاص من حق فما بالنا عندما ينتقص الإنسان من حق نفسه أى يظلم نفسه فيكون مظلوماً من نفسه وظالماً نفسه فالإنسان بظلمه لنفسه يكون غير أمين عليها، ظلم النفس يكون بأن تحقق لها شهوة عاجلة لتورثها شقاء دائماً.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران].

١ - إحياء علوم الدين - جزء ٤ - ص ٢٨٠، ٢٨٢.

إن فعل الفاحشة قد يمنع النفس لحظة ولكن سيورها شقاء دائماً فالنفس الأمارة بالسوء هى التى أكلت حقوق الناس وظلمتهم ولكنها فى نفس الوقت ظلمت نفسها وأعطاها متعة عاجلة وقادتها إلى شقاء دائم^(١).

فعليك يا بن آدم بأن لا تظلم نفسك بالشهوات لأنها شقاء وهلاك وإن كانت نفسك تزينا لك فإنها لحظة ويأتى بعدها الندم والحسرة، فاحذر من ظلم نفسك بأن تبيعها بثمان رخيص وتشترى الحياة الدنيا بثمان غالٍ وهى نفسك التى يجب عليك المحافظة عليها بالأعمال الصالحة وترك ظلمك لها، فكم من أشخاص زينت لهم الحياة الدنيا فباعوا أنفسهم فيها بالخسران المبين لأنهم خسروا آخرتهم التى هى الباقية للحياة الدنيا الفانية واحذر من نفسك التى تزين لك المعصية فى الخفاء وتظهر الصلاح والتقوى أمام الناس حتى لا تدخل فى دائرة النفاق والرياء وأنت لا تعلم بذلك وتكون من الذين قال عنهم سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤) [الكهف].

فكم من قصص تُقص وروايات تُروى بأنه يوجد الكثير من الأشخاص الذين يعيشون على المعاصى وفعل الفواحش فى الخفاء ويُظهر الاحترام والصلاح أمام الناس. فهل يتركهم الله سبحانه وتعالى؟! لم يتركهم المولى عز وجل بل سيفضحهم وهذا جزء المناق الذى يجعل المولى أهون الناظرين إليه، يخشى الناس ولا يخشى الله، فكم ظلم هذا لنفسه، فعليك بعدم ظلم نفسك بأن ترجع إلى الله تعالى وتتقرب منه بالأعمال الصالحة.

وتعلم قوله تعالى: ﴿... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤) [الحديد].

فعليك أن تستحضر أنك لا تغيب عن الله طرفة عين فتستحي أن تعصيه وعندما تتيقن أن الله ينظر إليك فكيف تعصيه فسارع بالمجاهدة بعدم ظلمك لنفسك.

ثالثاً: محاسبة النفس:

مما يدفع الرياء والهوى ويبعده أن يحاسب المرء نفسه، يحاسبها قبل أن يقدم على العمل وينظر فى همه وقصده، فالمرء إذا نفى الخطرات قبل أن تتمكن من القلب سهل عليه دفعها وذلك أن بداية الأفعال من

١ - منهاج المؤمنين فى القرآن الكريم - ص ٢٨١ - اختصار وتصرف.

الخطرات، فالخطرة النفسية والهـم القـلبي قد يقومـان حتـى يصـبـحـا وسـواسـاً، والوسوسة تصير إرادة، والإرادة الجازمة لا بد أن تكون فعلاً.

قال الحسن:

كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة تثبت فإن كانت لله أمضاها. والتثبت في الخطرات إنما يكون بعرض همه وخطراته على الكتاب والسنة فيجعلها دليـله ويعاتبها إذا رأى فيها ميلاً إلى المخلوقين يا نفس تعلقتِ به في أيدي المخلوقين واتبعتِ شهوات الغافلين وعظمتِ أقدار المخلوقين ولم تعظمي رب العالمين بل جعلتـيه أهون الناظرين ^(١).

قال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلَّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام].

فيجب علينا محاسبة النفس والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها لأنك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل فيقول لنفسه لو توفاني الله سبحانه وتعالى ماذا أتمنى؟ أتمنى أن يرجعني إلى الحياة الدنيا حتى أعمل فيها صالحاً.

قال تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ ۝١١ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٢﴾ [المؤمنون].

فاحسبي يا نفسي أنك قد توفيتي ثم رددتني إلى الحياة الدنيا فاعلمي صالحاً قبل أن يأتي يوم الحسرة، الله سبحانه وتعالى سيحاسب على كل صغيرة وكبيرة إنه سبحانه يعلم السر وأخفى.

١ - كتاب حديث تعطير الأنفاس من حديث الإخلاص - ص ٤٧٠.

قال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنًا لِّرَوْا أَعْمَلَهُمْ ۖ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

وقال تعالى:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۖ ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

فعرف أرباب العقول والبصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات فيتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم محاسبة النفس ومجاهدتها.

رُوي عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: «الكيس من دان نفسه-أي حاسبها-وعمل لما بعد الموت»^(١).

وقال عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنها قبل أن توزن وتتهيأ للعرض الأكبر»^(٢).

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۖ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر].

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له: أوصني يا رسول الله، قال: «إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامض وإن كان غياً فانتبه عنه»^(٣).

^١ - مسند الإمام أحمد - باب حديث شداد بن أوس - الجزء الثامن والعشرون - ص ٢٥٠ - رقم الحديث ١٧١٢٣ - إسناده ضعيف .

^٢ - أخرجه الترمذي - ج: ٤ - ص ٦٣٨ - ح م: ٦٤٥٩ .

^٣ - أخرجه المتقي الهندي - في كنز الأعمال - ج: ١٥ - ص ٧٩٤ - ح م: ٤٣١٤٩ - وقال العراقي إسناده ضعيف .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»^(١).

قال إبراهيم التيمي:

مثلت نفسي في الجنة أكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار أكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلاها، فقلت لنفسي: يا نفس أي شيء تريدين، فقالت أريد أن أُرَدَّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً، قلت: فأنتِ في الأمانة فاعلمي^(٢).

فيجب على الإنسان محاسبة نفسه وخاصة محاسبة أعضائه السبعة التي هي أمانة عنده فيجب أن يوصي أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والقلب واليد والرجل. فيوصي العين فيحفظها عن النظر إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فإن الله تعالى سيسأله عن ذلك.

قال تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

[النور].

فيجب أن يشغلها بالنظر إلى أعمال الخير للارتقاء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومطالعة الكتب للاتعاظ والاستفادة.

قال تعالى في حديث قدسي: «ضمنت لابن آدم الجنة إذا ضمن لي ما بين فكيه وما بين فخذه»^(٣) إذا حفظت لله عرضك فاعلم أن الجنة مضمونة عند رافع السماء بلا عمد.

^١ - أخرجه البخاري- باب استغفار النبي^٨ - الجزء الثامن - ص ٦٧ - رقم الحديث ٦٣٠٧ .

^٢ - إحياء علوم الدين - ج: ٤ - ص ٤٠٥ .

^٣ - أخرجه النسائي- ج: ٥ - ص ٩٦ - ح م : ٢٥٩٠ .

وقال الحبيب ﷺ: «من أحب لله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان»^(١).

أتدري ماذا تقول أعضاء الجسم للسان كل يوم؟ يقول سيد المرسلين: «إن ابن آدم إذا أصبح فإن الأعضاء كلها تذكر اللسان وتقول يا لسان اتق الله فينا إنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا»^(٢) فيجب علينا أن نصون اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب ونشغله بذكر الله تعالى .

رابعاً: مجاهدة النفس بالأعمال الصالحة والعلم:

فيجب مجاهدة النفس بالأعمال الصالحة التي تقود الإنسان إلى الفلاح ورضوان الله تعالى وأن ينال جنة الفردوس .

قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون].

والمؤمنون هم في قلوب المسلمين مكانة لا تدانيها مكانة، إن الله تعالى لما أنشأ جنات عدن وشق أنهارها وغرس فيها أشجارها قال لها تكلمي بإذن الله، قالت: قد أفلح المؤمنون.

فاعلم يا بن آدم أنك ستقف أمام الحاكم العادل في ساحة القضاء يوم القيامة وسيسألك العلى الأعلى أربعة أسئلة وهى شبابك فيما أبليت وعمرك فيما أفنيت ومالك من أين اكتسبته وفيما أنفقته وعملك ماذا صنعت فيه .. فعليك بالمسارعة بالأعمال الصالحة حتى تُرضى الله عنك.

وقيل لإبراهيم بن أدهم:

ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: ادعوني أستجب لكم؟ قال: لأن قلوبكم ميتة، قيل: وما الذى أماتها؟ قال: ثمان خصال؛ عرفتم حق ربكم ولم تقوموا بحقه، قرأتم القرآن ولم

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب الحب في الله - الجزء الرابع - ص ٤٩ - الصحيح الجامع - رقم الحديث ٥٩٦٥ .

^٢ - عجلة الراغب المتمنى في تخريج كتاب عمل اليوم والليلة لابن السني - باب في حفظ اللسان - رقم الحديث ١ - إسناده حسن .

تعملوا بحدوده وقلتم نحب الله ورسوله ولم تعملوا بسنته، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا...﴾ [فاطر] فوطأتموه على المعاصي، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتهم عيوب الناس أمامكم فأسخطم ربكم، فكيف يستجاب لكم؟! (١).

وتكرار العلم والتعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق].

فعلية أن يشترط على نفسه الاستقامة والانقياد للحق فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتهذيب يؤثر فيها. قال تعالى:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سُئِلَ رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال ﷺ: تقوى الله وحسن الخلق، وسُئِلَ عن أكثر ما يدخل النار، فقال: الأجوفان الفرج والفم» (٢). فعلى المؤمن مجاهدة النفس بالأعمال الصالحة والعلم فيعلم أن الله عز وجل يعلم السر وأخفى وأنه مطلع عليه في كل صغيرة وكبيرة وأن كل كلمة سيتلفظ بها ستكتب.

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق]. وعليه أن يعلم أن حسن الخلق وتقوى الله تكون سببا في دخوله الجنة وأن يحافظ على فرجه ويمسك لسانه لأنها أكثر ما يدخلان النار.

^١ - جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عاصم النمري القرطبي - ج: ١ - ص ٦٨٩ - ح م : ١٢٢٠.

^٢ - سنن الترمذي - باب ما جاء في حسن الخلق - الجزء الرابع - ص ٢٦٣ - رقم الحديث ٢٠٠٤ - هذا حديث صحيح غريب.

خامساً: مجاهدة النفس بمعرفة مداخل الشيطان:

القلب متجاذب بين الشيطان والملئك:

فقد قال ﷺ: «في القلب لمتان لمة من الملئك إيعاد بالخير وتصديق للحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وتعالى وليحمد الله، ولة من العدو "الشيطان" إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم». (١)

قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة].

فإن الإنسان إن اتبع الهوى وانكب على الشهوات تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عسًا للشيطان، أما إن جاهد نفسه في الطاعات بالبعد عن الشهوات ولم يسلطها على نفسه صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم .

العلاج في دفع الشيطان:

ذكر الله تعالى وتطهير القلب من الصفات المذمومة وعمارتها بالصفات المحمودة .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].
القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر فلا يخنس ولا ينزجر.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر، فإذا شيطان الكافر دهين سمين وكاسى وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك مهزول قال أنا مع رجل إذا أكل سمى الله فأظل جائعاً وإذا شرب سمى الله فأظل عطشاناً وإذا لبس سمى الله فأظل عرياناً، فقال شيطان الكافر: ولكنني مع رجل لا يفعل شيئاً من ذلك فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه» (٢).

^١ - الجامع الصحيح للسنن والسانيد - باب من وظائف الملائكة - الجزء الأول - ص ٢٧٥ .

^٢ - إحياء علوم الدين - ج ٣ - ص ٣٧ .

كان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح: اللهم إنك سلطت علينا عدواً بصيراً بقلوبنا يرانا هو وقييله من حيث لا نراهم اللهم آيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير، قال: فتمثل له إبليس يوماً في طريق المسجد، فقال له: يا بن واسع هل تعرفني؟ قال: ومن أنت، قال: أنا إبليس، قال: وما تريد، قال: أريد أن لا تعلم أحداً هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك، قال: والله لا أمنعها ممن أراد فاصنع ما شئت^(١).

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان الشيطان يأتي النبي ﷺ بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاورهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض ومن شر ما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن، فقال ذلك فطفت شعلته وفر على وجهه^(٢).

سادساً: جهاد النفس بمعرفة عقوبات المعصية:

فمن عقوبات المعصية أنها تصغر النفس وتقمعها وتدنسها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحققر كل شيء كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝١ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝٢﴾ [الشمس].

والمعنى قد أفلح من قدرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الإخفاء ومنه قوله (يُدْسُهُ فِي التُّرَابِ)، فالعاصي يدس نفسه في المعصية ويخفي مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به قد انقمع عن الله وانقمع عن الخلق^(٣).

^١ - إحياء علوم الدين - ج ٣ - ص ٣٧ .

^٢ - أخرجه العراقي في المغني عن حمل الأثقال - ج: ٤ - ص ١٥٥٩ - ح م: ٢٤٠٠ .

^٣ - أحاديث الجمعة ومواعظها - عبد الحميد كشك - ص ٤٦ .

سابعاً: ومن المجاهدة اتهام النفس ومقتها:

من دلائل الإخلاص وعلامات المخلصين اتهامهم لأنفسهم بالتقصير في حق الله وعدم القيام بأداء العبودية لملك الملوك بل ومقتهم لأنفسهم ولا يرونها أهلاً لأي فضل.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون].

وهذا الصديق رضي الله عنه يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني المهلك^(١). وكان الربيع بن خيثم يبكي حتى يبيل لحيته فيقول: أدركنا أقواماً كنا في جنبهم لصوصاً^(٢). وكان حسن البصري رحمه الله كثيراً ما يعاتب نفسه ويوبخها ويقول: تتكلمين بكلام الصالحين القانتين العابدين وتفعلين فعل الفاسقين المرائين والله ما هذه صفات المخلصين^(٣).

ولكن الله جل وعلا من رحمته يحب الرفق بالنفس فيأداء العبادات حيث إن دين الإسلام دين يسر في أحكامه رفيق في شرائعه وفي عقائده.

يقول ﷺ: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدجلة»^(٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «دخل النبي ﷺ فإذا جبل ممدود بين الساريتين فقال: ما هذا الجبل، قالوا: هذا جبل لزينب فإذا فترت تعلق به، فقال النبي ﷺ: حلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد»^(٥). فمهما حاسب الإنسان نفسه فلن يسلم عن مقارنة معصية وارتكاب تقصير في حق الله فلا ينبغي أن يهملها فإن أهملها سهل عليها مقارنة المعاصي وأنس بها نفسه وعسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكه^(٦).

١ - أبو بكر الصديق - أول الخلفاء الراشدين لمحمد رضا وحققه الشيخ / خليل شيما - ج: ١ - ص ١٠١ .

٢ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ج: ٢ - ص: ١٠٨ .

٣ - غيث النفع في القراءات السبع - ج: ١ - ص ٦٥٥ .

٤ - الغدوة: السير أول النهار ، الروحة: السير آخر النهار ، الدجلة: السير آخر الليل .

٥ - صحيح البخاري - ص ٥٣ - رقم الحديث ١١٥٠ .

٦ - إحياء علوم الدين - جزء ٤ - ص ٣٧١ .

فعلينا بمحاسبة أنفسنا ومجاهدتها بالأعمال الصالحة التي تقربنا من المولى عز وجل وهذا هو الجهاد الأكبر.

جهاد النفس وقصة الذبيح إسماعيل عليه السلام:

جهاد النفس يهدف إلى مقاومة النفس الهوى لئلا تتردى في القبائح. وجانب الجهاد في قصة الذبيح هو جهاد النفس فإن الله تبارك وتعالى خلق كل ما على الأرض ومن عليها وخلق فيه غريزة حب الخلود في الأرض ولذلك لما أراد إبليس أن يغوى آدم لم يقل هل أدلك على شجرة التفاح أو على شجرة القمح إنما قال له: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه]،

لأن إبليس كان يعرف أننا قد خلقت فينا غريزة حب الخلود فكلنا يجب الخلود على وجه هذه الأرض مهما كان هواؤها سموماً ومهما كان طعامها زقوماً فالكل يجب الخلود وليس ذلك قاصراً على أبناء آدم وحدهم إنما يشمل جميع المخلوقات، قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَلَّوْا عَلَىٰ وَادٍ تُحْمِلُ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل] ١٨.

وكونه عليه السلام سيدنا إسماعيل يصبر على قضاء الله مع أن بني آدم جميعاً يحبون الخلود على هذه الأرض قال تعالى:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَازِلِ أَدْبَاجًا فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَابَعَتْ أَفْعَالُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات] ١٠٢.

هذا هو جهاد النفس لو أنه سار وراء رغبات نفسه لاعتذر لأبيه وقال له يا أبت كيف تسول لنفسك أن تذبح ابنك، ولرفض ولكنه أطاع الخالق عز وجل وهل يتركه المولى عز وجل (١).

قال تعالى: ﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات] ١٠٧.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت] ٦١.

١ - عبد الحميد كشك - الخطب المنبرية - جزء ٥ - ص ١٦٠، ١٦٢.

الفصل الرابع

قيام الليل

الحمد لله الواحد القهار العزيز الغفار يكور الليل على النهار تذكرة لأولي العقول والأبصار وتبصرة لذوي الأبواب وأشهد أن لا إله إلا الله البر الكريم الرؤوف الرحيم وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وحببيه وخليله الهادى إلى صراط مستقيم والداعى إلى دين قويم صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين وآل كلٍّ وسائر الصالحين .. أما بعد ،،،

فقد قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل»^(١).

تعريف قيام الليل:

القيام لله هو الاستيقاظ من نوم الغفلة والنهوض عن سنة الفطرة عند الأخذ في السير إلى الله والمراد بالقيام هنا الصلاة. والليل زمن الظلمة من بعد العشاء إلى الفجر^(٢).

الخلق خلقوا لعبادته جل وعلا:

الله سبحانه وتعالى خلق الجن والإنس للعبادة قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥١) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٢) ﴾ [الذاريات].

العبادة تعني طاعة العابد للمعبود في أمره ونهيه والعبادة ليست له سبحانه إلا لمصلحة الخلق جميعاً لأنها هي التي تسعدهم في الدنيا وتنجيهم في الآخرة ولا يعود على الله منها شيء لأنه سبحانه الغني عن خلقه فلا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم.

^١ - أخرجه مسلم - باب فضل صوم المحرم - الجزء الثاني - ص ٨٢١ - رقم الحديث ١١٦٣ ، مسند أبي يعلى

الموصلى - باب الأعرج - الجزء الحادي عشر - ص ٢٨٢ - رقم الحديث ٦٣٩٥ - إسناده صحيح.

^٢ - معجم التعريفات - ص ١٥٣ .

يقول المولى عز وجل في الحديث القدسي: {يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً} ^(١).

فهم جميعاً خلقوا لعبادته سبحانه وتعالى وهذا تصريح منه سبحانه أنهم خلقوا للعبادة فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهد فإنها دار فناء لا محل لإخلاد. قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْزِلْنَا لَهَا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يونس].

فإذا كان هذا حال الدنيا وحالنا وما خلقنا له فحق على المكلف أن يذهب بنفسه مذهبالأخيار ويسلك مسلك أولي النهي والأبصار. وأرشد ما يسلكه من المسالك التأدب بما صحَّ على نبينا سيد الأولين والآخرين وأكرم الصادقين واللاحقين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين .

فضيلة قيام الليل:

قيام الليل قُربى إلى الله سبحانه وتعالى وبها تنال محبة الله تعالى. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولإن سألني لأعطينه وإن استعاذني لأعيذنه» ^(٢).

^١ - أخرجه مسلم - باب تحريم الظلم - الجزء الرابع - ص ١٩٩٤ - رقم الحديث ٢٥٧٧ .

^٢ - أخرجه البخاري - باب التواضع - الجزء الثامن - ص ١٠٥ - رقم الحديث ٦٥٠٢ .

والمراد هنا بالوليّ المؤمن قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم

مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

فمن آذى مؤمناً فقد آذنه الله أي أعلمه الله أنه محارب له والله تعالى إذا حارب العبد أهلكه فليحذر

الإنسان من التعرض لكل مسلم.

أما قوله تعالى .. وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه .. فيه دليل على أن فعل الفريضة

أفضل من النوافل.

وقوله تعالى .. ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه .. ضرب العلماء رضا الله عنهم لذلك

مثلاً فقالوا مثل الذي يأتي بالنوافل مع الفرائض ومثل غيره كمثّل رجل أعطى لأحد عبديه درهماً ليشتري

به فاكهة وأعطى آخر درهماً ليشتري به فاكهة فذهب إلى أحد العبدین فاشتري فاكهة فوضعها في قوصرة

وطرح عليها ريحاناً ومشموماً من عنده ثم جاء فوضعها بين يديّ السيد وذهب الآخر واشترى الفاكهة في

حجره ثم جاء فوضعها بين يديّ السيد على الأرض فكل واحد من العبدین قد امتثل لكن أحدهما زاد من

عنده القوصرة والمشموّم فيصير أحب إلى السيد فمن صلى النوافل مع الفرائض يصير أحب إلى الله والمحبة

من الله إرادة الخير فإذا أحب عبده شغله بذكره وطاعته وحفظه من الشيطان واستعمل أعضائه في الطاعة

وحبب إليه سماع القرآن والذكر وكرّه إليه سماع الغناء وآلات اللهو وصار من الذين قال الله في حقهم:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِيلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

[القصص].

وقال تعالى: ﴿..... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان].

فإذا سمعوا منهم كلاماً فاحشاً ضربوا عنه وقالوا قولاً يسلمون فيه وحفظوا أبصاره عن المحارم فلا

ينظر إلى ما لا يحل له وصار نظره نظر فكر واعتبار وتسير حركاته باليدين والرجلين كلها لله تعالى ولا يمشي

فيما لا يعنيه ولا يفعل بيده شيئاً عبثاً بل تكون حركاته وسكناته لله تعالى.

وقال تعالى في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ مِنْهُمْ رِئْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّاسِ

يَهْتَفُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَا لَأَسْفَارٍ لَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات].

والإحسان أن تفعل شيئاً فوق ما افترضه الله ولكن من جنس ما افترضه الله والمحسن الذي يدخل في مقام الإحسان هو من يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فهو سبحانه وتعالى يرى كل خلقه. فالرؤية الإيمانية هي أن تؤمن بأن ترى ما هو غيب أمامك وتكون هذه الرؤية أكثر يقيناً من رؤية العين لأنها رؤية بصيرة^(١).
وقول رسول الله ﷺ: «حينما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

ولنا العبرة في سيدنا حذيفة رضي الله عنه سأله رسول الله ﷺ فقال له كيف أصبحت أي كيف حالك الإيماني .. فقال حذيفة يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة ينعمون وإلى أهل النار يعذبون. أي أن الذهب تساوى مع الحصى ونحن نعرف أن من حُسن العبادة في الإسلام ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلاً وصلاة التهجد والذي يدخل مع ربه في مقام الإحسان فهو لا يصلي فقط صلاة العتمة ولكنه يقوم الليل فذلك دليل على أنه يقرر الصلاة فنحن قد فرض الله علينا خمس صلوات فتزيدها لتصل إلى عشرين ونحن حين ندخل في مقام الإحسان ونصلي في الليل ونكون بارزين إلى السماء فلا يفصلنا شيء عنها وننظر فنجد نجوماً لامعة تحت السماء الدنيا وأهل السماء ينظرون إلى الأرض فيجدون مثلما نجد من النجوم المتلاثلة اللامعة في الأرض ويسألون عنها فيقال لهم إنها البيوت التي يصلي أهلها آناء الليل وهم يسجدون وكل بيت في هذا يضيء كالنجوم لأهل السماء، لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه فيزيد من صلواته في الليل.

١ - خلق المسلم في القرآن الكريم - ص ٣٨.

٢ - أخرجه البخاري - باب سؤال جبريل - الجزء الأول - ص ١٩ - رقم الحديث ٥٠.

وسأل رجل رسول الله ﷺ عن الفروض الأساسية المطلوبة منه فذكر له أركان الإسلام ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة فقال الرجل والله لا أزيد على هذا ولا أنقص فقال ﷺ «أفلح إن صدق»^(١).

وبذلك دخل الأعرابي في نطاق المفلحين. إذا فالذي يزيد على هذا يدخله الله في مقام المحسنين. فالإحسان هو أن تفعل فوق ما كلفك الله مستشعراً أنه يراك فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فقيام الليل له فضل كبير لأن الله سبحانه وتعالى نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطئ القلوب النائمة فتعرضوا لتلك النفحات واعلموا أن النفحات بالليل أرحم لما في قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل.

وفي الخبر الصحيح عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال «إن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم فيسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إياه»^(٢).

وصلاة الليل تكسو الوجه نوراً. وقيل للحسن رحمه الله ما بال المتجهدين من أحسن الناس وجوهاً.. قال لأنهم خلوا بالرحمن فلبسهم نوراً من نوره.

وقت قيام الليل وعدد ركعاته:

صلاة الليل تجوز في أول الليل ووسطه وآخره ما دامت الصلاة بعد صلاة العشاء ولكن أفضل أوقاتها تأخيرها إلى الثلث الأخير من الليل، عن عمر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل الأخير فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجب له ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له»^(٤).

^١ - أخرجه البخاري - باب الزكاة من الإسلام - ج: ١ - ص ١٨ - ح م: ٤٦.

^٢ - مسند أبي يعلى الموصلي - باب مسند جابر - الجزء الثاني - ص ٤٢٢ - رقم الحديث ١٩١ - رجاله رجال الصحيح.

^٣ - أخرجه ابن خزيمة - ج: ١ - ص: ٥٦٨ - ح م: ١١٤٧ - إسناده صحيح.

^٤ - وجالة الراغب المتمنى - باب كيف الاستغفار - الجزء الأول - ص ٤٢٤ - رقم الحديث ٥٤١.

عدد ركعاته^(١):

ليس لصلاة الليل عدد مخصوص ولا حد معين فهي تتحقق ولو بركة الوتر بعد صلاة العشاء، روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بصلاة الليل ورغب فيها حتى قال عليكم بصلاة الليل ولو ركعة»^(٢).

والأفضل المواظبة على إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة، قالت عائشة رضي الله عنها «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره عن إحدى عشرة ركعة يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثاً، فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال يا عائشة إن عيني تنام ولا ينام قلبي»^(٣).

النبي ﷺ وقيام الليل:

فقد كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتورم قدماه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له لما تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.. قال أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٤).

وقيام الليل هو مما أمر به الله عز وجل رسوله صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ (١) قُمْ إِلَى اللَّيْلِ لَا قَلِيلًا (٢) يَصْفَهُ، وَأَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل]

وذلك لزيادة إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة الله عز وجل لأن وقت الليل فيه سكون الأصوات

فتكون نفس القائم فيه أقوى استعداداً لتلقى الفيض الرباني^(٥).

١ - فقه السنة - ص ١٥٤ .

٢ - من سنن الدارمي - باب في قيام الليل - الجزء الثاني - ص ٧٨٩ - رقم الحديث ٢٧٢٤ .

٣ - أخرجه البخاري - باب قيام النبي - الجزء الثاني - ص ٥٣ - رقم الحديث ١١٤٧ .

٤ - أخرجه البخاري - باب ليغفر الله لك - الجزء السادس - ص ١٢٥ - رقم الحديث ٤٨٣٧ .

٥ - تفسير الشعراوي - الجزء ١٩ - ص ٢٤٨ .

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يصلي إحدى عشرة ركعة تُعنى في الليل يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر ثم يضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المنادي للصلاة»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان ينام أول الليل ويقوم آخره فيصلي»^(٢).
وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي ﷺ ليلة فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوء قيل ما هممت قال هممت أن أجلس وأدعه»^(٣).

وكان صلوات الله ﷺ يحث على قيام الليل ويأمر أصحابه صلوات الله عليهم بقيام الليل .. قال ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم فإن قيام الليل قربى إلى الله عز وجل وتكفير للذنوب ومطرودة للداء عن الجسد ومنهي عن الإثم»^(٤).

سلفنا الصالح وقيام الليل:

كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح ويقال إن سفيان الثوري رحمه الله شبع ليلة فقال إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله، فقام تلك الليلة حتى أصبح^(٥).

وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم فلما كان في جوف الليل قامت الجارية فقالت يا أهل الدار الصلاة الصلاة فقالوا أصبحنا أطلع الفجر فقالوا وما تصلون إلا المكتوبة قالوا نعم فرجعت إلى الحسن فقالت يا مولاي بعثني من قوم لا يصلون إلا المكتوبة رُدني فردها^(٦).

١- صحيح ابن حبان - باب ذكر وصف صلاة المصطفى - الجزء السادس - ص ٢٤٧ - رقم الحديث ٢٦١٤ - إسناده قوي .

٢- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب صفة صلاة الوتر - الجزء السابع والعشرون - ص ١٤٥ - رقم الحديث ٢٤٨٢٣ - إسناده صحيح .

٣- أخرجه مسلم - باب استحباب تطويل القراءة - الجزء الأول - ص ٥٢٧ - رقم الحديث ٧٧٣ .

٤- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب فضل قيام الليل - الجزء السابع - ص ١٢٣ .

٥- تزيكية النفوس - ج: ١ - ص: ٥٠ .

٦- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف - ج: ١ - ص: ١٤٧ .

وقال الربيع: بُتُّ في منزل الشافعي رضي الله عنه ليالي كثيرة فلم يكن ينام في الليل إلا يسيراً.
وقال أبو الجويرية: لقد صحبت أبا حنيفة رضي الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض
وكان أبو حنيفة يحى نصف الليل فمر يقوم فقالوا إن هذا يحى الليل كله فقال إنياًستحي أن أوصف بها لا
أفعل فكان بعد ذلك يحى الليل كله ويروى أنه ما كان له فراش بالليل^(١).

ويقال إن مالك بن دينار رضي الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية].

وقال المغيرة بن حبيب: رمقت مالك بن دينار فتوضاً بعد العشاء ثم قام إلى مصلاه فقبض على لحيته
فخنقته العبرة فجعل يقول حرّم شبيهة مالك على النار إلهي قد علمت ساكن الجنة وساكن النار فأَي الرجلين
مالك وأي الدارين دار مالك فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر^(٢).

آداب قيام الليل:

- أولاً: أن ينوي العبد عند نومه قيام الليل، فعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «من أتى فراشه وهو
ينوى أن يقوم فيصلي من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كُتِبَ له ما نوى وكان نومه صدقة من ربه»
(٣).

- ثانياً: أن يمسح النوم من وجهه عند الاستيقاظ ويتسوك وينظر في السماء ثم يدعو بما جاء عن رسول
الله ﷺ: لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك من ذنبي وأسألك رحمتك اللهم زدني علماً ولا ترغ قلبي
بعد إذ هديتنى وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

^١ - إحياء علوم الدين - ج: ١ - ص ٣٥٥.

^٢ - إحياء علوم الدين - ص ٣١٣.

^٣ - أخرجه أبو داود - باب ما جاء فيمن نام - ج: ٣ - ص ٣٦٨ - ح م: ١٣٤٤ حديث حسن.

- ثالثاً: أن يفتح صلاة الليل بركتين خفيفتين ثم يصلي بعدهما ما شاء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يصلي افتتح صلاته بركتين خفيفتين»^(١).
- رابعاً: أن يترك الصلاة ويرقد إذا غلبه النعاس حتى يذهب عنه النوم، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع»^(٢).
- خامساً: أن لا يشق على نفسه بل يقوم من الليل بقدر ما تتسع له طاقته ويواظب عليه ولا يتركه إلا لضرورة، عن عائشة رضي الله عنها قالت إن رسول الله ﷺ «سئل أيا العمل أحب إلى الله تعالى قال أدومه وإنقل»^(٣).
- سادساً: وعلى كل من يُسر له قيام الليل من الزوجة أو الزوج أن يسارع في الخيرات حتى يرحمه الله سبحانه وتعالى بأن يوقظ أهله أو الزوجة توقظ زوجها لقيام الليل أو أولادها لتنال رحمة الله تعالى ورضوانه ويكتبوا من الذاكرين لله كثيراً والذاكرات، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ «رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء»^(٤)، وقال ﷺ «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فإن أبت نضح في وجهها الماء»^(٥).
- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال .. قال رسول الله ﷺ «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبوا من الذاكرين لله كثيراً والذاكرات»^(٦).

^١ - أخرجه مسلم - باب الدعاء في صلاة الليل - ج: ١ - ص: ٥٣٢ - ح م: ١٩٧ .

^٢ - فقه السنة - ص ١٥٢ .

^٣ - أخرجه مسلم - باب فضيلة العلم الدائم - ج: ١ - ص: ٥٤١ - ح م: ٢١٦ .

^٤ - سنن أبي داود - باب قيام الليل - الجزء الثاني - ص ٤٧٧ - رقم الحديث ١٣٠٨ - إسناده قوي .

^٥ - سنن ابن ماجه - باب فيما جاء فيمن أيقظ - الجزء الأول - ص ٤٢٤ - رقم الحديث ١٣٣٦ - حسن صحيح .

^٦ - سنن أبي داود - باب الحث على قيام الليل - الجزء الثاني - ص ٧٠ - رقم الحديث ١٤٥١ - إسناده صحيح .

غواية الشيطان لابن آدم:

فالشيطان عندما يريد أن يغوي لا يجلس في البار ويجلس في أماكن الفسق لماذا؟ لأن الذين يغشون هذه الأماكن قد كفوه مؤونة الوسوسة. إذاً فموقع الشيطان من الإنسان في أصلح أعماله وفي أقربها إلى الله والصلاة لها هذه الأهمية من حيث إنها الصلة بين العبد وربّه، وتقوده إلى رضوانه، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى:

﴿...إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالشيطان يحاول جاهداً أن يفسد على الإنسان صلاته وخاصة صلاة قيام الليل والفجر. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»^(١).

فالشيطان كاللص واللص لا يحوم حول الخراب أبداً وإنما يحوم حول البيت العامر فإذا تيقظ صاحب البيت العامر وكان جالساً في نافذته فرأى اللص ثم تنحج ثم أفهمه أنه موجود ثم أفهمه أنه رآه فماذا يكون من موقف اللص؟ سيهرب من صاحب البيت العامر ويتعد عنه ولولا أن الشيطان يفسد علينا في العبادة لكننا كما قال رسول الله ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لطاروا للملأ الأعلى»^(٢).

فإن أول ما يعترض العبودية هو الشيطان إنه هو الذي يجعل الإنسان يتمرد على العبودية إن الإنسان يريد أن يصير عابداً فيجئ الشيطان ليزين له المعصية ويغويه عن الطريق المستقيم وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله في تزوين المعاصي فهو يدخل مع المخلوق في عراك ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه في عراك ولذلك يقال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يخنس أي يتراجع ووصفه القرآن بأنه الخناس إن الشيطان إنما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيداً عن الله ولذلك فالخلق يُعلم الإنسان فهو الذي خلقه فزوده بهذا الدواء ليكشف عنه الداء.

^١ - أخرجه البخاري - باب عقد الشيطان - الجزء الثاني - ص ٥٢ - رقم الحديث ١١٤٢.

^٢ - المغني عن حمل الأئقال - ج: ١ - ص ٢٤٤ - ح م: ٣ وقال العراقي: رواه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه.

قال تعالى:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]

إن الشيطان يرتعد فرقاً وعرشة من الاستعاذة بالله وعندما يتكرر ابتعاد الشيطان بهذه الكلمة فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن ينجح عن طاعة الله إلى المعاصي فعليه مجاهدة نفسه والشيطان ويعلم أن الله تعالى معه، مؤيده وناصره.

الأسباب التي بها تيسر قيام الليل:

(١) ألا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام: وكان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول يا معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فثربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتتحسروا عند الموت كثيراً، وقال علي بن أبي طالب: «شبع يحيى بن زكريا عليه السلام من خبز الشعير فنام عن ورده حتى أصبح فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى أوجدت داراً خيراً لك من دارى أم وجدت جواراً خيراً لك من جوارى وعزتي وجلالي يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقاً ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بعد الدموع ولبست الجلد بعد المسوح»^(١).

(٢) ألا يترك القيلولة بالنهار فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل.

(٣) ألا يحتجب الأوزار بالنهار فإن ذلك يكون بينه وبين أسباب الرحمة. قال رجل للحسن: «يا أبا سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهورى فما بالى لا أقوم فقال ذنوبك قيدتك»^(٢). وقال الثوري: «هرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته قيل وما ذاك الذنب قال رأيت رجلاً يبكي فقلت في نفسي هذا مراء». فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل وأخصها بالتأثير تناول الحرام ولذلك قال بعضهم كم من أكلة منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة وإن العبد ليأكل أكلة

^١ - حلية الأولياء - ج: ١٠ - ص ٦٤.

^٢ - قوت القلوب في معاملة المحبوب - ج: ١ - ص: ٧٥.

أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة.

(٤) سلامة القلب عن الحقد على المسلمين: وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا فالمستغرق لهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته.

(٥) خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل: فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذره كما قال طاووس: إن ذكر جهنم طير نوم العابدين. وكما حكى أن غلاماً بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله فقالت له سيده إن قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار فقال إن صهيماً إذا ذكر النار لا يأتيه النوم^(١).

(٦) أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار.

(٧) وهو أشرف البواعث الحب لله (الحب لله وقوة الإيمان): بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناجٍ ربه، وربه مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه فإذا أحب الله تعالى أحب الخلوة به وتلذذ بالمناجاة، وقال أبو سليمان أهل الليل في ليلهم ألد من أهل اللهو في لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا^(٢).

(٨) أن يجاهد نفسه ويجاهد الشيطان الرجيم قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۖ﴾ [فاطر].

^١ - إحياء علوم الدين - ج: ١ - ص: ٣٥٧.

^٢ - إحياء علوم الدين - ص ٣١٥.

الباب السادس

- الفصل الأول: تعلم القرآن.
- الفصل الثاني: آداب تعلم القرآن.
- الفصل الثالث: الالتزام بآداب الصيام.
- الفصل الرابع: البعد عن الغضب.

الفصل الأول

تعلم القرآن

الحمد لله رب العالمين، الهادي إلى الصراط المستقيم بكتابه الكريم، ليخرج الناس من ظلمة الجهل إلى نور العلم، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وأشهد أن محمداً رسول الله النبي الأمي علمه ربه فعلم أمة العالمين بما ينفعهم فى الدنيا والآخرة، وأيده سبحانه بالمعجزة الخاتمة التي تحيي القلوب لمعرفة خالق الكون. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين .. ثم أما بعد:

قال تعالى: ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...﴾ [الزمر].

عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١).

معنى العلم: هو وصول النفس لمعنى الشيء وقيل زوال الخفاء من المعلوم والجهل نقيضه^(٢).

معنى القرآن:

لغة: مصدر مرادف للقراءة. قرأ - قراء - قرأنا. على وزن فعلان بالضم كالغفران والشكران. قال ابن الأثير: «تكرر فى الحديث ذكر القراء والإقراء والقاري والقرآن والأصل فى هذه اللفظة الجمع، فكل شيء جمعه فقد قرأته وسمى القرآن لأنه جمع القصص والأمر والنهى والوعد والوعيد»^(٣). القرآن الكريم هو كلام الله أنزله على رسوله ﷺ فهو كلام موحى به من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ بقصد التحدي والإعجاز وليبين للناس منهج الله سبحانه وتعالى.

تعلم القرآن هو: فهم وتدبر ووصول النفس لمعاني القرآن فى التفسير وألفاظه وتعليم القراءات ومخارج الحروف وكل ما يحتويه كتاب الله تعالى من قصص وعبر وكل ما يراد به من أمر ونهى وحلال وحرام.

^١ - أخرجه البخاري - باب خيركم من تعلم القرآن - ج ٦ - ص ١٩٦ - ح م: ٥٠٢٧.

^٢ - معجم التعريفات - ص ١٣٠.

^٣ - لسان العرب - المجلد السابع - ص ٢٨٤.

الاهتمام بالعلم والتعليم:

اعلم أيها المؤمن أن العلم والتعليم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلب ووجد فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب لأنه شرف يثمر على صاحبه وفضل ينمى على طالبه. قال تعالى:

﴿....يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ....﴾ [المجادلة].

وقال بعض الأدباء: {العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف} ^(١).

وقال بعض البلغاء: {تعلم العلم فإنه يقودك ويسدك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيفك

وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك كبيرا ويصح همتك وأملك} ^(٢).

قال علي رضي الله عنه: {قيمة كل امرئ ما يحسن}.

أخذه الخليل فنظمه شعرا فقال:

لا يكون العلى مثل الدنى ولا ذو الذكاء مثل الغبى

قيمة المرء قدر ما يحسن المرء قضاء من الإمام على ^(٣)

لذلك أوجب الإسلام على المسلم والمسلمة تعلم ما تصحح به العقيدة والعبادة والمعاملة ولذلك قال

ﷺ: {فضل العلم خير من فضل العبادة} ^(٤).

وإن كان كذلك لأن العلم يبعث على فضل العبادة، والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون

عبادة فلزم علم الدين على مكلف وكذلك قال النبي ﷺ: {طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة} ^(٥).

وحضنا الإسلام على الاهتمام بالعلم والتعلم والتعليم كما جاء في الحديث النبوى: {من سلك طريقا

يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن

^١ - أدب الدنيا والدين - الباب الثاني - أدب العلم - ج: ١ - ص: ٣٦.

^٢ - المرجع السابق.

^٣ - أدب الدنيا والدين - ص ٤٥ : ٤٩ باختصار.

^٤ - أخرجه الهيثمى - فى مجمع الزوائد - باب فى فضل العلم - ج: ١ - ص: ١٢٠ - رقم: ٤٧٨. ورواه الطبرانى فى

الأوسط والبخارى بإسناد حسن.

^٥ - رواه الطبرانى فى الأوسط والبخارى بإسناد حسن وصحيح الترغيب والترهيب ج ١ - ص ٢٣٧.

العالم ليستغفر له من في السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فيالماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر^(١).

واعلم أن العلم بحر زخار لا يدرك له من قرار وطود شامخ ومن رام الوصول إلى إحصائه لم يجد إلى ذلك سبيلا كيف وقد قال تعالى مخاطبا خلقه: ﴿... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء]، فال مؤمن هو الذى يسعى إلى الوصول إلى ما ينفعه فى الدنيا والآخرة ويكون مكسبا له ومغنى به ينال الحسنات ويرفع الدرجات فحق على المكلف الاهتمام بالعلم وتعليمه.

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله قرينة لأنه معالم الحلال والحرام وبيان سبيل الجنة والمؤمنس فى الوحشة والمحدث فى الخلوة والجليس فى الوحدة والصاحب فى الغربة والدليل على السراء والمعين على الضراء وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار فى الدرجات العليا والمجالسة للملوك فى الدنيا ومرافقة الأبرار فى الآخرة. والفكر فى العلم يعدل الصيام ومذاكرته تعدل القيام وبالعلم توصل الأرحام وتفصل الأحكام وبالعلم يعرف الله ويوحده وبالعلم يطاع الله ويعبد^(٢).

تعلم القرآن:

اعلم أيها المؤمن أن للعلوم أوائل تؤدى إلى أواخر ومداخل تنفضى إلى حقائقها فليبتدئ طالب العلم بأوائرها لينتهى إلى أواخرها ومداخلها لتفضى إلى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الأول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لأن البناء على غير أسس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى، فمن الخطأ الجسيم فى العلم الإقبال على فن قبل البداية بأصل العلوم وأستاذ الفنون وأصل العلوم الإيمان بالله عز وجل وأستاذ الفنون القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا ضير من الإقبال على تعلم العلوم الشرعية طالما سبق بتعلم العقيدة والقرآن المجيد فكتابنا القرآن الكريم هو مفجر

^١ - أخرجه الترمذى - باب ما جاء فى فضل الفقه - ج ٥ - ص ٤٨ - ح م : ٢٦٨٢.

^٢ - أخرجه العراقى فى المغنى عن حمل الأثقال - ج: ١ - ص: ١٩ - ح م : ٥.

العلوم ومنبعها ودائرة شمسها ومطلعها فهو أجل الكتب قدراً وأعزها علماً وأعذبها نظماً وأبلغها في الكتاب ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر].

لا مخلوق ولا شبهه فيه ولا ارتياب أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء وأبان فيه كل هدى وغي فترى كل ذى فن منه يستمد وعليه يعتمد فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج حكم الحلال والحرام فيه من القصص والأخبار ما يذكر أولى الأبصار ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار إلى غير ذلك من علوم لا يقدر قدرها إلا من علم حصرها.

فالواجب على الجميع تعلم القرآن وتعليمه تلاوة وأحكاماً وتجويدا وتفسيرا وإعجازا وهذا الأمر ليس صعبا فمعظم الناس قد يتعلمون الإنجليزية أو الفرنسية أو اللغات الأخرى كالألمانية أو الفارسية ويشعرون أنهم وصلوا إلى القمة فلم يبالوا بوصولهم إلى القمة بتعلم القرآن الكريم فهو أصل العلوم به ترتفع المنزلة وتعلو قيمة المرء لأنه كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلماذا تتهافون على الدنيا والركون إليها وتقولون يصعب علينا تعلم القرآن الكريم على الرغم أنه نزل بلغتكم ولماذا يصير كلام الله صعبا وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ...﴾ [القمر].

فالله عز وجل أنزل كتابه تبياناً لكل شيء وجعله هدى وبرهاناً ويسره للتلاوة والهداية ونزله بلسان عربى مبين وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر كما أن الله تبارك وتعالى قيض لهذه الأمة من العلماء من يفسر هذا القرآن الجليل ويعملون على توضيح معانيه وتبليغه للناس لتتم بذلك الهداية فله عز وجل يشرح صدور من أراد تطبيق معانى القرآن الكريم يمد إليه يد المعونة لأن من تقرب لله عز وجل لن يخذله بل سيعينه ويهديه إلى الصراط المستقيم فله عز وجل يقول: {لا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به} ^(١).

هذا فى النوافل - الزيادة عن المفروض - فما بالك بتعلم القرآن كلام الله رب العالمين والعمل بما فيه فهذا يقودك إلى فضل العبادة لأنك ستؤديه على أكمل وجه لأنك اتخذت طريق العلم أولاً. فلذلك قال رسول الله ﷺ: {فضل العلم خير من فضل العبادة}.

^١ - أخرجه البخارى - باب التواضع - ج: ٨ - ص: ١٠٥ - ح م: ٦٥٠٢.

فعلى المؤمن أن يكون حريصا على تعلم القرآن مواظبا عليه ولا يطمع بالقليل مع تمكنه من الكثير وينبغي أن يأخذ بالاجتهاد فى التحصيل فى وقت الفراغ والنشاط فى قوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشاغل قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: {تفقهوا قبل أن تسودوا} ^(١) أى اجتهدوا فى كمال أهليتكم وأنتم أتباع قبل أن تسيروا سادة. وقول الشافعى: {تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه} ^(٢).

ومن تعلم القرآن تدبره:

وذلك امتثالا لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ^(٣) [النساء].

والتدبر فى اللغة:

النظر فى العواقب ويقال لمن نظر فى أمر قد أدبره، ومعنى الآية أفلا يتأملون القرآن ويتفكرون فيه، فالله عز وجل أمر عباده بتدبر القرآن وتفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة. قال ابن مسعود رضى الله عنه: {من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن} ^(٤).

وذلك لا يحصل لمجرد تفسير الظاهر. وبالجمله فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته وهذه العلوم لا نهاية لها وفى القرآن إشارة إلى مجامعها والمقامات فى التعمق فى تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهرة التفسير لا يشير إلى ذلك بل كل ما أشكل فيه على النظر واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات ففى القرآن إليه رموز ودلالات يختص أهل الفهم بدركها ^(٥).

^١ - تسودوا: أى تسبقوا سادة ورؤساء.

^٢ - صحيح البخارى - باب الاغتباط فى العلم والحكمة - ج: ١ - ص: ٣٥.

^٣ - فقه عمل اليوم والليلة - باب فائدة - ج: ١ - ص: ٢٨٤.

^٤ - إحياء علوم الدين - ج: ١ - ص: ٢٨٩.

^٥ - إحياء علوم الدين - ص ٢٥٢.

ولذلك قال ﷺ: {اقرأوا القرآن فالتمسوا غرائبه} (١).

وقال ﷺ في حديث على كرم الله وجهه: {والذى بعثنى بالحق نبيا لتفترقن أمتى عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل لأن فيه نبأ من قبلكم ونبأ ما يأتى بعدكم وحكم ما بينكم من خالفه من الجابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم فى غيره أضله الله عز وجل هو جبل الله المتين ونوره المبين وشفاء نافع، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقضى عجائبه} (٢).

يقول ابن القيم رحمه الله: {تحديق الناظر فى القرآن الكريم وتأمله فى معانيه وجمع الفكر على تدبره وتعلقه هو المقصود من إنزال قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق] (٣).

قال ابن القيم رحمه الله: {قلوب الناس عند سماع القرآن ثلاثة: رجل قلبه ميت فذلك الذى لا قلب له فهذا ليست الآية ذكرى فى حقه، والثانى: رجل له قلب حي مستعد لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التى يخبر بها الله عن الآيات المشهودة إما لعدم ورودها أو لوصولها إليه وقلبه مشغول عنها بغيرها فهو غائب القلب ليس حاضراً فهذا لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه، والثالث: رجل حي القلب مستعد تلتي عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع وأحضر قلبه ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه فهو شاهد القلب ملقى السمع فهذا القسم هو الذى يتنفع بالآيات المتلوة والمشهودة، فالأول بمنزلة الأعمى الذى لا يبصر والثانى بمنزلة الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه فكلاهما لا يراه والثالث بمنزلة البصير الذى قد حذق إلى جهة المنظور وأتبعه بصره وقابله على توسط من البعد والقرب فهذا هو الذى يراه} (٤).

١ - مسند أبى يعلى الموصلى - ج ١١ - ص ٤٢٦ - ح ٦٥٦٠ وقال حسين سليم أسد إسناده ضعيف .

٢ - أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال - ج: ١٦ - ص: ١٧٣ وقال العراقى فى المغنى عن حمل الأثقال حديث غريب وإسناده مجهول .

٣ - نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول - باب ثمار تدبر القرآن - ج: ٣ - ص ٨٤٣ .

٤ - نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول - باب فوائد القرآن - ص ٢٣٢٠ .

فعليك أخى المؤمن أن تعرض نفسك على القرآن آية آية أين أنت منها هل أنت مطبق لها قال الحسن: {إنما أنزل القرآن ليتدبره المؤمنون وليعملوا به فاتخذوا تلاوته عملاً}.

عن محمد بن كعب القرطبي قال: {لأن أقرأ فى ليلتى حتى أصبح إذا زلزلت والقارعة لا أزيد عليها وأتردد فيها وأفكر أحب إلى من أهد^(١) القرآن} ^(٢).

فوائد تعلم القرآن كثيرة منها:

(١) القرآن يذكر دائماً بعظمة الله وآيات قدرته فى الآفاق والأنفس حتى يخشع القلب ويستسلم لله. قال

تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾ (٥٣) [فصلت].

(٢) يذكرهم دائماً أن الله مع الإنسان يراقبه ويحصى عليه أعماله ثم يحاسبه عليه يوم القيامة. قال تعالى:

﴿... عَلِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ

إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [سبأ].

(٣) يضيء القلب نور الإيثار ويقيه ظلمات يوم القيامة ويبعده عن الشدائد ويهديه إلى الصراط المستقيم

ويشرح به صدره. قال تعالى: ﴿... وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ

وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

(٤) تعلم القرآن يجعل الإنسان حاصل على أصول العلم. قال ابن عبد البر: {القرآن أصل العلم فكتاب

الله لا يستغنى عنه أى مسلم أبداً} ^(٣).

(٥) يحسن الصلة بالله والأنس بجواره والأمن فى جانبه وفى حماه يطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق

وقال الفضيل: {كفى بالله محبا وبالقرآن مؤنسا وبالموت واعظا اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانباً} ^(٤).

١- أهد القرآن: أقرأه بسرعة.

٢- موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق - باب التأثر بآية - ج: ١ - ص: ٣٦١.

٣- جامع بيان العلم وفضله - ج: ٢ - ص: ١١٢٩.

٤- شعب الإيمان - باب معاني المحبة - ج: ٢ - ص: ٢٢.

وقيل لذي النون: ما الأنس بالله؟ قال العلم والقرآن^(١). فهو خير صاحب وخير صديق.

(٦) يعيش الإنسان مع القرآن ويتدبره فتتغير نظريته للموازن والمعايير والقيم ويرى الوجود أفضل بكثير من ظاهره المشهود إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده إنه الدنيا والآخرة لا الدنيا وحدها وما يناله الإنسان من شيء في هذه الأرض فهو زهيد بالنسبة لما ينتظره في عالم الآخرة فيطمئن ويسكن.

(٧) يثبت على الحق والخير والصلاح لأنه يرى أن الحق قوام هذا الوجود وأن الخير والصلاح والإحسان أصل الحق باق بقاءه في الأرض ينبجى من الضلال والشقاء في الأرض لأن من أعرض عن القرآن فله معيشة ضنك، ضنك: الانقطاع عن الله ضنك الحيرة والقلق والشك فما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله.

(٨) في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة فهو يصل القلب بالله فيسكن القلب ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن فهو شفاء من الهوى والدنس والطمع ونزعات الشيطان وفيه شفاء من الابتلاءات المختلفة في الشعور والتفكير فهو يعصم العقل من الشطط والزلزلة. في القرآن شفاء ورحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان وأشرقت وتفتحت بتلقى ما في القرآن من روح وطمأنينة وأمان.

قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.....﴾ [٨٢] [الإسراء].

(٩) القرآن تذكرة بأن الله مع الإنسان يراقبه ويحصى عليه أعماله ثم يحاسبه عليه يوم القيامة.

(١٠) يوجه القرآن القلب البشري إلى ذكر الله دائما في حالة السراء والضراء ويورد القصص التي تثبت الإيمان ويرسم صورة محبة للمؤمنين وصفاتهم ما ينتظرهم من الجزاء في الآخرة وصورة كراهة منفرة للكافرين وصفاتهم وما ينتظرهم من الجزاء في الآخرة.

(١١) تعلم القرآن يقودك إلى الصراط المستقيم، إن المؤمن الذي انشغل بالقرآن وبدراسته وبمداسته وتدبره وحفظه فإن ذلك يشغله عن الوقوع في المعاصي ومن ثم ينقله إلى صراط الله فهو ما بين حفظ

^١ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - باب ذى النون المصري - ج: ٩ - ص: ٣٩٤.

ومراجعة ودراسة ومدارسة لتفسير تلك الآيات وحرص على معرفة أسباب النزول وهكذا يجد الإنسان نفسه يخرج من علم إلى آخر حتى يصير في نهاية أمره عالماً من علماء المسلمين.

(١٢) علاج لقسوة القلوب: إن أعظم وسيلة لعلاج قسوة القلوب هي الإقبال على كتاب الله عز وجل:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَتَقَشَّرُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ [الزمر: ٢٣].

(١٣) القرآن يجعلك تزداد إيماناً، من أراد زيادة الإيمان يوماً بعد يوم فعليه بكتاب الله فقد قال تعالى:

﴿... وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا...﴾ [الأنفال: ٢].^(١)

حفظ القرآن والعمل به وتعليمه:

حفظ القرآن:

حفظ القرآن هو أول طريق العلم فلا يستطيع مسلم أن يتحصل على أى علم من العلوم الشرعية بغير القرآن فالقرآن يفتح لك كل أبواب العلم وكل أبواب الخير في الدنيا والآخرة، فحفظ القرآن من خصائص هذه الأمة المحمدية، قال ابن الجزرى رحمه الله: {ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة} ^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وقال القرطبي: {أى سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه فهل من طالب لحفظه معان عليه}.

وحفظ القرآن هو الأصل في تلقيه فلقد وصف الحق جل وعلا هذا القرآن بقوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...﴾ [العنكبوت: ٤٩].

^١ - تثببت أفئدة المؤمنين - تأليف الدكتور / سيد بن حسين العفاني - الطبعة الأولى - مكتبة معاذ بن جبل.

^٢ - فتاوى الشبكة الإسلامية - باب الاعتماد في جمع القرآن على الحفظ - ج: ٢ - رقم: ١١٩١.

وقال الإمام النووي: {كان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن يحفظ القرآن} ^(١) وقال ابن عبد البر: {طلب العلم درجات ومناقب ورتب لا ينبغي تعديها ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله ومن تعدى سبيلهم عامدا ضل، ومن تعداهم مجتهدا ذل فأول العلم حفظ كتاب الله وتفهمه} ^(٢) فمن أراد أن يتأسى بالسلف الصالح فعليه بحفظ القرآن.

العمل بالقرآن:

وهذا من أعظم آدابه وإن لم يكن أعظمها فقد أنزل القرآن للعمل به أصلا ومن لم يعمل به فقد هجره والله عز وجل يقول: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان]. فالقرآن الكريم نزل للعمل به وهذا هو أهم واجباتنا نحو القرآن أن نعمل بكل ما جاء في القرآن ونتخلق بأخلاقه فالأقتداء بنبينا محمد ﷺ الذي كان خلقه القرآن.

وقال النووي: {وقوله خلقه القرآن: هو أنه كان متمسكا بآدابه وأوامره ونواهيه ومحاسنه ويوضحه أن جميع ما قص الله تعالى في كتابه من مكارم الأخلاق مما خصه من نبي أو ولي أو حث عليه أو ندد به كان ﷺ متخلقا به، وكل ما نهى الله تعالى عنه كان ﷺ لا يحوم حوله}. قال تعالى: ﴿... يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ...﴾ [البقرة]. أى يعملون به ويتبعون أحكامه.

والواجب على قارئ القرآن أن يعمل به ويقيم حدوده كما أقام حروفه ويحل حلاله ويحرم حرامه ويعمل ويخشى من سوء الخاتمة، على من يقرأ القرآن ولا يعمل فهو شبيه بمن قال الله فيهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا...﴾ [الجمعة].

أخى المؤمن .. القرآن نزل للعمل به لا يوضع على الرفوف في المكتب أو يلف في حافظة من ذهب للذكرى أو يعرض في المتاحف بطبعة فاخرة باهرة أو يوضع في السيارة دون تصفحه والعمل به إنما نزل ليعمل به فاتخذ الناس قراءته عملا، قيل كيف العمل به: قال ليلحلوا حلاله ويحرموا حرامه ويأتمروا بأوامره

^١ - الأخلاق الذكية في آداب الطالب المرضية - باب الابتداء بكتاب الله - ج: ١ - ص: ١٧٧ .

^٢ - جامع بيان العلم وفضله - باب رطب الطلب وكشف المذهب - ج ٢ - ص: ١١٢٩ .

وينتهوا عن نواهيهم ويقفوا عند عجائبه، فالصحابه رضوان الله عليهم كانوا يفقهون آيات القرآن ويعيشون معه وكانوا يسارعون إلى طاعة الله.

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: {كنا نتعلم العشر آيات من القرآن فلا ندعها حتى نعمل بها أو فلا نجاوزها إلى غيرها حتى نعمل بها، فتعلمنا العلم والعمل} ^(١).

انظر أيها المؤمن كيف تعامل الصحابة الكرام مع القرآن الكريم وكيف يتعامل معه المسلمون اليوم. يصور حالنا اليوم في العمل بالقرآن الكريم، قول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: {صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به} ^(٢).

تعليم القرآن:

أخى المؤمن اقرأ القرآن وعلمه للآخرين فإن هذا من خير الأعمال وفي الحديث قال ﷺ: {خيركم من تعلم القرآن وعلمه} فينبغي لحملة القرآن أن يحرصوا على إقراءه للناس وتعليمهم إياه فإن لهم بذلك الأجر العظيم وهم حينئذ يكونون خيار الأمة حقا وعليهم أن يرغبوا الناس في القرآن وينصحوا له ويتلطفوا معهم ويحببوه في كتاب الله.

القرآن الكريم والكتب السابقة:

القرآن الكريم هو كتاب الله نزل على رسوله ﷺ فهو كلام أوحى به من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ بقصد التحدى والإعجاز ليبين للناس منهج الله سبحانه وتعالى في افعل ولا تفعل فمن أطاع دخل الجنة ومن عصا دخل النار.

والمنهج عبارة عن أحكام التكليف في القرآن الكريم في تلك الأحكام التي يثاب فاعلها ويعاقب تاركها، والقرآن الكريم يتفق مع الكتب التي سبقتة ولكنه يضيف عليها ويصحح ما حرف منها لأنه كلام موحى به من الله. التوراة والإنجيل والزبور من الله ولكنها تحمل المنهج فقط أما القرآن الكريم فهو المنهج

^١ - مختصر قيام الليل وقيام رمضان - باب ثواب القراءة بالليل - ج: ١ - ص: ١٧٩.

^٢ - موسوعة الأخلاق - ج: ١ - ص: ١٢٣.

والمعجزة على صدق رسول الله ﷺ فالتوراة كانت منهج موسى عليه السلام وكانت معجزته العصا والإنجيل منهج عيسى عليه السلام ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، إذن بالنسبة للرسول السابقين كانت المعجزة شيئاً والمنهج شيء آخر لكن القرآن الكريم تميز بأنه هو المنهج والمعجزة ذلك أن المناهج التي أرسلها الله على الرسل السابقين أنزلها على نية تغييرها لكن القرآن الكريم أنزله الله تعالى على نية الثبات ليوم القيامة، ولذلك كان لا بد أن يؤيد المنهج المعجزة (١).

فالقرآن الكريم هو المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة وهو الدستور الذي أنقذ الأمة العربية من جاهلية حقاء إلى أمة إسلامية معترف بها ولها عزة وحضارة وعلم.

فالمؤمن قد آمن ويؤمن بكل ما أنزله الله من كتب إجمالاً فيما لم يعرف وتفصيلاً فيما عرف، قال تعالى: ﴿أَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ...﴾ (٣٨٥) [البقرة].

فآمن بصحف إبراهيم وألواح موسى وتوراته وزبور داود وإنجيل عيسى وفرقان محمد ﷺ، كما آمن بالقرآن على أنه كتاب إلهي هو أكمل الكتب نسخ الله تعالى به كل ما سبقه من الكتب لأنه آخر كتاب وهو الكتاب الخاتم لعامة الناس، هو الكتاب الخاتم الذي نزل على النبي الخاتم الذي حفظه الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) [الحجر].

فهو الكتاب الذي أنزله مصداقاً لما بين يديه من الكتب ومهيماً عليه، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾ (٤٨) [المائدة]. فتعين لذلك نسخ القرآن لما سبقه من كتب الله تعالى ونسخ الدين الإسلامي لسائر الأديان قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ (١٩) [آل عمران].

^١ - تفسير الشعراوي .

وتعين علينا اتباع النبي الخاتم محمد ﷺ. قال ﷺ: {والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى} ^(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ^(٨١) [آل عمران].

فمن الواجب على جميع الخلائق الإيمان بهذا النبي الخاتم محمد ﷺ والكتاب الخاتم القرآن الكريم حيث إنه لو تسلسل ودرس كل واحد منا الأديان لعلم كلما جاء نبي أو رسول كذبه القوم الذين كانوا على الدين الذى سبقه مثلا اليهودية لم تؤمن بالإنجيل مع أنه كتاب جاء به رسول من عند الله عيسى عليه السلام، ولكنهم اتبعوا أهواءهم بغيا وحسدا وضلوا الطريق، وكذلك اليهودية والمسيحية لم تؤمن بالقرآن الكريم مع أنه الكتاب المهيمن والخاتم وحجتهم فى ذلك: ﴿... إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ^(٨٢) [الزخرف].

فالقرآن الكريم هو الكتاب الذى نسخ الله تعالى به كل ما سبقه من كتب.

إعجاز القرآن الكريم:

إن إعجاز القرآن الكريم لا يطاوله إعجاز فالقرآن الكريم ليس لونا واحداً بل هو ألوان فهذا إعجاز فى خلق الأكوان وآخر فى خلق الإنسان وثالث فى خلق الطير والنبات والحشرات ورابع غيبى وخامس تشريعى وسادس اقتصادى وسابع غذائى وثامن وقائى وتاسع طبيعى وعاشر لغوى وألوان أخرى لا يحصى عددها ولا يعلم كنهها إلا العليم الخلاق. اعلم أيها المؤمن أن المعجزة أمر خالق للعادة مقرونة بالتحدى سالمة من المعارضة والمعجزة إما حسية وإما عقلية وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية لبلادهم وقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ولأن الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذو البصائر كما قال ﷺ: {ما من الأنبياء

^١ - أخرجه أحمد فى مسنده - ج ٢٣ - ص ٣٤٩ - ح م: ١٥١٥٦ إسناده ضعيف .

نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا^(١).

قيل إن معناه أن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وهى خارقة للعادة فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالغيبيات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون دليلاً على صحة دعواه وقيل المعنى: أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهدها الأبصار كناقاة صالح وعصا موسى ومعجزة القرآن تشاهد بالبصر فيكون من يتبعه لأجلها أكثر لأن الذى يشاهد بعين الرأس ينقض بانقراض المشاهدة والذى يشاهد بعين العقل باق كل من جاء بعد الأول مستمرا.

فسبحان من أظهر العجائب فى مصنوعاته ودل على عظمته بمبتدعاته وحث على تصفح العبر من آياته.

وقال تعالى: ﴿ سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ... ﴾ [فصلت: ٥٣].

فسعد من تدبر وسلم من تفكر ونجا من بحر الهوى من بصر وهلك كل الهلاك وأدبر من نسى الموت وشعره قد ابيض.

قال تعالى: ﴿ ... أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ [يونس: ١٠١]. إن بالقرآن ما يلين الجلاميث^(٢) لو فهمه الصخر لكان الصخر يمد^(٣)، ألم يخبرك بإهلاك الملوك الصيد^(٤)، ألم يعلمك أن الموت بالباب الصيد^(٥). ﴿... فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٥٥].

^١ - أخرجه البخارى - باب كيف نزل الوحي - ج ٦ - ص ١٨٢ - ح م: ٤٠٩٨.

^٢ - الجلاميث: الصخر الشديد.

^٣ - يمد: مهتز ويتحرك من خشية الله.

^٤ - الصيد: الجبابة.

^٥ - الصيد: فناء الدار وهو كناية عن قرب الموت.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: {قد جمع بعضهم إعجاز القرآن الكريم في أربعة أشياء إحداها: حسن تأليفه مع الإيجار والبلاغة، ثانيها: صور سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظماً ونثراً حتى حارت فيه عقولهم ولم يهتدوا إلى الإتيان بمثله مع توقع دواعيهم على تحصيل ذلك ولكنهم عجزوا، ثالثها: ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الدائرة من كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب، رابعها: الإخبار فيما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبوي وبعضها بعده} (١).

ومن إعجاز القرآن الكريم المعجزة التي أظهرها على يد نبيه نزول القرآن الكريم عليه وحيا أو حاه الله تعالى إليه فإنه أكبر معجزة عرفها الوجود البشري إذ العادة قاضية بأن أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يجلس بين يدي أستاذ استحال تعلمه بالعلوم والمعارف فضلاً عن أن يأتي بما لم يأت به غيره من كل معاصري هذا الكتاب يأتي به أمي يتحدى كل الخلق على الإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله أو سورة واحدة فتعجز البشرية ومعهم الجن كلهم وهذا أكبر معجزة لتدل على صدق نبوته وثبوت رسالته. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ...﴾ [البقرة].

الإعجاز الكوني في كلام رب العالمين:

تأمل قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا...﴾ [النازعات]. هل يعني ذلك أن للسماء ليلاً خاصاً يختلف عن ليل الأرض ولم جاءت كلمة أغطش بدلاً من كلمة أظلم رغم أن كلا منهما يدل على الإظلام. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء].

وهي حقيقة علمية أكدها الدكتور / روجر من أكابر علماء الفلك والإبصار في أمريكا: كل الدلائل والأدلة تثبت أن الأرض والسماء كانتا جسماً واحداً ثم أخذ ينفصل بعضها عن بعض، كانتا جسماً حاراً فيه

^١ - الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم - إعداد / أحمد مصطفى متولى - الطبعة الأولى - دار ابن الجوزي

حرارة ولم يكن فيه ظلام شديد ولا ضوء شديد بل ممزوج فيه شيء من الحرارة وشيء من الإضاءة الخفية وشيء من الظلام وهو دخان حار.

قال وبعد الانفصال انفصلت الأرض عن السماء فارتفعت السماء بعد هذا تجمعت النجوم والمادة التي تكون النجوم ثم أضاءت واشتد ضوء السماء والمناطق التي انفصلت منها هذه المادة أظلمت واشتد ظلامها فخرج النور واشتد الظلام بعد أن رفعت السماء عن الأرض وتباعدت وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢٩) [النازعات]. وأغطش ليلها أى أظلم وأخرج ضحاها: أخرج منه النور (١).

المشارك والمغرب:

هل للشمس مشارق ومغرب؟ هل للشمس مشرقان ومغربان؟ هل للشمس مشرق ومغرب؟ إن كان المشرق واحدا فما هو؟ وإن كانا مشرقين فما هما؟ وإن كانت مشارق فما هى؟ هل اكتشف العلم الحديث حقيقة المشارق؟ قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ...﴾ (٩) [المزمل]. وقال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١٧) [الرحمن]. وقال تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ...﴾ (٤٠) [المعارج].

وقفة تأمل:

هل الآيات الثلاث متناقضة؟

والجواب: محال لأنه ﴿... تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢) [فصلت]. والسؤال الآن هل نسخ بعضها بعضاً؟ الجواب: لا إذا بقى سؤال آخر وهو ما المقصود بالشرق والمغرب؟ والمشرقين والمغربين؟ والمشارك والمغرب؟

حقيقة علمية:

قديما قال المفسرون فى قوله ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ...﴾ (٩) [المزمل]. المراد منه جنس المشارق والمغرب وفى قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١٧) [الرحمن]. يعنى مشرقى الصيف والشتاء ومغربى الصيف والشتاء وفى قوله ﴿... رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ...﴾ (٤٠) [المعارج].

^١ - إعجاز القرآن الكريم ١٧ ، ١٨ .

وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس .
وحديثاً: أظهر العلم أن الأرض تتم دوراتها حول الشمس في ٣٦٥ يوماً وربع يوم كذلك بسبب ميل محور دوران الأرض عن المحور الرأسى فيؤدى ذلك إلى اختلاف فصول السنة ومن ثم اختلاف مكان ووقت شروق الشمس وغروبها على الأرض على مر العام إذ يتغير المشرق والمغرب كل يوم تغيراً طفيفاً أى أن الشمس تشرق وتغرب كل يوم من مكان مختلف على مر السنة وهذا بدوره يعنى وجود مشارق ومغارب بعدد أيام السنة وليس مشرقين ومغربين اثنين فقط وإن بدا الاختلاف بين مشرقى الشمس ومغربيها أكثر وضوحاً في الشتاء والصيف فقد يكون إذاً مشرق الشمس ومغربها في الشتاء والصيف هما المقصودان بقوله: رب المشرقين ورب المغربين. وقد يكون المقصود بمشارق الأرض ومغربها في بقاعها المختلفة فشروق الشمس وغروبها عملية مستمرة في كل لحظة تشرق الشمس على بقعة ما وتغرب على بقعة أخرى وقد يكون المقصود بها مشارق الأرض ومغربها على كواكب المجموعة الشمسية^(١).

^١ - إعجاز القرآن الكريم - ص: ٦٤ ، ٦٥ .

الفصل الثانى

آداب تعلم القرآن

الحمد لله رب العالمين، الذى جاء بالنور المبين ليشرح به صدور الذين يتمسكون به ويتأدبون بآدابه ويتبعون منهاجه، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أدبه ربه فأحسن تأديبه، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على سنته إلى يوم الدين وبعد،،،

قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٨) [الواقعة]. وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال لى النبى ﷺ: {اقرأ علىّ}. قلت يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم. فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١) [النساء]. فإذا عيناه تزرعان^(١).

القرآن الكريم أعظم مصدر لمعرفة الله تعالى:

من الناس من يعرف الله عز وجل بالجود والفضل والإحسان ومنهم من يعرفه بالحلم والعفو والتجاوز ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء والحكمة ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته وإغاثة لهفته وقضاء حاجته ومنهم من يعرفه إذا شفاه من مرضه وضره ومنه من يعرفه إذا ابتلاه وأعظم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه فإنه يعرف ربا ليس كمثله شيء وهو السميع البصير يرى من النقائص والعيوب، أنزل كتابه لتعريف عباد الله به وبصراطه الموصل إليه: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَصِيرُ الْأُمُورِ﴾ (٥٣) [الشورى].

قال خباب بن الأرت لرجل: {تقرب إلى الله تعالى ما استطعت واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه}^(٢).

^١ - أخرجه البخارى - باب قول المقرئ للقارئ حسبك - ج ٦ - ص ١٩٦ - ح م : ٥٠٥٠ .

^٢ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - ج : ١ - ص : ١٤٩ .

وفى الترمذى عن أبى أمانة مرفوعا: {ما تقرب العبد إلى الله تعالى بمثل ما خرج فيه} ^(١) يعنى القرآن
لا شيء عند المحبين أحلى من كلامه فهو لذة قلوبهم وغاية مطلوبهم ويوضح ذلك قول عثمان رضى الله عنه:
{لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم} ^(٢)، فعلى المؤمن التأدب بآداب القرآن وأن يتخلق بالأخلاق
السمحة التى جاء بها النبى المصطفى فهذه هى التى توصله إلى النجاح والفوز والفلاح فى يوم لا ينفع فيه
مال ولا بنون.

فعلينا بتطهير قلوبنا من الآثام والمعاصى والشهوات وعمارتها بالطاعة والتقوى والعفاف لكى يتلذذ
القلب بكلام الله عز وجل وذلك باتباع القرآن الكريم بما يأمرنا به وما ينهانا عنه والتخلق بأخلاقه والتأدب
بآدابه وآداب تلاوته وآداب حمله وآداب تعليمه.

أولا: آداب تلاوة القرآن:

لتلاوة القرآن الكريم آداب ينبغى للقارئ مراعاتها حتى يبارك الله جل وعلا له فى تلاوته. فآداب
التلاوة كثيرة منها:

أولا: النية: بمعنى الإخلاص فى التلاوة لله تعالى فإن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى لم يقبل كما
قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ...﴾ [البينة]. فيجب عليه أن ينوى بقرائه
الاهتداء بكتاب الله والعمل به ونيل الأجر والثواب الموعود لا يقرأه رياء ولا سمعة.

ثانيا: تلاوة القرآن الكريم على طهارة: وهو أعظم للأجر وأكمل أن يكون الإنسان متطهرا وهو يقرأ
القرآن، قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة]. وإن قرأه على غير وضوء جائز ولكن من
الأفضل الوضوء لمس المصحف وهذا أقرب للخشوع وحضور الملائكة.

ثالثا: التسوك: لتطيب رائحة الفم الذى يخرج منه كلام الله تعالى.

^١ - أخرجه الترمذى عن أبى أمانة مرفوعا.

^٢ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب محبة الرب عزوجل لأوليائه - ج: ١ ص ١٤٩ وأخرجه أبو النعيم فى
الكلية بإسناد منقطع.

رابعاً: استقبال القبلة: وهو جائز، فإن استقبال القبلة يكون أدعى للخشوع وقيل إن سيد المجالس استقبال القبلة وإن لم يستقبل القبلة يجوز له، وأن يتلوه وهو جالس وذلك أبلغ في توقيير كتاب الله تعالى وتعظيم شعائره فإن قرأه واقفاً أو ماشياً جاز.

خامساً: الاستعاذة: إذا أراد الشروع في القراءة استعاذ لقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل]. وينبغي أن يحافظ على البسملة لقوله: بسم الله الرحمن الرحيم. أول كل سورة سوى سورة براءة.

سادساً: القراءة ترتيلاً: وذلك بقراءة القرآن على مهل وإقامة ألفاظه وحروفه ومراعاة أحكام تلاوته فقد قال تعالى: ﴿... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل]. وثبت عن أم سلمة رضي الله عنها أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ: {قراءة مفسرة حرفاً حرفاً} (١).

سابعاً: البكاء عند قراءة القرآن: وهى صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته (٢). والبكاء مستحب مع القراءة وطريقه في تحصيله أن يخلو قلبه وأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود.

ثامناً: تحسين الصوت بالقراءة: أجمع العلماء رضي الله عنهم من السلف والخلف والصحابه على استحباب تحسين الصوت بالقرآن فقد قال النبي ﷺ: {زينوا القرآن بأصواتكم لأن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً} (٣). وأبطأت عائشة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة فقال لها: {ما حسبك؟ قالت:

١- رواه أبو داود والترمذى ، وقال حديث حسن صحيح ، والمسنند الموضوعى لجامع الكتب - باب أركان وفرائض الصلاة - ج: ٦٦ - ح م: ٤٥ .

٢- الصيام في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة - النوع الثالث تأثير القرآن على القلوب والأرواح - ج ١ - ص ٥٠٣ .

٣- رواه الحاكم - صحيح . والجامع الصحيح في السنن والمسانيد - باب من آداب التلاوة - ج ١٧ - ص ١٤٧ وصحيح الجامع رقم ٣١٤٥ .

قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منك. فقام فاستمع إليه طويلا فقال هذا سالم مولى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله^(١).

تاسعا: التدبر والتفكر وحضور القلب: وهو أعظم آداب التلاوة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ...﴾ [محمد]. وترك التدبر نوع من الهجران. على المرء أن يكون قلبه حاضرا إذا مر بآية عذاب أن يستعيد بالله من الشر ومن العذاب وإذا مر بآية تنزيه لله تعالى نزّهه. وما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: {من قرأ التين والزيتون فقال: أليس الله بأحكم الحاكمين. فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين}^(٢). وهذا يدل على تدبر وخشوع وحضور القلب ومعايشة القرآن وأنه يحى الآيات ويتفاعل معها.

عاشرا: تعاهد القرآن الكريم بالتلاوة: قال ﷺ: {تعاهدوا القرآن فوالذى نفسى بيده هو أشد تفصيا^(٣) من قلوب الرجال من الإبل فى عقلتها}. فعلى المرء أن يتعاهد القرآن بالمراجعة والتلاوة وكذلك أباح النبى ﷺ غبط المرء الذى يتعاهد القرآن دوما بقوله: {لا حسد إلا فى اثنتين رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار}^(٤).

حادى عشر: النهى عن التشويش بالقراءة على الغير: عن أبى سعيد قال: اعتكف رسول الله ﷺ فى المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة وكشف الستر وقال: {ألا إن كلكم ينجى ربه فلا يؤذِن بعضكم بعضا ولا يدفع بعضكم على بعض فى القراءة أو قال فى الصلاة}^(٥).

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - باب سالم مولى أبو حذيفة - ج: ١٦ - ص: ١٥٧.

^٢ - رواه أبو داود والترمذى - بإسناد ضعيف .

^٣ - تفصيا: والتفصي هو الذهاب والتقلت والمقصود سرعة النسيان .

^٤ - صحيح البخارى - باب اغتباط صاحب القرآن - ج: ٩ - ص: ٦٣ - ح م: ٧١٤٠.

^٥ - المسند الموضوعى للجامع للكتب العشرة - باب القراءة فى صلاة القيام - ج: ٢ - ص: ٦٥.

ثانى عشر: قطع القراءة للأذان: قال ابن قدامة: إذا سمع الأذان وهو في قراءة قطعها ليقول مثل ما يقول لأنه يفوت والقراءة لا تفوت^(١).

ثالث عشر: فهم أصل الكلام: فعلى قارئ القرآن فهم عظمة الكلام وعلومه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه وأن يشعر قلبه بعظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل وذكر أفعاله وذكر أحوال الأنبياء وذكر أحوال المكذبين وذكر الأوامر والرواجز وذكر الجنة والنار^(٢).

ثانياً: آداب حامل القرآن:

ينبغي على حامل القرآن أن يلتزم بالآداب والأخلاق الحميدة لأنها شيمة حامل القرآن. يقول الحسن البصري رحمه الله: {أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقط كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل}^(٣). فعلى حامل القرآن مراعاة الآداب الآتية:

أولاً: العمل بما في القرآن: قال الشيخ / إبراهيم الدسوقي رحمه الله: {يا حافظ القرآن لا تفرح بحفظه حتى يشهد لك كل حرف فيه}. فالمؤمن الذي من الله عليه بحفظ كتابه أن يتدبر ويتفهم معاني القرآن الكريم وآياته وما المراد بها وأن يحل حلاله ويحرم حرامه ويأتمر بأوامره فعليه العمل بما في القرآن الكريم فإن ذلك لا يعود عليه بالنفع فقط بل يعود على والدايه أيضاً حتى يكون براهما من عمله الصالح. وعن سامي بن معاذ الجهني عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: {من حفظ القرآن وعمل بما فيه ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من الشمس في بيوت الدنيا لو كانت منكم فما ظنكم بالذى عمل بهذا}^(٤).

^١ - الشرح الكبير لشمس الدين أبي فرج بن قدامة - ج: ٣ - ص ١١١ .

^٢ - المستطرف في كل فن مستطرف - ص ٢٩ .

^٣ - بداية المنيب إلى القريب المجيب - للدسوقي - ص ٩١ .

^٤ - أخرجه أبو عبيد - في فضائل القرآن - ج ٦ - وأبو نعيم في الحلية - ج ١ - ص ١٣٠ .

ثانيا: حامل القرآن حامل راية الدين: فالواجب على حامل القرآن أن يكتسى بالصفات والأخلاق الحميدة فيكون أسوة حسنة لغيره لأنه حامل دستور العلم منذ خلق الله السموات والأرض إلى يوم البعث فعلى حامل القرآن أن يتعدى عن المعاصي والشهوات وكل منكر نهى الله عنه. عن الفضيل قال: حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن ^(١). فالقرآن الكريم أفضل من كل شيء فمن قرأ القرآن فقد قرأ الله ومن استخف بالقرآن فقد استخف بحق الله. قال ﷺ: {اقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فليست تقرأه} ^(٢). قال أبو سليمان الداراني: الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عز وجل منه إلى عبدة الأوثان.

ثالثا: حامل القرآن الكريم لا يتطلع إلى ما في أيدي الناس وليس بعالة على أحد: قال تعالى ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُكَ رَبُّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه]. فعن الفضيل بن عياض قال: ينبغي لحامل القرآن ألا تكون له حاجة إلى أحد من الخلفاء فمن دونهم. فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه. وقال ﷺ: {من أصبح منكم آمنا في سربه معافي في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها} ^(٣). فحامل القرآن يكون راضيا بما قسمه الله له يتسم بالقناعة والزهد فيرى القليل وكأنه كثير. وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: يا معشر أهل القرآن ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق فاستبقوا الخيرات لا تكونوا عيالا على الناس ^(٤).

رابعا: حامل القرآن يعرف بسماوات تميزه عن غيره: عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بلبيله إذ الناس نائمون وبنهاره إذ الناس مفطرون وبحزنه إذ الناس يفرحون وببكائه إذ الناس يضحكون وبصمته إذ الناس يخوضون وبخشوعه إذ الناس يختالون. فينبغي لحامل القرآن أن يكون حليبا لنا ولا ينبغي له أن يكون مماريا ولا صياحا ولا صخابا ولا حديدا فعليه أن يتخلق بالأخلاق الحميدة التي بعث بها رسول الله ﷺ.

١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - باب الفضيل بن عياض - ج: ١ - ص: ٦٤٣١.

٢- أخرجه الطبراني - من حديث عبد الله بن عمر بسند ضعيف.

٣- رواه الترمذي - كتاب الزهد - ح م: ٢٣٤٦.

٤- مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضى الله عنه - أبواب العلم - ج: ١ - ص: ٣٤١.

ثالثاً: آداب معلم القرآن:

صاحب القرآن قلبه عامر به يتدبر آيات الله ويتفكر في دلائل قدرته وعظمته وبذلك تصفو نفسه وتجمل أخلاقه ويعلم أنه من أصفياء الله وأنصاره، والواجب عليه حفظ القرآن الكريم وتعليمه لأن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس وكتابتها أفضل الكتب لذلك كان واجبا عليها ألا تألوا جهدا في تبليغ القرآن وتعليمه.

فعلى معلم القرآن أن يلتزم بالآداب الآتية:

أولاً: الإخلاص وترك التباهى بالعلم: قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ...﴾ [البينة]. فعلى المؤمن أن يخلص العمل لوجه الله عز وجل لا يريد به جزاء ولا شكورا فيجعل عمله كله لأجل الله عز وجل ولإعلاء كلمة الحق. روى الإمام الدارامي رحمه الله عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: {يا حملة القرآن أو يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا يباهى بعضهم بعضا حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى} ^(١). وعليه أن يبتعد عن الرياء والكبر والتباهى بما علم.

ثانياً: أن يكون رفيقا للمتعلم متواضعا مع طلبته: إن الرفق في التعامل تنقاد له القلوب وتستسلم له النفوس المستعصية وتثوب إليه القلوب الحاقدة. عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: {ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما رفع الرفق من شيء إلا شانه} ^(٢). وينبغي على معلم القرآن أن يرفق بمن يقرأ عليه وأن يرحب به ويحسن إليه فالله عز وجل سيرفع قدر المتواضعين في الدنيا والآخرة. قال ﷺ: {ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله} ^(٣). والتواضع من صفات عباد الرحمن. قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ

^١ - المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية ^٨، باب من صحيح البخارى - ج: ٢ - ص: ١٤٥.

^٢ - شانه: قبحه وعيبه.

^٣ - رواه مسلم - كتاب البر والصلة - ح م: ٢٥٩٤.

^٤ - رواه مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - ٢٥٨٨.

عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ... ﴿٦٣﴾ [الفرقان]. وسئل الحسن البصري رحمه الله عن التواضع فقال: التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً. وعلى حامل القرآن ألا يتعاطم على المتعلمين بل يلين لهم ويتواضع معهم.

ثالثاً: أن يكون حريصاً على تعليم طالب العلم حتى ولو كان غير صحيح النية: فعلى المعلم أن يكون حريصاً على تعليم طالب العلم مؤثراً ذلك على مصالح نفسه الدنيوية ويكون حريصاً على تفهيمه ولا يحسد أحداً منهم لبراعة تظهر منه ولا يستكثر فيه ما أنعم الله به عليه وعليه ألا يمتنع عن تعليم أحد ولو كان غير صحيح النية. قال العلماء رضى الله عنهم: ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية فقد قال سفيان وغيره طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله (١).

رابعاً: أن يكون ناصحاً لطالب العلم متفقداً أحواله: النصيحة: إخلاص المحبة وصدق المودة وهى من صفات الأنبياء فقد كان الأنبياء يبذلون النصيحة لقومهم من أجل أن يأخذوا بأيديهم إلى طاعة الله عز وجل وكان النبى ﷺ يبذل للأمة النصيحة الخالصة ويعلم أصحابه وأمته من بعدهم بذل النصيحة والتواصى ليسعدوا فى الدنيا بطاعة الله عز وجل. عن معقل بن يسار المزنى قال: قال رسول الله ﷺ: {ما من عبد يسترعه الله رعية فلم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة} (٢). فعلى معلم القرآن أن يبذل لهم النصيحة. قال ﷺ: {الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم} (٣) حتى تنفتح عليهم أنوار المعارف وتنشرح صدورهم ويبارك له فى علمه وحاله ويوفق فى أحواله وأفعاله وأقواله .

وينبغى أن يشفق على الطالب ويعينه ويعتنى بمصالحه كاعتناؤه بمصالح نفسه ويصبر على جفائه وسوء أدبه فإن الإنسان معرض للنقائص لا سيما إن كان صغير السن.

١- تلبيس إبليس - باب ذكر تلبيس إبليس على الصوفية - ج: ١ - ص: ٢٨٤ .

٢- رواه البخارى ومسلم - كتاب الإيمان - ح م: ٧١٥٠ .

٣- صحيح مسلم - باب بيان أن الدين النصيحة - ج: ١ - ص: ٧٤ - ح م: ٩٥ .

فضائل القرآن الكريم:

إن أعلى الذكر منزلة تلاوة القرآن فهو نعيم الرجل وجنته وأنسه فهو منهاج الله الخالد وميثاق السماء الصالح لكل زمان ومكان وهو أشرف الكتب السماوية وأعظم وحى نزل من السماء فإن كلام الله لا يدانيه كلام، وحديثه لا يشابهه حديث. قال تعالى: ﴿... وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧) [النساء].

فضائل القرآن كثيرة منها:

أولاً: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته: أخرج النسائي وابن ماجه عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {إن لله تعالى أهلين من الناس. قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: هم أهل القرآن وخاصته} (١).

ثانياً: ثواب قراءته جزيل وكثير: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: {من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول (ألم) حرف ولكن (ألف) حرف و (لام) حرف و (ميم) حرف} (٢).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {يجيء القرآن يوم القيامة فيقول القرآن يا رب حلّه فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب ارض عنه فيرضى عنه فيقول اقرأ وأرق ويزداد بكل آية حسنة} (٣).

ثالثاً: الماهر بالقرآن مع الملائكة الأبرار: وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: {الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأه ويتتعتع فيه وهو عليه شاق فله أجران} (٤).

^١ - أخرجه النسائي وابن ماجه وصحيح السنن والمسانيد - باب فضل القرآن - ج ١٧ - ص ٧٩ وصحيح الجامع ٢١٦٥.

^٢ - أخرجه الترمذى - باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر - ح م: ١٩١٢ حديث صحيح.

^٣ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - ج ٦ - ص ٢٨٠ - وصحيح الجامع رقم: ٨٠٣٠.

^٤ - مسند الإمام أحمد - باب مسند الصديقة - ج ٤٢ - ص ٢٢٥ - ح م: ٢٦٢٩٦ إسناده صحيح.

رابعاً: يشفع لصاحبه في الآخرة: عن أبي أمامة قال رسول الله ﷺ: {اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه} (١).

خامساً: واعيه يرقى في درجات الجنة: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ يقول: {يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها} (٢).

سادساً: القرآن يرفع أهله ويضع من أعرض عنه: عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: {إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين} (٣).

سابعاً: صاحب القرآن له رائحة طيبة يعرف بها: أخرج الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري قال رسول الله ﷺ: {مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة (٤) ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر} (٥).

ثامناً: بالقرآن يستدرج النبوة: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: {من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه لا ينبغي لصاحب القرآن أن يحمد مع من يحمد ولا أن يجهل مع من يجهل وفي جوفه كلام الله} (٦).

١- صحيح مسلم - باب فضل القرآن - ج: ١ - ص: ٥٥٣.

٢- أخرجه ابن حبان - ذكر البيان بأن آخر منزلة - ج: ٣ - ص: ٤٣ - ح م: ٧٦٦.

٣- أخرجه مسلم - باب فضل من يقوم بالقرآن - ج: ١ - ص: ٥٥٩ - ح م: ٢٦٩.

٤- الأترجة: من فصيلة الحمضيات - طيبة الرائحة.

٥- أخرجه البخارى - باب ذكر الطعام - ج: ٧ - ص: ٧٧ - ح م: ٥٤٢٧.

٦- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب فضل حفظ القرآن الكريم - ج: ١٧ - ص: ٩٨ - والسلسلة الضعيفة رقم ٥١١٨ ضعيف.

الجوانب الإيمانية والإنسانية فى القرآن الكريم:

أولاً: القرآن الكريم وأثره فى الجوانب الإيمانية:

(أ) التأثير عند قراءة القرآن الكريم:

فيجب على المؤمن أن يتأثر عند تلاوة القرآن ويتفاعل معه فيضطرب أو يهتز قلبه ويشعر كأن القرآن يتنزل عليه هو فى قراءته كما حكى الشاعر الكبير / محمد إقبال قال: {كان أبى يقول لى: يا بنى اقرأ القرآن وكأنما عليك أنزل} وبهذا يذوق المؤمن حلاوة القرآن ويستشعر عظمته.

وهذا الرسول ﷺ معلم الأمة يضرب المثل والقُدوة فى التأثر بالقرآن. وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال لى النبى ﷺ: {اقرأ علىّ. قلت يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال نعم: فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء] (١).

وقد امتثل الصحابة بهذا الأدب فهذا أبو بكر رضى الله عنه لا تفهم قراءته من شدة البكاء، فعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت إن رسول الله ﷺ قال فى مرضه: {مروا أبأ بكر يصل بالناس، قالت عائشة قلت: إن أبأ بكر إذا قام فى مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل بالناس. ففعلت حفصة فقال رسول الله ﷺ: إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبأ بكر فليصل بالناس فقالت حفصة لعائشة ما كنت لأصيب منك خيراً} (٢).

وليس معنى ذلك أن عمر لا يبكى تأثراً بالقرآن بل تضافرت الآثار أنه رضى الله عنه كان شديد التأثر بالقرآن، قال الحسن كان عمر رضى الله عنه يمر بالآية من ورده بالليل فيبكى حتى يسقط على الأرض ويبقى فى البيت يعاد للمرض.

وروى أن عمر رضى الله عنه قد خرج يعس المدينة ذات ليلة فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصل فوقف يستمع القرآن فقرأ: ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور]. حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾

١- أخرجه البخارى - باب قول المقرئ للقارئ حسبك - ج ٦ - ص ١٩٦ - ح م: ٥٠٥٠.

٢- أخرجه البخارى - باب أهل العلم والفضل - ج ١ - ص: ١٣٦ - ح م: ٦٧٩.

﴿٧﴾ [الطور]. قال: قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث ملياً ثم رجع إلى منزله فمكث شهراً يعود الناس دون أن يدروا ما مرضه رضى الله عنه ^(١).

وعن عبادة بن حمزة عن أبيه قال: بعثني أسماء رضى الله عنها إلى السوق وافتتحت سورة {الطور} فانتهدت إلى قوله: ﴿...وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ ﴿٢٧﴾ [الطور]. فذهبت إلى السوق وهى تكرر ﴿...وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ ﴿٢٧﴾ [الطور]. وعدت إليها وهى تقول ﴿...وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ ﴿٢٧﴾ [الطور] ^(٢).
أخى المؤمن أسأل نفسك هل بكيت وأنت تقرأ القرآن ذات مرة؟ هل شعرت بلذة القرآن وحلاوته؟، إن القلب إذا قسى والعياذ بالله لا يتأثر بالقرآن.

يقول تعالى عن اليهود: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمُ...﴾ ﴿٧٤﴾ [البقرة]. فلماذا لا نتأثر بالقرآن، تعالوا لنرى.
عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: {سبلى القرآن فى صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت يقرأونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ويلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب أعماهم طمع لا يخالطه قول إن قصروا قالوا سنبليغ وإن أساءوا قالوا سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً} ^(٣).
فتدبر القرآن وفهم معانيه والتأدب بأدابه من الجوانب الإيمانية التى تعين الإنسان على وصوله إلى الصراط المستقيم.

الجوانب الإنسانية فى القرآن الكريم:

إن الرسالة المحمدية رسالة إنسانية فقد جاءت لتراعى إنسانية الإنسان فيها تأمر به أو تنهى عنه فإن نظرنا إلى المعجزة الخاتمة وهى القرآن الكريم وتدبرنا آياته وتأملنا موضوعاته لوجدنا أن كلمة إنسان تكررت فى القرآن ثلاثاً وستين مرة فضلاً عن ذكره بألفاظ أخرى مثل بنى آدم التى ذكرت ست مرات وكلمة الناس التى تكررت مائتين وأربعين مرة فى مكى القرآن ومدنيه وكلمة العالمين وردت أكثر من سبعين مرة وأول

^١ - مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب - باب كتاب التفسير - ج: ٢ - ص: ٦٠٧.

^٢ - صحيح البخارى - باب قوله: إن هو إلا نذير لكم - ج: ٦ - ص: ٢١٦.

^٣ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب من علامات الساعة الصغرى - ج: ٢ - ص: ٣٦٧ - إسناده صحيح.

آيات القرآن التي نزلت على رسول الإسلام محمد ﷺ ذكرت كلمة إنسان. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ خَلَقَ﴾ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴿[العلق].

وإذا نظرنا إلى مبعوث الرحمة الإلهية الذي جسد الله فيه الإسلام وجعله مثالا حيا لتعاليمه وقيمه الإنسانية كان خلقه القرآن نستطيع أن نقول بأنه رسول الإنسان، وإذا نظرنا إلى الفكر الإسلامى وجدنا أن العبادات لا تؤخذ إلى نحو الربع أو الثلث من مجموعه والباقي يتعلق بأحوال الإنسان من أحوال شخصية ومعاملات وجنابات وعقوبات والعبادات كلها فيها معانى إنسانية سامية فالزكاة المفروضة مثلا ليست ضريبة بل فيها معانى إنسانية سامية فهى غرس لمشاعر الحنان والرأفة وتوطيد العلاقات وتطهير القلوب. قال تعالى: ﴿حُدِّثْهُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي كُنْتُمْ تُعْبُدُونَهُ ۚ يَوْمَ تُبْلَى السُّرُورُ ۚ يَوْمَ تُرْجَى الْوُجُوهُ ۚ يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ بِإِلَهِهِمُ لِلتَّوْبَةِ ۚ أَلَّذِينَ كَانُوا يُضِلُّونَ أَكْثَرُ مِنَ الْهَادِينَ﴾ (١٠٣) ﴿[التوبة].

وفي الصيام نعلم أن رمضان شهر الأخلاق ومدرستها فهو شهر الصبر والصدق والبر والكرم والصلة والرحمة والصفح والحلم والمراقبة والتقوى وكل هذه أخلاق إنسانية يغرسها الصوم فى نفوس الصائمين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) ﴿[البقرة].

وشعيرة الحج مدرسة أخلاقية إنسانية فيجب على الحاج اجتنب الرفث والفسوق والجدال والخصام وغرس قيمة الصبر والمساواة بين الغنى والفقر وتحمل المشاق.

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع الأمثلة فى القيم والمعانى الإنسانية والخلقية قبل البعثة وبعدها، وروى أن أعرابيا قال لسيدنا على رضى الله عنه: {عد لنا أخلاق رسول الله ﷺ}، فقال له سيدنا على رضى الله عنه: هل تعرف العد؟ فقال نعم. فقال على: عدلى متاع الدنيا. فقال الأعرابى: متاع الدنيا لا يعد. فقال سيدنا على رضى الله عنه: عجزت عن عد القليل إذ يقول الله تعالى: ﴿... قَلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ...﴾

﴿[النساء]. وطلبت منى عد العظيم حيث يقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٤) ﴿[القلم].

أيها المؤمنون ما أحوج الأمة الإسلامية إلى تطبيق المعانى الإنسانية التى علمنا إياها رسول الله ﷺ وتربى عليها الصحابة الكرام رضى الله عنهم أجمعين هذه الإنسانية التى جعلت الواحد منهم يقضى حياته كلها من أجل احترام إنسانية الإنسان الذى أمامه مهما كان موضع كل منهم.

فهذه خولة بنت ثعلبة التقت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذات يوم أيام خلافته وكان خارجا من المنزل فاستوقفته طويلا ووعظته قائلة له: يا عمر كنت تدعى عميرا ثم قيل لك عمر ثم قيل لك يا أمير المؤمنين فاتق الله يا عمر فإن من يقن بالموت خاف الفوت ومن أيقن بالحساب خاف العذاب وعمر رضى الله عنه واقف يسمع كلامها بخشوع، فقيل له يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز؟ قال رضى الله عنه: هى التى قد سمع الله قولها من فوق سبع سموات أفيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر^(١).

فما أحوجنا أيها الأخوة والأحبة فى الله إلى القيم الإنسانية التى ينادى بها القرآن الكريم ولا سيما مع الضعفاء وذوى الاحتياجات، والرفق واللين والرحمة بجميع فئات المجتمع الآباء والصبيان والأرامل والعجزة إذ نحتاج أن نربى إنسانا بمعنى الكلمة نحتاج إلى زرع إنسان يبقى أثره مئات السنين كما قال أحدهم: إذا أردت أن تزرع لسنة فازرع قمحا وإذا أردت أن تزرع لعشر سنوات فازرع شجرة وإذا أردت أن تزرع لمائة سنة فازرع إنسانا.

فما أحوجنا إلى إنسانية هذا الإنسان فى هذه الأيام لأن من ينظر إلى الواقع الأليم يجد انحدارا ملحوظا فى معانى الإنسانية التى أمر بها القرآن الكريم وعلمنا إياها الرسول الكريم وتربى عليها الصحابة والسلف الصالح.

القيم الإنسانية فى القرآن الكريم فى التعامل مع غير المسلمين:

الدين الإسلامى دين يسر وسماحة واهتم اهتماما بالغاً بالآخر وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تؤكد علاقات السلم والسلام والأمان مع غير المسلمين من السائحين والزائرين والمقيمين سواء من أهل الكتاب أم من غيرهم. قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُوا كُفْرَهُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة].

ونبينا محمد ﷺ كانت يحتوى جميع الملل المختلفة فكان جيران نبينا محمد ﷺ بالمدينة وما حولها أصحاب ديانات مختلفة فكان منهم اليهود والنصارى والمشركون الذين يعبدون الأصنام وبالرغم من ذلك كان يدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ولم يجبرهم على الدخول فى الإسلام ولم يعتد على حرمتهم وأموالهم

^١ - السيوطى - إيدبار الدر المنثور .

وترك لهم حرية العبادة مع أن المسلمين كانوا أصحاب الكلمة العليا في المدينة ولم يسفك دم أحد منهم بغير حق بل كان يزور مرضاهم ويأمر بالإحسان إليهم.

فيا أيها الأخوة الأحباء إن غير المسلمين في بلادنا لهم عهد أمان وذمة سواء كانوا سياحا أو شيوخا أو زائرين أو مقيمين فالإسلام حرم جميع الدماء بها فيها دماء غير المسلمين ووضع أسس وقواعد الأمان والسلام والمواطنة في التعامل مع الآخر فالإسلام برىء من التهم التي تلصق إليه من قتل وإرهاب لأنه دين سلام وإسلام وغير ذلك لا يمت إلينا بصلة.

الفصل الثالث

الالتزام بأداب الصيام

الحمد لله رب العالمين الذى جعل الصوم حصناً لأوليائه وفتح لهم به أبواب الجنة وعرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات فنهاهم عن اتباعها وأمرهم بالأخلاق الحميدة والالتزام بالآداب الحسنة. وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وأن محمدا عبده ورسوله اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى أصحابه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين ... أما بعد:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: {قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى صائم مرتين والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرح بهما، إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقى ربه فرح بصومه} ^(١).

معنى الصوم

لغة: الإمساك. قال تعالى: ﴿... نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا...﴾ [مريم: ٢٦]. أى إمساكا عن الطعام. الصوم اصطلاحاً: الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية ^(٢). والصوم ترك الطعام والشراب والنكاح والكلام ^(٣).

الصيام والعادات:

وإن الصيام مدرسة منهجها تقوية العزيمة وتغيير السلوك من السيئ إلى الأحسن وربط الإنسان بخالقه وحسن صلته بالناس لينعم بأجر الصائمين ويفوز برضا رب العالمين.

^١ - رواه البخارى فى كتاب الصوم - باب وجوب صوم رمضان - ج ٤ - ص ٨٨ .

^٢ - فقه السنة - المجلد الأول - ص ٤٠٠ .

^٣ - لسان العرب - ص ٤٣٤ - المجلد الخامس .

أيها المؤمن عليك بالمحافظة على العبادات لأن الحق سبحانه وتعالى شرعها لتهذيب الأخلاق وترقيق العواطف وبهذا يمكن أن نقول أن العبادات تغير عادات الإنسان من الأسوأ إلى الأحسن ومن الهبوط إلى العلو، إنها تسمو بالإنسان وترقى إلى مدارج الكمال تنزله في الآخرة منازل الأبرار الصالحين. وصدق القائل:

تزود من حياتك للميعاد وقم واجمع خير زاد
ولا تركز إلى الدنيا كثيراً فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت من غير زاد
وشهر رمضان هو شهر الصيام وشهر القرآن له لون فريد يتميز به عن بقية العبادات الأخرى فإن الصيام يقوى الإرادة وفي نفس الوقت فإن الإنسان وهو صائم يستطيع أن يغير من العادات السيئة التي تعود عليها في غير رمضان، وإذا كانت العبادة تستهدف في المؤمن طهارته فإن الطهارة لا تعنى طهارة الظاهر فقط بل هى طهارة الباطن. والصوم يقلل من شر المادية في الجسم فإن تقليل الطعام يعنى تقليل وقود المادة فيقل السعار الذى يدفع الإنسان لارتكاب المعاصي والله سبحانه وتعالى اصطفى رمضان كزمن تتدرب فيه على الاستقامة لتشيع من بعد ذلك في كل حياتك، فالصيام في رمضان يعطى الإنسان الاستقامة لمدة شهر ويلاحظ الإنسان حلاوة الاستقامة فيستمر فيها بعد رمضان.

والحق سبحانه وتعالى لا يطلب منك الاستقامة في رمضان فقط بل يطلب منك الاستقامة على مدار العام، ونحن نصوم رمضان في الصيف ونصومه في الشتاء ونصومه في الخريف ونصومه في الربيع إذن فرمضان يمر على كل العام لنكمل باقى العام بالاستقامة والطاعة ولا يقتصر المؤمن على صوم رمضان فقط ويترك صيام التطوع فيستحب له الإكثار من الصيام في أيام التشريق وأيام العيد وشهر المحرم وشعبان والأشهر الحرم والعشر الأول من ذى الحجة ويوم عرفة وعاشوراء وتاسوعاء وستة من شوال ويوم الاثنين والخميس.

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: {تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس فأحب أن يعرض عملى وأنا صائم} ^(١). وصيام ثلاثة أيام من كل شهر. عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: {صوم ثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر كله} ^(٢).
فبالعبادات ومنها عبادة الصوم فإنها تغير من عادات الإنسان بالمحافظة عليها والالتزام بآداب وأخلاق الصيام.

الالتزام بآداب الصيام:

إن المؤمن الحق هو الذى يلتزم ويحرص كل الحرص على أن يؤدي صيامه بكل كمال وخشوع لرب العالمين ويتبعد عن كل ما يؤثر في صيامه بالحرمة أو بالكراهة فشأن المؤمن الصادق أنه ينشد إلى الكمال في عباداته ويتحرى الصدق في القول والعمل لكى يحيا حياة طيبة تسعده فيستحب للصائم أن يراعى في صيامه الآداب الآتية:

أولاً: السحور: فقد أجمعت الأمة الإسلامية على استحبابه وأنه لا إثم على من تركه، فعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: {تسحروا فإن السحور بركة} ^(٣). ويسن للصائم السحور بقليل الطعام ولو جرعة ماء.

ثانياً: تعجيل الفطر: فيستحب للصائم أن يعجل الفطر متى تحقق غروب الشمس فعن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: {لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر} ^(٤). وينبغي أن يكون الفطر على رطبات وترا فإن

^١ - رواه الترمذى في كتاب الصيام - باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس - ح م : ٧٤٧ .

^٢ - رواه البخارى في كتاب الصوم - باب صوم داود عليه السلام ج ٤ - ص ١٩٢ - ومسلم في كتاب الصيام - باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر .

^٣ - بركة : هو أن يقوى الصائم وينشطه ويهون عليه الصيام وأصلها الزيادة وهى الأجر والثواب .

^٤ - رواه البخارى - فى الصوم - باب بركة السحور - ج : ٤ - ص ١٢٠ ومسلم فى كتاب الصيام - باب فضل السحور - ح م : ١٠٩٥ .

^٥ - رواه البخارى - فى الصيام - باب تعجيل الإفطار - ج : ٤ - ص ١٧٣ . ومسلم باب فضل السحور وتأكيده استحبابه واستحباب تأخيرها وتعجيل الفطر ح م : ١٠٩٨ .

لم يجد فعلى الماء، فعن أنس رضى الله عنه كان رسول الله ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلى فإن لم تكن فعلى تمرات فإن لم تكن حسا ^(١) حسوات من ماء ^(٢).

ثالثا: الدعاء: الدعاء عند الفطر وأثناء الصيام، روى عن ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ قال: {إن للصائم عند فطره دعوة لا ترد}، وروى عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ إذا أفطر قال: اللهم لك صمنا وعلى رزقك أفطرنا فتقبل منا إنك أنت السميع العليم. وعن عائشة رضى الله عنها قال: قلت يا رسول الله أ رأيت إن علمت أى ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: {قولى فيها اللهم إنك عفوتحب العفو فاعف عنا} ^(٣).

رابعا: الطهارة: وإذا كانت العبادة تستهدف فى المؤمن طهارته فإن الطهارة لا تعنى طهارة الظاهر فقط إنما هى طهارة الباطن وطهارة الجوارح وطهارة القلب والطهارة من اقتراف الآثام لا سيما وقد قال ﷺ: {إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا، فالعين تزنى وزناها النظر واليد تزنى وزناها اللمس} ^(٤). فإن جوارح الإنسان أمانات الله التى يجب استخدامها فى الطاعات وما يرضى الخالق جل وعلا، أما إذا سولت له نفسه اقتراف الآثام بها فقد خان أمانة الله عنده، وعرض نفسه لسخط الله وغضبه، فعلى المؤمن أن يطهر نفسه من هذه الرذائل من الرياء والكبر والحسد وليس من الإنصاف أو العقل أن نلقى سقطاتنا وسيئاتنا على مسئولية الشيطان فنحن مسئولون عما نفعل مأخوذون بذنوبنا. قال تعالى: ﴿... وَلَا نُزِرْ وَأَزِرْ وَرَزَّ أُخْرَى...﴾ [الأنعام: ١٦٤].

خامسا: الكف عما يتنافى مع الصيام: الصيام عبادة من أفضل القربات لله تعالى لتهذيب النفس وتعويدها الخير فينبغى أن يلتزم الصائم بآداب الصيام بالبعد عن الأعمال التى تخدش صومه حتى ينتفع

^١ - حسا: شرب .

^٢ - فقه السنة - المجلد الأول - ص ٣٧ .

^٣ - رواه الترمذى فى كتاب الذكر والدعاء - باب أى الدعاء أفضل - ح م : ٣٥٠٨ حديث حسن صحيح .

^٤ - أخرجه مسلم - باب قدر على ابن آدم حفظه من الزنا - ح م : ٢٦٥٧ .

بالصيام وتحصل له التقوى التى ذكرها الله فى قوله تعالى: ﴿... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١١) [البقرة]. وليس الصيام مجرد إمساك عن الأكل والشرب وسائر ما نهى الله عنه. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {ليس الصيام من الأكل والشرب وإنما الصيام من اللغو والرفث فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل إني صائم .. إني صائم} (١).

سادساً: البعد عن الغيبة، فالغيبة تفسد الصوم. وجاء فى الخبر أن: {امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش فى آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستأذناه فى الإفطار فأرسل إليهما قدحا وقال ﷺ: قل لهما قينا فيه ما أكلتما. فقاءت إحداهما: نصفه دما عبيطا ولحما وقاءت الأخرى مثل ذلك. فعجبت الناس من ذلك فقال ﷺ: هاتان صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا عما حرم الله تعالى عليهما. قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يغتابان الناس فهذا ما أكلتا من لحومهم} (٢).

سابعاً: الامتناع عن الأمور المعنوية مثل الكذب والفحش فى القول: قال ﷺ: {من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه} (٣) يعنى الصوم. وهذا تخويف من إحباط قدر الصوم وثوابه فإن من لم يدع الكذب وهو صائم لا يثاب على صومه (٤).

ثامناً: تقوية العزيمة بالحلم والعمل الصالح: إن الصيام مدرسة منهجها تقوية العزيمة وتغيير السلوك من السيئ إلى الأحسن وربط الإنسان بخالقه وحسن صلته بالناس لينعم بأجر الصائمين ويفوز برضا رب العالمين فعلى الصائم أن يكون حليماً فالإنسان الذى يصوم وهو متوتر الأعصاب هائج القوى النفسية مع نفسه ومع كل من يكلمه نقول له إن الصيام لم يفرض عليك ليكون سبباً فى عذاب نفسك ولا فى تهيج أعصابك وعواطفك وإنما فرض الصيام لتكون أيامه خيراً لنفسك تسكن منك نائرة النفس ويهدأ فيك توتر

١- أخرجه ابن خزيمة - ج ٣ - ص ٢٤٣ قال الأعظمى إسناده صحيح .

٢- أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد - ج ٣ - ص ١٧١ - ح ٥٠٠٨ .

٣- أخرجه البخارى فى كتاب الصوم - باب من لم يدع قول الزور - ج: ٤ - ص ٩٩ .

٤- نزهة المتقين - شرح رياض الصالحين - ص ١٢٦ .

الأعصاب وتسوقك في الليل لتتضم مع جند الله الصالحين وتكون بين الأطهار والأبرار من خيرة المؤمنين تصلى صلاة القيام وتقرأ القرآن وتخشع لربك وأنت تدعوه لأنه صاحب الفضل عليك الذى خلقك فسواك فعدلك وأنعم عليك بنعمة العقل وأودع فيك نور العين وقوة السمع وتفضل عليك وذكرك إن ذكرته مصداقاً لقوله: {أنا مع عبدي ما تحركت له شفتاه} لكن الصائم الذى يصيح بصوت يزعج الآمنين ويتتبع بعيونه حرمان المؤمنين نقول له إذا كان الصيام لم يغير من طبعك ولم يهذب من أخلاقك فتذكر قول الصادق الأمين: {كم من صائم ليس من صيامه إلا الجوع والعطش}. فإن الصيام مدرسة منهجها تقوية العزيمة وتغيير السلوك.

تاسعاً: الجود ومدارسة القرآن: الجود لغة: الكرم، وهو أعم من الصدقة ولكن الجود كان يتضاعف في شهر رمضان بسبب عظيم هو مدارسة القرآن والمقصود بالمدارسة: أن يقرأ أحدهما ويستمتع الآخر وبذلك يثبت القرآن المجيد في قلب النبي ﷺ وعقله ويظل القرآن محفوظاً بعناية الله سبحانه وتعالى. والقرآن الكريم كتاب الله الذى أنزله على عبده بلسان عربي مبين وكان نزوله في شهر رمضان الذى فرض الله علينا صيامه وسن لنا رسول الله ﷺ قيامه صلة للإنسان بربه وشكراً له على ما أنعم علينا بهذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكان رسول الله ﷺ يتدارسه في كل رمضان مع المؤمنين كما كان يتدارسه مع أمين الوحي جبريل. روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: {كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان ويدارسه القرآن فرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود من الريح المرسلة أى في الإسراع والعموم} ^(١).

فعلى المؤمن أن يحرص على أن يكون الصيام والقرآن قرينيه في عمله اليومي ليكونا شفيعاً لمن حرص عليهما وأدى حقهما. عن النبي ﷺ قال: {القرآن والصيام يشفعان للعبد يوم القيامة يقول الصيام: أى ربي منعتك الطعام والشهوة فشفعنى فيه. ويقول القرآن: منعتك النوم في الليل فشفعنى فيه فيشفعان} ^(٢). والمؤمن مطالب أن يكون كريماً سخياً النفس عطوف القلب والرسول ﷺ يحثنا على ذلك ويرغبنا في الجود وبذل

^١ - رواه البخارى في باب بدء الوحي - ج: ٤ - ص ٩٩ ومسلم في كتاب الفضائل - باب كان النبي ﷺ أجود الناس .

^٢ - أخرجه أحمد في مسنده - ج: ٦ - ص ١٨٨ - ح: ٦٦٢٦ إسناده صحيح .

الخير لإخواننا حتى لو كان ما يقدمه الشخص نصف ثمرة فإذا لم يجد النصف من التمرة فتبسمك في وجه أخيك صدقة وأن ترشد الضال صدقة وأن تعين ذا الحاجة صدقة. قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد].

وإذا كانت الحسنة بعشر أمثالها فإن الجود والكرم في شهر رمضان قد يصلان إلى سبعمائة ضعف فعند الله الكثير وعند الله الخير الكثير فالتعاون وبذل المعروف تقى مصارع السوء وتزيد الخير عند الإنسان، فالمؤمن العاقل هو الذى يتخذ يوم صومه وخاصة صوم شهر رمضان مغنما له ومكسبا فليسارع في فعل الخيرات ليربح عطاء الله تعالى.

عن جابر رضى الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: {أعطيت أمتي في شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبي قبلي: أما الأولى فإنه إذا كان أول ليلة في رمضان نظر الله عز وجل إليهم ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبدا، وأما الثانية: خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك، أما الثالثة: فإن الملائكة تستغفر لهم كل يوم وليلة، وأما الرابعة: فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها: استعدى وتزينى لعبادى أو شكوا أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى، أما الخامسة: فإنه إذا كانت آخر ليلة غفر الله لهم جميعا، فقال رجل من القوم: أهى ليلة القدر؟ فقال لا أعلم. ترى إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم} (١)

فأحب للصائم الزيادة بالجود في شهر رمضان اقتداء برسول الله ﷺ ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم ولتشاغل كثير منهم فيه بالعبادة عن مكاسبهم.

عاشراً: السواك: ويستحب للصائم أن يتسوك أثناء الصيام لا فرق بين أول النهار وآخره وكان النبي ﷺ يتسوك وهو صائم وكان يرغب فيه. عن عائشة رضى الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ قال: {السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب} (٢).

١- رواه أحمد في مسنده - ج ١٣ - ص ٢٩٥ - ح ٧٩١٥ إسناده ضعيف جدا .

٢- رواه النسائي - كتاب الطهارة - باب الترغيب في السواك ج: ١ - ص ١١ بإسناد صحيح .

حادى عشر: الاجتهاد فى العبادة فى العشر الأواخر من رمضان: روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها: {أن النبى ﷺ كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المأزر} (١).

الصيام والصحة الجسدية والنفسية:

اعلمى أختى المؤمنة أن سعادة الأمة فى الرجوع إلى كتاب ربها وفى تطبيق سنة نبينا فإذا كان هناك ما يسمى بأمراض الحضارة فإن هناك دواء شرعه الله العلى الخبير لعلاج الكثير من هذه الأمراض ألا وهو الطبيب المعالج الذى له قدرة فائقة على شفاء المرض بدون أن يتقاضى على العلاج أجرا ودون أن يوقع على الطبيب كشفاً ألا وهو الصيام.

قال تعالى: ﴿... وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٤) [البقرة].

وقال ﷺ: {صوموا تصحوا} (٢).

فإن للصوم فوائد عديدة جسدية ونفسية:

أولاً: الصوم والصحة الجسدية:

(١) إن الصوم قد يكون سبباً لتقوية البدن واكتساب الصحة: والشفاء من بعض الأمراض لأن كثيراً من الناس تصيبهم الأمراض بسبب إسرافهم فى تناول الأطعمة فكان الصوم راحة للمعدة لأن الصيام يحدد نشاط المعدة والكبد والمرارة والبنكرياس ويخفف من نزلات القولون والاضطراب الهضمى وقرح الجهاز الهضمى. قال ﷺ: {ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه}.

(٢) الصيام طيب أمراض القلب وأمراض السمنة: من زيادة الوزن الناشئة عن كثرة الأغذية وقلة الحركة وزيادة الوزن قد تسبب تصلب الشرايين فالصيام يخفف من ضغط الدم المرتفع ويقلل من أزمات القلب والسكتة القلبية.

^١ - رواه البخارى - فى صلاة التراويح - باب العمل فى العشر الأواخر من رمضان - ج ١ - ص ٢٣٣ ، ومسلم فى الاعتكاف - باب الاجتهاد فى العشر الأواخر من رمضان - ح م : ١١٧٤ .

^٢ - أخرجه العجلونى فى كشف الخفاء - ج: ٢ - ص ٣٦ - ح ، م : ١٦٣١ ضعيف .

(٣) الصيام يعالج التهابات المفاصل المزمنة والتي تصاب بها النساء بعد سن الأربعين.

(٤) الصيام يقوى الجهاز المناعى الداخلى ويشفى بعض الأمراض أو يحسنها كالأمرض الجلدية مثل الصدفية والأكزيما وإن كان الصوم طبييا ومفيدا لبعض الأمراض أو يكون فيها راحة للجسد بخروج السموم منها وتمهيتها لكل جديد فإن الله عز وجل برحمته ولطفه أسقط فريضة الصيام عن المريض لأن هناك أمراضا يجب فيها الفطر لأنه لو صام لازداد مرضه فالله عز وجل أعطاه رخصة والله عز وجل يجب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه.

وقال تعالى: ﴿... وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ...﴾ [البقرة: ١٩٥] فإن كان الصيام فيه شفاء لكثير من الأمراض ففي بعض الأمراض لا يستطيع الإنسان الصيام لأن فيه مشقة له وإن الدين يسر والله عز وجل لا يريد بعباده هذه المشقة. فقال عز وجل: ﴿..... فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ...﴾ [البقرة: ١٨٤].

فمن آداب الصيام الالتزام بما أمر الله عز وجل به فلا يشدد الإنسان على نفسه ولا ييسر على نفسه لدرجة أنه يترك الصيام بلا عذر ولكن الوسط فيما أمره الله به ولأن دين الإسلام دين الوسطية واليسر والسماحة.

واعلم أيها المؤمن أن تشريع الله للرخصة ينقلها إلى حكم شرعى مطلوب وفى ذلك يروى لنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ فى سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال ما هذا؟ فقالوا: صائم. فقال ليس من البر الصوم فى السفر.

فبمجرد أن تكون مريضا أو مسافرا فعليك بالصوم فى عدة أيام أخر وهذا من رحمة الله عز وجل بعباده.

ثانيا: الصوم والصحة النفسية:

((١)) يمثل الصيام جانبا هاما من جوانب الشخصية المسلمة لصحتها النفسية ففيه تشفى الروح ويرقى الإحساس ويزكو الضمير وتسمو النفس وتكون صافية.

((٢)) الصوم يربى فى الإنسان قوة الإرادة حيث يتغلب على شهوات النفس التى لم يكن يصبر عليها فى غير صيامه ويصير بعزيمة قوية تجعله يتغلب على آلامه الجسدية فالصوم يمثل لونا خاصا من التأديب

للنفس البشرية، فقد جرت عادة ابن آدم أنه لا يقدر النعمة حق قدرها إلا عند فقدانه لهذه النعمة أو عند احتياجه لها. وقد قال بعض الأدباء: الصوم حرمان مشروع وتأديب بالجوع وخشوع لله وخضوع. ((الصائم يشعر بالاطمئنان لأنه قريب من الله سبحانه وتعالى حيث يصوم نهاره ممتنعا عن ملذات الجسد طوعا لأمر الله وحب التفرغ إلى الله تعالى يجد الأمل في مغفرة الله له من الذنوب. كما قال ﷺ: {رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما من الذنوب} ^(١). وقال ﷺ: {ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله إلا باعد الله بهذا اليوم النار عن وجهه سبعين خريفا} ^(٢). كل هذا يعطى للصائم طمأنينة النفس، طمأنينة نفسية تزيل عنه الهم والضيق بل ويسارع في الالتزام باداب الصيام لدخول الجنة من باب الريان. وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {إن في الجنة بابا يقال له الريان يدخل منه الصائمون لا يدخل منه أحد غيرهم يقال أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد} ^(٣).

((الصيام يشعر الإنسان بالمساواة بينه وبين البشر جميعا أبيضهم وأسودهم غنيهم وفقيرهم فهم سواسية أمام الله لا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾ [الحجرات]. وهذا يجعل الفقير راضيا كل الرضا والغنى يشعر أنه مثل الفقير لا يستطيع أن يمد يده إلى طعام وهو لا يملك أسباب توفره ولا يستطيع أن يشبع لذة جسده ولو دفع كل ما لديه من مال ويشعر الغنى بالرضا عن نفسه برضا ربه فالصوم فيه خير كثير لأن ما كتبه الله علينا يكون فيه الخير حتى ولو كان شاقا على النفس ولكن بحبك لله عز وجل وطاعتك له تجد حلاوة وراحة فيما كتبه الله عليك، فالله عز وجل لا يكلف نفسا إلا وسعها. ونحن نصوم لأن الله عز وجل فرض علينا الصوم.

^١ - أخرجه أحمد في مسنده - ح م : ٧١٢٩ - صحيح .

^٢ أخرجه مسلم - باب فضل الصيام في سبيل الله - ج ٢ - ح م : ١١٥٣ .

^٣ - رواه البخارى في كتاب الصوم - باب الريان للصائمين - ج ٤ - ص ٩٥ ورواه مسلم في كتاب الصوم - باب فضل الصوم - ح م : ١١٥٢

٥٥)) الصوم يهذب السلوك ويبعد الإنسان عن المعاصي والمعاصي في النفس إنما تنشأ من شر ماديتها فالله عز وجل جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام فخابوا فالعجب كل العجب للضحك اللاعب في اليوم الذي فاز السابقون وخاب فيه الخاسرون.

درجات الصوم:

المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمديّة والاعتداء بالملائكة بالكف عن الشهوات حسب الإمكان فإن الملائكة منزّهون عن الشهوات والاعتداء بأخلاق النبي ﷺ وبكل الأخلاق الحميدة ومنها خلق التقوى والإنسان رتبة فوق رتبة البهائم فقد زينه الله عز وجل بنور العقل على كسر شهوته لأنه كلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بصفات البهائم، وكلما قمع في الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بالملائكة، والملائكة مقربون من الله عز وجل والذي يقتدى بهم ويتشبه بأخلاقهم يتقرب من الله عز وجل.

فمن درجات الصوم:

أولاً: صوم العموم: وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

ثانياً: صوم الخصوص: فهو صوم الصالحين وهو كف الجوارح عن الآثام، قال بعض العلماء: كم من صائم مفطر وكم من مفطر صائم، والمفطر الصائم هو الذي يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب، والصائم المفطر هو الذي يجوع ويعطش ويطلق جوارحه.

فهو كف السمع والبصر واللسان والرجل وسائر الجوارح عن الآثام وتماه يكون بستة أمور:

١- غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله تعالى. قال ﷺ: {النظرة سهم من سهام إبليس فمن تركها خوفاً من الله أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه} ^(١). فالصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد، وغاية الصيام الأولى هي إعداد قلوب المؤمنين للتقوى والشفافية والخشية من الله.

^١ - أخرجه القضاعي في مسنده - ج ١ - ص ١٩٥ - ح ٢٩٢.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]

٢ - حفظ اللسان عن الهزيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والمراء وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتعالى وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان. قال ﷺ: {إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب وإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم إني صائم، والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك} ^(١).

٣ - كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه، ولذلك سوى الله سبحانه وتعالى بين المستمع وأكل السحت.

فقال تعالى: ﴿سَتَعْمُوكَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ...﴾ [المائدة: ٤٢]

وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ...﴾ [المائدة: ٦٣]

٤ - كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام.

ثالثاً: صوم خصوص الخصوص:

فهو صوم القلب عن الهمم الدنيئة وكفه عما سوى الله عز وجل بالتقوى وتلاوة كتابه الكريم. وعن أبي ذر رضى الله عنه أنه قال هل رسول الله ﷺ: {أوصنى. فقال عليه الصلاة والسلام أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله. قلت يا رسول الله زدنى، قال ﷺ: عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض وزخر لك في السماء} ^(٢).

^١ - رواه البخارى في كتاب الصوم - باب هل يقول إني صائم إذا شتم - ج ٤ - ص ٨٨ ومسلم في كتاب الصوم - باب حفظ اللسان للصائم - ح م : ١٥١ .

^٢ - أخرجه ابن حبان وقال الألبانى في صحيح موارد الظمان - ح م : ٣٣٦١ - صحيح لغيره ، الصحيحة رقم ٥٥٥

الفصل الرابع

البعد عن الغضب

الحمد لله رب العالمين نستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه ونؤمن به ونتوكل عليه ونثني عليه الخير كله نشكره ولا نكفره ونخلع ونترك من يفجره اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحن نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد بالكفار ملحق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن سار على سنته ومنهاجه إلى يوم الدين.. أما بعد،،،
فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣٦] [الفتح].

في هذه الآية الكريمة ذم الكفار بما تضرروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة.

قال أبو هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: { ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب }^(١).

معنى الغضب: لغة: الغضب نقيض الرضا، والغضب هو الثور الشديد الحمرة^(٢)، وهو استجابة لانفعال يتميز بالميل إلى الاعتداء^(٣).

معنى الغضب اصطلاحاً: هو غليان دم القلب بطلب الانتقام والتشفى فهو تغيير يحصل عند غليان دم القلب ليحصل عنه التشفى للصدر^(٤).

^١ - أخرجه البخارى - باب الحذر من الغضب - الجزء الثانى - ص ٢٨ - رقم الحديث ١٦١١٤.

^٢ - لسان العرب - ص ٦٣٤.

^٣ - المعجم الوجيز - ص ٤٥١.

^٤ - معجم التعريفات - ص ١٣٦.

رديلة الغضب:

الغضب هو غليان دم القلب بطلب التفشى والانتقام فهو شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ولها أضرار كثيرة على الإنسان، فإذا اشتعلت نار الغضب وثارت ثوراناً يغلى به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار عند اشتعالها وكما يرتفع الماء الذي يغلى في القدر فتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى التفشى والانتقام فتؤدى إلى عواقب وخيمة على الفرد والمجتمع ويعم الفساد بالقتل والسب واللعن، وإذا عجز هذا الشخص عن التفشى والانتقام وكظم غيظه رجع في الحال إلى الباطن واحتقن وصار حقدًا وحسدًا، فيمتلئ قلبه بالكراهة والبغض والنفاق من عدوه ويدوم على ذلك حتى ينتقم لنفسه، فالحقد والحسد ثمرة الغضب وبهما هلك من هلك وفسد من فسد، فقوة الغضب محلها القلب الذى إذا صلح صلحت معه سائر جسده، وإذا فسد فسد معه سائر جسده، والذى قويت فيه نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال: ﴿... خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقَتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف].

فإن من شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظى والاستعار والحركة والاضطراب، فرديلة الغضب مرض قلب ونقصان عقل وآية لضعف النفس حيث إنك تجد المريض أسرع غضباً من الصحيح، والمرأة أسرع غضباً من الرجل، والصبى أسرع غضباً من الكبير، والرذيل يغضب لشهوته إذا فاتته لقمة ولبخله إذا فاتته الحبة. فالقوى هو من يملك نفسه عند الغضب، كما قال ﷺ: { ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب }.

فعلى الإنسان معرفة فضيلة الحلم والعفو وحكايات قصص الصالحين والتأسى بسيد المرسلين ﷺ .

أنواع الغضب:

في الحقيقة أن الغضب نوعان غضب محمود وغضب مذموم ..

قال ابن عرفة: { الغضب من المخلوقين شيء يداخل قلوبهم ومنه محمود ومذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق وكان في أمور الدنيا، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق وكان لله ولنصرة دينه }^(١).

أولاً: الغضب المحمود:

هو ما كان في جانب الدين والحق وكان لله ولنصرة دينه، فهو غضب ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم.

ومن الغضب المحمود:

١ ((الغضب إذا انتهكت حُرُمات الشرع^(١) قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، عِنْدَ رَبِّهِ... ﴾ [الحج: ٣٠]. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: {إن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ، فقالوا: ومن يجترى عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتشفع في حد من حدود الله تعالى ثم قام فاختطب^(٢)، ثم قال: إنما هلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأئيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يديها^(٣). }

٢ ((الذين يغضبون لمحارم الله إذا استحلّت: عن أبي هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {المؤمن يُغار والله أشد غيرة^(٤). }

وقال ﷺ: {أتعجبون من غيرة سعد لأننا أغير منه والله أغير منى^(٥). }

قال ابن القيم: {وملاك الغيرة وأعلاه منزلة ثلاثة أنواع، غيرة العبد لربه أن تنتهك محارمه وتضيع حدوده، وغيرة على قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأنس بسواه، وغيرة على حرمة أن يتطلع إليها غيره، فالغيرة التي يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة وما عداها فإنها من خداع الشيطان^(٦). }

١ - رياض الصالحين - ص ٢٩٦ .

٢ - اختطب: بمعنى خطب .

٣ - أخرجه البخارى - باب حديث الغار - ج ٤ - ص ١٧٥ - ج م: ٣٤٧٥ .

٤ - أخرجه مسلم - باب غيرة الله تعالى - ج ٤ - ص ٢١١٥ - ج م: ٢٧٦١ .

٥ - أخرجه البخارى - ج: ٨ - ص ١٧٣ - ج م: ٦٨٤٦ .

٦ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين لمحمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن القيم الجوزى - ج ١ -

وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب، ولذلك قيل إن كل أمة وُضعت الغيرة في رجالها وُضعت الصيانة في نساءها.

إذاً من ثمرات عدم الغيرة على الحرام هو ما يُسمى بالخنوثة.

فبدون الغيرة على محارم الله تتحول الحياة إلى مستنقع آثم، حكم بغير شرع الله اقتصاد على الربا مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمة إلا في حالة الإكراه، ولا يعاقب إلا في حالة الإكراه بشريعة الله، وخمور يباح تداولها ولا يعاقب شاربها، وسب الدين لله ورسوله وعقوق الوالدين والتبرج الذي ساد وملاً الآفاق من تعرى النساء والرجال ولا يعدونه من الحرام ويجعلونه من التقدم والازدهار.

فعلى المؤمن أن يغضب لما قد يحدث في هذا المجتمع ولكن عليه أن لا يقف مكتوف الأيدي بل عليه أن يكون له مهمة في هذه الحياة بالأعمال الصالحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقف موقف المتفرج حتى لا ينال عقاب الله تعالى (١).

قال ﷺ: {ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله ثم لم يغيروه إلا عمهم الله تعالى منه بعقاب} (٢).

وقال ﷺ: {والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعونه فلا يستجيب لكم} (٣).

(٣) ومن الغضب المحمود الانتصار لدين الله تعالى: وقد وصف الله سبحانه وتعالى أصحاب النبي ﷺ

بالشدة والحمية فقال: ﴿... أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...﴾ (٢٩) [الفتح].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿... جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ...﴾ (١) [التحریم].

وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب.

١ - ترطيب الأفواه بذكر من يظلمهم الله - ص ٤٠٢.

٢ - أخرجه أبو داود - وجامع الجوامع والحكم - ص ٢٤٧، ٢٤٨ - رقم الحديث ٢٤.

٣ - أخرجه الترمذی - باب ما جاء في الأمر بالمعروف - ج: ٤ - ص ٤٦٨ - ح م: ٢١٦٩.

فعلى الإنسان أن يغضب على شرع الله المعطل المغيب عن ديار المسلمين وعلى تعطل أحكام القرآن وعلى أحاديث رسول الله ﷺ التي ترد بالهوى وعلى أعراض المسلمين التي تُنتهك.

عن جابر قال: {كان رسول الله ﷺ يغضب حتى تحمر وجنتاه، كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه} ^(١).

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه: {يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلته فى الغضب والرضا فقال اكتب فوالذى بعثنى بالحق نبياً ما يخرج منه إلا حقاً} ^(٢).

وأشار إلى لسانه فلم يقل إنى لا أغضب ولكن قال إن الغضب لا يخرجنى عن الحق.

٤)) ومن الغضب المحمود ما كان ضرورياً فى حق بعض الناس: كالقوت والمسكن فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذى يستر عورته.

ثانياً: الغضب المذموم: هو الذى يقال فيه إنه لا حمية له وقال الشافعى رحمه الله {من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرضى فهو شيطان} ^(٣).

ومن فقد الغضب فى الأشياء المغضبة حتى استوت حالتاه قبل الإغصاب وبعده فقد عُد من فضائل النفس الشجاعة والألفة والحمية والغيرة والدفاع والأخذ بالثأر لأنها خصال مركبة فى الغضب فإذا عدها الإنسان هان بها ولم يكن لباقى فضائله فى النفوس موضع ولا لوفور حلمه فى القلوب موضع.

ومن الغضب المذموم:

١)) الإفراط:

هو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين ولا يبقى للمرء معها بصيرة ولا نظر ولا اختيار بل يصير فى صورة المضطر وسببه أمور غريزية وأمور اعتيادية فُرب إنسان هو بالفطرة مستعد

^١ - أخرجه مسلم والعراقى فى المغنى عن حمل الأثقال - ج: ١ - ص: ١٠٦٦ - ح م: ٢.

^٢ - تخرىج أحاديث الإحياء - باب كتاب الغضب - الجزء الأول - ص ١٠٦٧ - رقم الحديث ٢.

^٣ - كتاب حلية الأولياء - ج: ٩ - ص ١٤٣.

لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار أو وجود الأسباب المهيجة للغضب وهى الكبر والفخر والتعزز والحمية والمهارة وشدة الحرص على فضول المال والجاه أو وجود أسباب اعتيادية وهو أن يخالط قوماً يتبجحون بتشفى الغيظ وطاعة الغضب ويسمونهم ذلك شجاعة ورجولية فيقول الواحد منهم أنا الذى لا أصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمراً ومعناها "لا عقل فيه ولا حلم" فمن سمعه رسخ في نفسه حُسن الغضب وحب التشبه بالقول فيقوى به الغضب ومهما اشتد نار الغضب وقوى اضرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة فإذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضباً وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطفئ نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب فإن معدن الفكر الدماغ ويتصاعد عن شدة الغضب من غليان دم القلب بدخان مظلم إلى الدماغ يستولى على معادن الفكر وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه وتسود عليه الدنيا بأثرها وربما تقوى نار الغضب فتفتنى به حياة القلب فيموت صاحبها غيظاً^(١).

٢) ومن الغضب المذموم الغضب للأموال المحبوبة بالعادة والجهل:

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَنَاقِبِ﴾ [آل عمران: ١٤]

وهى ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب حتى إن الذهب والفضة محبوبان في أنفسهما فيكثران وكالفائض من المال أو يغضب عندما يقول له قرناء السوء إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر ويمكن إخراج هذا النوع من الغضب بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ومستقره الآخرة وأن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره فيزهد في الدنيا ويمحو حبها عن قلبه ولا يغضب بفوات المحتاج إليه كموت الشاة التى هى قوته فلا يغضب كما لا يغضب على ذبحها إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل فيندفع

^١ - إحياء علوم الدين - ص ١٥٨ .

غضبه بغلبة التوحيد ويندفع أيضاً بحسن الظن بالله وهو يرى أن الكل من الله وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخير وربما تكون الخيرة في مرضه وجوعه فلا يغضب ولو تصور ذلك على الدوام لأراح نفسه.

آثار الغضب:

فاحذر أيها المؤمن آفة الغضب فإنك لا تدري ماذا تفعل وقت غضبك الشديد وهذه صفة لا يحبها الله ورسوله. عن أبي عبد الله قال: {سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزى السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح} (١).

١ ((تغيير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام.

٢ ((أثر هذا الغضب في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحى منه ذوو العقل ويستحى منه قائله، فإنك لا تتمالك أيها الإنسان نفسك وقت الغضب ولا تدري ماذا تقول حيث إنه كثر في هذه الأيام السب واللعن وسب الدين وسب الوالدين في أكثر من شجار، ومن آثار الغضب انتشار الطلاق بصورة كبيرة وخاصة في هذه الآونة ولكن عدم صبر الزوجات وكثرة مشاكل الحياة قد يحدث انفصلاً بسبب الغضب وكثرة التلفظ بقوله أنت طالق.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله (سب الدين من أعظم الكبائر ومن أعظم المنكرات ومن أسبابه الردة عن الإسلام).

٣ ((وأما أثره على الأعضاء: كالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح كما يحدث في هذه الأيام من انتشار القتل لأتفه الأسباب وتقسيم الميراث وغيره.

٤ ((أما أثره في القلب مع المغضوب عليه: كالحقد والحسد وإضرار السوء والشتم وهتك السر والاستهزاء.

الغضب مدخل من مداخل الشيطان: واعلم يا بن آدم أن الغضب مدخل من مداخل الشيطان إلى

القلب وباب من أبوابه العظيمة فإن الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة.

^١ - سنن الترمذی - الجزء الخامس - ص ١٦ - رقم الحديث ٢٠٩٦.

وإذا غضب الإنسان لأن الشيطان يوسوس له فيقول له إنك عاجز وصغير النفس لا تستطيع أن تدافع عن نفسك سوف يقال إنك ضعيف وتصيبك الذلة والمهانة وتصير حقيراً في أعين الناس ولا يخاف منك أحد بعد ذلك ولا يعملون لك حساباً إذا لم تنتقم من الذى يشتمك ويسببك فالصغير سوف يستهين بك والكبير يلعب بك الكرة .

وقد روى أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له: {يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليماً وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لى إلى ربى أن يتوب علىّ فقال موسى نعم فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه أد الأمانة فقال موسى يا رب إن عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه فأوحى الله تعالى إلى موسى يا موسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه فلقى موسى إبليس فقال له قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك فعضب واستكبر وقال لم أسجد له حياً أأسجد له ميتاً ثم قال له يا موسى إن لك علىّ حقاً بما شفعت لى عند ربك فاذكرنى عند ثلاث لا أهلكك فيهن اذكرنى حين تغضب فإن روحى فى قلبك وعينى فى عينك وأجرى منك مجرى الدم اذكرنى إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان نفخت فى أنفه فما يدرى ما يصنع واذكرنى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره بزوجه وولده وأهله حتى يؤلى وإياك أن تجلس إلى امرأة ليس بذات محرم فإنى رسولها إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أفتتك بها وأفتنها بك} (١).

ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس: {أرنى كيف تغلب ابن آدم أخذه عند الغضب وعند الهوى فقد حكى أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب أى أخلاق بنى آدم أعول لك قال الحدة فإن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وقيل إن الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه} (٢).

١ - مكائد الشيطان - ج: ١ - ص ٦٥ - ح م: ٤٤ .

٢ - إحياء علوم الدين - ج: ٣ - ص ٣٢ .

وغضبت عائشة رضى الله عنها مرة فقال لها رسول الله ﷺ: {ما لك جاءك شيطان فقالت وما لك شيطان يا رسول الله قال بلى ولكن دعوت الله فأعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير} (١).

أسباب الغضب:

اعلم أيها المؤمن أن علاج كل علة حسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب، وقد قال يحيى لعيسى عليه السلام: {أى شيء أشد؟ قال غضب الله، قال فما يقرب من غضب الله، قال أن تغضب، قال فما يبدى الغضب وما ينتهي، قال عيسى: الكبر والفخر والتعزز والحمية} (٢).

الأسباب المصاحبة للغضب كثيرة منها:

أولاً: العجب والكبر والغدروشة الحرص على فضول المال والجاه والفحش ورداءة اللسان، فينبغى عليه أن يعرف رذيلة الكبر والعجب ويموتها بالتواضع ومعرفته بنفسه وأن الكبر والعجب مسلبان للفضائل ويكسبان الرذائل.

وقال النبى ﷺ لعمه العباس: {أنهاك عن الشرك بالله والكبر فإن الله يحتجب منهما} (٣).
وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: {إن العُجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب} (٤). فالإعجاب يخفى المحاسن ويظهر المساوئ ويصد عن الفضائل. وقال الأحمـد بن قيس: عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر (٥).

وقال بعض الشعراء:

يا مظهر الكبر إعجاباً بصورته انظر فإن النتن تشريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شبان

-
- ١ - أخرجه مسلم - باب تحريض الشيطان - الجزء الرابع - ص ٢١٦٨ - رقم الحديث ٢٨١٥ .
 - ٢ - إحياء علوم الدين - ج ٣ - ص ١٧٣ .
 - ٣ - السنن الكبرى للنسائي - رقم الحديث ١١٨٨ - حديث مرفوع .
 - ٤ - أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان - ج: ٩ - ص: ٣٩٥ - ح م: ٦٨٦١ . قول مأثور عن يحيى بن معاذ .
 - ٥ - المجالسة وجواهر العلم - ج: ٥ - ص ٣٠١ .
 - ٦ - الذخائر والعبقريات - لعبد الرحمن بن عبد الرحمن بن سيد الأديب المصرى - ج: ٢ - ص ٣٠٣ ..

وعلى المؤمن أن يميز هاتين الصفتين الكبر والعجب بالتواضع ومعرفة شرف التواضع وأن من تواضع لله رفعه الله عز وجل.

قال ﷺ: {ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله}. ويزيل آفة الفقر بأن يعلم بأن الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد وإنما اختلفوا في الفضل فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهى أصلها ورأسها الفخر^(١).

ثانياً: شدة الحرص على مزايا العيش:

فتزيل هذه الصفة بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة. قال ﷺ: {القناعة كنز لا يفنى}^(٢).

ثالثاً: الغدر والخيانة:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾. (٤٢) [فاطر].

وكم أوقع الغدر في المهالك من غادر، قال ﷺ: {المكر والخديعة والخيانة في النار}^(٣). وأن نمت هذه الصفة بالوفاء بالعهد والأمانة ومعرفة منزلتها. قال المولى عز وجل: ﴿.....وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣٤) [الإسراء].

رابعاً: أشد أسباب الغضب عند أكثر الجهال الذين يسمونه الغضب شجاعة ورجولية وعز وكبر همة وتلقيبه بالألقاب المحموده ووصفه بصفات الشجاعة وغيرها من صفات القوة والنفوس تميل إلى التشبه بالأكابر فيهيح الغضب وتمت هذه الصفة بالثقة بالنفس ومعرفة أضرار الغضب وآثاره على الفرد والمجتمع^(٤).

بيان علاج الغضب بعد هيجانه:

وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل.

١ - كتب سير أعلام النبلاء - الجزء السادس - ص ٣١١ ، ٣١٢ - لابن أبي ليلى .

٢ - كتاب الزهد الكبير للبيهقي - رقم الحديث ٢٩ - حديث مرفوع .

٣ - أخرجه أحمد في مسند أنس بن مالك - الجزء التاسع عشر - ص ٤٣٢ - رقم الحديث ١٣١٩٩ . حديث حسن .

٤ - إحياء علوم الدين - ص ١٦٣ .

والعلم يكون بستة أمور:

أولاً: أن يعرف فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتفال فيرغب في ثوابه فتمنعه شدة الحرص على ثواب الغيظ عن التشفى والانتقام وينطفى عن غيظه.

قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ﴾ [آل عمران].

وقال ابن عمر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: { ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى }^(١).

وأن سليمان لما سُتِم قال: {إن خفت موازيني فأنا شر مما تكون وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول}^(٢).

وقالت امرأة لمالك بن دينار يا مرثي فقال ما عرفني غيرك فكأنه كان مشغولاً بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء. وسب رجل الشعبي فقال إن كنت صادقاً فغفر الله لي وإن كنت كاذباً فغفر الله لك^(٣).

وقال مالك بن أوس^(٤) غضب عمر رضي الله عنه على رجل حين قال له الرجل والله ما تغضب بالعدل ولا تعطى الجزية فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه وأمر بضربه فقال له رجل يا أمير المؤمنين: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف].

فهذا من الجاهلين فقال عمر صدقت وكأنما كانت ناراً فأطفئت. وأمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ) فقال لغلامه خلى عنه.

وقال ﷺ أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم قالوا وما أبو ضمضم قال رجل ممن كان قبلكم كان إذا أصبح يقول اللهم إني تصدقت اليوم بعرضي على من ظلمني وقال ﷺ: {اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم}^(٥).

١ - أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر - ج: ٢ - ص ١٤٠١ - ح م: ٤١٨٩ .

٢ - دليل الواعظ في أدلة المواظ - ج: ٢ - ص: ٥٧٦ .

٣ - إحياء علوم الدين - ج: ٣ - ص ١٧١ .

٤ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب - ج: ١ - ص ٤٠٤ .

٥ - أخرجه ابن السني في رياض المتعلمين بسند ضعيف ، وأخرجه الديلمي - رقم الحديث ٢٣٨ .

ليعلم أن السكينة من الله وهى طمأنينة ينزلها الله فى قلب عبده المؤمن عند الشدائد فتهدون عليه الدنيا ومن فيها.

ثانياً: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمير العدو لمقابلته والسعى فى هدم أعراضه والشهاته فى مصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا والآخرة.

ثالثاً: على الإنسان أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره حالة الغضب وأن يتفكر فى قبح الغضب فى نفسه ومشابهة صاحبه بالكلب الضارى ومشابهة الحليم التارك للغضب بالأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء بأن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يعرف أن قدرة الله عليه أعظم من قدرته على هذا الإنسان فلو أمضى غضبه عليه لم يأمن أن يمضى الله غضبه عليه يوم القيامة فهو أحوج ما يكون إلى العفو فلو خاف هذا الحاكم الظالم من عقاب الله عز وجل لما اشتد غضبه على العالم الصالح الذى أمره بالمعروف فاستغضب هذا الحاكم وأمر بحبس هذا الرجل الصالح مع الأسد .

إنه كان هناك حاكم ظالم وهو اسمه أحمد بن طولون قد ظلم وتكبر واستشعر الناس الظلم فذهبوا إلى علماءهم يطلبون منهم أمر الحاكم بالمعروف ونهيه عن المنكر وذهب العالم أبو الحسن إلى الحاكم وطلب مقابلة الحاكم دون خوف ودخل أبو الحسن على ابن طولون وقال له اتق الله فى الرعية لقد ظلمتهم وأشار ابن طولون إلى جلاديه وقال لهم خذوه فاعتلوه وجوعوا له أسداً ثلاثة أيام ثم ضعوه مع الأسد ودعوه وأخبرونى بعد ذلك ماذا فعل به الأسد؟ وأخذ الرجل ووضع فى زنزانه حتى جاع الأسد ثم أدخل العالم على الأسد والأسد يزجر من شدة الجوع وأغلق الباب عليها ومضت ساعات وطلب ابن طولون التقرير ماذا فعل الأسد بأبى الحسن وفتح الحارس الباب فماذا رأى؟ رأى العالم ساجداً والأسد فى حراسته .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (١٦) [مريم].

وجيء بالعالم أمام الحاكم وقال الحاكم لأبى الحسن لماذا لم يقربك الأسد بسوء قال أبو الحسن عندما أغلقتم القفص على وعلى الأسد كنت أتلو قول الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٤٨) [الطور].

هذه الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة. قال ﷺ: من أصبح حزيناً على الدنيا فقد أصبح ساخطاً على ربه. وكان على هذا الحاكم أن يعلم أن الغضب والظلم لن ينصره فبدلاً من ذلك كان عليه أن يخوف نفسه بعقاب الله (١).

قال تعالى: {يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أحقك فيمن أحق} (٢).
قيل كان في بنى إسرائيل ملك لا يكون إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة فكان يقرأها حتى يسكن غضبه وأن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمير العدو لمقاتلته والسعى في هدم أعراضه والشماتة لمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعاقبة الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة وأن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب وعليه أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد أن يكون له سبب مثل قول الشيطان له إنك عاجز تتحمل الكثير إنك ذليل مهين وتصير حقيراً في أعين الناس فيقول لنفسه تأنفين الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة.

رابعاً: أن يذكر الله عز وجل فيدعوه ذلك إلى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة والعمل الصالح الذي يرضيه عند ذلك يزول الغضب. قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُّكَ إِذَا نَسِيتَ . .﴾ (٣) [الكهف].
قال عكرمة: يعنى إذا غضبت. وقال بعض الحكماء من ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته في ظلم عباد الله، وذكر في التوراة مكتوباً يا بن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أحقك فيها أحق (٣).

خامساً: أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ومزلة الانتقام وكتب أبرويز إلى ابنه شيرويه إن كلمة منك تسفك دماً وأخرى منك تحقن دماً وإن نفاذ أمرك مع كلامك فاحترس في غضبك أن تخطئ ومن لونك أن يتغير فإن الملوك تعاقب قدرة وتغفو حلماً.

١ - الخطب المنبرية - ج: ١ - ص ٧٩ : ٨٠ .

٢ - أخرجه المتقى الهندي في كنز العمال - ج: ٣ - ص ٥٣٣ - ح م : ٧٧١٩ عن ابن عباس وفيه عثمان بن عطاء الخراساني - ضعيف .

٣ - أدب الدنيا والدين - ج: ١ - ص ٢٥٩ .

وقال بعض الشعراء:

وإذا ما غرتك في الغضب العزة فاصبر ترلزل الاعتذار
سادساً: أن يذكر ثواب العفو وجزاء الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب وحذراً
من استحقاق الدم والعقاب.

رُوى عن النبي ﷺ قال: {ينادى منادٍ من السماء من له أجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن
الناس ثم تلى: ﴿...فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...﴾ [الشورى] (١).

وأما علاج الغضب بالعمل:

أولاً: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم:

فإنك تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يقال عند الغيظ وكان
رسول الله ﷺ إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب
غيظ قلبي وأجرني من مظلات الفتن. فقد قال ﷺ: {الغضب جمة توقد بالقلب} (٢).

ثانياً: الوضوء:

وقد قال ﷺ: {إذا أغضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار} (٣) وفي رواية: {إن الغضب
من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفئ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ}.

ثالثاً: تغيير الحال:

قال أبو هريرة رضي الله عنه {كان رسول الله ﷺ وهو جالس يضطجع فيذهب غضبه} (٤).
وروى أن أبا ذر رضي الله عنه قال لرجل يا ابن الحمراء في خصومة بينهما فبلغ ذلك رسول الله ﷺ
فقال: {يا أبا ذر بلغني أنك اليوم عيرت أخاك بأمه فقال نعم فانطلق أبو ذر ليرضى صاحبه فسبقه الرجل

١ - سلسلة الأحاديث الضعيفة - ج: ٣ - ص: ٤٣٨ - ح م: ٢٧٧ ضعيف. وأخرجه العقيلى في الضعفاء..

٢ - أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد.

٣ - شرح السنة - كتاب الاستئذان - باب الوضوء عند الغضب - رقم الحديث ٣٤٨٦.

٤ - أخرجه العراقى فى المغنى عن حمل الأثقال - ج: ٤ - ص ١٨٠٦ - ح م: ٢٨٦٢ ولأحمد بإسناد جيد.

وسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تقبله لعمل ثم قال: {إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقعد وإن كنت قاعداً فاتكئ وإن كنت متكئاً فاضطجع} (١).

رابعاً: معاقبة النفس بالنصح والإرشاد:

قال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه فكتب صحائف وأعطى كل صحيفة رجلاً وقال للأول إذا غضبت فأعطني هذه، وقال الثاني إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه، وقال الثالث إذا ذهب غضبي فأعطني هذه، فاشتد غضبه يوماً فأعطى الصحيفة الأولى فإذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً فسكن بعد غضبه فأعطى الثانية فإذا فيها ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء فأعطى الثالثة فإذا فيها خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلهم إلا ذلك أى لا تعطل الحدود (٢).

١ - أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح وأخرجه العراقي في المغنى عن حمل الأئقال - ج: ١ - ص: ١٠٧١ - ح م : ١ .

٢ - إحياء علوم الدين - ج: ٣ - ص ١٧٥ .

الباب السابع

- الفصل الأول: ذكر الموت.
- الفصل الثاني: التوبة.
- الفصل الثالث: الاستعداد لدواهي الموت وعذاب القبر.
- الفصل الرابع: الاستعداد ليوم البعث وهول يوم القيامة.

الفصل الأول

ذكر الموت

الحمد لله رب العالمين يا أرحم الراحمين ارحمنا وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وأعنا على فعل الخيرات وترك المنكرات والعمل الصالح الذى يرضيك عنا حتى نلقاك وأنت راضٍ عنا يا أرحم الراحمين .. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولى الصالحين وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله .. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على منهاجه وسسته إلى يوم الدين .. أما بعداً قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران]. وقال ﷺ: {أكثرُوا من ذكر هادم اللذات} (١).

تعريف ذكر الموت:

الذكر جاء بمعنى الاعتبار:

قال تعالى: ﴿.....وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَأَهُمْ حَتَّىٰ سَوَّاءُ الذِّكْرِ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان]. ويطلق الذكر على التذكر كما في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَنذُرَكُمْ... ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة] (٢). والموت هو صفة وجودية خلقت ضداً للحياة، وقيل هو مفارقة الروح للجسد فليس بإفناء وإعدام وإنما هو انتقال وتغيير حال وإعدام الجسد دون الروح إلا ما استثنى من عجب الذنب وهو الذى يكون في مؤخرة العصعص (٣).

^١ - مسند الإمام أحمد - باب ابتداء مسند أبي هريرة - الجزء الثامن - ص ٢٦ - رقم الحديث ٧٩١٢ - إسناده حسن .

^٢ - لسان العرب - ص ٥١٤ .

^٣ - معجم التعريفات - ص ١٩٩ . عجب الذنب هو الذى يبقى من ابن آدم ليعاد تركيب الخلق منه وهو فى مؤخر الظهر .

وفيه من ذلك أن ذكر الموت هو تذكّر الموت باستحضاره في قلبك بأنك مفارق لهذه الحياة وأنك على الله قادم وأنك بين يديه موقوف.

لا بد من الموت:

الله عز وجل هو الحى الذى لا يموت والإنس والجن يموتون وكذلك الملائكة وحمة العرش ويبقى الواحد القهار بالديمومة والبقاء، فالموت حتمٌ لازم لا تمنع منه حصانة القلاع ولا يحول دونه الحجاب ولا ترده الأبواب .

قال تعالى: ﴿ أَيِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ۚ ﴾ [النساء: ٧٨]

فلا بد من الموت لأنه رجوع إلى الأصل الذى خلق منه الإنسان فكما خلقه من تراب فلا بد وأن يكون تراباً لتذكير النفوس الظالمة حين ظلمها والفسادة حين فسادها أن آخرتها تراب وليحاسبوا على ما كلفهم الله به. فقد خلقهم لعبادته فمنهم من يطيع فهو من الفائزين ومنهم من يعصى فهو من الخاسرين وليعلموا أنهم ما خلقوا إلا لطاعته وعبادته عز وجل ^(١). قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]

الإكثار من ذكر الموت:

فجدير بمن الموت مصرعه والتراب مصرعه والدود أنيسه ومنكر ونكير جليسه والقبر مقره وبطن الأرض مستقره والقيامة مواعده والجنة والنار مورده ألا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ولا استعداد إلا لأجله. قال ﷺ: {أكثرُوا من ذكر هادم اللذات} ^(٢).

في الحقيقة أن المنهمك في الدنيا المكبّ على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكّر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨]

١ - إحياء علوم الدين - ٤٠٨ .

٢ - مسند الإمام أحمد - باب ابتداء مسند أبي هريرة - الجزء الثامن - ص ٢٦ - رقم الحديث ٧٩١٢ - إسناده حسن .

فاعلم أيها المؤمن أن الموت هائل وخطر عظيم وغفلة الناس عنه وقلة فكرهم فيه وذكرهم له ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ولكن يذكره بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجح ذكر الموت في قلبه، فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذى هو بين يديه أو الاتعاظ بمن سبقه فهذا يكون المؤمن الكيس الفطن الذى باع الحياة الدنيا الفانية واشترى الحياة الآخرة الباقية .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: {أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة وقال رجل من الأنصار يا نبي الله من أكيس الناس وأحزن الناس، قال: {أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم استعداداً للموت أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة} (١).

وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه لأنه أفرغ قلبه عن كل شيء سوى ذكر الموت فبمجرد ذكره للموت يموت كل عضو فيه.

ولكن الآن أصبح الموت ليس له صلة بنا وكأننا مخلصون في هذه الدنيا نعيش الدهر كله لأننا تغلبت علينا شهواتنا وأصبح القلب مشغولاً بحب الدنيا وما فيها.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالمؤمن الكيس الفطن هو الذى يسارع بإفراغ قلبه عن كل ما يلهى ويذم بتذكير نفسه وأخوته من بنى البشر بذكر الموت فهذا عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعاً عنى لذة الدنيا، ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل (٢).

١ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب وجوب الاستعداد للموت - الجزء الثانى - ص ٧٥ - رقم الحديث ٤٢٥٩. وصحيح الترغيب والترهيب - رقم ٣٣٣٥.

٢ - شرح الصدور لشرح حال الموتى والقبور - ج: ١ - ص: ٣٢.

وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبراً في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول: {لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد} ^(١).
من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء:
قال الدقاق: من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة ^(٢).

الاستعداد للموت:

الأصل المفترض على المؤمن العاقل أن يستعد للموت بالتأهب واتخاذ العدة له ولا يؤجل العمل بالتسوية لأن أكثر أهل النار وصياحهم من سَوْفَ فلا تشغلك الأمانى الباطلة فتلهيك عن ذكر الموت .
فالاستعداد للموت يكون بأمر كثيرة منها:

أولاً: عدم الحرص على الدنيا بطول الأمل واتباع الهوى:

فإذا تذكر المرء قصر الدنيا وسرعة زوالها أدرك أنها مزرعة للأخرة وفرصة لكسب الأعمال الصالحة وتذكر ما في الجنة من النعيم المقيم وما في النار من النكال والعذاب الأليم وانشرح صدره لنور الهداية. وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: {من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، قال إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح، قالوا وما لذلك من علامة يعرف بها، قال: الإنابة إلى دار الخلود والتنحي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت} ^(٣). عن عليّ عن رسول الله ﷺ قال: {إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل} ^(٤).

فأما اتباع الهوى فإنه يسد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه لحب الدنيا فإن الإنسان إذا أحب الدنيا أنس بها وبشهواتها وثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة

^١ - إحياء علوم الدين - ج: ٤ - ص: ٤٥٦ .

^٢ - التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة - ج: ١ - ص: ١٢٦ .

^٣ - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه - ج: ٧ - ص: ٧٧ - ح م: ٣٤٣١٥ ضعيف .

^٤ - شرح السنة للبغوي - باب طول الأمل والحرص - الجزء الرابع عشر - ص ٢٨٦ - رقم الحديث ٤٠٩٣ .

فيمنى نفسه بما يوافق مراده وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا ولا يزال يسوّف ويؤخر إلى أن تخطفه المنية في وقت لا يحتسبه وتطول عند ذلك حسرته.

قال تعالى: ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩١ ﴾ [المؤمنون]. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝٩١ ﴾ [المؤمنون].

فعلى المؤمن أن يستعد للموت ويتنظر قدومه في كل ثانية ودقيقة فمثلاً الذى له أخوان غائبان ويتنظر قدوم أحدهما في غدوه ويتنظر الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذى يقدم إلى شهر أو سنة وإنما يستعد للذى يتنظر قدومه غداً فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار. فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر السنة، فالناس متفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً.

قال الله تعالى: ﴿ . . يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ ۝٩٦ ﴾ [البقرة].

ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر وهو الذى يحب الدنيا حباً شديداً فالمؤمن العاقل هو الذى يستعد للموت بقصر الأمل لأنه لا يعلم هل أجله الآن هذه الساعة أم هذه الدقيقة فلا تغره الأمانى الباطلة .

وصدق القائل:

قصر الآمال فى الدنيا تفز فـ دليل العقل بقصر الآمال^١

ثانياً: المبادرة بالأعمال الصالحة لعدم الحسرة عند لقاء ملك الموت:

لأن لا أحد يعلم هل أجله الآن أم بعد ساعة أم غداً، فيجب المبادرة بالأعمال الصالحة.

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر: {إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غداً وما

^١ - مجموع القصائد والزهديات - ج: ٢ .

من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فعليك الاستعداد للموت بالعمل الصالح وعدم الركون إلى الدنيا الفانية^(١).

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنى مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزاً أو رجالاً فشرّ غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر^(٢)}.
فإن صحيح الجسم المقصر في العبادات المفرط في تعمير الوقت بصالح العمل مغبون في أمره ندمان في صفقته فيرغب الرسول ﷺ في المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل أن ينزل بالإنسان من الموانع ما يقعه عن القيام بها كال فقر والغنى المضر المفسد والمرض والهرم والموت، فعلى الإنسان بمجاهدة نفسه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٢٩] ﴿[العنكبوت].
فالمجاهدة عظيمة النفع كثيرة الجدوى دافعة إلى المبادرة إلى الخير بالنظر في العواقب كذلك يقف الإنسان على حقائق الأشياء ويريه الأمور كما هي وبذلك يقصر عما يهوى خشية سوء العاقبة وما أتى أكثر الناس إلا من قبل غفلته وجهله بالعواقب.

قال ابن الجزرى: لو ميز العاقل بين قضاء وطره لحظة وانقضاء باقى العمر بالحسرة على قضاء ذلك الوطر لما قرب منه ولو أعطى الدنيا غير أن سكرة الهوى تحول بين الفكرة وذلك^(٣).
ثالثاً: التوبة:

فعليك يا ابن آدم بالتوبة والرجوع إلى الله. قال تعالى: ﴿...وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٣١] [النور]. فالتوبة التى تستوجب الخروج من المظالم التى للعباد عليك من قضاء الدين والإبراء منه وإقامة الحدود والإقلاع عن المعاصى التى بينه وبين الله تعالى والإقبال على الطاعات وما

^١ - المسند الموضوعى الجامع للكتب - باب من الأخلاق الحميدة - الجزء الثامن عشر - ص ٣١٤ - رقم الحديث ٢٣٣٣.

^٢ - رواه الترمذى - باب ما جاء في المبادرة بالأعمال - رقم الحديث ٢٣٠٧ وقال حديث حسن .

^٣ - كتاب صيد الخاطر - ج: ١ - ص: ٢١٨ .

يزيد من فعل الخيرات لثلا يتفاجأ بالموت الذى انتشر وزاد فى هذه الآونة، فكثيرا ما نسمع بموت الفجأة وأن أحد الأشخاص كان فى الطريق وبصحة جيدة ولكنه توفى. وموت الفجأة لطف ورفق بأهل الاستعداد للموت والمتيقظين وأما غيرهم ممن لهم تعلقات يحتاج إلى الإيضاء والتوبة واستحلال من بينه معاملة أو مصاحبة فالفجأة فى حقه أخذة أسف^(١).

أخرج عبد الرزاق والإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: {موت الفجأة تخفيف على المؤمن وأخذه أسف على الكافر}.

وفى رواية {راحة للمؤمن وأخذه أسف على الفاجر}^(٢).

فالمؤمن العاقل هو الذى يحاسب نفسه ويسارع بالتوبة والاستغفار ولا يسوف لعله لا يدري أن هذه اللحظة تكون وفاته.

وصدق القائل:

وكم من صبية يرتجى طول عمرهم وقد زجت أجسامهم ظلمة القبر
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
فعليك بالتوبة والاستغفار والرجوع إلى الله تعالى قبل أن يأتى اليوم الذى لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

رابعاً: الاستعداد للقاء ومحبة الله عز وجل:

فالمحبة أعظم محركات للقلوب فهى الباعث الأول للأفعال والترك فإذا امتلأ القلب من محبة الله بسبب العلوم النافعة والأعمال الصالحة كمل أنسه وطاب نعيمه وسلم من التعلق بسائر الشهوات وهان عليه فعل سائر القربات.

١ - مدخل فى ذكر الموت - ص ٤٠

٢ - سنن أبى داود - باب فى موت الفجأة - الجزء الخامس - ص ٣٦ - إسناده صحيح موقوفاً.

قال ابن القيم عن محبة الله عز وجل: وهى من أقوى الأسباب فى الصبر عن مخالفته ومعصيته فإن المحب لمن يحب مطيع وكلما قوى سلطان المحبة فى القلب كان اقتضاؤه للطاعة، وترك المخافة أقوى وحُب لقاء الله من أنفع الأدوية للقلوب^(١).

قال رحمه الله: {من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه}^(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله: صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه فى حصول استقامته فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه إلى الله وعُلقت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته واستحدثت همه أخرى وعلوم أخرى^(٣).

فضائل ذكر الموت:

أولاً: ذكر الموت وإصلاح النفوس:

الموت له أثر كبير فى إصلاح النفوس وتهذيبها وذلك أن النفوس تؤثر الدنيا وملذاتها وتطمع فى البقاء المبيت فى هذه الحياة وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصي وقد تكثر فى الطاعات فإذا كان الموت دائماً على بال العبد فإنه تصغر الدنيا فى عينه ويسعى فى إصلاح نفسه وتقويم سلوكه إلى الطريق الصحيح .

ثانياً: ذكر الموت وحُسن الخاتمة:

فمن تذكر الموت وعلم أنه على الله قادم وأنه بين يديه موقوف سيخاف أن تسوء خاتمته فيسعى إلى إصلاح نفسه حتى يُحتم حياته بخاتمة حسنة.

قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

﴾ [البقرة].

ولقى الفضيل بن عياض رجلاً فقال له الفضيل: أيها الرجل كم عمرك، قال الرجل: ستون سنة، قال الفضيل، فأنت منذ ستين سنة تسير إلى الله، قال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال الفضيل: هل تعلم

١ - طريق الهجرتين لابن القيم - ص ٢٩٧ .

٢ - صحيح البخارى - باب من أحب لقاء الله - الجزء الثامن - ص ٦٠٦ - رقم ٦٥٠٧ .

٣ - مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار - ج: ١ - ص: ٣٢٣ .

معنى تلك الكلمة، قال الرجل: نعم أعلم أنى الله عبد وأنى إليه راجع، قال الفضيل: يا هذا من علم أنه الله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه بين يديه موقوف، ومن علم أنه بين يديه موقوف فليعلم أنه بين يديه مسئول، ومن علم أنه بين يديه مسئول فليُعد للسؤال جواباً، قال الرجل: فما الحيلة يرحمك الله، قال الفضيل: الحيلة يسيرة أن تتقى الله فيما بقى يغفر الله لك ما قد مضى وما قد بقى ^(١).

وها هو رجل كان يعمل نباشاً للقبور فكان فى أول ليلة يُدفن فيها الميت وينصرف عنه أهله وأحبابه يأتى هذا الرجل ويحفر القبر مرة أخرى فيخرج الأكفان وما فى الجسد من الأسنان الذهبية وغيرها، ثم فجأة تاب هذا الرجل ورجع إلى الله، فسأله أحد العلماء: ما الذى حملك على التوبة، قال له: والله لقد نبشت ألف قبر من قبور المسلمين فوالله ما وجدت واحداً منهم موجهاً إلى القبلة لقد تحولوا عن القبلة من أول ليلة فإن الذى عملوه فى الدنيا ظهر وانكشف فى الحال، فتذكرت موتى وإنى ربما صرت إلى ما صاروا إليه ففزعت وفررت إلى الله لعله أن يتقبلنى ويرحمنى ويحسن خاتمتى ^(٢).

فأنت أيها المؤمن لا تدري متى يأتيك ملك الموت، فسارع للأعمال الصالحة وتقوى الله وحسن الخاتمة.

يا نفس توبى فإن الموت قد حان واعصى الهوى إن الهوى ما زال فتاناً

يا نفس مالى وللأموال أتركها خلفى وأخرج من دنيائى عرياناً ^٣

ثالثاً: ذكر الموت وحياة القلوب:

ذكر الموت يكون رادعاً للإنسان عن اقتراف المعاصى والذنوب التى تكون سبباً فى إماتة القلوب إن فعلها، وبذكر الموت يعمل على إحياء القلوب وترك المعاصى والذنوب.

يقول طبيب القلوب عبد الله بن مبارك:

^١ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ج: ٨ - ص: ١١٣ .

^٢ - صور من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين للمصنف - جزء ١ - ص ٧١٩ ، ٧٢٠ .

^٣ - مجموعة القصائد والزهديات - ج: ٢ - ص: ٩٥ .

رأيت الذنوب تमित القلوب وقد يورث الذل إدمانها
فترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها^(١)
فالذنوب للقلب بمنزلة السموم، إن لم تهلكه أضعفته، ولا بد إذا ضعفت قوته لم يقدر على مقاومة
الأمراض^(٢).

فألهوى أكبر أدوائها ومخالفته أعظم أدويتها، والنفس في الأصل خلقت جاهلة ظالمة فهي لجهلها تظن
أن شفاءها في اتباع أهوائها وطول أملها، وذكر الموت يعمل على تطهير القلوب من الأدناس والأمراض.
قال القرطبي: قال العلماء رحمهم الله: ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور وخاصة إذا كانت قاسية فعلى
أصحابها أن يعالجوها لثلاثة أمور:

إحداها: الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب وأخبار
الصالحين فإن ذلك مما يلين القلوب.

ثانيها: ذكر الموت فيكثر من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات وميتم البنين والبنات.
ثالثها: مشاهدة المحتضرين فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته وتأمل صورته بعد مماته مما
يقطع عن النفوس لذاتها ويترد عن القلوب مسراتها ويبعث على العمل ويزيد في الاجتهاد.
كراهية تمنى الموت:

يكره للمرء أن يتمنى الموت لفقر أو مرض أو محنة لأن النبي ﷺ قال: {لا يتمنى أحدكم الموت لضر
نزل به فإن كان لا بد متمنياً للموت فليقل اللهم أحييني إن كانت الحياة خيراً لي وتوفني إن كانت الوفاة خيراً
لي} ^(٣).

^١ - الجامع الصحيح فيما كان على شرح الشيخين أو أحدهما ولم يخرجاه - ج: ١ - ص: ٤.

^٢ - لا تحزن إن الله معنا - ص ٧٤.

^٣ - صحيح البخارى - الجزء الخامس - ص ٢٣٣٧ - رقم الحديث ٥٩٩٠.

وعن أم الفضل رضى الله عنها: {أن النبي ﷺ دخل على العباس وهو يشتكى فتمنى العباس الموت فقال: يا عباس يا عم رسول الله لا تتمن الموت إن كنت محسناً تزداد إحساناً إلى إحسانك خير لك وإن كنت مسيئاً فإن تؤخر تستعيب خيراً لك فلا تتمن الموت} (١).

تمنى الموت خشية الفتنة:

لا خلاف بين الفقهاء في جواز تمنى الموت إذا كان لخوف الفتنة في الدين حتى ينجو منه فإن خاف أن يُفتن في دينه فإنه يجوز له تمنى الموت دون كراهية .

روى الإمام مالك: أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: {اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني وتقبضني إليك غير مفتون} (٢).

١ - مسند الإمام أحمد - باب حديث أم الفضل - الجزء الرابع والأربعون - ص ٤٤٤ - رقم الحديث ٢٦٨٧٤ .
إسناده ضعيف وصححه الألباني .

٢ - سنن الترمذى - باب ومن سورة (ص) - الجزء الخامس - ص ٣٦٦ .

الفصل الثانى

التوبة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدى ومن يضلل فلا هادى له اللهم ارزقنا الإنابة إليك والتوبة النصوح التى بها ننال المغفرة والفلاح يا أرحم الراحمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن سار على سنته ومنهاجه إلى يوم الدين .. أما بعداً

قال تعالى: ﴿... وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور].

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: {والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة} (١).

معنى التوبة:

التوبة لغة: الرجوع إلى الله. (٢)

التوبة شرعاً: الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة. (٣)

وقيل هى الرجوع من البعد عن الله إلى القرب إليه سبحانه وتعالى. (٤)

اعلم أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا وذلك الندم أورثه العلم فبالعلم نعرف عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب والعلم هنا هو الإيمان واليقين فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان

١ - رواه البخارى - باب التوبة - الجزء الرابع - ص ١١٨ - رقم الحديث ٤٤٢ .

٢ - معجم التعريفات ، ص ٦٣ .

٣ - لسان العرب ، ص ٦٦٤ .

٤ - نزهة المتقين - ص ٣٠ .

أنه صار محجوباً عن محبوه فندم على ذلك وأصر الرجوع إليه كمن يُشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه فيعرف فائدة النور بالرجوع إلى المحبوب بدلاً من الظلمة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ {الندم توبة} ^(١).

سعة رحمة الله بعباده التائبين:

والحق سبحانه وتعالى يطمئن العبد يرفع يديه داعياً الله أن يتوب عليه والحق سبحانه يده مبسوطة بالتوبة في كل زمان وفي كل مكان وليس كمثله شيء، الله تعالى معك ومع غيرك باسط يديه لك ولغيرك يده. عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: {الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها} ^(٢).

والليل قد ينتهي عند إنسان ويبدأ عند إنسان آخر وهكذا النهار فالليل مستمر دائماً والنهار مستمر دائماً فيدها سبحانه مبسوطتان دائماً ولا تنقصان أبداً.

الحق سبحانه وتعالى يعطي عبده فرصة ويفتح له باب التوبة والرجاء فمن رحمته سبحانه بعباده أن شرع لهم التوبة من الذنوب ومن رحمته أيضاً أن يقبلها منهم فيتوب عليهم ولو أغلق باب التوبة لتحول المذنب ولو لمرة واحدة إلى مجرم يعربد في المجتمع، وبفتح باب التوبة يقي الله المجتمع من هذه العريضة.

عن ابن مسعود قال: إن أكثر آية في القرآن فرحاً هي قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر] ^(٣).

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ما أحب أن لي الدنيا وما فيها:

﴿قُلْ يٰٓعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر].

^١ - شرح السنة للبخاري - باب التوبة - الجزء الخامس - ص ٧٢ - موقوفا على ابن مسعود وصحيح ابن حبان - باب ذكر الخبر المصريح بصحة ما أسند - الجزء الثاني - ص ٣٧٧ - رقم الحديث ٦١٢.
^٢ - أخرجه مسلم - كتاب شعب الإيمان - باب معالجة كل ذنب بالتوبة - ص ٢٠٩ - رقم الحديث ٦٦٧٢.
^٣ - الأدب المفرد في التعليقات - باب الظلم ظلمات - الجزء الأول - ص ٢٤٧ - رقم الحديث ٤٨٩ - حسن الإسناد.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَاءٌ إِلَيْنِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٥٩﴾ [الزمر].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت منها كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ.. ٥٣﴾ [الزمر] أى ارجعوا إلى الله واستسلموا له. وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾ [الزمر]. أى بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النعمة. وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ .. ٥٥﴾ [الزمر]. هو القرآن الكريم. (١)

وقوله تعالى: ﴿...مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٥٥﴾ [الزمر]. أى من حيث لا تشعرون ولا تعلمون ثم قال ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ... ٥٦﴾ [الزمر]. { أى يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين والمطيعين لله عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿...وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ٥٦﴾ [الزمر]. أى إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير ممكن مصدق.

١ - مختصر تفسير ابن كثير اختصار وتحقيق محمد على الصابوني أستاذ التفسير - المجلد الثالث - دار التراث

وقال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) [الزمر]. أى تودُّ لو أُعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل. فأخبر الله عز وجل أن لو ردوا لما قدروا على الهدى فقال ﴿... وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٨) [الأنعام].

ومن سعة رحمته سبحانه وتعالى أنه عز وجل يفرح بتوبة التائبين، وللتوبة عنده عز وجل منزلة ليس غيرها منزلة من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه وتعالى بعبده حيث يتوب أعظم فرح يقدر، وهذا من رحمته كما مثل النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدوية المهلكة بعدما فقدوها ويأس من أسباب الحياة.

عن الحارث بن سويد عن عبد الله رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: {لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دوية (١) مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام فاستيقظ وقد ذهب راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء قال ارجعوا إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع يده على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فلله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته} (٢).

وها هو كليم الله موسى عليه السلام يقول لرب العزة يا رب ماذا تقول للعبد إذا قال يا رب وهو راکع.. قال الله يا موسى أقول لبيك يا عبدى .. قال فإذا قال يا رب وهو ساجد .. قال أقول له لبيك يا عبدى .. وإذا قال يا رب وهو عاصٍ .. قال أقول له لبيك لبيك لبيك عبدى أطعنا فقربناك وعصيتنا فأمهلناك ولو عدت إلينا بعد ذلك قبلناك .

ولقد وقف كليم الله موسى عليه السلام يصلى مع بنى إسرائيل صلاة الاستسقاء وينزل الله المطر ولكن تأخر المطر وهم فى ميسس الحاجة إلى الماء فقال الكليم يا رب لما لم تُنزل علينا الماء فقال له رافع السماء بلا عمد لأن فيكم عبداً عاصياً لى فقال موسى يا بنى إسرائيل من كان منكم ذا معصية فليبعد حتى يقبل الله

١- الدوية : يفتح الدال المهملة وتشديد الواو والياء جميعاً هى الفلاة القفر والمفازة .

٢- أخرجه الترمذى - الجزء الرابع - ص ٦٩٥ - رقم الحديث ٢٤٨٩ - حسن صحيح .

صلاتنا وينزل المطر فلم يخرج أحد وقام موسى يصلى فأُنزل الله المطر .. فقال يا رب أنزل المطر ولم يخرج العاصي من بيننا .. فقال له يا موسى لأنه تاب توبة بينى وبينه وقبلتها منه .. فقال كلم الله موسى هل أستطيع أن أعرف من هو .. فقال له الرحمن تبارك اسمه يا موسى سترت عليه وهو عاص فكيف أفضحه وقد تاب.

المبادرة بالتوبة:

الله سبحانه وتعالى حين قدر أمر التوبة على الخلق رَحِمَ الخلق جميعاً بتقنين هذه التوبة وإلا لغرق العالم في شرور لا نهاية لها ولكن هذا العبد علم أن له رباً يغفر الذنوب جميعاً ويتوب على من تاب وسوف يسارع هذا العبد بالتوبة لأنه علم أن له رباً رحيماً بجواره ومن عظم رحمته عز وجل سوف يستحى هذا العبد من اقتراف الذنب لحبه لربه غافر الذنب.

قال ﷺ: {قال الله تعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم لو أنك بلغت ذنوبك عنان^(١) السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى، يا ابن آدم لو أنك أتيتنا بقراب^(٢) الأرض خطايا ثم استغفرتنى غفرت لك، يا ابن آدم لو أنك أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة^(٣)}.
فماذا تنتظر يا بن آدم بعد هذا النداء أتدرى متى أجلك أعندك معرفة بميعاد موتك لذلك تؤخر التوبة، أم أنك بعث الآخرة بثمنٍ بخس وهو حُبُّك للدنيا، هذه الدنيا التى قال فيها رسول الله ﷺ: {لو كانت الدنيا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء^(٤)}.
أم أنك أيها العبد تتمتع بصحة جيدة لا تريد أن تغتنمها فى طاعة الله وتهلكها فى المعاصى، هل أنت لا تعرف قوله تعالى: ﴿...وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ...﴾ [آل عمران].

١ - عنان : سحب .

٢ - أى بما يقارب مثلها .

٣ - أخرجه الترمذى - الجزء الخامس - ص ٥٤٨ - رقم الحديث ٦٥٤٠ - حديث حسن غريب .

٤ - أخرجه الترمذى - كتاب الزهد - باب ما جاء فى هوان الدنيا - رقم الحديث ٢٣٢٠ .

أنت بصحة جيدة اليوم لا تعرف ماذا يكون إذا فاعنتم هذه الصحة بالطاعة والرجوع إلى الله تعالى وبادر بالتوبة وأن تحمد الله تعالى على أنه هو خالقك أدركه بقلبك واشعر برحمته التي وسعت كل شيء: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

فعليك يا ابن آدم بالمسارعة إلى التوبة قبل الندم والحسرة وترك الدنيا وزينتها.

قال تعالى: ﴿الْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ ١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۖ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۖ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۖ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۖ ٧ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۖ ٨﴾ [التكاثر: ١-٨].

جاء في مختصر ابن كثير يقول تعالى أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشخير قال: {انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول أهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيته أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت} (١). وعن أنس أن النبي ﷺ قال: {يهرم ابن آدم وسيبقى معه اثنان الحرص والأمل} (٢).

فعليك يا ابن آدم أن تجعل الدنيا مزرعة للآخرة ووسيلة لحياة باقية دائمة ناعمة مسعدة لا تنتهى أنت من النعيم فتتركه ولا ينتهى النعيم منك فيتركك إنه نعيم الجنة ولا تظلم نفسك باتباع الشهوات وملذات الدنيا فتكون فى الآخرة الحسرة والندامة.

قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

١- أخرجه مسلم - كتاب الزهد والرقائق - الجزء الرابع - ص ٢٧٣ - رقم الحديث ٢٩٥٨ .

٢- أخرجه أحمد في مسنده - باب مسند أنس بن مالك - الجزء التاسع عشر - ص ١٨٩ - رقم الحديث ١٢١٤٢ - إسناده صحيح .

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧) [النساء].

ومعناها عن قريب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يعملها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا تقبل المحو ولذلك قال ﷺ: {أتبع السيئة الحسنة تمحها} (١).

ولذلك قال لقمان لابنه: {يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطرين عظيمين: أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو. ثانيهما: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الخبر أن أكثر صياح أهل النار من التسوية، فما هلك من هلك إلا بالتسوية فلا يجوز للإنسان أن يتجاوز عن أخطائه ويقول هذه صغيرة لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة} (٢).

وقال رسول الله ﷺ: {لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار} (٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) [آل عمران].

والاستغفار ليس أن تردف الذنب بقولك أستغفر الله، لأن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله أستغفر الله وأن يصير على ألا يفعل الذنب أبداً.

وفعل السوء بجهالة أى بعدم استحضار العقوبة المناسبة للذنب فلو استحضر الإنسان العقوبة لما فعل المعصية بل هو يتجاهل العقوبة لذلك قال ﷺ: {لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن} (٤) فلو كان إيمانه صحيحاً وتذكر تماماً أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا وأن عقوبة الزنا هي الجلد أو الرجم لما قام بذلك الفعل. ولذلك قال الحق

١ - أخرجه الحاكم في المستدرك - ج: ١ - ص ١٢١ - ح م: ١٧٨ هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

٢ - أخرجه البهقي في شعب الإيمان - ج: ٩ - ص: ٣٧١ - ح م: ٤٧ .

٣ - أخرجه المناوي في فيض القدير - ج: ٦ - ص ٤٣٦ - ح م: ١٤٤٥٣ عن ابن عباس.

٤ - أخرجه البخاري - باب النهي بغير إذن صاحبه - الجزء الثاني - ص ١٢٦ - رقم الحديث ٢٤٧٥ .

جل وعلا: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧]. فشرع سبحانه وتعالى التوبة ليتوب عباده فإذا تابوا قبل توبتهم. قال تعالى:

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكَفَرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٨].^(١)

وعند لحظة الموت يبدأ الجبن وتمثل أخلاق الندم. ولماذا لم يصبر على موقفه للنهائية؟ لأنه جاء إلى اللحظة التي لا يمكن أن يكذب فيها الإنسان على نفسه .. ﴿... حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكَفَرَ... ﴾ [النساء: ١٨]. .. لكن التوبة لا تقبل. وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: {إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرر}^(٢).

فبادر بالتوبة إلى الله تعالى قبل فوات الأوان. وصدق القائل: الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل. فعليك بالإنابة والرجوع إلى الله تعالى ومحاسبة نفسك على كل صغيرة وكبيرة قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنَانًا لِّسُرَاوٍ أَعْمَلَهُمْ ۖ﴾ [٦] فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة].

عَرَفَ أرباب العقول والبصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة والمسارة بالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى لكي يسترها عليهم في الدنيا والآخرة. قال رسول الله ﷺ: {إن الله يقرب العبد المؤمن إليه يوم القيامة حتى إذا أسدل عليه ستره وكفنه قال له عبدى أتذكر ذنب كذا وكذا فيقول نعم يا رب فيقول سترت عليك هذه الذنوب في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم}^(٣).

١ - تفسير الشعراوي . مجلد ٤ . ص ٤٢ ، ٤٩ . اختصار وتصرف .

٢ - أخرجه أحمد في مسنده - مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب - الجزء الخامس - ص ٤٠٠ - رقم الحديث ٦١٦٠ .

٣ - أخرجه البخارى - ج: ٦ - ص ٧٤ باب ويقول الأشهاد - ح م : ٤٦٨٥ .

فعليك أخى المؤمن بالمسارعة فى التوبة إذا وقعت فى ليل أو نهار فقبول التوبة مستمر إن شاء الله تعالى ما دام بابها مفتوحاً، ويغلق بابها بمطلع الشمس من مغربها الذى هو علامة كبرى من علامات الساعة. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه} (١). وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال رسول الله ﷺ: {للجنة ثمانية أبواب سبعة مغلقة وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه} (٢).

التوبة النصوح:

فيا ابن آدم عليكم بالمبادرة والرجوع إلى الله بالتوبة النصوحه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا سَيَكْفُرْ عَنْكُمْ ..﴾ (٨) [التحريم]. والنصوح هى التوبة الخالصة الصادقة والمسلم مطالب بالتوبة من الكبائر فيتوب عن تركه الصلاة والتكاسل عنها والسير وراء الشهوات وإن كان التقصير فى الصلاة عليه أن يقضيها وأن ينظر من سن البلوغ وأن يقضى ما فاته منها ويتوب إلى الله تعالى. وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا [مريم].

وكذلك أن ينظر فى التقصير من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه وأن ينظر عن التقصير فى الصوم من سن بلوغه فيتوب إلى الله تعالى بالرجوع إليه، فإن الله عز وجل غنى عن خلقه وكل ما تفعله يعود لنفسك .

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧) [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٨) [فصلت].

فلا تظلم نفسك بالشهوات ودخولها النار بكثرة الذنوب والآثام بل عليك التقوى لله والتوبة إليه توبة نصوحاً.

١- أخرجه مسلم - باب الاستحباب والاستغفار - الجزء الرابع - ص ٢٧٦ - رقم الحديث ٢٧٠٣ .

٢- مسند أبى يعلى الموصلى - باب مسند عبد الله بن مسعود - الجزء الثامن - ص ٤١٩ - رقم الحديث ٥١٢ - إسناده ضعيف .

غواية إبليس لابن آدم ورحمة الله تعالى به: الله عز وجل أرحم عباده فلم يتركهم عبثاً ولكن وضع لهم الطريق المستقيم الذى يخرجهم من الظلمات إلى النور وحذرهم من الذى يصدّهم عن هذا الطريق المستقيم ويريدهم أن يسلكوا الطريق المعوج.

قال تعالى: ﴿...وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ...﴾ (البقرة) ﴿٢٥٧﴾. وهذا هو إبليس اللعين لعنه الله الذى قعد لابن آدم على الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿...لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف) ﴿١٦﴾.

والله عز وجل حذرنا فى أكثر من آية لأن الشيطان عدو لنا. والحوار الذى دار بين الحق وبين إبليس قال عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر) ﴿٣١﴾. إن إبليس قال ذلك وظن أنه سيهلك البشر جميعاً ويوقعهم فى المعصية إلا عباد الله الذين اصطفاهم وأخلصهم له لكن الله سبحانه وتعالى خيب ظنه وشرع قبول التوبة ما لم يغرغروا لم يصل إلى مرحلة خروج الروح. ويروى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ (آل عمران) ﴿١٣٥﴾.

ولقد قال إبليس اللعين لرب العزة وعزتك وجلالك لأغوينهم ما دامت أرواحهم فى أبدانهم فماذا قال الله الغفار الرحيم .. قال يا إبليس وعزتى وجلالى لأغفرن لهم ما داموا يستغفروننى. كل توبة صحيحة هى مقبولة بإذن الله تعالى فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة من غبرة الذنوب وظلمتها وأن نار الندم تحرق تلك الغبرة وأن نور الحسنة يمحو عن وجهة القلب ظلمة السيئة وإنه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار كما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى أن يكون فى جواره كما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب وغسله بقاء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه وكل قلب زكى طاهر فهو

مقبول كما أن كل ثوب نظيف مقبول فلا بد من التزكية والتطهير قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس].

فعليك بتطهير نفسك وتزكيتها بالتوبة والرجوع إلى أرحم الراحمين فاعلم يا ابن آدم أن عداوة إبليس منذ أن خلق الله آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة فهي مستمرة إلى قيام الساعة لأنه لا يهدأ له بال إلا إذا وجد أن أولاد بني آدم استحلوا المعاصي والشهوات وابتعدوا عن العبادة والطاعة وهو مستمر لهم في الغواية والوسوسة أعاذنا الله منه وإياكم.

قصص الرجوع إلى الله والندم على اقتراف الذنب:

روى أن رجلاً جاء إلى إبراهيم بن أدهم فقال له: {يا أبا اسحق إنى مسرف على نفسى فاعرض على ما يكون زاجراً ومستنقذاً لقلبي .. قال إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك معصية ولم تهلكك لذة .. قال أخبرني يا أبا اسحق .. قال أما الأولى فإذا أردت أن تعصى الله فلا تأكل رزقه .. قال فمن أين آكل وكل ما فى الأرض من رزقه .. قال يا هذا أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيه .. قال لا .. قال هات الثانية .. قال وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده .. قال الرجل هذه أعظم من الأولى .. يا هذا إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما لله فأين أسكن .. قال يا هذا أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه .. قال لا .. قال هات الثالثة .. قال إذا أردت أن تعصيه فانظر موضعاً لا يراك فيه .. قال يا إبراهيم كيف هذا وهو مطلع على ما فى السرائر .. قال يا هذا أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ويرى ذنبك وتجاهر به .. قال لا .. قال هات الرابعة .. قال إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له أخرنى حتى أتوب توبة نصوحة وأعمل لله عملاً صالحاً .. قال لا يقبل منى .. قال يا هذا إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير فكيف ترجو الخلاص .. قال هات الخامسة .. قال إذا جاءتك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم .. قال لا يدعوننى ولا يقبلون منى .. قال فكيف ترجو النجاة إذا .. قال له: يا إبراهيم حسبى حسبى أنا أستغفر الله وأتوب إليه} (١).

^١ - كتاب التواوين - لأبى محمد موفق الدين عبد الله الدمشقى الحنبلى - الشهير بابن قدامه - ج: ١ - ص ١٦٩.

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء].

وذو النون هو سيدنا يونس بن متى صاحب الحوت والنون من أسماء الحوت ذهب مغاضباً، غضب لأن قومه كذبوه فتوعدهم إن لم يتوبوا أن ينزل بهم العذاب وأتى الموعد ولم ينزل بهم متى وعدهم به فخاف أن يكذبوه وأن يتجرأوا عليه فخرج من بينهم مغاضباً إلى مكان آخر وهو لا يعلم أنهم تابوا فأخبر الله عذابه وأجل عقوبته وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٩٨) [يونس].

وظن يونس عليه السلام أن الله عز وجل لن يضيق عليه بل سيوسع عليه ويبدله ببلده مكاناً أفضل منه فنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ: ﴿..فَنكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء].

عن أبي نجيب عمران بن الحصين الخزاعي رضى الله عنه: { أن امرأة من جهينة "خولة بنت خويلد" أتت رسول الله ﷺ وهى حُبلى من الزنا فقالت يا رسول الله ﷺ أصبت حداً فأقمه علي فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال أحسن إليها فإذا وضعت فأتنى ففعل فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجعت ثم صلى عليها فقال له عمر تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت قال لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لو سعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل }^(١).

فإن من خلق المؤمن التألم والندم إذا فرط منه الذنب وأن يكون حريصاً على تطهير نفسه من لوسة الإثم ولو كان ذلك هلاك نفسه ليلقى الله عز وجل وهو راضٍ والعقوبة الدنيوية تكفر ذنب المعصية إذا اقترن ذلك بالندم والتوبة.

وسئل الإمام ابن تيمية رحمه الله - سأله شيخ - قال هربت من سيدى وأنا صغير وإلى الآن لم أطلع له على خبر وأنا مملوك وقد خفت من الله عز وجل وأريد براءة ذمتى من حق سيدى من رقبتي وقد سألت

^١ - أخرجه الترمذى - ج: ٣ - ص ٩٤ - ح م: ١٤٣٥ هذا حديث صحيح .

جماعة من المفتين فقالوا الى اذهب فاقعد في المستودع فضحك الإمام ابن تيمية وقال تصدق بقيمتك أعلى ما كانت عند سيدك ولا حاجة لك بالمستودع ففعودك فيه عبث في غير مصلحة وإضرار بك وتعطيل عن مصالحك ولا مصلحة لسيدك في هذا ولا للمسلمين ^(١) فعلينا جميعاً ونحن خلق الله عبيد الله الرجوع إلى الله بالتوبة النصوح لننال رضا الخالق ومحبهه والسعادة في الدارين الدنيا والآخرة .

حُكْم التَّوْبَةِ:

التوبة واجبة على الفور عند عامة العلماء لقوله تعالى: ﴿...وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾

﴿النور﴾. وأما الفورية فلما في تأخيرها من الإضرار المحرم ^(٢).

شروط التوبة:

قال العلماء التوبة واجبة عن كل ذنب فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاث شروط:

(١) أن يقلع عن المعصية.

(٢) أن يندم على فعلها.

(٣) أن يعزم ألا يعود إليها أبداً. فإن فقد أحد هذه الشروط الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة التي ذكرت والرابعة أن يبرأ من حق صاحبها فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوّه وإن كانت غيبة استحله منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق ^(٣).

^١ - تكملة الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية- ج: ١ - ص ٨٣.

^٢ - معجم التعريفات ، ص ٦٣ .

^٣ - نزهة المتقين - شرح رياض الصالحين للإمام الحافظ أبي زكريا محي الدين يحيى النووي - الطبعة التاسعة عشرة - ص ٣٠ .

الأمور التي تعين على التوبة:

أولاً: الإخلاص لله والإقبال عليه عز وجل فالإخلاص لله عز وجل أنفع الأدوية فإذا أخلص الإنسان

لله وصدق في طلب التوبة أعانه الله عليها ويسرها له وأمدّه باللطاف لا تخطر بالبال وصرف عنه الآفات.

ثانياً: معرفة سعة رحمة الله وعدم اليأس من رحمته سبحانه فرحمة الله تعالى وسعت كل شيء وعلى العبد

ألا ييأس من رحمة الله لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون فمن الناس إذا أسرف على نفسه بالمعاصي

أو تاب مرة أو أكثر وعاد إلى الذنب مرة أخرى أيس من رحمة الله وظن أنه ممن كُتِبَ عليه الشقاء، فاستمر في

الذنوب وترك التوبة وهذا ذنب أعظم، فعليه بتجديد التوبة ومجاهدة نفسه في ذات الله حتى يأتيه اليقين.

ثالثاً: العلم وعدم الجهل والغفلة، فالعلم نور يستضاء به وينظر من خلاله إلى الأمور على حقيقتها،

والعلم يشغل صاحبه بكل خير ويشغله عن كل شر، فإذا فقد العلم فقدت البصيرة وحل الجهل فيتساوى

عنده ميزان الفضيلة والرديلة ولم يعد يفرق بين ما يضره وما ينفعه فيصبح عبداً للشهوة وأسيراً للهوى، ومن

العلم في هذا السياق العلم بعاقبة المعاصي وقبحها ودناءتها وأن الله عندما حرّمها ونهى عنها صيانة وحماية

عن الدنيا والردائل كما يحمي الوالد ولده عما يضره، ومن العلم أيضاً أن يعلم بفضل التوبة والرجوع إلى

الله، وعلى المؤمن أن لا يغفل عن التوبة مما لا يعلمه العبد من ذنوبه، فكثير من الناس لا تخطر بباله هذه التوبة

فتراه يتوب من الذنوب التي يعلم أنه قد وقع فيها ولا يظن بعد ذلك أن عليه ذنباً غيرها.

قال ابن القيم رحمه الله: {ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم فإن ما لا

يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه ولا ينفعه في عدم المؤاخذه به جهله إذا كان متمكناً من العلم فإنه عاصٍ

لترك العلم والعمل فالمعصية في حقه أشد} (١).

وجاء عن النبي ﷺ أنه كان يدعو في صلاته: {اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما

أعلنت وما أنت أعلم به مني إنك أنت المقدم والمؤخر لا إله إلا أنت} (٢).

١ - مدارج السالكين - جزء ١ - ص ٨٣.

٢ - أخرجه البخاري - باب قول النبي - الجزء الثامن - ص ٨٤ - رقم الحديث ٦٣٩٨.

رابعاً: التعجيل بالتوبة وعدم تأخيرها، فعلى المؤمن الحق أن يبادر بالتوبة لأن التوبة واجبة على الفور، قال ابن القيم رحمه الله: {المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها عصي بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى وهى توبته من تأخير التوبة فعلى العبد أن يعجل بالتوبة لوجوب ذلك وإلا تصير المعاصى راناً على قلبه وطبعاً لا يقبل المحو} (١).

قال النبى ﷺ: {إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نقطة سوداء فى قلبه فإذا تاب ونزع واستغفر ثقل قلبه منها وإذا زاد زادت حتى يغلق قلبه} (٢).

فذلك الران الذى ذكره الله تعالى، قال تعالى: ﴿...بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ...﴾ [المطففين].

خامساً: الاشتغال بما ينفع والبعد عن المثيرات بالدعاء: إذا اشتغل الإنسان بما ينفعه فى دينه ودنياه قلت بطالته ولم يجد فرصة للفساد والإفساد، قال ابن القيم رحمه الله: {ومن أعظم الأشياء ضرراً على العبد بطالته وفراغه فإن النفس إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد فإن لم يشغلها بالحق شغلته بالباطل، فعليه أن يبتعد عن كل ما يثير فيه دواعى المعصية ونوازع الشر ويبتعد عن كل ما يثير شهوته ويحرك غريزته فعليه بغض بصره فالعين مرآة القلب وإطلاق البصر يورث المعاطب وغض البصر يورث الراحة، فإن للذنوب والمعاصى أضراراً عظيمة سواء فى الدنيا أو فى الآخرة فمن أضرارها حرمان العلم والرزق وسواد الوجه ووهن البدن وحرمان الطاعة وظلمة القلب وضيقه وحزنه وتورث الذل} (٣).

فعلى المؤمن اللجوء إلى الله بالدعاء فهو من أعظم الأسباب وأنفع الأدوية وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه ويخففه، إذا نزل فيدعو الله تعالى بأن يؤمن عليه بالتوبة النصوحة.

وكان من دعاء النبى ﷺ: {ربى اغفرلى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم} (٤).

١ - شعاع من المحراب - دكتور / سليمان بن حمد العودة - الطبعة الثانية - ج: ٨ - ص: ٢١٤.

٢ - أخرجه أحمد فى مسنده - باب ابتداء مسند أبى هريرة - الجزء الثامن - ص ٧٢ - رقم الحديث ٧٩٣٩.

٣ - طريق الهجرتين وباب السعادتین - ج: ١ - ص: ٢٧٥.

٤ - سنن ابن ماجه - باب الاستغفار - الجزء الثانى - ص ١٢٥٣ - رقم الحديث ٣٨١٤.

الفصل الثالث

الاستعداد لدواهي الموت وعذاب القبر

الحمد لله رب العالمين هو حسبي ووكيلي كاشف الضر والغم، سميع الدعاء قريب مجيب، غافر الذنب شديد العقاب، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سار على سنته ومنهاجه إلى يوم الدين أما بعد ...

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ..﴾ (٨٨) ﴿[القصص].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ..﴾ (٩١) ﴿[السجدة].

الموت مكتوب على الخلائق:

إن الحياة آية من آيات الله والموت كذلك آية أخرى تضاد الحياة ولكنها لا تقل عنها عجباً، قال تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

﴾ (٢٨) ﴿[البقرة].

والتفكر في هذه الآية تفكر في خلق من خلق الله وعجائبه الدالة على عظيم قدرته جل وعلا.

والموت معناه: تغيير حال فقط، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة.

ومعنى مفارقتها للجسد: انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فالموت تغيير حالة من

جهتين إحداهما أنه سلب منه عينيه ولسانه ويده ورجليه وجميع أعضائه، وسلب منه أهله وولده وأقاربه

ودوابه، فالموت مكتوب على الخلائق ولا ينجو منه هارب.

قال تعالى: ﴿أَيَنْمَاتُ كُنُوتًا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ..﴾ (٧٨) ﴿[النساء].

فإن عز وجل جعل لكل أحد من الخلق أجلاً معيناً ووقتاً معيناً محددًا فإذا جاء أجله وحل وقته لا

يتأخر عنه ولا يتقدم.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤) ﴿[الأعراف].

فالموت حتم لازم لا بد لكل نفس من تذوقه ولو كان الميت رسولا أو نبيا أو وليا.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۚ﴾ (٣٥) [الأنبياء]. ولم يطمع الله بشرا في الخلود في الأرض ولو

فعل لكان أولى بذلك رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) [الزمر].

وعندما يموت ابن آدم فإنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوف له في الحياة، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفه في النوم، وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته. وقال لقمان لابنه: {يا بني: أمر لا تدري متى يلقاك، استعد له قبل أن يفاجئك}.

فالعبد المؤمن هو الذي يكون على أهبة الاستعداد للموت ودواهيته بإصلاح نفسه وتقويم المعوج من أمره فإن تذكر الموت يردع عن المعاصي ويلين القلب القاسي ويذهب الفرح في الدنيا ويهون المصائب. قال ﷺ: {اذكروا هادم اللذات} (١).

فيا بن آدم:

أنت الذى ولدتك أمك باكيا والناس حولك يضحكون سرورا
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكا مسرورا
فساعة الموت أخطر لحظة فى عمر الإنسان تزداد حسرته ومصيبته وفجيئته لسلوكه الطريق المعوج
الذى لا نجاة منه، وإن شيئا واحدا هو الذى يبحث عنه هذا الإنسان فى لحظة موته ويوقن أن فيه نجاته
وسعادته وهو العمل الصالح، فإن كان قدمه فلا يضره ما ترك وإن كان لم يقدم صالحا فهو القائل: ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتْ
الْقَاضِيَةَ﴾ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ (٢٩) [الحاقة].

وفى هؤلاء وأمثالهم يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) [الكهف].

فكل مصيبة فى دنيا الإنسان قد تعوض بخير منها أما مصيبة الدين فخسارته لا تعوض، ولذلك حين
خير يوسف عليه السلام بين أن يصاب فى دنياه فيسجن ويكون من الصاغرين وأن يصاب فى دينه فيصبو إلى
النسوة ويكون من الجاهلين، كما قالت امرأة العزيز للنسوة: ﴿...وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ

١ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - باب وجوب الاستعداد للموت - ج: ٢ - ص: ٧٣ وصحيح الجامع

مَا أَمَرُهُ، لَيْسَجَنَّ وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ [يوسف]، حين خُيِّرَ يوسف بين الأمرين كان لا بد أن يختار مصيبة الدنيا، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ...﴾ ﴿٣٣﴾ [يوسف].

وكان مما علمه نبي الإسلام ﷺ لأُمته أن يقول: {اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا} ^(١).

وأن كل مصيبة لا شك أن هناك أكبر منها مثل مصيبة الموت ودواهيها على المحتضر وعلى الأهل والأحباب، فعلى المؤمن أن يكون على أهبة الاستعداد لدواهي الموت فإن للموت ثلاث دواهي ..

دواهي الموت:

الداهية الأولى: شدة النزاع:

قال تعالى: ﴿وَالنَّزْعَتِ غَرَقًا﴾ ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَةِ نَشْطًا ﴿٢﴾ [النازعات]. فإن أرحح أقوال العلماء فيها أنها هي الملائكة التي تنزع أرواح الناس حين الموت وتطلق الروح ويراد بها ما به حياة الإنسان، فالروح هي الجزء الذي به تحصل الحياة والحركة واستجلاب المنافع واستدفاع المضار.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٨٥﴾ [الإسراء].

والملائكة حين تنزع أرواح بنى آدم فمنهم من تنزع روحه بعسر فتغرق في نزعه وبخاصة أرواح الكافرين لأن الكافر حين يعالج سكرات الموت يتشبث بالحياة فتتنزع الملائكة منه روحه نزعا ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنها حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿وَالنَّشِيطَةِ نَشْطًا﴾ ﴿٢﴾ [النازعات]. وبخاصة أرواح المؤمنين. فالنشط هو العقد ومنه الأنشطة وهي التي نسميها في العامية عقدة والعقدة تكون لأجل أن تحزم الشيء ولكني أريد أن أحلها فيما بعد أشدها كما أحل عقدة السروال فكأن أرواح المؤمنين تنشط وأرواح الكافرين تنزع انتزاعا ^(٢).

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد - باب ذكر الله في المجلس - ج: ١٣ - ص: ١٢٢.

^٢ - تفسير القرآن الكريم للشعراوي - ج: ٢.

فأول داهية من دواهي الموت: شدة النزع، وفي الحقيقة أنه لو لم يكن بين يدي العبد كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرد ما كان جديراً بأن تتغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيبها فانتظر أن يدخل عليه إنسان فيضربه لتكدت عليه لذته وهو في كل نفس يصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات الموت وهو عنه غافل.

فاستعد أيها المؤمن بالعمل الصالح واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ومن لم يذوقها فإنما يعرفها بالقياس إلى الآلام التي ذاقها، فالنزع عبارة عن ألم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائها حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة فالنزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائها فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة، فلا تسأل عن كربيه وألمه حتى قالوا: إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح، ويستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتساعد على قلبه وبلغ كل موضع فهدأت كل قوة وضعفت كل جارحة فإن بقيت فيه سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقة وصدره وقد تغير لونه، فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتقلص الشفتان وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعيهما وتخضر أنامله ويموت كل عضو من أعضائه تدريجياً فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها الحلقوم^(١).

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٣) [الواقعة]. أي الروح إذا بلغت الحلقوم، والحلقوم هو الحلق وهو أول القصبة الهوائية وهو موضع خروج الروح وقالوا إنها لا تخرج من القناة الهضمية ومجرى الطعام، وإنما قالوا إنها تخرج من مجرى النفس لأنه الأهم في حياة الإنسان، إن الإنسان إذا اقترب أجله فإن الروح ترتقى إلى أعلى الجسم عند النحر حتى تخرج من جسده وهذا الخروج للروح ليس بالأمر الهين حتى

^١ - إحياء علوم الدين - ج: ٤ - ص ٤٢٢.

للمؤمن بل له سكرات وغمرات ومشقات ثم تنتزع الملائكة الروح وهذا النزاع يختلف شدة ويسرا بحسب إيمان الرجل.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق.]. وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له: كيف وجدت الموت يا خليل؟ قال: كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب^(١). وروى عن موسى عليه السلام أنه لما سارت روحه إلى الله تعالى قال له: يا موسى كيف وجدت الموت؟ قال: وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقل لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير^(٢).

ولما حضرت الوفاة محمد ﷺ كان يمسح الوجه الكريم بهاء بارد ويدعو الله فيقول اللهم هون على سكرات الموت، فالحييب خير خلق الله وأعلى مخلوق عند الله وهو على فراش الموت كان يقول: سبحان الله إن للموت لسكرات، فماذا نفعل نحن إذا كان سيد الخلق يدعو الله أن يخفف عنه سكرات الموت فماذا نحن صانعون وكانت فاطمة بجانبه تقول: وا كرباه على كربك يا أبتاه، فكان الحبيب ﷺ يقول لها يا فاطمة: لا كرب على أبيك بعد اليوم.

واعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى، وحسن الظن بالله مستحب في هذا الوقت.

دخل النبي ﷺ على شاب وهو يموت فقال: كيف تجده؟ قال: أرجو الله وأخاف ذنوبى. فقال النبي ﷺ: ما اجتمع في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذى يرجو وأمنه من الذى يخاف^(٣).

الداهية الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت والملكين الحافظين: بعض الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم قالوا لملك الموت عليه السلام: أما لك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك؟ قال: نعم لى رسل كثير من الأعداء والأمراض والشيب والهموم وتغيير السمع والبصر.

^١ - تخریج أحادیث إحياء علوم الدين - باب روى أن إبراهيم عليه السلام - ج: ٦ - ص: ٣٥٠٣.

^٢ - تذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة - باب ما جاء أن للموت سكرات - ج: ١ - ص: ١٥٣.

^٣ - سنن ابن ماجه - باب ذكر الموت والاستعداد - ج: ٢ - ص: ١٤٢٣.

أولاً: مشاهدة صورة ملك الموت: ودخول الخوف والرعب منه على القلب، فلو رأى صورته التى يقبض بها روح العبد المذنب لم يطق رؤيته، فقد روى عن الخليل إبراهيم عليه السلام أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن ترينى صورتك التى تقبض بها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك. قال: بلى. قال: فأعرض عني. فأعرض عنه ثم التفت فإذا هو برجل أسود قاتم الشعر متتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومنخريه لهيب النار والدخان فغشى على إبراهيم عليه السلام، ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال: يا ملك الموت: لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه.

وسأله: فهل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض بها روح المؤمن والمطيع؟ فقال نعم. فأعرض عنه ثم التفت: فإذا هو بشاب فذكر من حسن ثيابه وطيب رائحته وجمال منظره فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك لكان حسبه.

ثانياً: مشاهدة الملكين الحافظين: فاعلم يا ابن آدم أن أعمالك مسجلة وستعرض عليك فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما روى عن رب العزة: {إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فكتبوها حسنة فإن عملها فكتبوها عشرة} (١).

وقال تعالى: ﴿وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كُنِينًا ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار].

وقال ابن كثير رحمه الله: يعنى أن عليكم ملائكة حفظة كراما فلا تقاتلوهم بالقبايح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم (٢).

بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يترأى له الملكان الكاتبان عمله فإن كان مطيعاً قالاً له: جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح أحضرنا.

١ - رواه مسلم - ح م: ٣٢٧، والترمذى والنسائى فى الكبرى.

٢ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير - ج: ٣.

وإن كان فاجرا قالوا له: لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح أحضرنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك عنا خيرا^(١).

الداهية الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم من النار:

وخوفهم قبل المشاهدة فإنهم في حالة السكرات قد تجاوزت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت إما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولي الله بالجنة، وإن الملائكة تنزل على المحتضرين وتجلس قريبا منهم ويشاهدون عيانا ويتحدثون عنده ومعهم الأكفان والحنوط إما من الجنة وإما من النار ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُنْظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة].

ويمد ملك الموت يده إلى الروح فيقبضها، وملك الموت له أعوان ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت وهم صنفان، ملائكة رحمة وملائكة عذاب. قال تعالى في شأن المؤمنين: ﴿ الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]. وقال تعالى في شأن الكافرين: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب راضٍ غير غضبان فلا يزال يقال لها حتى تخرج بها إلى السماء فيفتح لها فيقال من هذا؟ فيقولون: فلان ابن فلان. فيقال: مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب راضٍ غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي إلى السماء التي فيها الله تعالى، وإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال

^١ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - باب ومنهم الورع - ج: ٨ - ص: ١٥٦.

لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فلا يفتح لها ويقال من هذا؟ فيقال فلان ابن فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر^(١). وقال النبي ﷺ: {لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار}.

القبر أول منازل الآخرة:

القبر هو أول منازل الآخرة، والقبر هو موضع دفن الموتى. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَّا نُهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ (١١) [عبس]. أى جعل له قبرا يوارى فيه إكراما له ولم يجعله على وجه الأرض تأكله السباع، وتأكله الطير. فعن مولى عثمان بن عفان قال: {كان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر يبكى حتى يبلى لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكى، وتذكر القبر فتبكى؟ فقال إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد^(٢)}.
عذاب القبر ونعيمه:

عذاب القبر ونعيمه حق كما صرح به الأحاديث الصحيحة والإيمان بها واجب، فالمرء إذا مات إما أن يكون في نعيم أو عذاب، وإن الروح تبقى بعد مفارقة البدن إما منعمة أو معذبة، وعند البعث تعاد الأرواح إلى الأجساد.

فعذاب القبر ونعيمه من الأمور التى دلل عليها العقل والنقل.

أما الدليل العقلى: فإنه من الأمور المقدورة، فعذاب القبر ونعيمه ممكن وقوعه.

أما الدليل النقلى: قال تعالى: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) [التكاثر]. وقال تعالى: ﴿...وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٣) [الأنعام].

^١ - سنن ابن ماجه - ج: ٢ - ص ١٤٣٣ - ح م: ٤٢.

^٢ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب ضمة القبر - ج: ٣ - ص: ٢٠١.

فقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ فالآية تبين حال المحتضر الكافر وأنه تأنيه الملائكة وتخبّره أنه سوف يعذب اليوم أى يوم موته وهذا يدل على أن العذاب يكون قبل يوم القيامة، والآية دليل واضح على عذاب القبر.

وفي الصحيحين؛ عن عائشة رضى الله عنها قالت: {دخلت على عجوز من عجائز يهود أهل المدينة فقالت: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها. قالت فخرجت ودخل على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله: إن عجوزاً من عجائز يهود أهل المدينة دخلت على فزعمت أن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قال: صدقت إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها. قالت: فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر} ^(١). وقال ﷺ: {القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار} ^(٢). وعذاب القبر هو عذاب البرزخ وهو الفترة ما بين الموت والبعث، وهو الواقع بين شيئين في وقت الموت إلى يوم القيامة من مات دخله.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ بِرَزْخٍ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون].

فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيب منه قبر أم لم يقبر فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً أو نسف في الهواء أو أغرق في البحر ووصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما وصل إلى موتى القبور. روى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: {إن رجلاً من بني إسرائيل حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً وأوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحتشت فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يوماً راحاً (أى كثير الرياح) فذروه في اليم، ففعلوا فجمعه الله وقال له لما فعلت ذلك؟ فقال: من خشيتك}.

فعذاب القبر حق، فعلى المؤمن أن يأخذ حذرَه لهذا اليوم بالاستعداد له ولا يزال يسوف ويؤخر فاجعل أيها المؤمن قبرك روضة من رياض الجنة ولا تجعله حفرة من حفر النار، فأخرج أيها المؤمن حب

^١ - صحيح البخارى - باب التعوذ من عذاب القبر - ج: ٨ - ص: ٢٨.

^٢ - سنن الترمذى - ج: ١ - ص: ٢٨٠ وقال ضعيف.

الدنيا من قلبك ولا تتبع الهوى فإن الهوى يصد عن الحق، فعليك بالاعتداء بالحبيب ﷺ وأصحابه الصالحين وأتباعه.

يحكى أنه كان ربيع بن خيثم قد حفر قبراً في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت، وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد.

فعليك بالأعمال الصالحة التي تؤنسك في قبرك واعتبر بالذي مضى.

أتيت القبور فناديتها فأتين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطانه وأين المزكى إذا ما افتخر
تساووا جميعاً فما مخير وماتوا جميعاً ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا أمالك فيما مضى معتبراً^(١)
فتنة القبر وسؤال الملكين:

قال تعالى: ﴿يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِأَقْوَلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ

الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) [إبراهيم].

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: {إن الميت إذا وضع في قبره فإنه يسمع خفق نعالهم حين يولون مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والأمر بالمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلى مدخل، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلى مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلى مدخل، ثم يؤتى من قبل رجله فتقول الخيرات من الصدقة والأمر بالمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلى مدخل، فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد أذنت للغروب فيقال له: أرايت هذا الذى كان قبلكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد عليه؟ فيقول دعونى حتى أصلى. فيقولون: إنك ستفعل، أخبرنا عما نسألك عنه. أرايت هذا الرجل الذى كان قبلكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد عليه،

^١ - المجالسة وجواهر العلم - ج: ٢ - ص: ٤٠٨.

فيقول: محمد أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه جاء بالحق من عند الله، فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك متٌ وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ؛ ثم يفتح له باب من أبواب الجنة ويقال له: هذا مقعدك منها وما أعد الله لك فيها. فيزداد غبطة وسرورا ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له: هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها لو عصيت فيزداد غبطة وسرورا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدئ منه فتجعل نسمة (الروح) في النسيم الطيب وهى طير تعلق في شجر الجنة.

فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (٢٧) [إبراهيم]. وإن الكافر إذا أتى من قبل رأسه لا يوجد شيء، ثم إذا أتى عن يمينه لا يوجد شيء، ثم إذا أتى عن شماله لا يوجد شيء، ثم إذا أتى من قبل رجله فلا يوجد شيء؛ فيقال له اجلس فيجلس مرعوبا خائفا فيقال: أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ماذا تقول فيه؟ وماذا تشهد عليه؟ فيقول: أى رجل ! ولا يهتدى لاسمه فيقال له: محمد. فيقول: لا أدري سمعت الناس قالوا قولاً فقلت كما قال الناس. فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله. ثم يفتح له باب من أبواب النار ويقال له: هذا مقعدك من النار وما أعد الله لك فيها فيزداد حسرة وثبورا ثم يفتح له باب من أبواب الجنة فيقال له: هذا مقعدك منها وما أعد الله لك فيها لو أطعته فيزداد حسرة وثبورا ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التى قال الله ﴿... فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ (١٢٤) [طه] (١).

عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتبهينا إلى القبر ولم يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأننا على رؤسنا الطير فجعل رسول الله ﷺ يرفع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى القبر ثم قال: أعوذ بالله من عذاب القبر. قالها مرارا، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان من قبل الآخرة وانقطاع عن الدنيا جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فيقول: اخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج نفسه تسيل كما يسيل قطر السقاة ثم تنزل ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم أكفان من أكفان الجنة وحنوط من حنوطها

^١ - تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ - باب ذكر ما حضرنا ذكره مما صح - ج : ٢ -

فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿...تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْعِلُونَ ۖ﴾ [الأنعام: ٦١]. قال: فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت بها الملائكة فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا: ما هذه الروح؟ فيقال: فلان بأحسن اسمائه حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيفتح له ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى إلى السماء السابعة فيقال: اكتبوا له كتابا في عليين ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا ۚ كَتَبْنَا مَرْمُومًا ۖ﴾ [المطففين: ٢١] فيكتب كتابه في عليين ثم يقال: ردوه إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها نعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى، فيرد إلى الأرض وتعاد روحه فيأتيه ملكان شديدا الانتهاز فينهرانه ويجلسانه فيقولان: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام. فيقولان: ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان: ما بيده؟ فيقول: جاء بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت. قال: وذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...﴾ [إبراهيم: ٢٧] فينادى مناد من السماء: صدق عبدى فألبسوه من الجنة وأروه منزلته منها فيفسح له مد البصر، ثم قال: ويمثل له عمله فى صورة رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول له: أبشر بما أعد الله لك، أبشر بجنت الله وجنت النعيم. فيقول: بشرك الله بخير. من أنت؟ فوجهك الذى جاء بالخير. فيقول: هذا يومك الذى كنت توعده، أنا عمالك الصالح؛ فوالله ما علمتك إلا كنت سريعا فى طاعة الله بطيئا فى معصية الله فجزاك الله خيرا. فيقول: يا رب أقم الساعة كى أرجع إلى أهلى ومالى. قال: فإن كان فاجرا، وكان من قبل الدنيا وانقطع عن الآخرة جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه وقال: اخرجى أيتها النفس الخبيثة اخرجى بسخط الله وغضبه، فتنزل ملائكة سود الوجوه معهم مسوح من النار فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها فى يده طرفة عين تتفقر فيستخرجها وقد تقطع منه العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب فى الصوف المبلول فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجدت فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فلا تفتح لها. فيقولون: ردوها إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها نعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى، فيرمى به من السماء وتلى هذه الآية:

﴿....وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ

﴿٣١﴾ [الحج]. قال: فيعاد إلى الأرض فتعاد فيه الروح فيأتيه ملكان شديدا الانتهاز فينهرانه ويجلسانه فيقولان: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: ماذا تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه. فيقال: محمد. فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون ذلك فقلته. قال: فيقال له: لا دريت فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه متنن الريح قبيح الثياب فيقول: أبشر بعذاب الله وسخطه. فيقول: من أنت؟ فوجهك الذي جاء بالشر. فيقول: أنا عمك الخبيث؛ فوالله ما علمتك إلا بطيئا في طاعة الله سريعا إلى المعصية. قال: فيقبض الله له أصم أبكم ومعه مرزبة لو ضرب بها جبل لصار ترابا فيضربه ضربة فيسمعه الخلائق إلا الثقلين. ثم يقال: افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا إلى النار.}

ضغطة القبر:

وللقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ رضي الله عنه.

عن النبي ﷺ قال في سعد بن معاذ: {لقد تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون

ألفا من الملائكة ولقد ضمه (أي ضمة القبر) ثم فرج عنه} ^(١).

وهذا الضغط أو الضم يكون بعد سؤال الميت، ويختلف الضم باختلاف العمل الصالح، فالمؤمن يضمه

القبر كما تضم الأم اخنون ولدها الصالح، وأما الكافر والمنافق فإن القبر يضغطه حتى تختلف أضلاعه.

حكمة ضغطة القبر وضمه:

هي ما رواه ابن أبي الدنيا عن محمد التيمي قال: {كان يقال إن الأرض أهمهم ومنها خلقوا وغابوا عنها

الغيبية الطويلة فلما ردوا إليها ضمتهم ضمة الوالدة التي غاب عنها ولدها ثم قدم عليها فمن كان لله مطيعا

ضمته برأفة ورفق، ومن كان عاصيا ضمته بعنف سخطا عليه} ^(٢).

^١ - الجامع الصحيح للسنن والمسنايد - باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه - ج: ١٥ - ص: ٤٦٨.

^٢ - أهوال القبور - فصل أنواع القبر - ج: ١ - ص: ٥٩.

وقال الحكيم الترمذى: سبب هذه الضغطة أنه ما من أحد إلا وقد ألم بذنب فتدركه هذه الضغطة جزاءً له ثم تدركه الرحمة.

وقفة مع عصرنا:

في الحقيقة أن عصرنا ملئ بكثير من الأشياء المتجددة التى أفسدت على المسلمين دينهم ليس لذاتها ولكن لسوء استعمالها. فالإنسان بطبيعته يحب الزينة بأنواعها، ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران].

ولكن عقب بعدها فقال: ﴿قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مِّنْ ذَلِكَمُ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَاكَ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران].

ومن هذه الزينة التى وجدت في زماننا الإذاعة المسموعة والمرئية وأجهزة الكمبيوتر المكتبية والمحمولة ووسائل الاتصال ومواقع التواصل الاجتماعى والهاتف النقال الذى حط علينا وعلى رؤوسنا وأصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة أطفالنا قبل كبارنا، ونسائنا قبل رجالنا، وفقيرنا قبل غنيا، ومستغنيا عنه قبل محتاج إليه لينشر الفساد والفسق والفجور وليستغل بأشبع الصور وأقبحها أصبح الآن من كان موضع ثقة أصبح متهما من علماء وعاملين في المدارس والمصانع وأصبحت المتتعبة الآن موضع شك لما يحدث في هذه الأيام من استعمال النقاب للمداراة والغش والسرقة فإنه استغلته الاستغلال السيئ، فيجب المبادرة إلى الأعمال الصالحة لعدم الحسرة وسوء الخاتمة.

قال الإمام القرطبي: سوء الخاتمة أعادنا الله منها لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ما سمع بهذا ولا علم به، والحمد لله وإننا تكون لمن كان له فساد في العقل أو إصرار على الكبائر وإقدام على العظائم فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيتصدى له الشيطان ويشدد في وسوسته ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله ثم العياذ بالله فيكون ذلك سببا في سوء الخاتمة وشؤم عاقبته كإبليس الذى عبد الله فيما

يروى ثمانين ألف سنة ودرغام بن عوراء الذى أتاه الله الملك فانسلك منه بخلوده إلى الأرض فالمؤمن الحق الذى يثبت فى الشدائد وقت الصعاب ويعلم أن الدنيا حقيرة أمرها فمهما علا فيها شيء فهو حقير وإنما الباقي هو ما يتبقى له عند الله.

فعلينا بالدعاء بين الحين والآخر أن يثبت الله سبحانه وتعالى قلبنا على الإيمان فيها ننال حسن الخاتمة إن شاء الله تعالى.

قالت عائشة رضى الله عنها: {كان النبى ﷺ يقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبى على طاعتك. فقلت: يا رسول الله: إنك تكثر بهذا الدعاء، هل تخشى؟ قال الحبيب: وما يؤمنى يا عائشة وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الجبار إذا أراد أن يقلب قلب عبده قلبه}.

الفصل الرابع

الاستعداد ليوم البعث وهول يوم القيامة

الحمد لله رب العالمين الذى يبعث من فى القبور لإحياء العظام وهى رميم، لكى تجزى كل نفس بما عملت وهم لا يظلمون، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن سار على سنته ومنهاجه إلى يوم الدين ... أما بعد ،،،

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١) [يس].

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: {قال الله تعالى: شتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى، وكذبنى وما ينبغى له أن يكذبنى، أما شتمه إياي فيقول: إن لى ولدا، وأما تكذيبه لى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى} (١).

النفخ فى الصور:

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ

أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٦٨) [الزمر].

والصور: هو قرن ينفخ فيه كما عرفه ﷺ.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: {جاء أعرابى إلى النبى ﷺ قال: ما الصور؟ قال: قرن ينفخ فيه} (٢).

وقال ﷺ: {كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر؟} (٣).

١ - صحيح الجامع الصغير وزيادته - باب حرف القاف - ج: ٢ - ص: ٧٩٦ - ح م: ٤٣١٨ ، حديث صحيح .

٢ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - باب يوم القيامة - ج: ٢ - ص: ٣٠ ، صحيح الترغيب والترهيب - ح م: ٣٥٦٨ .

٣ - صحيح ابن حبان مخرجا - باب ذكر الأمر لمن انتظر النفخ فيه - ج: ٣ - ص: ٢٠٥ .

فالمصور هو القرن، وذلك أن إسرائيل عليه السلام وضع فاه على القرن كهيئة البوق ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يؤمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم ميكائيل ثم روح إسرائيل عليهم السلام ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحيى الله تعالى إسرائيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية .

كذلك قوله تعالى: ﴿..... ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وقيل قوله: ﴿.... إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ.....﴾ [الزمر: ٦٨] قالوا إن الذين استثناهم الله بهذه النفخة هم الملائكة الموكلون بهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت.

وقد أخبرنا النبي ﷺ أن موسى عليه السلام فيما استثنى من هذه الصعقة، ففى الحديث عن الصعقة حدث وحصل للناس غشية، وكان رسول الله ﷺ أول من أفاق منها فوجد أخاه موسى عليهما السلام ممسكا بالعرش.

قال ﷺ: {ألا تخبرونى على موسى فالناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد أخى موسى ممسكا بجانب العرش فما أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبل أم كان من الذى استثناهم الله عز وجل} ^(١) . وذلك أن موسى عليه السلام صعق فى الدنيا حين تجلى ربه للجبل. قال تعالى: ﴿..... فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا يَلْمُوسَىٰ ..﴾ [الأعراف: ١٤٣]

وما كان الله ليجمع على نبيه موسى عليه السلام صعقتين لذلك لم يصعق صعقة الآخرة والله أعلم.

عدد النفخات:

اختلف العلماء فى عدد النفخات، القول الأول: إنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث.

^١ - المسند الموضوعى للجامع للكتب - باب يوم القيامة - ج: ٢ - ص: ١٢ - ح م: ٢٢٣ .

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ

دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ [النمل].

وقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ

أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ [الزمر].

والقول الثاني: إنها نفختان، نفخة الصعق ونفخة البعث، وقالوا هذا هو ظاهر النصوص، فقوله

تعالى: ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ ﴿٤٩﴾ [يس]. وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ

﴿٦﴾ تَبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ [النازعات].

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: {بين النفختين أربعون، قالوا: يا أبا هريرة: أربعون

يوماً؟ قال: أبيت ^(١). قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، ويبيلى كل شيء من

الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق} ^(٢). فاستعد أيها الغافل لهذا اليوم، وتفكر في الخلائق وذهم

وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفاً من هذه الصعقة وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة

وأنت فيما بينهم منكسر، فانكسارهم متحير كتحيرهم، بل إن كنت في الدنيا من المترفين المتنعمين فملوك الأرض

في ذلك اليوم أذل أهل الأرض يوطأون بالأقدام مثل الذرة وعند ذلك يقبل الوحوش من البرارى والجبال

منكسة مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة

وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥٠﴾

[التكوير]. ثم أقبلت الشياطين بعد تمردها وعتوها وأذعنت خاشعة من هيئة العرض على الله عز وجل

تصديقا لقوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ

جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ [مريم]. فتفكر في حالك أيها الغافل تفكر استعدادا لهذا اليوم.

^١ - أبيت : أمتنع من تعيين ذلك بالأيام والسنين والشهور لأنه لم يكن عنده علم بذلك .

^٢ - صحيح البخارى - باب: ونفخ في الصور فصعق - ج: ٦ - ص: ١٣٦ .

أَرْضُ الْحَشْرِ:

يحدثنا القرآن عن أهوال ذلك اليوم التى تشهدنا الناس وتشد أبصارهم وتملك عليهم نفوسهم وتزلزل قلوبهم ومن أعظم تلك الأهوال الدمار الكونى الشامل الذى يصيب الأرض والجبال والسماء والنجوم.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفَخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَجِمَاتٌ ۖ وَالْجِبَالُ فَدُكُّا ذَكَّةٌ وَاحِدَةٌ ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾ (١٥) وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ ﴿١٦﴾ [الحاقة].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۖ﴾ (٤٨) [إبراهيم].
فالكون الذى خلقه الله سبحانه وتعالى وطراً عليه آدم وخلفه من بعده ذريته قد أعده الله وسخره فى خدمة آدم وذريته من بعده، وهم يعيشون فى الكون بأسباب الله الممدودة فى أنفسهم المنشورة فى هذا الكون لكل مخلوق لله مؤمنهم وكافرهم، أما الحياة الآخرة فنحن نحياها بالمسبب لا نحتاج إلى أرض قدر فيها الحق أقواتها وجعل فيها رواسى وأنزل عليها من السماء ماء، إذن فهى أرض غير الأرض وسماء غير السماء، لأن الأرض التى نعرفها هى أرض أسباب السماء التى نعرفها هى سماء أسباب، وفى جنة الآخرة لا أسباب هناك فكلنا فى الدنيا نعيش على الأرض بنور الشمس، نقول: أشرقت الشمس، أما وقد انتقلنا إلى الآخرة فالأرض هى نفسها تشرق.

قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ۖ وَاللَّهُ ۖ﴾ (٦١) [الزمر].

وكما تبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات، كذلك أنتم تبدلون على هيئة أخرى تناسب الآخرة، فستأكلون ولا تتغيطون، وتعيشون ولا تهرمون.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۖ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ

اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۖ﴾ (٤٥) [يونس].

ويحشر الناس حفاة غير متنعلين، عراة غير لابسين، غرلاً غير مختونين، فكما أن الإنسان يولد حافياً عارياً أغرل كذلك يُبعث.

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: {يبعث الناس حفاة عراة غُرلاً، فقالت عائشة: فكيف بالعورة؟ قال: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ} (١).

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غُرلاً إلى أرض المحشر، أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجاً ولا أمّتا ولا ترى عليها ربوة يختفى الإنسان وراءها ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا، بل لا تساويها إلا في الاسم.

قال ابن عباس: {يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة} (٢).

فاستعد أيها الغافل وتفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأراضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير .. فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنت من رؤوس العالمين كقاب قوسين، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل رب العالمين ويرتفع العرق على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبته وبعضهم إلى شحم أذنيه.

قال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: {تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذيه ومنهم من يبلغ خصرته ومنهم من يبلغ فاه- وأشار بيده- فألجمها ومنهم من يغطيه، وضرب بيده على رأسه هكذا} (٣).

وعن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: {تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منه كمقدار ميل}.

١- صحيح البخارى - باب فناء الدنيا - ج: ٤ - ص: ٢١٩٤ - ح م: ٢٨٥٩.

٢- التوضيح لشرح الجامع الصحيح - باب يقبض الله الأرض - ج: ٣٠ - ص: ٣٢.

٣- صحيح ابن حبان مخرجا - باب ذكر الأخبار عن وصف تباين الناس - ج: ١٦ - ص ٣٢٤ إسناده صحيح.

فاحذر أيها الغافل من ذلك اليوم، فمنهم من ينادى فيقول رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فإنك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق. ولو يعلم ابن آدم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمنا من عرق الكرب والانتظار في يوم القيامة، فهذا موقف يجب أن نخاف منه، فأنت ساعة ما تقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]. تشعر بهيبة الوقوف ورهبته وكلمة يقوم تدل على فزعة الوقف. فساعة ما يكون الناس جالسين ثم يدخل عليهم رئيسهم أو المتولى شئونهم فإنهم في الغالب يهيئون الوقوف له، والله المثل الأعلى، فما بالك برب العالمين الخالق الذى يعلم خلقه ويعلم أنه ما جعل لخلق من خلقه حجة ولا عذرا وما دام لم يجعل لخلق حجة ولا عذرا فإن الموقف هنا موقف عسير إلا على من يسره الله له.

قال كعب وقتادة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]. قال: يقومون مقدار ثلاثمائة عام^(١).

وعن عبد الله بن عمر قال: {تلى رسول الله ﷺ هذه الآية {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} ثم قال: كيف بكم إن جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة ولا ينظر إليكم}^(٢). قال رسول الله ﷺ: {والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى تكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة}^(٣).

فاستعد أيها الغافل لهذا اليوم العظيم شأنه يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة، ويوم المسابقة، ويوم المناقشة، ويوم القارعة، ويوم الراجفة ويوم الرادفة.

^١ - القيامة الكبرى - باب أهوال يوم القيامة - ج: ١ - ص ٢٢٥ .

^٢ - الجامع الصحيح للسنن والمسند - مقدار يوم القيامة - ج: ٢ - ص: ٣٥ انظر الصحيحة ح م: ٢٨١٧.

^٣ - جامع الأحاديث - باب حرف الواو - ج: ٣٢ - ص: ٣٩٠ .

الحساب والميزان:

قال تعالى: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [٢٤] [الصافات].

استعد أيها الغافل بعد هذه الأحوال فيما يتوجب عليك من السؤال شفاهة من غير ترجمان.

قال تعالى: ﴿وَلَسْتُمْ لَكُمْ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٩٣] [النحل].

فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار فما ظنك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا ليأخذوك إلى مكان العرض، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين من شدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذون وهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين.

فيبدأ سبحانه بالأنبياء.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾

[١٠٩] [المائدة].

فيا لشدة يوم تزهل فيه عقول الأنبياء، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين، فيا لعظمة يوم القيامة، ثم بعد ذلك تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا: يا فلان ابن فلان هلم إلى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتذهب العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش.

قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا...﴾ [٦٦] [الزمر].

وأيقن كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد فاخطر ببالك واحضر في قلبك حال قلوب العباد وقد

امتلائت فزعا ورعبا فتساقطوا جثيا على الركب وولوا مدبرين.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً...﴾ (٢٨) [الجاثية]. وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور وينادى الصديقون: نفسى نفسى، فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتحاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون شخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع وانهمضت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين واشتد الفزع على العصاة ففر الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ (٢٦) لِكُلِّ أُمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٢٧)﴾ [عبس].

فتخيل نفسك أيها المسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاهة فيقول: ألم أنعم عليك بالشباب فماذا أبليت؟ ألم أمهل لك في العمر فماذا أفنيت؟ ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته؟ وفيما أنفقت؟ ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت؟ فكيف ترى حيائك وخجلتك وهو يعد عليك أنعمه ومعاصيك ومساويك فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك.

قال أنس رضى الله عنه: {كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال: تدرون مما أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربه. يقول: يا رب ألم تجرنى من الظلم؟ قال يقول: بلى. قال فيقول: فإنى لا أجزى على نفسى إلا شهيدا منى. فيقول: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا وبالكرام الكاتبين شهودا. قال: فيختم على فيه ويقول لأركانه انطقى. قال: فتنتطق بأعماله. ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه: بعدا لكنَّ وسحقا فعنكن كنت أناضل} (١).

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤) [النور]. وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦٥) [يس].

فتعوذ بالله أيها المؤمن من الافتضاح على ملاء الخلق بشهادة الأعضاء وتفكر في عظم حيائك إذا ذكرك عز وجل بذنوبك شفاهة إذ يقول: {يا عبدى أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح واستحييت من خلقى

^١ - صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - ج: ٢ - ص: ٣٣٨٠.

فأظهرت لهم الجميل، وكنت أهون عليك من سائر عبادى، استخففت بنظرى إليك فلم تكثرث واستعظمت نظر غيرى، ألم أنعم عليك}.

الميزان:

قال تعالى: ﴿وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧) [الأنبياء].

قال العلماء: وإذا انقضى الكتاب كان بعده وزن الأعمال.

والوزن: لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها.

وقد دلت السنة المطهرة على أن الميزان ميزان حقيقى لا يقدر قدره إلا الله عز وجل.

قال ﷺ: {يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لوسع، فتقول الملائكة: يا رب لمن وزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقى. فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقى. فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك} (١).

الناس بعد السؤال ثلاث فرق:

أولاً: فرقة ليس لهم حسنة: فتخرج من النار عتق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب، وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة ولا سعادة.

ثانياً: فرقة لا سيئة لهم: فينادى منادٍ ليقم الحامدون لله على كل حال، فيقومون ويسرحون إلى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثم بمن لم تشغلهم تجارة الدنيا ولا يبيعها عن ذكر الله وينادى عليهم سعادة ولا شقاوة.

ثالثاً: هم الأكثرون: خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أم سيئاتهم ولكن يأبى الله إلا بعد أن يعرفهم ذلك أن يبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب فتطير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب

^١ - سلسلة الأحاديث الصحيحة - ج: ٢ ، ص: ٦٥٦ - ح: ٩٤١ .

أتقع في اليمين أم في الشمال ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب الحسنات أم جانب السيئات ومنهم من تتساوى حسناتهم مع سيئاتهم وهم أهل الأعراف.

قال تعالى: ﴿...وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَانِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون].

اقتصاص المظالم بين الخلق:

اعلم أيها المؤمن أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته كما قال عمر رضي الله عنه: {حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزن عليكم} ^(١).

وحسابه لنفسه أي يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحًا ويرد المظالم ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت، وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته ويقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني وهذا يقول استهزأت بي. ففي ذلك اليوم يقتصر للناس بعضهم من بعض، فالحساب شامل لظلم العبد لنفسه وظلمه لغيره من الناس، وما أعظم مصيبة الذي وقع في ظلم الناس لأن القصاص يومئذ لا يكون بالمال ولا السجن ولا غير ذلك بل يكون بالحسنات والسيئات.

قال ﷺ: {من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه اليوم قدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه} ^(٢).

^١ - تخریج أحادیث إحياء علوم الدين - باب وقال عمر رضي الله عنه - ج: ٦ - ص: ٢٤٣١.

^٢ - صحيح البخارى - باب من كانت له مظلمة عند الرجل - ج: ٣ - ص: ١٣٩.

قال ﷺ: {أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتى يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا؛ فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار} (١).

ومن كمال عدل الله في ذلك اليوم أنه يقتصر للبهايم بعضها من بعض.
عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: {إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وحشر الخلائق الإنس والجن والدواب والوحوش حتى تقتص الشاة الجماء من القرناء لنطحها فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها: كوني ترابا فتكون ترابا فيراها الكافر فيقول: يَا كَيْتَيَّ كُنْتُ تُرَابًا}.
وأول ما يقضى بين العباد في الدماء. ولعظم أمر الدماء فتكون أول شيء يقضى به بين العباد. فقد قال رسول الله ﷺ: {أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء} (٢).

وقال ﷺ: {يحيى المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشحب دماء فيقول: يا رب سل هذا فيما قتلني؟ حتى يدينه من العرش} (٣).

قال تعالى: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢٠].
وقال ﷺ: {إن الله تعالى يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحبون مرضاكم وتمنعونهم الطعام والشراب تخافون عليهم} (٤).

وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال: {كنا مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه فدعا بشراب فأتى بهاء وعسل فلما أدناه منه بكى وبكى حتى أبكى أصحابه فسكتوا وما سكت ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لن يقدروا على مساءلته قال: ثم مسح عينيه فقالوا: يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟ فقال: كنت مع رسول الله

١- صحيح مسلم - باب تحريم الظلم - ج: ٤ - ص: ١٩٩٧ - ح م: ١٥٨٦.

٢- صحيح البخارى - ج: ٩ - ح م: ٦٨١٤.

٣- المسند الموضوعى للكتب - باب ما يقضى بين الخلق - ج: ٢ - ص: ٤٥٨.

٤- الجامع الصحيح للسنن والمسائيد - باب من الأخلاق الحميدة - ج: ١٠ - ص: ٣٠٣.

ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئا وليس معه أحد، فقلت: يا رسول الله ما الذى تدفع عن نفسك؟ فقال: هذه الدنيا مثلت لى فقلت لها: إليك عنى. ثم رجعت فقالت: إنك إن أفلتت منى فلن يفلت من بعدك}.

فاستعد أيها الغافل قبل الحسرة والندم وقبل أن ينادى المنادى: ﴿ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والاستغاثة والندم تقول: يا ليتنى قدمت لحياتى، يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا، يا ليتنى كنت ترابا، يا ليتنى كنت نسيا منسيا، يا ليت أُمى لم تلدننى؛ فاسع أيها العبد فى طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه، فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط لكفأك أن ترجع وتتوب وتستغفر عما بدا منك.

الصراط:

قال تعالى: ﴿ . فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَنِيمِ ﴾ [٢٣] وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿ ٢٤ ﴾ [الصافات]. فالصراط هو جسر ممدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعرة فمن استقام خف على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصا تعثر فى أول قدم على الصراط وتردى.

قال أبو سعيد الخدرى: قال رسول الله ﷺ: {يمر الناس على جسر جهنم وعليه مسك وكلايب وخطاطيف تحتطف الناس يميناً وشمالاً وعلى جنيبه ملائكة يقولون: اللهم سلم.. اللهم سلم، فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس المجرى، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشى مشياً، ومنهم من يحبو حبوا، ومن من يزحف زحفاً} (١).

تفكر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته وإذا وقع بصرك على سواد جهنم من تحتك ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها وقد كلفت أن تمشى على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك من المشى على بساط الأرض فضلاً عن حدة الصراط فما بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته واضطرت إلى أن ترفع

^١ - المسند الموضوعى للجامع للكتب - باب الشفاعة - ج: ٢ - ص: ٣٩٣.

قدمك الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب وأنت
تنظر إليهم كيف ينكسون إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم فيا له من منظر أعاذنا الله وإياكم منه.

قال الشاعر:

أبت نفسى تتوب فما احتيالى إذا برز العباد لذى الجلال
وقاموا من قبورهم سكارى بأوزارهم كأمثال الجبال
وقد نصب الصراط لكى يجوزوا فمنهم من يكب على الشمال
ومنهم من يسير لدار عدن تلقاه العرائس بالغوالى
يقول له المهيمن يا وليى غفرت لك الذنوب فلا تبالى

المصادر والمراجع

- *المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي/الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت/عدد الأجزاء: ٥)
- *إحياء علوم الدين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) الناشر: دار المعرفة - بيروت/عدد الأجزاء: ٤)
- *المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخریج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين) أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ) الناشر: دار ابن حزم، بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م/عدد الأجزاء: ١)
- *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي/المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر/الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ/عدد الأجزاء: ٩)
- *المسند الموضوعي للجامع للكتب العشرة/صهيب عبد الجبار عدد الأجزاء: ٢٢/عام النشر: ٢٠١٣)
- *الأدب المفرد بالتعليقات/محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري /مستفيداً من تخریجات وتعليقات العلامة الشيخ المحدث: محمد ناصر الدين الألباني/الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض/الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م/عدد الأجزاء: ١)
- *الجامع الصحيح للسنن والمسند/صهيب عبد الجبار عدد الأجزاء: ٣٨/تاريخ النشر: ١٥ - ٨ - ٢٠١٤)
- *المستدرک على الصحيحين/أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا/الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠/عدد الأجزاء: ٤)
- *السنن الكبرى/أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ) حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي/أشرف عليه: شعيب الأرنؤوط قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي/الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت/الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م/عدد الأجزاء: (١٠ و ٢ فهارس)

- * التوضيح لشرح الجامع الصحيح/المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: ٨٠٤هـ)/المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث/الناشر: دار النوادر، دمشق - سوريا/الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م عدد الأجزاء: ٣٦ (٣٣ و ٣ أجزاء للفهارس)
- * التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة/أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)/تحقيق ودراسة: الدكتور: الصادق بن محمد بن إبراهيم/الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض/الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ/عدد الأجزاء: ١)
- * المجالسة وجواهر العلم/أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى: ٣٣٣هـ)/المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان/الناشر: جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت - لبنان) تاريخ النشر: ١٤١٩هـ/عدد الأجزاء: ١٠ (٨ أجزاء ومجلدان للفهارس)
- * التعريفات/علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)/المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر/الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م/عدد الأجزاء: ١)
- * الكبائر/تنسب لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)/الناشر: دار الندوة الجديدة - بيروت/عدد الأجزاء: ١)
- * أهوال القبور زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)/المحقق: عاطف صابر شاهين/الناشر: دار الغد الجديد، المنصورة، مصر/الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م/عدد الأجزاء: ١)
- * أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري/الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م/عدد الأجزاء: ٥)
- * البداية والنهاية/أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)/تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي/الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان/الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م/سنة النشر: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣ م عدد الأجزاء: ٢١ (٢٠ ومجلد فهارس)
- * المعجم الكبير/سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)/المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي/دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة/الطبعة: الثانية/عدد الأجزاء: ٢٥/ويشمل القطعة التي نشرها لاحقا المحقق الشيخ حمدي السلفي من المجلد ١٣ (دار الصميعي - الرياض / الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م)

- *أدب الدنيا والدين /أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ) الناشر: دار مكتبة الحياة/الطبعة: بدون طبعة تاريخ النشر: ١٩٨٦م/عدد الأجزاء: ١)
- *الموسوعة الذهبية في اعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية اعداد دكتور احمد مصطفى متولى دار بن الجوزى القاهرة الطبعة الاولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م عدد الاجزاء ١)
- *أدلة الحجاب /بحث جامع لفضائل الحجاب وأدلة وجوبه والرد علي من أباح السفور/ تأليف/محمد بن إسماعيل المقدم /دار الخلفاء الراشدين /ش منشية الزهراء أبو سليمان - حي الرمل ٥٢٨ ص ٢٤سم.
- *تفسير الشعراوي - الخواطر/محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)
- الناشر: مطابع أخبار اليوم/عدد الأجزاء: ٢٠)(ليس على الكتاب الأصل - المطبوع - أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام ١٩٩٧ م)
- *تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار/محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)المحقق: محمود محمد شاكر/الناشر: مطبعة المدني - القاهرة عدد الأجزاء: ٢)
- *تفسير القرآن العظيم/أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)المحقق: سامي بن محمد سلامة/الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م/عدد الأجزاء: ٨)
- *جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلمين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلمي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس/الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت/الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م/عدد الأجزاء: ٢ (في مجلد واحد)
- *جامع الأحاديث (ويشتمل على جمع الجوامع للسيوطي والجامع الأزهر وكنوز الحقائق للمناوي، والفتح الكبير للنهائي)عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)ضبط نصوصه وخرج أحاديثه: فريق من الباحثين بإشراف د على جمعة (مفتي الديار المصرية)طبع على نفقة: د حسن عباس زكي/عدد الأجزاء: ١٣)
- *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م/ثم صورتها عدة دور منها/ ١- دار الكتاب العربي - بيروت/٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/٣- دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق) عدد الأجزاء: ١٠)

*خطوات إلى السعادة/عبد المحسن بن محمد بن عبد الرحمن القاسم القحطاني/الناشر: (حقوق الطبع محفوظة للمؤلف) الطبعة: الرابعة، ١٤٢٧ هـ/عدد الأجزاء: ١)

*رياض الصالحين/أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)
المحقق: شعيب الأرنؤوط/الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان/الطبعة: الثالثة، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م/عدد الأجزاء: ١)

*سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها/أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ) الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض/الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف) عدد الأجزاء: ٦/عام النشر: ج ١ - ٤: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م/ج ٦: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م/ج ٧: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م)

*سنن أبي داود أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفى: ٢٧٥ هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط - محمّد كامل قره بللي الناشر: دار الرسالة العالمية/الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م/عدد الأجزاء: ٧)

*سنن ابن ماجه ت الأرنؤوط/ابن ماجه - وماجة اسم أبيه يزيد - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣ هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمّد كامل قره بللي - عبد اللطيف حرز الله/الناشر: دار الرسالة العالمية/الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م عدد الأجزاء: ٥)

*سنن الترمذي/محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩ هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر/الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م/عدد الأجزاء: ٥ أجزاء)

*سيرة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها/السيد سليمان الندوي الحسيني (المتوفى: ١٣٧٣ هـ) عربي وحققه وخرج أحاديثه: محمد رحمة الله حافظ الندوي/الناشر: دار القلم الطبعة: الأولى / ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م/عدد الأجزاء: ١)

*سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها/أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ) الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض/الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف) عدد الأجزاء: ٦ عام النشر: ج ١ - ٤: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م/ج ٦: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ج ٧: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

*سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة

أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) دار النشر: دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م/عدد الأجزاء: ١٤)

*شرح السنة/محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش/الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت/الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م/عدد الأجزاء: ١٥) ٢٥-ضَعِيفُ التَّرْغِيبِ وَالتَّزْهِيْبِ/محمد ناصر الدين الألباني/الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م عدد الأجزاء: ٢)

*شعب الإيمان/أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد/أشرف على تحقيقه وتخرج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند/الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م/عدد الأجزاء: ١٤ (١٣، ومجلد للفهارس)

*شعاع من المحراب/د. سليمان بن حمد العودة/الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية/الطبعة: الثانية، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م/عدد الأجزاء: ١٢)

*صحيح الجامع الصغير وزياداته/أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) الناشر: المكتب الإسلامي عدد الأجزاء: ٢)

*صحيح ابن خزيمة/أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ) المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي

الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت/عدد الأجزاء: ٤)

*طريق الهجرتين وباب السعادتین/محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر/الطبعة: الثانية، ١٣٩٤ هـ عدد الأجزاء: ١)

*عُجَالَةُ الرَّاغِبِ الْمُتَمَتِّي فِي تَخْرِيجِ كِتَابِ «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» لابن السُّنِّي

أبو أسامة، سليم بن عيد الهلالي/الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م/عدد الأجزاء: ٢ (في ترقيم مسلسل واحد)

* عودة الحجاب/محمد أحمد إسماعيل المقدم/ج ١: دار طيبة (توزيع دار الصفوة) - الطبعة العاشرة، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م/ج ٢: دار ابن الجوزي، القاهرة - الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م/ج ٣: دار القمة، دار الإيمان (الإسكندرية) - الطبعة الثانية، ٢٠٠٤

* فقه السنه / محمد السيد سابق / دار الفتح للأعلام العربي / الادارة: ١ ش د عبد الشافي محمد / الحي السابع - مدينة نصر / الطبعة الحادية عشر الشرعية (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤) الاجزاء ٣

* فيض القدير شرح الجامع الصغير/زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١ هـ) الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر/الطبعة: الأولى، ١٣٥٦/عدد الأجزاء: ٦

* فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب/المؤلف: محمد نصر الدين محمد عويضة عدد الأجزاء: ١٠
(*فتح الباري شرح صحيح البخاري/أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي/الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩/رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي/قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب/عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز/عدد الأجزاء: ١٣)

* قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد
محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦ هـ) المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي
/الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان/الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م/عدد الأجزاء: ٢
* لسان العرب محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعالإفريقي (المتوفى: ٧١١ هـ) الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ عدد الأجزاء: ١٥

* مدخل في ذكر الموت وبيان واجبات ومستحبات المحتضر وحقوقه / تأليف الدكتور /سعد الدين مسعد هلالي /مكتبة إيمان - المنصورة - الطبعة الأولى - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٥ م
* مصابيح السنة/محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦ هـ)تحقيق: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، محمد سليم إبراهيم سمارة، جمال حمدي الذهبي/الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان/الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م/عدد الأجزاء: ٤

* مُخْتَصَرٌ مِنْهَا جِ الْقَاصِدِينَ/نجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٨٩ هـ)قدم له: الأستاذ محمد أحمد دهمان/الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق/عام النشر: ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م/عدد الأجزاء: ١

- *مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي) أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ) تحقيق: حسين سليم أسد الداراني/الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م/عدد الأجزاء: ٤)
- *مسند ابن أبي شيبه/أبو بكر بن أبي شيبه، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ) المحقق: عادل بن يوسف العزازي و أحمد بن فريد المزيدي الناشر: دار الوطن - الرياض/الطبعة: الأولى، ١٩٩٧ م/عدد الأجزاء: ٢)
- *مسند الإمام أحمد بن حنبل/أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر/الناشر: دار الحديث - القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م/عدد الأجزاء: ٨ (القسم الذي حققه أحمد شاكر)
- *مسند أبي يعلى/أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ) المحقق: حسين سليم أسد/الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤/عدد الأجزاء: ١٣)
- *مفاتيح الغيب = التفسير الكبير/أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت/الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ)
- *منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب/عبد العزيز بن حمد بن ناصر بن عثمان آل معمر (المتوفى: ١٢٤٤هـ) عدد الأجزاء: ٢)
- *مختصر تفسير ابن كثير/ (اختصار وتحقيق) محمد علي الصابوني/الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان/الطبعة: السابعة، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م/عدد الأجزاء: ٣)
- *موارد الظلمات لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان/عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلطان (المتوفى: ١٤٢٢هـ) الطبعة: الثلاثون، ١٤٢٤ هـ/عدد الأجزاء: ٦ أجزاء/طبع على نفقة جماعة من المحبين للخير، الموكل عنهم: إبراهيم بن علي العودة، جزاهم الله كلهم خيراً)
- *موسوعة الأخلاق والزهد والرفائق/(قصص تربوية من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين): ياسر عبد الرحمن/الناشر: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م/عدد الأجزاء: ٢)

*نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/
صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي/ الناشر: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة/ الطبعة:
الرابعة/ عدد الأجزاء: ١٢ (١١) ومجلد للفهارس)

فهرس

٧.....	الإهداء
٩.....	تقديم
١١.....	المقدمة
١٥.....	الباب الأول
١٥.....	الفصل الأول محبة العبد لله عز وجل
٣٠.....	الفصل الثاني الاقتداء بالحبس ﷺ
٤٣.....	الفصل الثالث بر الوالدين
٥٥.....	الفصل الرابع صلة الرحم
٧٣.....	الباب الثاني
٧٤.....	الفصل الأول طهارة القلوب
٨٧.....	الفصل الثاني السماحة
١٠١.....	الفصل الثالث التقوى
١١٢.....	الفصل الرابع أداء الأمانة
١٢٧.....	الباب الثالث
١٢٨.....	الفصل الأول الدعاء
١٤١.....	الفصل الثاني الذكر
١٥٧.....	الفصل الثالث الرضا
١٦٨.....	الفصل الرابع الصبر
١٨٥.....	الباب الرابع
١٨٦.....	الفصل الأول البعد عن جريمة الزنا

٢٠٤.....	الفصل الثاني البعد عن التبرج
٢١٦.....	الفصل الثالث الحياء
٢٢٨.....	الفصل الرابع مصاحبة الصالحين
٢٣٧.....	الباب الخامس
٢٣٧.....	الفصل الأول الالتزام بشروط الصلاة
٢٥٢.....	الفصل الثاني الالتزام بآداب الصلاة
٢٧٠.....	الفصل الثالث الجهاد الأكبر
٢٨٤.....	الفصل الرابع قيام اللَّيْلِ
٢٩٧.....	الباب السادس
٢٩٨.....	الفصل الأول تعلم القرآن
٣١٥.....	الفصل الثاني آداب تعلم القرآن
٣٣٠.....	الفصل الثالث الالتزام بآداب الصيام
٣٤٢.....	الفصل الرابع البعد عن الغضب
٣٥٧.....	الباب السابع
٣٥٨.....	الفصل الأول ذكر الموت
٣٦٩.....	الفصل الثاني التوبة
٣٨٤.....	الفصل الثالث الاستعداد لدواهي الموت وعذاب القبر
٣٩٩.....	الفصل الرابع الاستعداد ليوم البعث وهول يوم القيامة
٤١٢.....	المصادر والمراجع

